

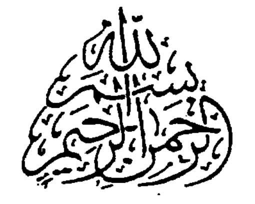
الكتاب الجامعي

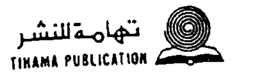


الدكتور جميل حرب محمود حسين



الطبعة الأولى
١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م
جدة - المملكة العربية السعودية


بسم الله الرحمن الرحيم



الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م

مطابع سحر

الناشر
تهامة
ص.ب ٥٤٥٥
جدة ٢١٤٢٢
هاتف ٦٤٤٤٤٤٤
المملكة العربية السعودية

إهداء

إلى أمي الحبيبة فلسطين ..
إلى أمي وأبي ..
إلى زوجتي وأنجالي ..
وإلى كل من ساعدني
حتى إنجاز هذا الكتاب ..

المقدمة

إن تاريخ الحجاز واليمن من الموضوعات الهامة في التاريخ الإسلامي لأنه من هذه المنطقة انتشر الإسلام إلى مختلف أنحاء العالم ، ولعبت هذه المنطقة دورا هاماً في التاريخ لفترة طويلة من الزمن .

ولكنها لم تلبث أن أهملت سياسياً بسبب نقل العاصمة الإسلامية من المدينة إلى دمشق و بغداد والقاهرة ، وأصبحت الحجاز واليمن بعيدتين عن مركز الخلافة مركز الحضارة والعمران .

لذلك لم تحظ تلك المنطقة بعناية المؤرخين ، وإن كان هذا هو الملاحظ على تاريخها عبر العصور، فإن تاريخها في العصر الأيوبي كان أكثر غموضا .

ولعل ذلك راجع إلى قلة المصادر وبالذات الخاصة منها بالحجاز، أو إلى صعوبة البحث والمشاكل التي تواجه الباحثين كالتنقل والترحال إلى تلك المناطق النائية ، أو إلى عدم اهتمام مؤرخي ذلك العصر بالكتابة عنها ، لأنه عصر ساد فيه الصراع الدامي بين الغرب المسيحي والشرق العربي الإسلامي، حيث قام الغرب بغزو منطقة الشرق العربي متعللا في ذلك بمنع المسلمين للحجاج المسيحيين من زيارة أماكنهم المقدسة في فلسطين إخفاءً لأطماعه الاقتصادية والثقافية والاستراتيجية . . . الخ التي كان يسعى الغرب الأوروبي إلى تحقيقها على حساب المسلمين في ذلك الوقت منتهزا فرصة التفكك والضعف والصراعات المذهبية التي أصابت العالم الإسلامي .

لذلك نلاحظ على كتابات مؤرخي ذلك العصر اهتمامهم بأخبار تلك الحروب وإهمال ما عداها ، إذ لا نجد في كتاباتهم عن الحجاز واليمن إلا بعض النصوص المتفرقة التي لا تشفي غليل الباحث .

ليس هذا فقط بل الملاحظ على كتابات مؤرخي ذلك العصر اهتمامهم بالكتابة عن الأحوال السياسية والمذهبية بما يتلاءم مع ميولهم ومذاهبهم أو تملقهم للحاكم مما يجعل الباحث يلقى صعوبة كبيرة للوصول إلى الحقيقة .

أما بالنسبة إلى النواحي الحضارية ــ التي تتناول دراسة الأحوال الاقتصادية أو الاجتماعية ، أو الثقافية أو الدينية ــ فإن الكاتب فيها يجد صعوبة أكثر لأن كتاب ذلك العصر أهملوا الكتابة عن

تلك النواحي حيث يقرأ الباحث كتبا عديدة دون العثور على نص واحد يتناول تلك النواحي، ناهيك عن أن المصادر المعاصرة لتلك الفترة قد ضاعت أو أتلفت سواء عن عمد أو عن غير عمد أحيانا بسبب الصراعات المذهبية حيث كان من يسيطر على منطقة من تلك المناطق يتلف ما يجده فيها من كتب تخالف مذهبه.

كما كان الكتاب يحتفظون بمؤلفاتهم في منازلهم خوفا من الحاكم، ومع مرور الزمن كان يسود تلك البيوت الجهل فلا يعرف الورثة قيمتها فيتلفونها أو تتلفها الحشرات والفئران، أو أنها وقعت في أيدي من لا يعرف قيمتها فباعوها بأثمان بخسة للسياح الأجانب، أو أنها مازالت في طي الكتمان في تلك البيوت لايعرف أحد عنها شيئا، أو أنها أتلفت بسبب الحروب التي سادت المنطقة.

هذا إلى جانب وجود بعض تلك الكتب في بعض المكتبات العامة محزومة في رزم دون فهرسة مما يجعلها ملجأ حسنا للحشرات والفئران التي شقت شوارع في بعضها.

كل ذلك يجعل الباحث عن تلك المصادر كالأثري الذي يبقى أشهراً طويلة ينقب ولا يجد شيئا أو يجد بعض الآثار القليلة.

والذي دفعني للكتابة في هذا الموضوع الصعب إقامتي الطويلة في الحجاز والتي دامت أكثر من سبع سنين تنقلت خلالها بين مكة وجدة والمدينة باحثا عن كتاب يتناول تاريخ الحجاز فلم أجد. كما أتيحت لي الفرصة سنة ١٩٧٣م لزيارة اليمن، وهالني أيضا عدم وجود كتاب يتناول تاريخها —فبحثت في مكتباتها عن مصادر فوجدت بعضها— ولاحظت خلوها من كتب تتناول العصر الأيوبي، لذا قررت أن أبحث في تاريخ البلدين، وشجعني على ذلك زيارتي الثانية لجمهورية اليمن العربية في العام التالي، فقمت بتصوير معظم المخطوطات التي تعرفها المصادر. وقمت بزيارة ثالثة لها سنة ١٩٧٦م، زرت خلالها صنعاء وزبيد وحراز وصعدة، واطلعت على بعض المكتبات الخاصة بها.

وبعد تسجيل الموضوع رسميا كنت أتردد سنويا على جمهورية مصر العربية فوجدت بعض المخطوطات في مكتباتها التي لا يستغني عنها باحث في شتى فنون المعرفة، فتنقلت بين دار الكتب ومكتبة جامعة الدول العربية، ومكتبة كلية الآداب بجامعة القاهرة، وبين مكتبة البلدية بالاسكندرية، والمكتبة المركزية ومكتبة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية.

وواصلت البحث خلال السنين الماضية متنقلا بين الحجاز واليمن ومصر مضحياً بالجهد والمال في سبيل المعرفة، كما أتيحت لي الفرصة للاطلاع على الكتب الموجودة بالمكتبة المركزية لجامعة قسنطينية بالجزائر، ومكتبة كلية التربية جامعة قاريونس بليبيا. محاولا سد بعض الفراغ في المكتبة العربية لتاريخ منطقة البحر الأحمر آملا تكثيف جهود الباحثين لكتابة تاريخ تلك المنطقة الهامة من عالمنا العربي.

وحاولت في هذا البحث دراسة النصوص وتحليلها والتعليق عليها، كما قمت بالاجتهاد والقياس عندما كنت لاأجد نصوصا تتناول موضوعا من موضوعات البحث.

وقد قسمت الكتاب إلى أربعة أبواب، كل باب اشتمل على فصلين أحدهما: عن حالة من أحوال الحجاز والثاني: عن اليمن، ثم خاتمة، وأنهيت البحث بأربعة ملاحق.

وتناولت في الباب الأول: الحياة السياسية في الحجاز واليمن في العصر الأيوبي واشتمل على فصلين:

الفصل الأول: في الحجاز:

واشتمل على أحوال مكة قبيل العصر الأيوبي، وحكم بني هاشم والصراع الذي كان ينشب بين أفراد العائلة، وعلاقاتهم بالفاطميين والعباسيين. ثم خضوع مكة للأيوبيين خضوعاً اسميا، عندما أخضعها «ثوران شاه» دون قتال عندما كان متوجها لفتح اليمن وأصبح يخطب للخليفة العباسي ثم للسلطان الأيوبي ومحاولات العباسيين التدخل في شؤونها.

ويتناول كذلك قضاء قتادة على الهاشميين وتأسيس أسرة جديدة هي أسرة بني قتادة التي استمرت تحكم مكة طوال العصر الأيوبي، وخلال ذلك ساد الصراع بين حكام مكة الحسنيين وأبناء عمومتهم الحسينيين حكام المدينة. كما حاول قتادة الاستيلاء على الطائف، ولكن بني ثقيف نجحوا في طرده منها بالحيلة.

وبعد استقلال الرسوليين بحكم اليمن حاولوا الاستيلاء على مكة مما أدى إلى الصراع بينهم وبين الأيوبيين فيها طوال العصر الأيوبي.

أما المدينة: فكانت قد خضعت خضوعا اسميا أيضا للأيوبيين لا تتعدى الخطبة لهم على المنابر. وجرت محاولات من قبل «أرناط» لغزو الحجاز ولكنها فشلت. وكان أمراء المدينة يشتركون مع صلاح الدين في حربه ضد الصليبيين، لذا كان يقدرهم ويتبرك بهم.

الفصل الثاني: في اليمن:

وتناولت فيه أحوال اليمن قبيل العصر الأيوبي وكيف كان للطبيعة الجبلية والاختلافات المذهبية أثر كبير في تفتيت وحدة اليمن السياسية وإلى اقامة عدة دول فيها أهمها دولة «بني زريع»، ودولة «بني هاشم»، ودولة «بني مهدي» وتناولت بالمناقشة والتحليل الأسباب التي أدت إلى فتح الأيوبين لليمن وعودة «توران شاه» تاركاً البلاد في أيدي نوابه الذين واصلوا إرسال الخراج له طوال حياته، وبينت الصراع الذي حدث بين الولاة بعد وفاته واستقلال كل منهم بولايته، مما أدى إلى الفوضى والاضطراب فيها فخشي صلاح الدين على ضياعها، فأرسل حملة خطلبا الذي توفي هناك لتعود الحالة إلى ما كانت عليه، فأرسل حملة أخرى بقيادة أخيه «طغتكين» الذي

أعاد الهدوء إلى اليمن وأضاف أجزاء جديدة إلى الممتلكات الأيوبية.

بعد وفاة «طغتكين» خلفه ابنه المعز اسماعيل الذي أخذ يتخبط في سياسته فقد تشيع في بداية حياته، ثم ادعى النبوة، فالألوهية، وادعى أنه قرشي أموي، كما ادعى الخلافة، وأساء إلى اتباعه، فسادت الفوضى في البلاد وانضم اتباعه لعبدالله بن حمزة وانتهى الأمر بمقتله وقد خلفه أخوه الناصر وأصبح سيف الدين سنقر أتابكا له وفي عهده انتصر عبدالله بن حمزة على سنقر في معركة وصاب مما أدى إلى اضطراب أحوال اليمن خصوصا بعد موت سنقر وتولية غازي بن جبريل الذي ما إن توفى الناصر حتى حاول الاستقلال بحكم اليمن ولكنه قُتل بأيدى اتباعه.

وخلت اليمن من سلطان يحافظ عليها وتولت أمورها أم الناصر التي أرسلت غلمانها ليجدوا لها رجلا أيوبيا تتزوجه وتملكه البلاد، فأحضروا لها سليمان شاه الذي كان سيء السيرة، مما أدى إلى إرسال حملة المسعود و بَيّنْتُ بالمناقشة والتحليل أسباب تلك الحملة، وكيف نظم شؤون اليمن وعاد إلى مصر ولكنه اضطر إلى العودة إليها مرة ثانية ليقبض على أبناء «رسول» و يرسلهم إلى مصر ما عدا نورالدين الذي ولاه اليمن ومات في مكة وهو عائد لتولي أمور دمشق ليستقل نور الدين بحكم اليمن بأن خطب لنفسه وقطع الخطبة للأيوبيين.

والباب الثاني الحياة الاقتصادية في الحجاز واليمن في العصر الأيوبي. واشتمل على فصلين:

الفصل الأول: في الحجاز:

وتكلمت فيه عن الزراعة في الحجاز وكيف لعبت التضاريس والمناخ دوراً رئيسياً في قلة الإنتاج، ثم تكلمت عن أهم المحاصيل الزراعية فيها وعن حيواناتها وطيورها.

أما بالنسبة للصناعة والمعادن: فبينت أن الصناعة بها كانت يدوية وتكلمت عن أهم الصناعات وأهم المعادن فيها.

أما التجارة: فبينت أنها كانت من الحرف المفضلة لسكان الحجاز مما جعلهم يلعبون دوراً هاماً في النشاط التجاري في ذلك الوقت، وتكلمت عن المكوس المفروضة على التجار أو الحجاج وكيفية جبايتها، وأين كانت تحصل، وكيف عمل بعض السلاطين على إلغائها بتعويض أمراء مكة عنها. وكيف كانت تتم عمليات التفتيش.

و بينت دور الموانيء الحجازية في النشاط التجاري، وعلاقة تلك الموانئ بموانئ مصر واليمن، وتكلمت عن أهم موانئها، وأشهر أسواقها، وكيف كانوا يتعاملون و يزنون و يكيلون و يقيسون.

الفصل الثاني: في اليمن:

اختلفت الحياة الاقتصادية في اليمن عنها في الحجاز إذ مارس اليمنيون النشاطات الاقتصادية

المختلفة، فبالنسبة للزراعة فقد ساعدت التضاريس والمناخ على تقدمها، وعمل بها معظم سكان اليمن.ثم تكلمت عن أهم المحاصيل الزراعية بها، وأشهر حيواناتها وطيورها.

أما الصناعة: فقد اهتم بها اليمنيون وشجعها ملوكهم الذين جلبوا إليها الصناع من مختلف الأنحاء وسهلوا لهم الإقامة كما ساعد على تقدمها توفر المواد الخام الزراعية والصناعية المحلية أو المستوردة وتناولت بالدراسة: أهم الصناعات والمعادن الموجودة بها.

أما بالنسبة للتجارة: فقد ساعد موقع اليمن الاستراتيجي على ازدهارها وكانت حلقة الوصل بين الشرق والغرب حيث تفد إلى موانئها البضائع من مختلف الأنحاء.

وقد جبى اليمنيون المكوس من التجار على بعض السلع واعفوا البعض الآخر منها.

و بينت أهم الموانىء اليمنية في ذلك العصر، وعلاقاتها بالموانىء الحجازية والمصرية.

الباب الثالث:عن الحياة الدينية والفكرية في الحجاز واليمن في العصر الأ يوبي:

الفصل الأ ول: في الحجاز:

وتناولت فيه أهم المذاهب الدينية التي سادت الحجاز، السنية منها.والشيعية، وما كان يتمتع به اتباع المذاهب السنية في ظل الحكم العلوي في مكة والمدينة.

ثم تطرقت إلى أهم طرق الحاج سواء من مصر أو الشام، أو اليمن، أو العراق، والأخطار التي كان يتعرض لها الحجاج. وتكلمت عن المحمل، ودور أمير الحج في السير بركب الحجيج إلى مكة والعودة بهم.

كما بينت مناسك الحج في ذلك الوقت والأسباب التي كانت تدفعهم إلى ارتكاب المخالفات. وعن التجديدات في الحرمين وكيف كانت تتم.

وتكلمت عن أهم المنشآت الدينية فيها والتي كان أهمها الربط والمدارس، و بينت الإجازات التي كانت تمنحها وأخيرا أوضحت حفلات الاختتام التي كانت تجري في الشطر الأخير من شهر رمضان، وتستمر حتى التاسع والعشرين منه.

الفصل الثاني: في اليمن:

كانت اليمن دولة سنية المذهب حتى أخذت تنتشر فيها المذاهب الشيعية سواء الاسماعيلية منها أو الزيدية. والمراحل التي مر بها كل مذهب من قوة وضعف. وكيف ضعف المذهب الاسماعيلي حتى كاد يقضى عليه في اليمن، وقوي المذهب الزيدي الذي استمر اتباعه في صراع دام مع الأ يو بيين طيلة حكمهم لليمن.

كما بينت كيف كان يؤدي سرو اليمن الفرائض وما كانوا يرتكبون من مخالفات، وحللت وناقشت أسباب ذلك، وكيف كانت تفتح الكعبة أياماً خاصة لهم.

وتكلمت عمن حج من سلاطين اليمن في العصر الأ يوبي، وعن مساجد ومدارس اليمن، والاجازات التي تمنحها.

والباب الرابع عن الحياةلا الاجتماعية في الحجاز واليمن في العصر الأ يو بي و يشمل فصلين:

الفصل الأ ول: عن الحياة الاجتماعية في الحجاز:

وتناول التركيب الاجتماعي لسكان الحجاز من حيث النظام الطبقي. ووضع المرأة في المجتمع، والعادات الاجتماعية كالزواج، والاحتفال بمطلع كل شهر هجري، وعادة عمرة الاكمة، وغسل الكعبة، وعادة الاستسقاء في حالة القحط، وفتح الكعبة للأعاجم، والبدع في الحرمين كبدعة العروة الوثقى في الحرم المكي، و بدعتي الجزعة والخشبة بالحرم المدني، وعن تقاليد شهر رمضان.

ثم تعرضت لبيان الأعياد، وكيف يحتفلون بها، وعن تقاليد الاحتفال بالإجازات وبختم القرآن، وعن ملابس الرجال والنساء، وأنواع الطعام في الحجاز في ذلك العصر.

الفصل الثاني: عن الحياة الاجتماعية في اليمن:

واشتمل على التركيب الاجتماعي لسكان اليمن من حيث نظامهم الطبقي، ومركز المرأة في المجتمع اليمني، وعاداتهم في الزواج والولادة، و بدعة السحر.

ثم تكلمت عن ملابس الرجال والنساء في اليمن، وأشهر مأكولا تهم. وختمت البحث بخاتمة تضمنت أهم نقاط البحث.

وأفردت في نهاية البحث أر بعة ملاحق واشتمل الملحق الأ ول على: جملة رسائل تختص بانتصار الأسطول المصري على الأسطول الصليبي الذي حاول غزو الحجاز في عهد صلاح الدين الأ يو بي.

أما الملحق الثاني فهو: نص خطاب صلاح الدين إلى أمير مكة بشأن الغلال التي كانت ترسلها مصر إلى أهل الحجاز في ذلك الوقت.

أما الملحق الثالث: فهو مرسل من والي البر بحماه إلى الملك المنصور صاحب «حماه» يخبره فيه بمقتل الملك المعز إسماعيل.

أما الملحق الرابع: فهو كتاب من السلطان صلاح الدين لأخيه سيف الإسلام يستدعيه فيه من اليمن ليعاونه في حرو به ضد الصليبيين.

وألحقت بعد ذلك قائمة بالمصادر والمراجع التي اعتمدت عليها في كتابة هذا البحث .

أما المصادر التي اعتمدت عليها في كتابة هذا البحث فتمتاز بأن معظمها إما معاصر وإما قريب من الفترة التي نتحدث عنها ، أما البعض الآخر فبالرغم من بعدها عن الفترة ، فانها لا تقل أهمية عنها إن لم تفقها لأنها تحتوى على نصوص منقولة من مصادر أصلية معاصرة بعضها ضاع أو أتلف أو ما زال في طي الكتمان .

وأهم المصادر التي اعتمدت عليها فيما يتعلق بالحجاز فهي : كتابا الفاسي المتوفى سنة ٨٣٢ هـ/ ١٤٢٨م ، وقد أفاداني فائدة كبيرة في كتابة الفصل الأول من الباب الأول الخاص بأحوال الحجاز السياسية في العصر الأيوبي وهما :

الأول : كتاب « العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين » و يتكون من ثمانية أجزاء ضخمة عبارة عن تراجم لأهم الشخصيات سواء ملوك أو ولاة أو قضاة أو علماء .. الخ . وذلك منذ بداية الإسلام حتى قبيل وفاته ، ويمتاز العقد الثمين بأنه يؤرخ لهذه الشخصيات إذ يترجم لحياتهم وأهم أعمالهم وأهم الأحداث التي جرت في عهدهم وهو مرتب حسب الحروف الأبجدية .

وعلى الرغم من أنه من مؤرخي العصر المملوكي المتأخر إلا أنه اعتمد في كتاباته على مصادر معاصرة ، أو عن أناس اخذوا الأحداث عن آبائهم أو عن أجدادهم ، وفيه كثير من الأشياء الهامة التي كان يأخذها من المشاهدة ، إذ كان يأخذ أحيانا عن شواهد القبور ، أو عن واجهات المساجد أو المنازل ، أو من الرقاع وعقود البيع التي اطلع عليها .

وكتابه الثاني : «شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام» و يتألف من جزئين مرتبين ترتيباً زمنياً ، وتحدث فيه عن أهم أخبار مكة منذ العصر النبوي حتى عصره ، وقد رتب الأحداث التي وردت في كتاب العقد الثمين ، وأضاف إليها معلومات أخرى أحياناً ، لذا فإنه يعتبر مكملا لكتاب العقد ، وتمتاز كتاباته في كثير من الأحيان بالدقة وعدم التحيز.

ومنها : كتاب «رحلة ابن جبير» للرحالة الأندلسي ابن جبير المتوفى سنة ٦١٤ هـ/١٢١٧م ، وقد قام برحلته من الأندلس وزار فيها مصر و بلاد العرب والشام .

ويمتاز هذا الرحالة بوصفه للمدن التي مر بها أو المنازل التي حل بها وصفا يختلف إسهابا وإيجازا وفقاً لأهمية ذلك الموضع ، وتمتاز هذه الرحلة بوصف دقيق لما شاهده ، و وصفه لطرق الحجيج التي سار بها وما يعترضهم خلالها من مشاكل كما أعطانا وصفا لما كان يحدث في الحرم المكي والمدني من بدع ، وكيف كان يؤدي الحجيج مناسكهم ، ووصف الملابس و بعض المأكولات ، لذا اعتمدت عليها في دراسة الأحوال السياسية والدينية والاجتماعية والثقافية في الحجاز في العصر الأيوبي . ولا يستغني عن هذه الرحلة باحث يبحث في تاريخ الشرق العربي وفي العصر الأيوبي

بصفة خاصة، ونقل عنه الكثيرون كالعبدري، وابن بطوطه، والفاسي، والمقريزي، والمغربي وغيرهم.

ومن الكتب الهامة في تاريخ مكة كتاب «إتحاف الورى في أخبار أم القرى» لابن فهد المتوفى في أواخر القرن الثامن الهجري، و يتكلم عن أخبار مكة منذ العصر النبوي حتى منتصف القرن الثامن الهجري، وهو جزآن يشمل الجزء الأول تاريخ مكة وأحوالها وأمراءها وأهم الأحداث التي مرت بها مكة في عهدهم حتى سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م، و يتناول الجزء الثاني الفترة الباقية، وأفادنا عن الحياة السياسية في مكة في العصر الأيوبي.

وكتاب «إتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بني الحسن «للطبري العلوى الذي لم نتمكن من معرفة تاريخ وفاته إلا أنه كان حياً سنة ٧٥٢هـ، والراجح أنه توفي بعد ذلك التاريخ وهو في جزءين تناول في الجزء الأول تاريخ بني الحسن منذ الحسن بن علي بن أبي طالب حتى سنة ٦٦٠هـ/١٢٦٢م، والملاحظ على كتاباته التحيز لبني الحسن حكام مكة إذ كان يبرز محاسنهم ولا يتعرض لمساوئهم، لذا كنا نشك في كل ما يقوله شكا علميا لنستطيع الوصول للحقيقة.

وكتاب «تحصيل المرام في أخبار البلد الحرام والمشاعر العظام ومكة وولاتهم الفخام» للصباغ الذي لانعرف تاريخ وفاته إلا أنه توقف في كتابه عند سنة ٧٧٦هـ، مما يدل على أنه توفى بعد ذلك التاريخ، وكان علويا أيضا يتشيع لبني الحسن حكام مكة، و يبدو أنه نقل كثيراً من معلوماته بالذات في فترة العصر الأيوبي عن الطبري، وقد استفدت منهما عند الكلام عن الحياة السياسية لمكة.

وكتاب «سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي» للعصامي المتوفى سنة ١١١١هـ/١٦٩٩م، وهو كتاب تاريخ عام تناول تاريخ المسلمين منذ الدعوة المحمدية حتى نهاية القرن الحادي عشر الهجري، واعتمدت عليه في الجزء الرابع الذي يتناول العصر الأيوبي، ورغم أنه متأخر عن العصر الأيوبي إلا أن به بعض المعلومات التي أخذها عن مؤرخين ضاعت كتبهم.

أما بالنسبة إلى تاريخ المدينة المنورة فانني لم أعثر على مصادر معاصرة للأيوبيين وإن كانت المصادر المتأخرة التي اعتمدت عليها نقلت عن مؤرخين معاصرين لهم وإن كانت كتبهم غير موجودة ولم نستطع العثور عليها، فإن لهذه أهمية كبيرة في كتابة تاريخ المدينة ومنها.

كتاب «وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى» للسمهودي المتوفى سنة ٩١١هـ/١٥٠٦م و يتكون كتابه من جزءين عن تاريخ المدينة المنورة منذ هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إليها حتى سنة ٩٠٠هـ و يشتمل الجزء الأول على تاريخها حتى سنة ٥٠٠هـ والجزء الثاني على الفترة المتبقية. و بالرغم من أنه بعيد زمنيا عن العصر الأيوبي، إلا أنه يعتبر من الكتب الهامة في تاريخ المدينة لأنه اعتمد على العديد من المصادر القديمة المعاصرة والتي لم نستطع العثور عليها كابن زبالة في كتابه

«تاريخ المدينة» وكان معاصرا للأيوبيين، ووصف لنا أحوال المدينة وصفاً جيداً، وأفادنا في دراسة الحياة السياسية والدينية والفكرية والاجتماعية والثقافية.

وكتاب «عمدة الأخبار في مدينة المختار» للعباسي، وهومن أبناء القرن العاشر الهجري أيضا. وتناول في كتابه تاريخ المدينة منذ العصر النبوي حتى أوائل القرن العاشر. وقد اعتمد كالسمهودي على عدد من الكتب القيمة المفقودة أو التي أتلفت أو التي لم نستطع الحصول عليها، وأفادتنا في كتابة الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية.
أما أهم المصادر التي تناولت تاريخ اليمن فمنها:

كتاب «تاريخ اليمن» لعمارة اليمني الذي قتل سنة ٥٦٩ هـ/١١٧٤م على أثر المؤامرة التي اشترك فيها لإعادة الدولة الفاطمية ضد السلطان صلاح الدين الأيوبي واستفدت منه في كتابة تاريخ اليمن قبيل العصر الأيوبي. وقد اشتمل كتابه على الفترة من سنة ١٩٩هـ/٨١٤م ــ٥٦٣هـ/١١٦٧م، ويعتبر من أهم المصادر في تاريخ اليمن نقل عنه العديد من المؤرخين كالخزرجي وابن الديبع وبامخرمة واليافعي وغيرهم.

وكتاب «السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك من الغز باليمن» لابن حاتم الذي كان حيّاً سنة ٦٩٤هـ/١٢٩٤م، ويشتمل كتابه على الفترة الواقعة بين ٥٦٩هـ/١١٧٤م، وهو العام الذي خضعت فيه اليمن للأيوبيين حتى وفاته. وهو كتاب مرتب على السنين، وتناول فيه ابن حاتم بالتفصيل اخبار بني أيوب في اليمن والصراع بينهم وبين الأيوبيين. والحملات التي قام بها الأيوبيون لتثبيت حكمهم في اليمن وقد اعتمدنا عليه اعتمادا رئيسيا في معرفة الحياة السياسية في اليمن في العصر الأيوبي.

وقد نقل عن ابن حاتم العديد من مؤرخي اليمن كالخزرجي وابن الديبع وغيرهما. وكتاب «طبقات فقهاء اليمن» لابن سمرة الجعدي، الذي تضمن الكلام عن أشهر قضاة وفقهاء اليمن منذ دخولها في الإسلام حتى أنهى كتابه سنة ٥٨٦ هـ/١١٩٠م، وتحدث عن أخبارهم وأهم الأحداث في عهدهم معتمداً في ذلك على كتب الحديث والفقه والتاريخ، وما نقله عن شيوخه حتى إذا وصل إلى الكلامَ عن معاصريه فإنه يعطي معلومات جديدة تعتبر مصدرا لكل من نقل عنه بعد ذلك كالجندي.

وكتاب «السلوك في طبقات العلماء والملوك» للجندي المتوفى سنة ٧٣٢هـ/١٣٣١م، ويشتمل كتابه على ذكر فقهاء اليمن وقضاتها وملوكها ووزرائها وعلمائها وأدبائها وجعل لكل طبقة باباً خاصا ووصل بكتابه حتى سنة ٧٣٠هـ/١٣٢٩م وحذا في كتابه حذو الجعدي، واستفدت منهما عند الكلام عن الحياة السياسية والدينية وعن القضاة والفقهاء في اليمن في العصر الأيوبي.

ومن المؤلفات القيمة في تاريخ اليمن مجموعة الكتب التي خلفها لنا الخزرجي المتوفى سنة

٨١٢هـ/١٤٠٩م ومنها:

كتاب «طراز الزمن في طبقات أعيان اليمن» و يتكون من جزءين الأ ول و يتناول تاريخ الإسلام منذ عصر الرسول (صلى الله عليه وسلم) حتى سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م وتحدث فيه عن أخبار اليمن قبيل العصر الأ يوبي والدو يلات المتصارعة فيه والحكم الأ يوبي لليمن والصراع بين الأ يوبيين والزيديين وسقوط الحكم الأ يوبي في اليمن. وتناول في الجزء الثاني تراجم لسير العلماء والملوك والقضاة والفقهاء والولاة في اليمن مرتبة ترتيباً أبجدياً.

وكتاب العسجد المسبوك فيمن وَلِيَ اليمن من الملوك» و يتناول في الفصل الخامس من الباب الخامس الكلام عن أخبار الدولة الأ يوبية في اليمن.

و يتكلم عن أحوال اليمن قبيل العصر الأ يوبي وفتح الأ يوبيين لها والمشاكل التي واجهتهم بها والحملات التي أرسلوها للحفاظ عليها وصراعهم ضد الزيديين وسقوط الدولة الأ يوبية وقيام الدولة الرسولية، و يعتبر كتاب العسجد من أهم الكتب بعد كتاب السمط لأنه يحتوى على تفصيلات دقيقة لكل ما جرى في اليمن في العصر الأ يوبى.

أما كتاب «العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية» فقد تناول الخزرجي فيه أحوال اليمن في أواخر العصر الأ يوبي والاضطرابات التي سادت اليمن في ذلك الوقت والحملات التي قام بها المسعود على اليمن و وصول بني رسول للسلطة وتخلص المسعود من أبناء رسول ما عدا نورالدين الذي ولاه اليمن، ثم كيف أسقط نورالدين الحكم الأ يوبي في اليمن وأسس الدولة الرسولية.

ومن مؤرخي اليمن المشهورين ابن الديبع المتوفى سنة ٩٤٤هـ/١٥٣٧م الذي ترك لنا مؤلفين أفاداني كثيرا في كتابة تاريخ اليمن منها:

كتاب «بغية المستفيد في أخبار مدينة ز بيد» تناول تاريخ مدينة ز بيد منذ تأسيسها أيام بني زياد، واشتمل على مقدمة وعشرة أبواب جعلها في فضل اليمن والكلام عن مدينة ز بيد ومن وليها من الملوك من أيام بني زياد و بني نجاح و بني مهدي و بني أيوب و بني رسول، و وصل به حتى سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م.

وكتاب «قرة العيون في أخبار اليمن الميمون» وتكلم فيه عن تاريخ اليمن وجعله في ثلا ثة أبواب: الأ ول عن اليمن ومن ملك صنعاء وعدن في عشرة فصول، والثاني عن أخبار مدينة ز بيد وأمرائها وملوكها ووزرائها وهو في ثمانية عشر فصلا، أما الثالث فخصصه للدولة الطاهرية وجعله في ثلا ثة فصول.

ولمؤلفات بامخرمة المتوفى سنة ٩٤٧هـ/١٥٤٠م أهمية كبيرة في كتابة تاريخ اليمن ومن هذه الكتب:

كتاب «تاريخ ثغر عدن» وجعله في جزءين: الأ ول عن بعض ما جاء في عدن من الآيات

والأحاديث والأشعار... الخ.

والثاني عبارة عن تراجم لمن نشأ في عدن أو جاء إليها من العلماء والصالحين والفقهاء والملوك والأمراء والوزراء.

وكتاب «قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر» وهو عبارة عن تراجم للأعيان والمشاهير ابتدأه منذ الهجرة، ورتبه على السنين ووصل به إلى سنة ٩٢٧ هـ/١٥٢١م.

وقد استفدت من هذه المؤلفات عند الكلام عن أحوال اليمن السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدينية.

ومن الكتب الهامة فيتاريخ اليمن كتاب «أنباء الزمن في تاريخ اليمن» ليحى بن الحسين المتوفى سنة ١١٠٥ هـ/١٦٩٣م وهو كاتب زيدي يميل إلى الزيديين في اليمن و يدافع عنهم، وقد رتبه على السنين مبتدئا بالسيرة النبوية والخلفاء والراشدين والأمويين والعباسيين ومن جاء بعدهم من الملوك والسلاطين حتى سنة ١٠٤٦ هـ/١٦٣٧م واستفدت منه في النواحي السياسية والدينية.

وكتاب «اللطائف السنية في أخبار المماليك اليمنية» للكبسي المتوفى سنة ١٣٠٨هـ/١٨٩٠م وقد رتبه يحيىبن الحسين على السنين وابتدأه من بداية الإسلام حتى سنة ١٢٩٠ هـ/١٨٧٣م.

وكتاب «بلوغ المرام في شرح مسك الختام فيمن تولى ملك اليمن من ملك وامام» للعرشي المتوفى سنة ١٣٢٩هـ/١٩١١م و يتناول تاريخ الزيدية في اليمن ووصل به إلى أحداث سنة ١٣١٨هـ/١٩٠٠م.

إلى جانب هذه المصادر الخاصة بالحجاز أو اليمن لايفوتنا أن نلقي قليلاً من الضوء على بعض المصادر العامة التي تناولت تاريخ الحجاز واليمن فمنها:

كتاب «الكامل لابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م» فقد تناول الجزء التاسع أحوال الحجاز واليمن السياسية. والكتاب مرتب على السنين و يعتبر من أهم الكتب المشرقية التي كتبت عن تاريخ تلك المنطقة في ذلك العصر.

وكتاب «مفرج الكروب» لابن واصل المتوفى سنة ٦٩٧ هـ/١٢٩٧م الذي يشتمل على أربعة أجزاء هامة، فقد أورد لنا في الجزء الثالث بعض التفاصيل عن أحوال كل من الحجاز واليمن السياسية في العصر الأيوبي.

هذا إلى جانب العديد من الكتب الهامة التي اعتمدت عليها في كتابة هذا الكتاب مثل:

كتاب «تاريخ اليمن» للواسعي، غير المعروف سنة الوفاة وهو رجل يمني يبدو أنه عاش في عصر متأخر عن العصر الأيوبي. إلا أنه وصف لنا الحياة اليمنية الاجتماعية وصفا دقيقا. واليمن بصفة

عامة لم تتغير الأحوال بها كثيرا منذ العصور الإسلامية الأ ولى ، إذ حتى الثورة اليمنية سنة ١٩٦٢م فإن اليمن كانت لا تزال تعيش كما لو كانت تعيش في العصور الوسطى . لذا فإن كتابه يتضمن وصفا جيداً لأحوال أهل اليمن كالزواج والعادات الاجتماعية المختلفة ، و يعتبر كتابه من أهم الكتب التي تعرضت لوصف أحوالها .

ومن الكتب الهامة في تاريخ هذه الفترة كتاب ابو شامة «الروضتين والذيل عليه» وفي كتاب الذهبي : «تاريخ الإسلام» ، وأبو المحاسن : «النجوم الزاهرة» ، والمقريزي : «السلوك لمعرفة دول الملوك» ، والقلقشندي : «صبح الأعشى في صناعة الإنشا» ، واليافعي : «مرآة الجنان» إلى جانب كتب الجغرافيين الهامة التي وصفت لنا الأحوال الاقتصادية والاجتماعية في اليمن كتاب : ياقوت الحموي : «معجم البلدان» ، وأبو الفدا : «تقويم البلدان» وابن عبد الحق : «مراصد الاطلاع» وغيرهم ،وكتبهم غنية عن التعريف .



الباب الأول

الحياة السياسية في الحجاز واليمن

في العصر الأيوبي

الفصل الأول : في الحجاز .

الفصل الثاني : في اليمن .

الفصل الأول
الحياة السياسية في الحجاز

حاول العلويون جاهدين منذ وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) الوصول للحكم واعتلاء الخلافة، ولكنهم فشلوا في ذلك طوال العصر الأموى، إلا أنهم لاقوا بعض النجاح في العصر العباسي بسيطرتهم على بعض المناطق التابعة للعباسيين، إذ انتزعوا جزءاً من المغرب ومصر والشام ونتج عن ذلك أن أصبح في العالم الإسلامي ثلاث خلافات: العباسية في بغداد، والأموية في الأندلس، والفاطمية في مصر.

وبالإضافة إلى الخلافة الفاطمية العلوية فقد تأسست حكومات علوية أخرى في اليمن من سنة ٤٧٠ هـ ـ ٥٦٩ هـ/ ١٠٧٨- ١١٧٤م كما قامت حكومتان علويتان في الحجاز كل منهما مستقلة عن الأخرى سنة ٤٥٦ هـ/١٠٦٤م واحدة بمنطقة مكة و ينبع وأخرى بمنطقة المدينة، ونرى كلاً من هاتين الحكومتين تعلن ولاءها وطاعتها لحكام مصر الفاطميين أحيانا، أو لحكام اليمن، أو العباسيين أحيانا أخرى.

وقد كان يحكم في المنطقة الأولى الحسنيون الهاشميون(١) بتفويض من على بن محمد الصليحي اليمني الذي استولى على مكة في السادس من ذي الحجة سنة ٤٥٦ هـ/١٠٦٤م(٢)، (٣).

وبعد تولي أبي هاشم الإمرة في مكة قطع الخطبة للفاطميين وأعادها للعباسيين. بعد انقطاع دام حوالي قرن من الزمان(٤)، وعاد عليه ذلك العمل بالأموال والعطايا الكثيرة، ولكنه لم يستمر على ولائه للعباسيين، بل أخذ يعلن ولاءه وطاعته لمن يدفع أكثر، فتارة يخطب للعباسيين وأخرى للفاطميين(٥).

---

(١) الحسنيون: نسبة إلى الحسن بن علي بن أبي طالب بن عبدالمطلب بن هاشم.
و بنو هاشم: نسبة إلى هاشم بن عبدمناف الذي كان إليه الرفادة والسقاية بمكة. وهم أحد بطون قريش العدنانية.
القلقشندي: «نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب» ص ٤٣٥، الذهبي: «العبر في خبر من غبر»، جـ٢، ص ٢١٢، النويري: نهاية الأرب، جـ٢، ص ٣٥٨.

(٢) على بن محمد الصليحي: كان حاكم الدولة الصليحية في اليمن، هاجم مكة واستولى عليها؛ «ابن حاتم: السمط، ص ١٣».

(٣) الفاسي: «العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين» جـ ١، ص ١٧١، الصباغ: «تحصيل المرام في أخبار البيت الحرام» ص ١٨٣.

(٤) الفاسي: «العقد الثمين» جـ١، ص ١٧٢، الصباغ: «تحصيل المرام»، ص ١٨٣.

(٥) الصباغ: المرجع السابق، والصفحة

ولكن الأمور لم تستتب له إذ لم يلبث أن نازعه بنوسليمان(١) الحسنيون الذين تحالفوا ضده مع حمزة بن وهاس(٢)، وهاجموه في مكة، مما اضطره إلى الهرب إلى ينبع سنة ٤٨٣ هـ/١٠٩١م منتهزين فرصة رجوع حليفه الصليحي وقواته إلى اليمن، ثم هددوه ثانية في ينبع مما اضطره للهرب إلى بغداد سنة ٤٨٤ هـ/١٠٩٢م، وبقي بها حتى وفاته سنة ٤٨٧ هـ/١٠٩٤م (٣).

ورغم ذلك فقد آل الحكم بعده إلى ولده قاسم الذي لم يكد يتولى الإمرة حتى هاجمه أحد تركمان الشام، وكان يدعى أصبهيد بن سارمتكين الذي دخل مكة عنوة، ولكنه تمكن من إعادة تجميع قواته بعد أن انضمت إليه قوات الاعراب المجاورة لمكة، و باغت اصبهيد في عسفان (٤)فهزمه ودخل مكة في شوال من تلك السنة (٥).

ولم يكتف قاسم بذلك بل أعد سفنا سنة ٥١٢ هـ/١١١٨م شحنها بالمقاتلين وأرسلها إلى عيذاب(٦)، حيث نهبوا سفن التجار الراسية هناك وقتلوا جماعة منهم وعادوا من حيث أتوا، ولكن بعضهم تمكن من الفرار ووصلوا إلى مصر، واتصلوا بوزيرها الأفضل بن أمير الجيوش وشكوا إليه أمرهم وما حل بهم و بأصحابهم فغضب لذلك وجهز بعض الحراريق(٧) للانتقام من الأمير قاسم، ومنع المصريين من الذهاب للحج، وقطع المعونات والمؤن التي التي كانت ترسل منهم لمساعدة أهل مكة، مما أدى إلى غلاء الأسعار بها، كما أرسل إلى أشراف مكة يلومهم على ما فعله أميرهم وضمن كتبه التهديد والوعيد، فاجتمعوا وتحدثوا إلى الأمير قاسم في ذلك الأمر، ولاموه على ذلك ونصحوه بأن يرسل للأفضل يعتذر له عما فعله جنوده فوافقهم، وكتب للأفضل معتذرا عما حدث ملتزما برد البضائع، والأموال إلى أصحابها، أما من مات من التجار فوعد برد أموالهم و بضائعهم إلى ورثتهم وقد قام بذلك فعلا سنة ٥١٥ هـ/١١٢١م(٨).

---

(١) بنوسليمان الحسنيون: نسبة إلى سليمان بن علي بن سالم بن حسن بن علي بن الحسين بن محمد بن عبدالله .. بن الحسن بن علي بن أبي طالب. الفاسي: «العقد الثمين»، جـ٧، ص ٣٢٦.

(٢) حمزة بن وهاس: زعيم قبيلة بني وهاس التي كانت تقطن في وادي نخلة. الذهبي: «العبر في خبر من غبر»، جـ٢، ص ١٧٨.

(٣) الفاسي: المرجع السابق والصفحة.

(٤) عسفان: في بسيط من الأرض بين جبال بها آبار ماء تنسب إحداها إلى عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، ابن بطوطة: «رحلة ابن بطوطة»، ص ٧٩

(٥) الفاسي: «العقد الثمين» جـ١، ص ٢٨

(٦) عيذاب: بليدة على ضفة بحر القلزم هي مرسى المراكب التي تقدم من عدن إلى الصعيد، «ياقوت: معجم البلدان، جـ٣، ص ٧٥١» وتقع على الساحل الغربي للبحر الأحمر مقابل جدة.

(٧) الحراريق: ومفردها حراقة، نوع من السفن الحربية استخدمت لحمل الأسلحة النارية وكان بها مرام تلقى منها النيران على العدو، واستخدمت أنواع منها في النيل أثناء الاستعراضات التي تقام في الحفلات العامة، مثل الاحتفال لكسر الخليج «د. مصطفى زيادة: السلوك، جـ١، قسم ٢ حاشية، ص ٣٠٦، بطرس البستاني محيط المحيط، جـ١، ص ٣٨٠».

Dozy Supp. Dict.Arabe.Tome I.p.27.

(٨) ابن فهد: «اتحاف الورى»، جـ١، ص ٤٠٠ ــ ٤٠١

وفي هذا العام ظهر بمكة رجل علوى(1) دعا إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالتف حوله العديد من أهلها، ونازع الشريف قاسماً على الإمرة، وعزم على الخطبة لنفسه، ولكن قاسماً هاجمه وقبض عليه ونفاه إلى البحرين، و بقى قاسم في الحكم إلى وفاته سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م(2)، وخلفه ابنه هاشم الذي هدأت الأحوال في عهده وقد دام أكثر من ثلاثين عاما. وتوفى في سنة ٥٤٩هـ/١١٥٥م. وتولى بعده ولده قاسم الذي قدم إلى مكة في عهده الفقيه الشاعر عمارة اليمني فأرسله في سفارة إلى بلاط الفاطميين سنة ٥٥٠هـ/١١٥٦م زمن الخليفة الفائز بن الظافر ووزيره الصالح طلائع بن رزيك فأدى مهمته وعاد إلى مكة(3)، كما أرسله الأمير قاسم في سفارة أخرى سنة ٥٥١هـ/١١٥٧م فأمر الصالح طلائع بحجزه في قوص(4) حتى يعيد قاسم الأموال التي استولى عليها من بعض التجار المصريين والشاميين فأعادها.

وفي ذلك الوقت كان أمراء مكة يحصلون المكوس من الحجاج الذين يأتون إلى الحج. وفي عهد الأمير قاسم أرسل الناصر بن الصالح طلائع خمسة عشر ألف درهم مساعدة لأمير الحجاز لرفع تلك المكوس عن الحجاج(5).

وفي سنة ٥٣٣هـ/١١٥٩م هاجم الهذيليون(6) مكة واستولوا عليها ونهبوها ولكن القاسم تمكن من تجميع قواته، وقوات الاعراب وطردهم منها، واستمر في الإمرة حتى سنة ٥٥٦هـ/١١٦٢م حيث نهب في ذلك العام أموال المجاورين والأعيان وهرب من مكة خوفا من أمير الحج العراقي ارغن الذي كان بصحبته قائد جيش الموصل الأمير زين الدين على بن بالتكين مع فرقة من جيشه، و بعد دخول أرغن مكة قام بتعيين الأمير عيسى بن قاسم بن أبي هاشم بدلاً من قاسم، و بقى في الإمرة حتى رمضان إذ لم يلبث أن عاد قاسم ومعه حشد كبير من الأعراب الذين اطمعهم في مال له بمكة سيوزعه عليهم بعد استرداد ملكه. وعندما علم عيسى بذلك وأنه قادم إليه خرج من مكة فدخلها قاسم الذي لم يلبث أن انكشف كذبه مما أغضب الذين ساعدوه. ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد بل قام قاسم بقتل أحد قادته المشهورين بحسن السيرة فأغضب أتباعه. فكاتبوا عمه عيسى و وعدوه بعزل قاسم، وإعادته إلى الإمرة. فسار إلى مكة، وعندما علم قاسم بقدومه غادر مكة وهرب إلى جبل أبي قبيس(7). وأثناء صعوده سقط عن فرسه فلحقه أصحاب عيسى وقتلوه في سابع عشر جمادى

---

(1) لم أعثر على اسم له في المصادر التي استخدمتها في هذا البحث.

(2) ابن فهد: «اتحاف الورى، جـ١، ص ٤٠١»

(3) ابن خلكان: «وفيات الأعيان»، جـ١، ص ٣٧٦، ابو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين جـ١، ص ٢٢٥ — ٢٢٧، الحنبلي شذرات الذهب، جـ٤، ص ٢٣٤.

(4) قوص: مدينة كبيرة عظيمة واسعة، هي قصبة صعيد مصر شرق النيل «ياقوت: معجم البلدان، جـ٤، ص ٤١٣».

(5) الفاسي: العقد الثمين، جـ٧، ص ٣٢ — ٣٣.

(6) هذيل: قبيلة صغيرة مساكنها شرقي مكة: «الخزرجي: العقود اللؤلؤية، جـ٣، ص ٦٤، حاشية رقم ٣٧٤ من الترجمة الانجليزية.

(7) ابوقبيس: بلفظ التصغير كأنه تصغير قبس النار وهو اسم الجبل المشرف على مكة وجهه إلى قعيقعان ومكة بينهما، أبوقبيس من شرقيها وقعيقعان من غربها «ياقوت معجم البلدان جـ١ ص ٨٠».

الأولى سنة ٥٥٧هـ/١١٦٣م(١).

أحوال مكة في أواخر العصر الفاطمي:

كانت مكة كما بينا مستقلة استقلالا ذاتيا طوال الفترة السابقة، وإن كان حكامها الأشراف يخطبون أحيانا لهذا وأخرى لذاك، أي انهم كانوا يتوددون لمن يبذل لهم العطايا والأموال، إذ كانوا يتقربون لأكثر من دولة في وقت واحد كما يبدو في إقامة بعض المنشآت والمرافق العامة كتوصيل المياه إلى عرفة وإقامة الصهاريج في طرق الحجيج أو بعض الدور التي كان ينزل فيها أتباعها عند حضورهم إلى مكة حيث كانت ترى تلك الدول أن من حقها أن تنشئها(٢) غير أنه يلاحظ أن تبعية مكة لتلك الدول لم تكن تبعية مطلقة بدليل أن نفوذ تلك الدول لم يكن يتعدى الخطبة لحكامها على المنابر وقبول الهدايا والعطايا منهم. ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن أشراف مكة لم يكن في مقدورهم تكوين جيش قوي يذود عن إماراتهم ويحمي استقلالهم لقلة دخلهم وعجز مواردهم عن سد نفقاتهم واحتياجات شعبهم، لذلك لم يكن أمامهم سوى مهادنة تلك الدول القوية، وقبول عطاياها وهداياها. فتقبل من هؤلاء تارة ومن أولئك أخرى.

وكان يحكم في مكة في أواخر العصر الفاطمي الأمير عيسى بن فليته بن قاسم بن أبي هاشم، وكان ينازعه في الإمرة أخوه مالك الذي كان موجودا في الشام في ذلك الوقت، وقد حضر للحج بالناس كعادته، وحج مالك الذي خالف مناسك الحج إذ وقف بعرفة، وبات بالحجاج بها حتى الصباح، وخافه الناس خوفا شديدا ثم عاد إلى الشام(٣).

ولم يلبث الصراع أن تجدد بينه وبين أخيه الذي جاء إلى مكة يوم عاشوراء العاشر من محرم سنة ٥٦٦هـ/١١٧١م بعد أن جمع جماعة من العسكر والأتباع ونزلوا الأبطح(٤) وتحالف مع هذيل، وهاجموا مكة من جهة أبي الحارث(٥) فتصدى لهم الأمير عيسى وقاتلهم وهزمهم وقتل جماعة من أتباع مالك الذي اضطر إلى اللجوء إلى خيف بني شديد بمكة وبقي فيه أياما ارتحل بعدها إلى الطائف فالشام.

ولم يكتف مالك بمحاولة الاستيلاء على مكة بل هاجم في نفس العام (٥٦٦هـ/١١٧١م) جدة

---

(١) الطبري، محمد بن علي بن فضل بن عبدالله بن حمد بن يحيى الملقب بالجمال الحسيني الشافعي المكي، «إتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بني الحسن» جـ١/٢٧، الفاسي: «شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام» جـ٢ ص ١٩٧ — ١٩٨.

(٢) احمد السباعي: تاريخ مكة جـ٢/١٩٢.

(٣) الفاسي: «العقد الثمين» جـ٦ ص ٤٦٧

(٤) الأبطح: أو البطحاء، هو كل مسيل فيه دقاق الحصا أو الرمل المنبسط على وجه الأرض يضاف إلى مكة وإلى منى لأن المسافة بينهما متقاربة وإن كان إلى منى أقرب. وهو المحصب: وهو خيف بني كنانة «ياقوت: معجم البلدان جـ١ ص ٧٤».

(٥) جبل أبي الحارث: أحد أخشبي مكة المقابل إلى أبي قبيس صوب قعيقعان وباب الشبيكة بأسفل مكة «الفاسي: المرجع السابق والجزء والصفحة».

بالاشتراك مع أشراف بني داود(١). وقال الفاسي: «إنهم نهبوا ما في الجلبة(٢) التي وصلت إليها في هذه السنة من قبل شمس الدولة وكان فيها صدقة من قبله وأموال للتجار، فأخذ المشار إليهم جميع ذلك»(٣).

وعلى أثر ذلك استولى الخليفة العباسي المستضيء بالله سنة ٥٦٧ هـ/١١٧٢م على جميع أمواله وأملاكه الموجودة بالعراق. ومات مالك في تيماء بأطراف الشام في هذا العام عندما كان في طريقه إلى دمشق من المدينة المنورة(٤).

النفوذ الأيوبي في مكة:

في أواخر العصر الفاطمي كان يحكم في مكة الأمير عيسى بن فليتة الذي بدأ نفوذ نورالدين محمود بن زنكي يمتد إلى مكة في عهده، إذ على أثر الحملة التي قام بها توران شاه لفتح اليمن مر بمكة، ودخلها معتمراً سنة ٥٦٩ هـ/١١٧٤م، وخطب بها للسلطان نورالدين، وأصبحت بالتالي تابعة له تبعية اسمية(٥) إذ استمر الأمراء الحجازيون يحكمون في مكة كما كانوا.

وبعد وفاة نورالدين وتأسيس صلاح الدين للدولة الأيوبية، رأى أن يخضع الحجاز لسلطانه لما له من أهمية دينية في العالم الإسلامي، وتم ذلك دون قتال أو إراقة دماء، إذ قام الأمير عيسى بالخطبة للخليفة العباسي المستضيء ــ الذي يخطب له صلاح الدين ــ ولصلاح الدين من بعده، طمعا في منحه وعطاياه، وبذلك أصبحت مكة تابعة للأيوبين اسمياً(٦).

وبعد وفاة الأمير عيسى سنة ٥٧٠ هـ/١١٧٥م(٧) تولى إمرة مكة ولده داود بعهد منه. ولكن الخليفة المستضيء لم يرض عنه رغم صلاحه وعدله، وحرض بعض الخارجين عليه للإطاحة به، ونجحوا في طرده من مكة سنة ٥٧١ هـ/١١٧٦م. فلجأ إلى وادى نخلة(٨) ونودي بأخيه «مكثر بن

---

(١) ابن عبدالبر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب ص ٣٥٦، وابن الاثير، «أسد الغابة جـ٤ ص ٢٨٨.
والخيف: ما انحدر من غلظ الجبل وارتفع عن مسيل الماء. «ياقوت: معجم البلدان جـ٢ ص ٥٠٨».

(٢) الجلبة: وجمعها جلاب: مراكب للتجارة كانت تسير في البحر الأحمر بين عدن والحجاز.
Dozy Supp.Dict.ArabeTome1.p.204
والجلبة أعواد من الخشب ضمت إلى بعضها بأمراس جوز الهند ولم يستخدموا المسامير في صنعها وكانوا يدهنونها بعد الفراغ من صنعها بالسمن أو بزيت الخروع أو زيت القرش، لتصبح لينة رطبة بسبب كثرة الشعاب المرجانية في البحر الأحمر «ابن جبير الرحلة ص ٤٧».

(٣) الفاسي: العقد الثمين جـ٧/١١٦

(٤) أشراف بني داود: من أشراف الحجاز كانوا يقطنون المنطقة الواقعة بين مكة وجدة «الفاسي: العقد الثمين جـ٧ ص ١١٥».

(٥) نفس المرجع والجزء والصفحة. وتيماء: حصن أعمر من تبوك، وتقع شمالي تبوك «الاصطخري المسالك والممالك ص ٢٥».

(٦) الفاسي: المرجع السابق جـ١ ص ١٨٨.

(٧) الفاسي: «شفاء الغرام» جـ٢ ص ٢٣٠

(٨) وادي نخلة أو نخلة محمود: موضع بالحجاز بالقرب من مكة فيه نخل وكروم «ياقوت معجم البلدان جـ٥ ص ٢٧٧».

عيسى » أميرا على مكة(١) و بدأ مكثر هذا يبدل من سياسة أسلافه بأن عمل على تكوين جيش يعتمد عليه وجهزه بالأسلحة ، كما بنى حصنا على جبل أبي قبيس ليلجأ إليه إذا احتاج الأمر إلى ذلك وكي لا يحدث له كما حدث لأخيه ، وحتى لايستطيع أميرالركب العراقي الوصول إليه إذا ما فكر في مهاجمته أو عزله من الإمارة . واحتفظ بعلاقات طيبة مع الأ يوبيين والعباسيين وخطب لهم على المنابر، ولم يحتج أحد على توليته وعزل أخيه بل سارت الأمور سيراً حسناً إلى أن كانت ليلة النصف من شعبان سنة ٥٧١ هـ/١١٧٦م عندما قدم إلى مكة الأمير شمس الدولة توران شاه عائدا من اليمن ، فجمع مكثر وداود بظاهر مكة وأصلح بينهما(٢) .

ولكن قيام مكثر بتكوين الجيش وإقامة الحصن على جبل أبي قبيس أغضب الخليفة العباسي المستضيء الذي اعتبر ذلك العمل تحديا له ، لذلك قرر الخليفة عزل مكثر وهدم الحصن ، وأسند ذلك إلى الأمير طاشتكين(٣) بن عبدالقوي مجيرالدين وأمده بقوة عسكرية كبيرة ، وبما يحتاجه من السلاح والمجانيق وآلات القتال و بعدد من النفاطين ، وساروا إلى مكة . وعندما علم الأمير مكثر بقدومهم لعزله جمع ما استطاع جمعه من الأشراف والأعراب واستعد للقتال ولم يحج من أهل مكة في ذلك العام إلا العدد القليل وخالف مناسك الحج إذ بات الحجاج في عرفة بدلاً من المزدلفة ، ولم يرموا إلا جمرة العقبة ، كما لم يبيتوا في منى سوى ليلة واحدة ، ونزلوا الأ بطح وتقاتل الفريقان بها عشية يوم النحر، وفي اليومين التاليين ، واشتد الحصار على أهل مكة وقاسوا شدة عظيمة ، وتمكنت بعض القوات العراقية من دخول مكة من جهة المعلاة ، ونهبت دورها ، وعندما شعر الأمير مكثر بضعف قواته ، وأنه ليس في مقدوره مواجهة القوات العراقية لجأ إلى حصنه في جبل أبي قبيس ، فتبعته القوات العراقية وحاصرته به مما اضطره إلى الفرار منه ، فصعدت إليه القوات العراقية واستولت عليه وقامت بهدمه(٤) .

ودخل طاشكتين وقواته مكة ونهبوها ، ونهبوا الحجاج واستولوا على أموال التجار وأحرقوا دوراً كثيرة من دورها ، واستخدموا قوارير النفط في الاستيلاء على مكة ، ولم يكن لأهل مكة دراية أو معرفة بها . وقد قال بعض المؤرخين «ومن أعجب ما جرى أن إنسانا زراقا(٥) ضرب دارا فيها

(١) الفاسي : « العقد الثمين » جـ٦ ص ٤٦٧ ـ ٤٦٨

(٢) الفاسي : العقد الثمين جـ٤ ص ٣٥٤ ـ ٣٥٥ ، جـ٧ ص ٢٧٥

(٣) ذكر السباعي في كتابه تاريخ مكة جـ٢ ص ٢٠١ أن أمير الحج الذي كلف بذلك كان طاشتكين أخا صلاح الدين الأ يوبي . وهذا خطأ لأن أمير الحج العراقي هذا مشهور حج بركب العراق ستاً وعشرين مرة وتوفي سنة ٦٠٢ هـ/١٢٠٦م أما أخو صلاح الدين فهو طغتكين « راجع تاريخ الإسلام للذهبي وفيات سنة ٥٨٣ هـ وأبوشامة : ذيل الروضتين ص ٥٣ ، أبوالمحاسن : النجوم الزاهرة جـ٦ ص ١٩٠ » .

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ص ١٣٧ ، ابن جبير: الرحلة ص ٧٦ ولكنه يقول ان الذي بنى ذلك الحصن هو أمير مكة عيسى أبومكثر فهدمه عليه أمير الحج العراقي بمخالفة صدرت منه فغادره خرابا . وهذا خطأ .

(٥) الزراق : هو رامي النفط . و يضيف د . زيادة أن الزراقة هي الأنبوبة التي يزرق فيها النفط « السلوك جـ١ قسم ٩٨/٣ حاشية ٢ » .

بقارورة نفط وكانت لأ يتام مكة فأحرق ما فيها ، ثم أخذ قارورة أخرى ، فأتاه حجر فأصاب القارورة فكسرها فاحترق هوبها و بقى ثلاثة أيام يتعذب بالحريق ثم مات »(١) .

وقد ساعد الأمير قاسم بن مهنا الحسيني ـ أمير المدينة ـ الأمير طاشتكين في الاستيلاء على مكة ، وكافأه طاشتكين على ذلك بأن عينه أميراً عليها ، لكنه لم يبق في الإمرة سوى ثلاثة أيام ، وطلب من طاشتكين أن يعفيه لأن اتباعه ومؤيديه في المدينة وليس له سند في مكة ولا عصبية تحميه وتشد أزره ، وأهل مكة من الأشراف الحسنيين الذين يؤيدون الأمير مكثراً وسينضمون إليه بعد عودة طاشتكين إلى العراق ، و يعملون على طرده من مكة . وفي ذلك يقول ابن الجوزي ان قاسماً قال : إني لا أتجاسر أن أقيم بمكة بعد خروج الحاج ، فأمّروا غيره وارتحلوا »(٢) .

و بعد تنازل الأمير قاسم عن إمرة مكة عين بها الأمير داود بن عيسى أخو مكثر الذي كان مغضوبا عليه من قبل الخلفاء العباسيين ، وسبق أن عزلوه وعينوا أخاه مكثرا ، وأخذ طاشتكين عليه العهود والمواثيق بأن يسقط المكوس عن الحجاج وأن يترفق بالناس(٣) .

من ذلك نلحظ أن الخلفاء العباسيين كانوا يتدخلون في شؤون مكة وتعيين وعزل الأمراء بها ، وأن نفوذهم كان أقوى من نفوذ الأ يوبيين الذين كانوا أيضا تابعين اسميا للخلافة العباسية في بغداد .

ولا نعرف إلى متى بقى الأمير داود في الإمرة ، إلا أن مكثرا كان يتولاها سنة ٥٧٢ هـ/١١٧٧م مما يدل على أنه لم يبق بها إلا حوالي العام فقط أو بعض عام حيث نازعه مكثر عليها وانتزعها منه .

و يبدو أن الصراع استمر بين الأخو ين مما جعلهما يتناو بان الإمرة في مكة حتى قدم إليها حاكم اليمن الأ يو بي سيف الدين طغتكين أخو صلاح الدين الأ يو بي حيث مر بمكة في طريقه إلى اليمن للقضاء على فتنة حدثت بها في غرة رمضان سنة ٥٨١ هـ/١١٨٦م ونزل في ينبع ، ومنها عرج على المدينة لزيارة قبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) في حين أرسل أثقاله إلى الصفراء(٤) . وقد ذب

---

(١) ابن الأثير: الكامل ص ١٣٨ العصامي : عبدالملك بن حسين بن حسين بن عبدالملك المكي الشافعي : سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي جـ٤ ص ٢٠٥

Dozy Supp. Arabe Tome I.p.587.

(٢) أبو الفرج عبدالرحمن بن علي : المنتظم في تاريخ الأمم والملوك جـ١٠ ص ٢٦٠ ، ٢٦١

(٣) أبو الفدا ، الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل : المختصر في أخبار البشر جـ٣ ص ٥٨ إلا أنه يذكر أن عزل طاشتكين لمكثر كان سنة ٥٧٢ هـ و بذلك يخالف بقية المؤرخين « راجع ابن الأثير: المرجع السابق جـ٩ ص ١٣٧ ، الطبري « إتحاف فضلاء الزمن » جـ١ ص ٢٩ ، الصباغ ، « تحصيل المرام » جـ٤ ص ٣٥٥ ، الفاسي ، « العقد الثمين » جـ ٤ ص ٣٥٥ ، ابن الوردي ، زين الدين عمر: تتمة المختصر في أخبار البشر جـ٢ ص ٦٣٢

(٤) الصفراء : بلفظ تأنيث الأصفر من الألوان ، ووادي الصفراء من ناحية المدينة وهو واد كثير النخل والزرع والخير في طريق الحج « ياقوت : معجم البلدان جـ٣ ص ٣١٢ » .

الرعب في قلب الأمير مكثر وقلوب أهل مكة، وفكر الأمير مكثر في ترك مكة، وقام يوم الثلاثاء الثاني من رمضان بالطواف حول الكعبة طواف الوداع، واستعد للقاء طغتكين الذي كان قد غادر المدينة في طريقه إلى مكة، ولكنه لم يخرج للقائه بل قام في ضحى يوم الأربعاء الثالث من رمضان بالقدوم إلى الحرم، وطاف طواف التسليم ونساء مكة يولولن عليه. أما أهل مكة فقد أظهروا السرور لقدوم طغتكين الذي وصل في ذلك اليوم ودخل مكة من باب الزاهر ـ المعروف بباب العمرة غربي مكة ـ وضرب معسكره هناك، في حين وصلت مقدمة قواته إلى الحرم، وزاحمت الأمير مكثراً في الطواف(١).

وبينما الناس الموجودون في الحرم قد وقفوا ينظرون إليهم إذ سمعوا ضجيجا هائلاً كان سببه قدوم الأمير طغتكين للحرم ودخوله من باب بني شيبة(٢) تتقدمه بعض قواته شاهرة سيوفها أمامه، وكان قاضي مكة عن يمينه وزعيم الشيبيين عن يساره، وقد تزاحم الناس زحاما شديدا لرؤية ذلك الأمير وعلت الأصوات بالدعاء له ولأخيه السلطان صلاح الدين، وكان الزمزمي جالسا في مرقبته أعلى بئر زمزم يدعو له بأعلى صوته، وعندما اقترب من الكعبة أغمدت السيوف، وأخفضت الأصوات إجلالا وتعظيما لبيت الله المعظم

ويصف ابن جبير قوات طغتكين بقوله: «ثم تهافتت هذه العصابة الغزية على بيت الله العتيق تهافت الفراش على المصباح، وقد نكس أذقانهم الخضوع وبلت سبالهم الدموع»(٣).

وطاف الأمير طغتكين وصحبه زعيم الشيبيين محمد بن إسماعيل مما جعل الأمير مكثراً يسرع بالطواف ويتوجه إلى منزله.

أما طغتكين فبعد الطواف صلى خلف مقام إبراهيم (عليه السلام)، وفتحت له الكعبة فدخلها مع زعيم الشيبيين وبعد خروجه فتح الباب للجميع فتزاحم الناس عليه زحاما شديداً، وبعد أن أنهى طغتكين مراسم العمرة سار إلى مضار به بالزاهر(٤) ولا نعرف ما حصل بين طغتكين ومكثر في ذلك اليوم، ولكن يبدو أن بعض أصحاب مكثر قاموا بالاتصال بالأمير طغتكين بعد عودته إلى مضار به، وبينوا له أن مكثراً خائف من لقائه، فطمأنهم وأعطاهم الأمان له، عندئذ سار مكثر إليه، فأكرمه طغتكين وخلع عليه وأقره في إمرته.

---

(١) ابن جبير: الرحلة ص ١١٠

(٢) باب بني شيبة. هو باب بني عبدشمس ومنه كان دخول الخلفاء «ابن جبير: المرجع السابق ص ٧٣» وباب بني شيبة الذي يستحب للمحرم دخول المسجد الحرام منه وهو أول باب في الجنب الشرقي بين رباط الشرابي ورباط السدرة وعليه منارة المسجد الحرام، الفاسي، العقد الثمين جـ١ ص ١٠٤»».

(٣) الرحلة ص ١١١، أو ص ١٢٥ طبعة بيروت ١٩٦٤م والفرجنس من الترك ويقصد بهم صلاح الدين وجيشه «رحلة ابن جبير ص ٥٦ هامش ٢».

(٤) الزاهر: غربي مكة بحوالي ميل، وهو مبني على جانبي الطريق يحتوى على دار وبساتين. «ابن جبير: الرحلة ص ٨٨».

نستدل على ذلك من قول ابن جبير الذي كان موجودا بمكة في ذلك الوقت «وفي ضحوة يوم الخميس بعده كنا أيضا بالحجر المكرم فإذا بأصوات طبول ودبادب قد قرعت الآذان وارتجت لها نواحي الحرم الشريف، فبينا نحن نتطلع لاستطلاع خبرها طلع الأمير مكثر وحاشيته الأقر بون حوله وهو رافل في حلة ذهب كأنها الجمر المتقد يسحب أذيالها، وعلى رأسه عمامة شرب رقيق.. وتحت الحلة خلعتان من الدبيقي المرسوم البديع الصنعة خلعها عليه الأمير سيف الإسلام فوصل بها فرحا جذلان والطبول والدبادب تشيعه عن أمر سيف الإسلام إشادةً بتكريمه.. فطاف بالبيت المكرم شكرا لله على ما هو به من كرامة هذا الأمير بعد أن كان قد أوجس في نفسه خيفة منه»(١)

وتقديراً من الأمير مكثر للأمير طغتكين فإنه أمر بعدم ذكر «حي على خير العمل» في الأذان(٢)، وصكت الدنانير والدراهم في مكة باسم السلطان صلاح الدين(٣) كما ألغى المكوس التي كان يأخذها من الحجاج بعد أن عوضه السلطان صلاح الدين عنها(٤).

ولم يقتصر الصراع في مكة بين الأ يوبيين والعباسيين من جهة و بين أشراف مكة من جهة ثانية، بل كان يحدث أحيانا بين الأ يوبيين وأمراء الحج العراقي وابن المقدم أمير الحج الشامي والذي انتهى بمقتل ابن المقدم(٥) كما سنوضح فيما بعد.

أما الأشراف فانهم لم يتدخلوا في ذلك الصراع لأنهم كانوا يحرصون على رضا الطرفين عنهم، ولأنهم لم يكونوا يتوقعون أن يتطور الخلاف إلى حد الاقتتال، بل سيلجأون إلى تحكيم العقل، و بذلك لاداعي لتدخلهم.

أما بالنسبة إلى الأمير مكثر فإن الأمور لم تستتب له بل نازعه في الحكم أخوه داود، وأصبحا يتبادلان الإمرة إذ لم يكن أحدهما يشعر بقوته حتى يهاجم الآخر و يطرده من مكة و يتولى هو إمرتها. واستمر الوضع لى ذلك الحال حتى سنة ٥٨٧ هـ/١١٩١م. حيث كان يتولى الإمرة داود الذي كان سيء السيرة والسمعة والأخلاق وقام في هذا العام بالاستيلاء على أموال الكعبة ولم يكتف بذلك بل انتزع طوق الفضة الذي كان يلم شعث الحجر الأسود. وعندما علم بذلك السلطان صلاح الدين غضب غضبا شديداً وأرسل مع أمير الركب يأمره بعزله وتولية أخيه مكثر بدله، وعندما

(١) ابن جبير: الرحلة ص ١١٢

(٢) الطبري: «إتحاف فضلاء الزمن» جـ١ ص ٢٩، الصباغ: تحصيل المرام ص ١٨٤.

(٣) عبدالله غازي: إفادة الأنام ص ١١٦، والطبري: المرجع السابق والجزء والصفحة أبو شامة: الروضتين جـ ٢ ص ٧٤، ابن البزوري: ذيل المنتظم ص ٥٤ أما السباعي فقد ذكر في كتابه تاريخ مكة جـ٢ ص ٢٠٢ بأن الذي ضرب الدراهم في مكة هو طاشتكين وهذا خطأ، وربما التبس عليه الأمر مرة أخرى ولم يفرق بين طاشتكين أمير الحج العراقي وطغتكين أخي صلاح الدين. كما أنه ذكر أن النقود صكت سنة ٥٧١ هـ وهذا خطأ والصحيح انها صكت سنة ٥٨١ هـ.

(٤) ابن جبير، الرحلة ص ٤٩، وابوشامة، المرجع السابق جـ٢ ص ٣ــ ٤.

(٥) ابن الفرات، «تاريخ ابن الفرات» جـ٣ ص ٢٥٠ ــ ٢٥٢

علم بقدوم الركب المصري غادر مكة إلى وادي نخلة حيث بقي هناك حتى وفاته سنة ٥٨٩ هـ/١١٩٣م(١) وانفرد مكثر بحكم مكة مدة عشر سنين وكان آخر الحكام الهاشميين لأن الحكم انتقل بعد ذلك إلى فرع حسني آخر هم بنو قتادة. وكانت مدة حكم الهاشميين لمكة مائة وثلا ثة وثلا ثين عاما.

بنوقتادة الحسنيون(٢)

لقد بدأت الفوضى والقلاقل تدب في أوصال الأسرة الهاشمية في مكة في أواخر حكمهم لها إذ لم يهتموا بشؤون الحكم وظلموا الناس واعتدوا عليهم، ونهبوا أموال التجار، وتنافسوا فيما بينهم على الإمرة واعتدوا على الحجاج ونهبوهم ــ خصوصا الحجاج العراقيين والشامين والمصريين ــ فاغضبوا عليهم العباسيين والأ يوبيين، بل امتدت اعتداءاتهم إلى أموال الكعبة ومقدساتها، وأعادوا المكوس والضرائب على الحجاج بعد أن ألغاها صلاح الدين وعوضهم عنها. وانعدم الأمن في البلاد، ولم يقتصر الأمر على الأمراء الاشراف بل امتد إلى أتباعهم، كما حدث مع زعيم الشيبيين محمد بن اسماعيل الذي قبض عليه مكثر لهنات نسبت إليه ــ وكان يتولى حجابة الكعبة ــ و يبدو أنه حصل على بعض الأموال بطريقة غير مشروعة ولم يعط مكثراً نصيبه منها فغضب عليه وعندما دفع له رضي عنه وأعاده كما كان(٣). وان دل ذلك على شيء فإنما يدل على جشع أمراء مكة وعدم مراعاتهم حرمة الدين والبلد الذي يحكمونه.

بالإضافة إلى ذلك الفساد الذي استشرى في المجتمع المكي في ذلك الوقت فقد انعدم الأمن أيام الحج، إذ أصبح الحجاج لايبيتون في مزدلفة خوفا من الأعراب الشيبيين الذين كانوا يقطعون الطرقات عليهم، كما لم يبيتوا في منى سوى يومين و يعجلون في النزول إلى مكة. كل ذلك بسبب ضعف حكام مكة الذين لم يهتموا إلا بملذاتهم وأصبحت منطقة الحج واقعة تحت رحمة أولئك الأعراب، ومن أقام اليوم الرابع فكان يخاطر بنفسه.

كما نشط قطاع الطرق في الطرقات المؤدية إلى مكة حتى ان الحجاج لم يسلموا منهم إلا إذا دفعوا لهم إتاوة مقابل ذلك.

وزاد الطين بلة أن أشراف مكة أنفسهم أصبحوا يعتدون على أموال التجار و يسلبون بضائعهم،

---

(١) الذهبي، تاريخ الإسلام وفيات سنة ٥٨٩ هـ
ابن كثير، البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٣٤٦
والزركلي، خيرالدين، الاعلام جـ ٣ ص ٩

(٢) قتادة: هو الشريف ابوعزيز قتادة بن ادريس بن مطاعن بن عبدالكريم بن عيسى بن حسين بن سليمان بن علي بن عبدالله بن محمد بن موسى بن عبدالله بن موسى بن عبدالله بن الحسن بن على بن أبي طالب الحسني المكي، «العصامي، سمط النجوم العوالي» جـ ٤ ص ٢٠٨، والصباغ تحصيل المرام ص ١٨٤، الفاسي «شفاء الغرام» جـ ٢ ص ١٩٨، والعقد الثمين جـ ٧ ص ٣٩.

(٣) ابن جبير، الرحلة ص ١٢٧.

وبلغ الأمر في مكة أن الانسان لم يعد يأمن على نفسه أو ماله أو عرضه بسبب ذلك الفساد الذي استشرى في المجتمع المكي بسبب ضعف حكامها وسوء أخلاقهم وعدم اهتمامهم بشؤون رعيتهم أو بشؤون الحجيج وغيرهم.

زد على ذلك ما أصاب أشراف مكة من بني هاشم من غرور قاتل حتى انهم لم يكترثوا لمن يحاول الاعتداء على مكة أو الاستيلاء عليها، مما أطمع فيها بعض الأمراء في المناطق المجاورة لها والذين انتهزوا الفرصة للاستيلاء عليها وإخضاعها لهم. وكان من أولئك قتادة الحسيني. و يقول الفاسي، إن السبب الذي دفع قتادة للاستيلاء على مكة هو: «كان سبب طمعه في إمرة مكة على ما بلغني ما بلغه من انهماك أمرائها الهواشم بني فليتة على اللهو وتبسطهم في الظلم وإعراضهم عن صونها ممن يريدها بسوء اعتزازا منها بما هو فيه من العز والعسف لمن عارضهم في مرادهم وإن كان ظلما أو غيره»(١).

أما الأسباب الأخرى التي دفعت قتادة للاستيلاء على مكة فهي:

١ ـ قيامه بتثبيت سلطانه ورئاسته لقومه في العلقمية من وادي ينبع وإخضاعه للقبائل المجاورة من أشراف بني حرب من أولاد عبدالله بن الحسن بن الحسن، و بني على وتحالفه مع بني ابراهيم و بني احمد الذين اعترفوا له أيضا بالزعامة، كما سيطر على ينبع أيضا وعلى وادي الصفراء بعد أن أخرج بني يحيى منه(٢).

وكانت تلك المناطق جميعها خاضعة لأشراف مكة الهاشميين ولكنهم أهملوا أمرها ولم يحركوا ساكنا في الدفاع أو الذود عنها، بل انهمكوا في ملذاتهم غير مبالين بما يحدث في المناطق التابعة لهم، فأطمع ذلك قتادة الذي بدأ يفكر في الاستيلاء على مكة نفسها ليحقق الحلم الذي طالما راوده بأن تصبح مكة بما تتمتع به من مركز سياسي وديني واقتصادي وثقافي واجتماعي عاصمة لملكه ومقرا لحكمه.

٢ ـ تذمر بعض قادة مكثر من سوء معاملته، ومن الظلم والعسف الذي أخذ يطبقه هو وأفراد حاشيته عليهم، حتى انهم لم يعيروا هؤلاء القادة أي اهتمام أو احترام مما أغضبهم وغير خواطرهم، فانتهز قتادة تلك الفرص وعمل على استمالتهم إلى جانبه ومناهم بالوعود الجميلة إذا ساعدوه في الاستيلاء على مكة(٣).

ورغم أن المصادر لم تشر إلى موقف هؤلاء القادة من قتادة إلا أنه يبدو أنهم استجابوا

---

(١) الفاسي، «العقد الثمين» جـ ٧ ص ٤٠

(٢) نفس المرجع والجزء والصفحة ـ راجع أيضا القلقشندي، «صبح الأعشى» جـ ٤ ص ٢٧٢، حمد الجاسر، «بلاد ينبع» ص ٢٨ مكة

(٣) الفاسي، المرجع السابق جـ ٧ ص ٤٠

لطلبه و وعدوه بالمساعدة إذا ما سار للاستيلاء على مكة ليتخلصوا من الهوان الذي أصبحوا يعيشون في ظله ، يدل على ذلك أن قتادة عندما دخل مكة لم يلق مقاومة تذكر.

٣ـــ اعتداء الأمير مكثر وحاشيته على بعض التجار بسلب أموالهم و بضائعهم فسار أحدهم إلى الأمير قتادة واستنجد به لرفع الظلم عنهم وإعادة ممتلكاتهم فكان رد قتادة عليه «إذا كان موسم العام المقبل فآتني بمكة تجد متاعك والنصفة فشكره الرجل على ذلك»(١) و يبدو أن قتادة بعد استنجاد ذلك التاجر به اختمر في ذهنه أن أحوال مكة فاسدة للغاية ، وأن هذه فرصته لتحقيق أطماعه في السيطرة عليها ، لذلك قام بعقد اجتماع خاص لأصحابه وأعوانه وقال لهم : «خطر ببالي أخذ مكة فإن ولاتها جاروا ، وقد ظلموا ، فأجابوه جميعا بالسمع والطاعة ، وقالوا : نحن منقادون لما تأمرنا»(٢) .

و يبدو أن أتباعه كانوا فقراء ، وأن ذلك العام كان عام جدب وقحط بحيث انهم لايستطيعون تجهيز أنفسهم بما يحتاجونه من سلاح ومؤن وكان هو رجلا ثريا ، فاستعد بتجهيزهم بكل ما يحتاجون إليه وقال لهم : «إن في ر باطي من الخيل ماهو كذا ، وعندي من النفقة ما هو كذا فاستعدوا»(٣) .

لذلك كله عمل قتادة على الاستيلاء على مكة وأخذها من بني هاشم .

استيلاء قتادة على مكة :

على أثر ذلك قام الأمير قتادة بتجهيز أتباعه وأعوانه وجنده بكل ما يحتاجونه من سلاح ومؤن وزحفوا على مكة ، وقد وردت الأخبار على الأمير مكثر تنذره بقدوم قتادة للاستيلاء عليها ، ولكنه لم يكترث ولم يعر الأمر أي اهتمام . وكأنه لايعنيه معتمداً على قواته التي لاقبل لقتادة بها ، واستخفافا به ، ثم تواترت الأخبار عليه بأن قتادة قد عبر الظهران ـــ وادي فاطمة بالقرب من مكة ـــ ولكنه استمر في غيه وملذاته غير مبال حتى قيل له إن قتادة دخل من أعلى مكة ، فأفاق عندئذ من غفلته ، لكن بعد فوات الأوان ، ولم يبق أمامه سوى الهرب من مكة تاركا قتادة يدخلها دون قتال أو مقاومة ، وسار منها إلى نخلة(٤) .

و بذلك استولى قتادة على مكة سلماً . وفي ذلك يقول الفاسي «فما شعر به أهل مكة إلا وهوبها معهم ، و ولاتهم على ما فيه من الانهماك في اللهو، فلم يكن لهم بمقاومته طاقة فملكها دونهم»(٥) وكان فتحها في السابع والعشرين من رجب سنة ٥٩٧ هـ/١٢٠١م .

ولكن بعض المصادر ترى أن الذي استولى على مكة هو حنظلة بن قتادة الذي كان قد أرسله أبوه

---

(١) الطبري ، المرجع السابق جـ١ ص ٢٩
(٢) نفس المرجع والجزء والصفحة .
(٣) نفس المرجع والجزء والصفحة .
(٤) نفس المرجع جـ١ ص ٣٠
(٥) العصامي ، «سمط النجوم العوالي» جـ٤ ص ٢٠٨ ، الفاسي ، «العقد الثمين» جـ٧ ص ٤٠ .

للاستيلاء عليها، ولكن الحقيقة أن قتادة هو الذي فتح مكة، وربما كان قتادة قد أوكل إلى ابنه حنظلة قيادة بعض الفرق، فالتبس الأمر عليهم وظنوه فاتح مكة، وأن أباه قد لحق به بعد ذلك. في حين أن معظم المصادر تذكر بأن أهل مكة لم يفيقوا إلا وقتادة معهم بها. وقد قال الطبري عن مكثر:

«فلم يصنع إلا أن تجهز للخروج من مكة فتسلمها قتادة صافية من الأكدار وأكرم بفضيلة الجوار»(١).

وكان قتادة خبيراً بفنون القتال وحيلها، إذ نراه يدخل مكة في السابع والعشرين من رجب لأن أمير مكة وأعيانها وأهلها يخرجون إلى التنعيم في هذا اليوم لأداء العمرة جرياً على عادة عبدالله بن الهابر، و يقول الطبري في ذلك «إن هذه العمرة كانت اتباعا لسيدنا عبدالله بن الهابر في اعتماره في مثل هذه الليلة»(٢).

وانتهز قتادة خلو مكة من أهلها فدخلها دون مقاومة. وانتهى بذلك حكم بني هاشم لمكة بعد أن دام قرنا ونصفا من الزمان، وانتقلت الإمرة إلى فرع جديد من الحسنيين هم بنو قتادة(٣).

وأقام مكثر في نخلة حتى وفاته سنة ٥٩٩ هـ/١٢٠٣م ولم يقم الهاشميون بعد ذلك بسوى محاولة واحدة لاسترجاع ملكهم قام بها محمد بن مكثر سنة ٦٠٠ هـ/١٢٠٤م عندما جمع بعض أشراف بني هاشم و بعض أتباعه وسار بهم إلى مكة، فتصدى لهم الأمير حنظلة بن قتادة عند المنظم ــ حسب رواية الطبري ــ أو عند المتكا(٤) حسب رواية الفاسي(٥) وجرى القتال بين الطرفين فهزم محمد بن مكثر وعاد إلى نخلة، واستتبت الأمور بعد تلك الوقعة لقتادة ولم تقم لبني مكثر أو للهاشميين بعد ذلك قائمة، ولم يقوموا بآية محاولة لاسترجاع ملكهم، و يبدو أنهم عاشوا كأفراد عاديين في نخلة.

و بعد استيلاء قتادة على مكة خطب للخليفة الناصر العباسي(٦) ليلقى الدعم والتأييد منه، وليصبغ على ملكه صفة الشرعية باعتراف الخليفة به. ولم يكتف قتادة بمكة و ينبع بل عمل على توسيع ملكه على حساب جيرانه، وتذكر بعض المصادر أنه استولى على بعض أطراف اليمن وربما المقصود بذلك بعض مناطق عسير، وعلى بعض أعمال المدينة المنورة، و بلاد نجد(٧).

---

(١) العصامي، «سمط النجوم العوالي» جـ٤ ص ٢٠٨.

(٢) عبدالله بن الهابر، كان شيخ الحرم المكي، توفي بمكة سنة ٤٢٠ هـ «إتحاف فضلاء الزمن» جـ١ ص ٢٩.

(٣) Enc. of Islam. Any. katada,

Hogarth, A history of Arabia, p.p. 82-83

(٤) المتكا، «موضع بالحجاز لبني شديد» الهمداني، «صفة جزيرة العرب ص ٩٥» ولم اعثر في كتب الجغرافيا التي رجعت إليها على مكان المنظم.

(٥) الطبري، «إتحاف فضلاء الزمن» جـ١ ص ٢٩

(٦) الطبري، المرجع السابق جـ١ ص ٣٠، وحمد الجاسر، «بلاد ينبع» ص ٢٨.

(٧) القلقشندي، «صبح الأعشى» جـ٤ ص ٢٧٢، الصباغ، «تحصيل المرام ص ١٨٤».

ونرى أن في ذلك مبالغة كبيرة ، إذ أن نفوذ قتادة لم يتعد منطقة الحجاز و بالذات منطقة مكة و ينبع لأنه استولى على الطائف لفترة وجيزة ثم أخرج منها فكيف يمتد نفوذه فيما بعدها إلى اليمن ونجد ولم يشر إلى ذلك مؤرخوتلك النواحيوربما كان المقصود من ذلك أن حكام تلك المناطق خطبوا وده ليكونوا على علاقة حسنة مع حاكم مكة ، وعمل قتادة على تنظيم ملكه وأنشأ الوزارة وعين ابن الريحاني وزيرا له(١).

الصراع بين قتادة وسالم أمير المدينة

لم يكتف قتادة بالبلاد التي استولى عليها بل عمل على السيطرة على المدينة المنورة التي كانت تحت حكم أبناء عمه الحسينيين وكان أميرها آنذاك سالم بن قاسم الحسيني.

فبعد قضائه على محاولات الهاشميين لاسترجاع مكة جهز جيشاً كبيراً سار على رأسه سنة ٦٠١ هـ/١٢٠٥م لاحتلال المدينة ، واستعد له الأمير سالم بأن جهز جيشه بما يحتاجه من سلاح ومؤن وخرج للقاء قتادة ودارت بينهما معركة خارج المدينة قتل فيها جماعة من الطرفين وهزم الأمير سالم ولجأ إلى المدينة فتبعه وحاصره بها(٢).

وعمل سالم خلال حصار قتادة للمدينة على استخدام الدهاء والسياسة باستمالة أصحاب قتادة واغرائهم بالأموال لإثارتهم عليه ، وفي نفس الوقت أعاد تنظيم قواته واستعد لمعاودة قتال قتادة الذي كان مغرورا بقواته ، ومستهينا بقوات سالم الذي استعاض عن كثرة العدد بحسن السياسة والتدبير(٣).

و بعد فراغ سالم من إعادة تنظيم قواته وتجهيزها سار إلى المسجد النبوي وصلى عند الحجرة الكريمة ودعا الله أن ينصره على عدوه قتادة ثم خرج للقائه ، ودارت بينهما معركة حامية الوطيس قتل فيها جماعة من الفريقين وحلت الهزيمة بقتادة وجيشه الذي ولى الأدبار هارباً إلى مكة ، فلحق به سالم وحاصره بها(٤). ولجأ قتادة إلى ما سبق أن لجأ إليه سالم باستمالة بعض أتباعه بإغرائهم بالأموال ، فانضموا إلى قتادة وانقلبوا عليه ، و يقال إن مدة حصار سالم لمكة قدر حصار قتادة للمدينة ، وإن كانت المصادر لم توضح لنا كم دام الحصار لكليهما أو لأحدهما.

وأرسل قتادة إلى سالم يطلب منه فك الحصار عن مكة بأن قال له «ياابن العم كسرة بكسرة ، وأيام حصار بمثلها والبادئ أظلم فإن كان أعجبكم عامكم فعودوا ليثرب في القابل»(٥).

(١) هو سليمان بن عبدالله بن الحسن بن علي بن محمد بن عبدالسلام بن المبارك بن راشد التميمي الدارمي ، يكنى أبا الربيع بن أبي محمد ، و يلقب نجم الدين و يعرف بابن الريحاني المكي.
الفاسي ، «العقد الثمين» جـ ٤ ص ٦٠٧.
(٢) نفس المرجع جـ٧ ص ٤٢
(٣) نفس المرجع والجزء والصفحة
(٤) ابن الأثير: «الكامل» جـ٩ ص ٢٦٩ ، ابن كثير: «البداية والنهاية» جـ١٣ ص ٤١
(٥) الفاسي: المرجع السابق جـ٧ ص ٤٢

وقد شعر سالم بتآمر بعض أتباعه مع قتادة وأنهم سينقلبون عليه، لذا قرر العودة إلى المدينة مكتفياً بما حل بقتادة وقواته، وقد قال قتادة في تلك الحروب:

مصارع آل المصطفى عدن مثل ما بدأن ولكن صرن بين الأقارب(١)

وهذا يعني أن الصراع في الحجاز أصبح بين أبناء العم من بني الحسن و بني الحسين الذين لافرق بينهم وإن كان الطبري يقول «الحسني بالخلافة له أعلى مقام، فلزم له وجوب الأدب»(٢). وخلال المعركة وقع ابن الريحاني وزير قتادة في أسر سالم الذي أحسن إليه وأكرمه، وكان أسود اللون، ضخم الجثة، قبيح الصورة ولما حضر بين يدي سالم قال له: «من كان دبر رأيه وهذه صورته فيجب على خصم صاحبه ألا يمسكه عنه متى حصل في يده فاذهب إلى صاحبك»(٣).

و بعدما اخلي سبيله عاد إلى قتادة الذي سأله عما فعل به الأمير سالم فقال له: ياأمير المؤمنين. الفاطميون يحسنون إلى الناس و يسيء بعضهم إلى بعض(٤) فأعجب قوله ذاك قتادة وطرب له وأخذ يردده.

وهنا نلاحظ أن ابن الريحاني قد نعت قتادة بأمير المؤمنين. فهل يعني ذلك أنه ادعى الخلافة؟ لأن ذلك من ألقاب الخلفاء؟ لا أظن ذلك وربما قصد من ذلك الإمعان في الطاعة والأدب وتعظيم ولي نعمته.

أما الصراع بين قتادة وسالم فلم ينته عند ذلك الحد بل استمر طويلا. فقد حدث أن توجه الملك المعظم عيسى بن العادل بن ابي بكر ابن أيوب سنة ٦١٠هـ/١٢١٤م للحج، وفي طريقه من الشام إلى مكة مر بالمدينة فاستقبله الأمير قاسم استقبالا حسنا وقدم إليه كل ما يحتاجه من خيل ومؤن وهدايا ثمينة، كما قدم له مفاتيح المدينة وأنزله في داره وسهر على راحته وخدم خدمة ممتازة وأكرم غاية الكرم، فسر بذلك.

وعندما وصل مكة استقبله الأمير قتادة يوم الثلاثاء السادس من ذي الحجة من ذلك العام، وسأله المعظم عن المكان الذي سينزل فيه، فأشار بسوطه في اتجاه الأبطح وقال: هناك فنزل مع أصحابه في الأبطح وأرسل اليهم قتادة هدايا يسيرة.

وكان قد حج معه الشريف قاسم أمير المدينة وحاول قتادة إمساكه ولكنه لم يستطع(٥) لأنه كان في حماية المعظم الذي غضب منه، و بعد أداء مناسك الحج عادوا إلى الشام عن طريق المدينة فبالغ الأمير سالم في إكرامهم و وفر لهم كل وسائل الراحة، وأثناء إقامته بالمدينة اشتكى إليه الأمير سالم من ظلم قتادة وجوره فزاد ذلك من حقد المعظم عليه خصوصا بعد ذلك الاستقبال الفاتر الذي

(١) الطبري: المرجع السابق جـ١ ص ٣١
(٢) نفس المرجع والجزء والصفحة والفاسي: المرجع السابق جـ٧ ص ٤٢
(٣) الفاسي: المرجع السابق جـ٤ ص ٦٠٩ — ٦١٠
(٤) نفس المرجع والجزء ص ٦١٠
(٥) المقريزي: السلوك جـ١ قسم ١ ص ١٨٠

قابلهم به، فوعده بوضع حد لصلفه وغروره.

وقد وفّى الملك المعظم عيسى بوعده، إذ فور عودته للشام جهز جيشاً بقيادة الأمير الناهض بن الجرخي وأرسله إلى المدينة، فاستقبلهم الشريف سالم استقبالاً حسناً وأكرمهم وساروا إلى مكة لقتال قتادة الذي ما ان سمع بقدومهم حتى غادرها كيلا يقع في أيديهم(١).

يتضح من ذلك أن القتال الذي دار بين الناهض والمدنيين وبين قتادة قد حدث سنة ٦١٢هـ/١٢١٦م حسب رواية ابن الجوزي، أما المراجع الأخرى فتذكر أنها حدثت سنة ٦١١هـ/١٢١٥م وان الأمير سالما اشترك فيها بنفسه.

إذاً هل جاءت النجدة من بلاد الشام وسار معها الأمير سالم إلى مكة وان قتادة قد خرج منها دون قتال؟ وهل مات سالم خلال عودته من الشام؟ وهل جرت بينهما معركة الصفراء؟

على الرغم من الغموض الذي يخيم على تلك الأحداث إلا أننا نرى أن الملك المعظم أرسل إلى عمه السلطان الكامل في مصر يعلمه بما هو حادث في الحجاز وظلم قتادة وانتظر رده، وعندما طال الرد استبطأ الأمير سالم النجدة، فخرج لاستعجالها والتقى بالناهض وقواته في الطريق فاصطحبهم إلى المدينة، وخرج معهم لقتال قتادة الذي استعد لهم وخرج على رأس قواته لقتالهم. وكل ذلك خلال سنة ٦١١هـ/١٢١٥م. ودارت بينهما معركة الصفراء التي هزم فيها قتادة ولجأ إلى حصنه في ينبع وحاصروه به، واستمر الحصار فترة حتى دخلت القوات سنة ٦١٢هـ/١٢١٦م و يبدو أنه خلال ذلك توفي الأمير سالم وخلفه ابن أخيه قاسم بن جماز الذي واصل الصراع مع قتادة، وأصبح يرد على اعتداءات قتادة بمثلها بل أخذ يكثر من الهجوم على ممتلكاته إذ لم تكد تلك المعارك تنتهي حتى أعد الشريف قاسم قواته وهاجم وادي القُرى(٢) ودخله واستولى عليها وأقام بها، استعدادا لمهاجمة مكة بعد انقضاء مناسك الحج وعودة الحجيج إلى بلادهم. وذلك سنة ٦١٣هـ/١٢١٧م.

و يبدو أن قتادة كان قد استنجد بالسلطان الكامل محمد في مصر الذي أرسل قواته إلى ينبع وتسلمتها من نواب قتادة لحمايتها من هجوم قاسم عليها(٣).

ونرى هنا أن حكام مصر الأيوبيين يساعدون حكام المدينة تارة وحكام مكة تارة أخرى أي انهم كانوا يتبعون سياسة متوازنة بينهما لا يريدون أن تكون غلبة لأحدهما على الآخر.

ومع ذلك فإن قتادة لم ينتظر قاسما حتى يهاجمه في عقر داره بل جهز قواته وسار إليه والتقى معه

---

(١) ابوشامة: ذيل الروضتين ص ٨٧، والطبري: المرجع السابق جـ١ ص ٣٤

(٢) وادي القرى: بضم القاف وفتح الراء المهملة وألف في الآخر. قال في الروض المعطار: هي مدينة كثيرة النخل والبساتين والعيون و بها ناس من ولد جعفر ابن أبي طالب وهم غالبون عليها وتعرف بالواديين والذي أخبرني به بعض أهل الحجاز انه كان بها عيون كثيرة عليها عدة قرى فخربت لاختلاف العرب وهي الآن خراب لا عامر بها ولوعمرت أغنت أهل الحجاز عن الميرة من غيرها «القلقشندي صبح الأعشى جـ٤ ص ٢٩٢، راجع أيضا الاصطخري: المسالك والممالك ص ٢٣».

(٣) ابوشامة: ذيل الروضتين ص ٩٢

يوم النحر من ذلك العام ودارت بينهما معركة الحميمة(١) التي هزم فيها قاسم وعاد إلى المدينة.

وأصبحت الحرب سجالا بين الطرفين، فقد أعد قتادة سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م قوات كبيرة سار على رأسها رغم مرضه لحصار المدينة والاستيلاء عليها ولكنه لم يكد يصل الفرع(٢) حتى اشتد عليه المرض، فأوكل قيادة القوات إلى أخيه الحسن، وإلى ابنه الحسن وعاد إلى مكة، وواصل الجيش سيره إلى المدينة.

ولم يبتعدوا عن الفرع إلا قليلا حتى بلغ الأمير حسن بن قتادة عن عمه قوله: ان أخاه مريض وانه ميت لامحالة وحلفهم لنفسه من بعده، فسار الحسن مصطحبا معه العديد من الأشراف والمماليك التابعين لأ بيه ــ إلى عمه وقال له: قد فعلت كذا وكذا. فقال: لم أفعل من ذلك شيئا. ولكن الحسن قرر التخلص من عمه المنافس له على إمرة مكة سواء قال أو لم يقل، خصوصا وأنه يعرف شدة مرض أبيه وأنه لابد ميت، فأصدر أوامره للحاضرين بقتله فرفضوا قائلين «أنت أمير، وهذا أمير، ولا نمد أيدينا لأحدكما، فقال له غلامان لأ بيه: نحن عبيدك فمرنا بما شئت، فأمرهما بأن يجعلا عمامة عمه في حلقه ففعلا ثم قتله»(٣) و بذلك تخلص الحسن من عمه.

وعندما علم قتادة بذلك أقسم ليقتلن ابنه، وكان قد اشتد عليه المرض فأرسل بعض أصحاب الحسن إليه بأن والده يتوعده بالقتل لقتل عمه، وطلبوا منه الحضور للتخلص من أبيه وهو على تلك الحال قبل فوات الآوان فبادر هو بقتله فعاد إلى مكة وقتله(٤) كما سنبين ذلك فيما بعد.

ورغم أن المصادر لم توضح لنا مصير الحملة وما آلت إليه إلا أنه مما لاشك فيه أنها عادت إلى مكة لأن قائدها قد قتل، كما عاد مساعده لمكة لقتل أبيه وقد أنقذ ذلك المدينة من خطر محقق كان محدقا بها.

الحرب بين قتادة وثقيف:

لم يقتصر العداء بين قتادة وأمراء المدينة بل امتد إلى الطائف التي عمل على الاستيلاء عليها وإخضاعها لسلطانه، وضمها لممتلكاته فقد جهز سنة ٦١٣هـ/١٢١٧م جيشا سار على رأسه لقتال ثقيف. ولم تذكر لنا المصادر الأسباب التي دفعته إلى ذلك ولكننا نرى أن الأسباب هي:

١ ــ بعد استيلاء قتادة على مكة ازدادت أطماعه، فأراد تكوين دولة كبرى ولتحقيق ذلك فلابد من الاستيلاء على المناطق المجاورة لممتلكاته. وعندما فشل في الاستيلاء على المدينة قرر

(١) الحميمة: قرية ببطن مر من نواحي مكة بين سروعة والبرابر فيها عين ونخل «ابن عبدالحق» مراصد الاطلاع جـ١ ص ٣١٥

(٢) الفرع: حصن بالحجاز به جامع «المقدس: أحسن التقاسيم ص ٧٩»

(٣) ابن الأثير: الكامل جـ٩ ص ٣٤٦

(٤) نفس المرجع والجزء والصفحة، الذهبي: تاريخ الإسلام جـ ٢٩ لوحة ٢٣٨، ابو الفدا: المختصر جـ٣ ص ١٣٠ ــ ١٣١، الفاسي: العقد الثمين جـ٤ ص ١٧١ ــ ١٧٢

الاستيلاء على الطائف.

٢ــ لأن الطائف مشهورة منذ القدم بأنها من أغنى مناطق الحجاز لاشتهارها بالزراعة، وهي التي كانت تمد مكة بما تحتاج إليه، لذا قرر الاستيلاء عليها لتعود خيراتها عليه وهذا يساعده على زيادة قوته المادية والعسكرية.

٣ــ لأنه كان يطمع في مد نفوذه إلى نجد، ولا يتم له ذلك إلا بالاستيلاء على الطائف مفتاح نجد(١).

٤ــ لأن أهل الطائف معروفون بالشدة والجلد والشجاعة متمرسون على فنون الحرب والقتال، وإذا تم له السيطرة عليها فبإمكانه استخدام رجالها. في جيشه، فيزداد بهم قوة، و يستطيع أن يحارب أينما شاء(٢).

٥ــ لأن الطائف مشهورة بحصونها المنيعة، فإذا ما تم له السيطرة عليها فإن بإمكانه اللجوء إليها والتحصن بها إذا ما تعرض لأي اعتداء في مكة مما يمكنه من إعادة تجميع قواته وتعبئة رجال الطائف و يتصدى للعدوان(٣).

لكل ذلك فكر قتادة فيما أرى في الاستيلاء عليها. لذا نراه بعد إعداد جيشه وتجهيزه بكل ما يحتاجه من عدة وعدد ومؤن يسير إليها و يستولي عليها. ورغم أن المصادر لم توضح لنا كيف تم له ذلك، إلا أنه يبدو أن أهل الطائف كانوا قد أعدوا قواتهم وتصدوا له، ولكنهم لم يكن لهم طاقة به فتغلب عليهم مما اضطرهم إلى اللجوء إلى حصونهم والتحصن بها. فأرسل إليهم قتادة ليحضروا إليه وهددهم وتوعدهم بالقتل والسبي إن لم يحضروا و ينصاعوا لأ وامره كما أرسل لهم بالأمان. على أنفسهم ونسائهم وأموالهم وممتلكاتهم. فاجتمع بنو ثقيف وتدارسوا الأمر فيما بينهم وقرروا الذهاب إليه خوف أن يهلكهم و يقضي عليهم و ينفذ تهديداته فيهم، و يبدو أنهم قرروا إرسال زعمائهم إليه فقط، فساروا إليه وأعلنوا تسليم المدينة إليه ولكنه نقض أمانه لهم بأن قتلهم جميعا، وأذل أهل الطائف إذلالا لم يسبق له مثيل، وعين عليهم حكاماً ونواباً من قبله يساعدهم بعض عبيده في حكمها، و يقول الفاسي في هذا بأنه «لم يبق لأهل الطائف معهم كلمة ولا حرمة»(٤).

ولكن أهل الطائف كانوا رجالا أشداء دهاة ليس من السهل قيادتهم وحكمهم، كما أنهم ذو و مكر وتمرس في فنون الحيل والخداع، لذلك فقد اجتمعوا وحبكوا مؤامرة للقضاء على اتباع قتادة. وقد اتفقوا على استدعائهم للتشاور في أمر كتاب ورد إليهم من الشريف قتادة، على أن يدفن كل واحد منهم سيفه في المكان الذي سيجلس فيه في المجلس الذي سيعقد فيه الاجتماع، وأتقنوا إحكام تلك المؤامرة وأحاطوها بالسرية والكتمان حتى لا تتسرب أخبارها إليهم.

و بعد أن أعدوا كل شيء وأحكموا الحيلة استدعوهم فحضروا دون أسلحتهم لاستهتارهم

---

(١) الفاسي: العقد الثمين جـ٦ ص ١٧٨

(٢) نفس المرجع والجزء والصفحة

(٣) نفس المرجع والجزء ص ١٧٩

(٤) الفاسي: العقد الثمين جـ٤ ص ١٧٣

بأهل الطائف لما أوقعوه في نفوسهم من الخوف والفزع و بعد ما جلس كل منهم في المكان المقرر له الجلوس فيه حسب التقاليد، واطمأن أصحاب قتادة أخرج كل رجل من أهل الطائف سيفه من مخبئه، و وثب على جليسه من أصحاب قتادة وقتله، ما عدا رجلا تمكن من الهرب وذهب إلى مكة و وصل إلى الأمير قتادة بعدما كان قد جن من هول ما رأى(١) وعرف قتادة ما حل بأصحابه، وأن أهل الطائف قد انتقموا منهم بالحيلة والخداع كما كان قتادة قد قتل زعماءهم بالحيلة والخداع أيضا بعد ما كان قد أعطاهم الأمان، وأصبحت واحدة بواحدة والبادىء أظلم و بذلك تخلص أهل الطائف من حكم قتادة.

وفقد في تلك الواقعة الكتاب الذي كان قد أرسله الرسول (صلى الله عليه وسلم لأهل الطائف الذين كانوا يحتفظون به حتى ذلك الحين في بيت زعيمهم حمدان الثقفي العوفي والذي قتله قتادة مع من قتل بدار بني يسار عندما غدر بهم.

وفي ذلك يقول الفاسي نقلا عن الميورقي: «قال لي تميم بن حمدان الثقفي العوفي: قتل أبي رحمه الله في نوبة الشريف قتادة لمشايخ ثقيف بدار بني يسار من قرى الطائف، ونهب الجيش البلاد، ففقدنا الكتاب في جملة ما فقدناه، وقد كان عند ابي لكونه شيخ قبيلته»(٢).

ومع ذلك فإن المصادر لم توضح لنا متى تم القضاء على حكم قتادة للطائف، وإن كنا نرى أنه لم يدم طويلا، وانهم استقلوا في نفس العام الذي تم فيه الاستيلاء عليها، لأن أهل الطائف لا يستطيعون الصبر طويلا على الذل والظلم منتهزين بذلك فرصة سحب قتادة قواته من الطائف لمواجهة قوات قاسم بن جماز أمير المدينة الذي سار للاستيلاء على مكة في ذلك العام(٣)، فدبر أهل الطائف حيلتهم في ذلك الوقت المناسب وعادت الطائف مستقلة تحت حكم بني ثقيف.

قتادة والعباسيون وحجاج العراق:

كانت العلاقات ودية بين العباسيين وأشراف مكة، ولكنها كانت تسوء أحيانا لأتفه الأسباب مما يؤدي إلى اعتداء أهل مكة على الحجاج العراقيين ينهبونهم و يسلبون ممتلكاتهم وذلك منذ حكم الهاشميين واستمر الحال على ذلك زمن قتادة.

والملاحظ على حكم قتادة لمكة أنه سار في بداية الأمر سيرة حسنة ومنع المفسدين وأنغى المكوس والضرائب عن الحجاج فصاروا يغدون و يروحون في أمن وسلام ولكن تلك السياسة الحسنة لم تلبث أن تبدلت فجأة وانقلبت رأسا على عقب، وسبب ذلك قيام بعض الحشيشين ــ إحدى الطوائف الإسماعيلية ــ بقتل ابن عم قتادة المدعو الشريف أبا هاشم عزيز ــ الذي كان شديد الشبه به ــ ظنا

(١) نفس المرجع والجزء والصفحة
(٢) نفس المرجع والجزء والصفحة
(٣) المقريزي: السلوك جـ١ قسم ١ ص ٢١٩

منهم أنه الأمير قتادة في منى عند الجمرة الكبرى سنة ٦٠٨هـ/١٢١٢م(١). وكان الذي قتله من الركب العراقي مع أم جلال الدين حسن إمام الباطنية صاحب الألموت الذي كان قد عاد إلى المذهب السني وأظهر الشعائر الإسلامية في بلاده في هذا العام وأمر رعيته بأداء الفرائض الإسلامية وإقامة الشريعة وأرسل والدته لتحج عن طريق العراق(٢). وقد هاج أهل مكة إثر مقتله ــ أشرافها وعبيدها ــ وصعدوا الجبال المحيطة بمنى وهللوا وكبروا وضربوا الحجاج العراقيين بالحجارة والنشاب والمقاليع، وهجموا عليهم وأعملوا فيهم النهب والسلب يومي العيد واليوم التالي له، وقتل من الفريقين جماعة.

وكان أمير الحج العراقي في ذلك الوقت علاء الدين محمد بن ياقوت الذي ولي امرة الحج ذلك العام نيابة عن أبيه وكان يرافقه مستشاره حسام الدين ابن فراس الذي كان يثقفه و يدبر أموره أثناء الحج، وقد أشار على علاء الدين بالرحيل إلى الزاهر التي كان قد سار إليها حاج الشام ليستجيروا بهم. و بينما هم يستعدون ويحملون أثقالهم على إبلهم إذ هاجمهم الشريف قتادة واستولى عليها ولم ينج منها إلا القليل وكان ناقما على العراقيين لتأكده أنه المقصود بالقتل وقال في ذلك: «ما كان المقصود إلا أنا، والله ما أبقيت من حاج العراق أحدا»(٣).

وكان أمير الحاج الشامي الصمصام إسماعيل وكان مع الركب ربيعة خاتون بنت أيوب أخت السلطان العادل. وعندما وصل العراقيون الزاهر استجاروا بربيعة خاتون. عندئذ أرسلت ابن ياقوت صحبه ابن السلار أحد قادة الركب الشامي إلى الشريف قتادة وقالت له: «ما ذنب الناس قد قتلت القاتل، وجعلت ذلك وسيلة إلى نهب المسلمين واستحللت الدماء في الشهر الحرام والمال وقد عرفت من نحن، والله لئن لم تنته لأفعلن ولأفعلن»(٤).

فجاء إليه ابن السلار ومعه ابن ياقوت وهدده وتوعده وانه سيتحمل مغبة أعماله الطائشة وقال له: «ارجع عن هذا وإلا قصدك الخليفة من العراق ونحن من الشام» فكف عنهم وطلب مقابل ذلك مائة ألف دينار فجمعوا له ثلاثين ألفا من أمير الحج العراقي ومن الخاتون أم جلال، وأقام الناس ثلاثة أيام حول خيمة ربيعة خاتون بين قتيل وجريح وعار وجوعان(٥).

و بلغ ما حصل عليه قتادة من السلب والنهب ما قيمته مليونا دينار وعلى أثر ذلك سمح للناس بدخول مكة. فدخلها الأقوياء منهم وطافوا بالكعبة وأي طواف وقد كانوا يخشون الاعتداء عليهم وقتلهم بين لحظة وأخرى.

---

(١) المقريزي: السلوك جـ١ قسم ١ ص ١٧٥، ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص ٦٧

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ٢١٠ ــ ٢١١

(٣) العصامي: سمط النجوم العوالي جـ٤ ص ٢١٠ وابو شامة: ذيل الروضتين ص ٧٨، ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ص ٥٥٦

(٤) الفاسي: العقد الثمين جـ٧ ص ٤٨. مؤلف مجهول: رسالة في النسب الشريف العلوي ص ٢٠٢

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ٩ ص ٣٠٥، ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ٢١٠ ــ ٢١١

ومعظم الناس ساروا إلى المدينة دون طواف ومنها ساروا إلى بغداد فوصلوها وهم في حالة يرثى لها مما أصابهم من الذل والهوان والجوع والمرض(١).

وقد ظن الشريف قتادة أن الخليفة الناصر هو الذي دبر تلك المؤامرة للتخلص منه، وهدد بأنه سيقتل كل من سيصل من العراق إلى مكة بعد ذلك.

لكن هل دبر الخليفة قتل قتادة؟ هذا مستبعد جداً لأن العلاقات كانت بين العباسيين وأشراف مكة طيبة، وكان الأشراف يخطبون للخلفاء العباسيين فلماذا إذن يدبر مؤامرة لقتله، وإذا كان يريد قتله أو عزله فلماذا يرسل له من يغتاله؟ ولماذا لا يرسل له جيشاً يقضي عليه و ينحيه كما حصل قبل ذلك مع مكثر وداود؟

ولكننا نؤيد الرأي القائل بأن مدبري المؤامرة هم بعض الإسماعيلية المتطرفين الذين عز عليهم أن يخطب في مكة للعباسيين والأيوبيين السنة، لذلك أرادوا التخلص من قتادة ليحلوا محله رجلاً لا يخطب للعباسيين و ينشر مذهبهم في مكة، أو لإساءة العلاقة الحسنة القائمة بين العباسيين وقتادة، وإن كان ذلك غرضهم فقد نجحوا في ذلك وساءت العلاقات بينهما إلى حين.

ومما يثبت أن الخليفة لم يدبر تلك المؤامرة أنه أرسل إلى قتادة في العام التالي الأموال والخلع وكسوة الكعبة كالعادة مع أمير الحج العراقي حسام الدين بن أبي فراس الذي حج بالناس نيابة عن الأمير محمد بن ياقوت، ولم يعاتبه على ما فعله مع الحجاج العراقيين في العام السابق(٢).

ولكن قتادة ظن أن الخليفة يحاول خداعه حتى يقع في شراكه و ينتقم منه. وذكر ذلك أمام الأشراف وأتباعه وعبيده الذين قام بعضهم إلى أطراف الحج العراقي ونهبوه، و يبدو أن قتادة قد أمرهم بالكف عن ذلك وإلا لوقع القتال بين الفريقين.

وقد نصح أمير الحج العراقي حسام الدين الشريف قتادة بعدم التمادي في الإساءة إلى الخليفة وإلى الحجاج بأن قال له «يقول لك مولانا الوزير وليس كمال الدنيا إلا بتقبيل العتبة ولا عز للدنيا والآخرة إلا بنيل هذه المرتبة» أي طلب منه أن يعلن الولاء والطاعة للخليفة. عندئذ عقد قتادة اجتماعا للأشراف و بين لهم أن ذلك استدراج لهم وله حتى يتمكن أمير الركب منهم فيقبض عليهم و ينتقم منهم وقال لهم: «يابني الزهراء عزكم إلى آخر الدهر مجاورة هذه البنية والاجتماع في بطحائها، واعتمدوا بعد اليوم أن تعاملوا هؤلاء القوم بالشر يوهنوكم من طريق الدنيا والآخرة ولا يرغبوكم بالأموال والعدد فإن الله عصمكم وعصم أرضكم بانقطاعها وأنها لا تبلغ إلا بشق الأنفس»(٣) أي انه حرضهم على عدم الطاعة والولاء للعباسيين بل لابد من معاملتهم بالشدة والقسوة عندئذ يحترمونهم و يهابونهم.

(١) ابو شامة: المرجع السابق ص ٧٨

(٢) ابو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٢٠٦ (٣) ابو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٢٠٦.

ورد قتادة على الخليفة شعراً(١) بحضور أمير الركب العراقي وطلب منه أن ينقله إلى الخليفة الناصر فرد عليه أمير الركب قائلا «ياشريف أنت ابن بنت رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، والخليفة ابن عمك، ولكنني رأيت أن هذا من شرف العرب الذين يسكنون البوادي، ونزعات قطاع الطرق، ومخيفي السبيل حاشى لله أن أحمل هذه الأ بيات عنك إلى الديوان العزيز فأكون قد جنيت على بيت الله، وبني بنت نبيه (صلى الله عليه وسلم)، ما ألعن عليه في الدنيا وأحرق بسببه في الآخرة، والله لوبلغ هذا حيث أشرت لترك كل وجه وجعل جميع الوجوه إليك حتى يفرغ منك ما لهذا ضرورة.

إن قد خطر لك أنهم استدرجوك لا تسر إليهم، ولا تمكن من نفسك وقل جميلا، وإن كان فعلك ما علمت(٢) وبذلك فقد وقف حسام الدين من الشريف قتادة موقف الناصح كيلا يغضب منه الخليفة أو أن يرسل إليه قواته لتأديبه وتقضي عليه وعلى أتباعه.

ولم يكن كالانتهازيين الذين يستفيدون من إساءة العلاقات، وثبت لقتادة أنه رجل عاقل ناصح له يسعى إلى عمل الخير، وشكره على ذلك وسأله عما يجب عليه أن يفعل فقال له: «إن ترسل من أولادك من لا تهتم به إن جرى عليه ما يتوقعه ومعاذ الله أن يجري إلا ما تحبه وترسل معه جماعة من ذوي الأسنان والهيئات من الشرفاء فيدخلون مدينة السلام وفي أيديهم أكفانهم منشورة وسيوفهم مسلولة ويقبلون العتبة، ويتوسلون برسول الله (صلى الله عليه وسلم) ويصفح أمير المؤمنين وسترى ما يكون من الخير، والله لئن لم تفعل هذا لتركبن الإثم العظيم ويكون مالا يخفى عنك»(٣).

فشكر الشريف قتادة الأمير حسام الدين مرة أخرى، وقرر العمل بنصيحته وجهز ولده راجح وبعض وجهاء الأشراف وأرسلهم إلى العراق، فدخلوا بغداد على الصورة التي رسمها لهم الأمير حسام الدين، وهم يبكون ويتوسلون بالخليفة أن يصفح عن قتادة. واجتمع ذلك اليوم خلق كثير،

(١) ذهب الشريف قتادة بعد ذلك الاجتماع إلى الأمير حسام الدين بن أبي فراس واسمعه جوابه بشعر نظمه فقال:

بلادي وإن جارت عليّ مريفة ... ولو أنني أعرى بها وأجوع
ولي كف ضرغام إذا ما بسطتها ... بها اشتري يوم الوغى وأبيع
معودة لثم الملوك لظهرها ... وفي بطنها للمجملين ربيع
أأتركها تحت الرهان وأبتغي ... بها بدلا إني إذا لرقيع
وما أنا إلا المسك في غير أرضكم ... أضوع وأما عندكم فأضيع

الطبري: إتحاف فضلاء الزمن جـ١ ص ٣٣، وذكرت هذه الأبيات في العديد من المصادر ناقصة البيت الأول مع اختلاف في بعض الأبيات. راجع: أبو شامة ذيل الروضتين ص ١٢٣، ابن الأثير: الكامل جـ٩ ص ٣٤٦، العصامي سمط النجوم العوالي جـ٤ ص ٤٠٩، ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ص ٦١٨، ابو الفدا: المختصر في أخبار البشر جـ٣ ص ١٣١، وابن الوردي: تتمة المختصر جـ٢ ص ٢١٣ وغيرها.

(٢) الفاسي: العقد الثمين جـ٧ ص ٥١

(٣) نفس المرجع ص ٥١ ــ ٥٢

وجاءوا إلى باب النوبي وهو أحد أبواب بغداد ــ وأعلنوا فروض الولاء والطاعة بأن قبلوا العتبة. وعندما علم الخليفة بذلك عفا عنهم وعن مرسلهم، واستقبلوا استقبالا حسنا، وأكرموا غاية الإكرام، وخلع عليهم. وعادوا إلى الشريف قتادة في صورة حسنة، فسر لذلك سرورا بالغا، وكان بعد ذلك يقول: «لعن الله أول رأي عند الغضب، ولا عدمنا عاقلا ناصحا يثنينا عنه»(١).

ثم أرسل الخليفة الناصر إلى الشريف قتادة يدعوه لزيارة بغداد لإكرامه، ولزيارة المشهد الغروي ــ وهو محل يقال له النجف به مشهد الحسين بن علي ــ فسار إلى بغداد وعندما اقترب منها خرج أهلها لاستقباله. ولكن لم يلبث أن عاد دون أن يدخلها(٢) خوفا من أن يلقي الخليفة القبض عليه. وقال: «مالي ولبلدة تذل فيها الأسود»(٣) وعاد إلى مكة، وكتب إلى الخليفة تلك الأبيات سالفة الذكر مع بعض التحريف، وعندما بلغ الخليفة ذلك غضب غضبا شديداً وأرسل إلى قتادة كتاباً قال فيه «أما بعد فإذا نزع الشتاء جلبابه دموع الربيع العرابة، قابلناكم بجنود لا قبل لكم بها ونخرجنكم منها أذلة وأنتم صاغرون»(٤).

فخاف قتادة خوفا شديدا وطلب النجدة من ابناء عمومته بالبادية من آل موسى وجعفر من آل ابي طالب ومن أعدائه أبناء عمه الحسينيين في المدينة(٥) فجاءته النجدات من كل حدب وصوب واجتمع لديه الرجال وجاءت قوات الناصر لمكة فهزمها قتادة هزيمة منكرة، وفي ذلك قال الطبري «فأمنته منهم رجال النجدة، ذوات العدد والعدة، فلما اقبلت تلك الكتيبة الناصرية كسرها و بدد شملها وقهرها»(٦).

واضاف إلى ذلك أن قتادة أرسل إلى الخليفة بعد ذلك النصر الذي أحرزه على قواته معتذرا طالبا الصفح والعفو، فعفا عنه وأرسل له الهدايا الثمينة وأقطعه الاقطاعات الكثيرة (٧).

---

(١) الفاسي: العقد الثمين جـ٧ ص ٥٢

(٢) الطبري: إتحاف فضلاء الزمن جـ١ ص ٣٣ وكانت صيغة الدعوة «ياابن العم والصاحب، قد بلغني شهامتك وحفظك للحاج وعدلك وشرف نفسك وعفتك ونزاهتك وقد أحببت أن أراك وأشاهدك وأحسن إليك»

(٣) المرجع السابق والجزء والصفحة و يضيف بأن قتادة عندما اقترب من بغداد وخرج الناس لاستقباله كان من بينهم رجل درويش ولما رآه قتادة تطير منه وقرر العودة

(٤) كتب إليهم يقول:

بني عمنا من آل موسى وجعفر ... وآل حسين كيف صبركم عنا
بني عمنا إنا كأفنان دمعة ... فلا تتركونا تتخذنا الفنا فنا
إذا ما أخ خلى أخاه لآكل ... بدأ بأخيه الأكل ثم به ثنا

الطبري: إتحاف فضلاء الزمن جـ١ ص ٣٣

(٥) نفس المرجع والجزء والصفحة ٣٤

(٦) نفس المرجع والجزء والصفحة

(٧) **الطبري: إتحاف فضلاء الزمن جـ١ ص ٣٤، وهذا الرجل نسبه علوي إذ ينتسب إلى الحسن بن علي بن أبي طالب، و يظهر تحيزه في معظم ما كتبه عن بني الحسن.**

هذا ما أورده الطبري ولكننا نشك في ذلك وان الطبري قد اختلق هذه القصة التي لا أساس لها من الصحة، وهو كعلوي متعصب أراد أن يظهر قوة العلويين في الحجاز الذين بإمكانهم الاتحاد والتصدي لأعدائهم وقهر أي قوة حتى لو كانت قوات الخلافة.

أو يعقل أن يرسل الخليفة إلى ابن عمه يدعوه لزيارته وزيارة مشهد الحسين الذي يكن له قتادة كل احترام وتقدير، فيذهب وعندما تخرج بغداد لاستقباله يتطير من رجل لأن شكله لم يعجبه فيعود من حيث أتى ليهجو الخليفة دون مبرر، وكان في إمكانه إذا كان قد ذهب إلى العراق وعاد أن يرسل إلى الخليفة كتابا رقيقا يعتذر فيه عن عدم إمكانه مواصلة رحلته لبغداد متعللا بأي سبب كان، بدلا من التهجم عليه، ثم إن جميع المصادر التي بين أيدينا لم تذكر أن الخليفة أرسل كتيبة لقتال قتادة وهزمت، كما لم يذكر أي منها ذهاب قتادة للعراق وهذا ما نرجحه، وربما أراد تضليل القارىء بإظهار الشيعة المتنافسين المتصارعين الذين كثر القتال بينهم في تلك الآونة بمن يتناسون خلافاتهم إذا ما تعرض أحدهم لخطر خارجي كالخليفة العباسي.

وربما كان الخليفة الناصر قد أرسل يتهدد و يتوعد قتادة على أثر اعتدائه على الحجاج العراقيين، فرد عليه يهجوه، وتراجع عن ذلك عندما نصحه الأمير حسام الدين فأرسل يعتذر للخليفة عما بدر منه فعفا عنه وأقطعه الإقطاعات إذ لا يعقل أن يرسل إليه قوات لقتاله و بعد أن تهزم يرسل إليه قتادة معتذرا فيكافئه بالهدايا والإقطاعات على ذلك. خصوصا وأن قتادة كان رجلا داهية محنكا وصفه أبو شامة نقلا عن ابن سعيد بقوله: «إنه أدهى وأشهر من ملك مكة»(١).

وكان قتادة يخطب للخليفة الناصر ثم يخطب لنفسه من بعده، و بالرغم من أنه كان يرى أنه أحق بالخلافة منه إلا أنه لم يكن يجرؤ على إدعاء الخلافة كما أن أبا شامة يروى أنه لم يطأ بساطا لخليفة ولا غيره، بل كانت تحمل إليه الخلع والأموال والذهب، والعطايا، من بغداد كل عام وهو في دار ملكه(٢).

كما أن ابن الجوزي ذكر أن الأبيات سالفة الذكر ليست لقتادة بل لوكيله أحمد بن الخصيب الذي كان ينوب عنه، وكان قد وشى به لديه بجناية ارتكبها فعزم على القبض عليه ومعاقبته، فهرب، فكتب إليه يؤمنه ويحلف إليه أنه لم يصدق ما نسب إليه و يأمره بالعودة لعمله(٣).

---

(١) ابو شامة: ذيل الروضتين ص ١٢٣

(٢) نفس المرجع والصفحة

(٣) فكتب إليه يقول:

أنا لك بإذا الدرتين سميع ... واني لما تهوى إليه سريع

ولكن لي كفا أعيش ببطشها ... فما اشتري إلا بها وأبيع

أأجعلها تحت الرحى ثم ابتغي ... خلاصا لها إني إذا لرقيع

كتاب الأذكياء ص ٤٥

أما الفاسي فينسب هذه الأ بيات إلى ابن سعد على بن قتادة اعتمادا على ورقة رآها معه حيث ذكر أنه كان قد توجه إلى العراق، ولما أشرف على بغداد رجع وقال الأ بيات سالفة الذكر(١).

أما بالنسبة إلى سياسة قتادة وأخلاقه فإنه كان قد اتبع في بداية حياته سياسة حكيمة إذ طبق العدل، وأنصف المظلوم، وساد البلاد الأمن والاستقرار ووضع حدا لفساد عبيد مكة الذين طالما اعتدوا على الناس وأصبح الحجاج آمنين مطمئنين على أنفسهم وأموالهم، كما كان محبا لفعل الخير كثير الإحسان.

وكان قد طعن في السن وحنكته الأ يام وجعلت منه أحد الدهاه المشهورين ولم يسبق لأحد من أمراء مكة أن أصبح له من الشهرة والهيبة ما كان للشريف ابي عزيز قتادة، كما أنه لم يكن يهتم لأحد مهما علا مركزه. وكان يخطب للخليفة الناصر على الرغم من أنه يعتبر نفسه أحق منه بالخلافة كما ذكرنا ولم يرتكب كبيرة قط. وكان شيعي المذهب. وكان يؤذن في الحرم في عهده ب «حيّ على خير العمل»(٢).

وكان يخشى الله و يتراجع عن الظلم إذا ظلم أحدا، يدل على ذلك ظلامة ظلمها لرجل من سرو(٣) اليمن يعرف بثابت بن قحطان، كان قد قدم للحج ومعه مال يتاجر به فاستولى عليه الشريف قتادة ظلما وعسفا، وكان يتمشى يوما في الحرم فسمع ذلك الرجل يطوف بالبيت و يقول: «اللهم بهذا البيت المقصود، وذلك المقام المحمود، وذاك الماء المورود، وذاك المزار المشهود، إلا ما أنصفتني ممن ظلمني وأحوجت إلى غيرك من إلى الناس أحوجني، وأريته بعد حلمك اخذك الأليم الشديد ثم أصليته نارك، وما هي من الظالمين ببعيد»(٤).

وعندما سمع قتادة ذلك الدعاء عليه أمر بالقبض على ذلك الرجل وتعذيبه وتأديبه لتهجمه عليه وأن يوضع في السجن، وعاد إلى منزله وكانت لديه جارية حبشية نشأت في المدينة، سألت قتادة عندما رأته مهموما عن سبب ذلك فأخبرها بقصة ذلك اليمني وما فعل به فقالت له «معاذ الله ياابن بنت رسول الله أن تأخذك العزة بالإثم، رجل غريب قصد بيت الله واستجار بحرم الله، تظلمه أولا في ماله، ثم تظلمه آخرا في نفسه أين غربت عنك المكارم الهاشمية والمراحم النبوية غير هذا أولى بك

---

(١) الفاسي: العقد الثمين، جـ٧ ص ٥٩، ومع ذلك فلا استبعد أن يقول قتادة تلك الأ بيات في حق الخليفة الناصر، وإن كان قد أخذ القافية عن غيره، رغم خوفه من بطش الخليفة وانتقامه لاعتدائه على الحجاج العراقيين. كما أننا لانشك أنه تراجع عن ايصال تلك الأ بيات للخليفة عندما نصحه الأمير حسام الدين وخوفه من رد فعل الخليفة الناصر لذلك ارسل إليه معتذرا طالبا صفحه وعفوه طامعا في عطاياه

(٢) ابو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٢٤٩

(٣) السرو: نسبة إلى جبال السروات التي تمتد من اليمن إلى حدود بلاد الشام، والسرو قرية كبيرة مما يلي مكة وإلى هذه السروات ينسب القوم الذين يحضرون إلى مكة ويجلبون الميرة وهم قوم غتم بالوحش أشبه شيء «ياقوت: معجم البلدان» جـ٣ ص ٢١٧

(٤) الفاسي: المرجع السابق: جـ٧ ص ٥٥ ــ ٥٦

يابن فاطمة الزهراء . فقالت :لو كنت ابن بنت رسول الله ما فعلت الذي فعلت حين ولاك الله أمر عباده و بلاده »(١) .

فندم على ما فعل ، وأفرج عن ذلك اليمني واستدعاه واعتذر له وأعاد له ماله فقال له الرجل « الآن أنت ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم » فتصدق بجميع ماله شكرا لله تعالى وعلى أثر ذلك اعتق قتادة تلك الجارية و وهبها لذلك الرجل فإن أحب الزواج بها فعليه صداقها وما يتجهزان به إلى اليمن وما يعيشان منه هناك فتزوجها وساربها لليمن(٢) .

ولكن ذلك الرجل الحكيم العاقل العادل لم يلبث أن قلب تلك السياسة رأسا على عقب عندما قتل ذلك الحشيشي ابن عمه ابا هارون عزيز ظنا منه أنه قتادة ، وأصبح يكن كرها شديدا للعباسيين خاصة والعراقيين عامة . وأساء معاملة الحجاج وأكثر من المكوس والغرامات في مكة . وفي ذلك يقول الفاسي : « وأكثر من المكوس والتغريم في مكة حتى ضج الناس وارتفعت فيه الأ يدي بالدعاء فقتله الله تعالى على يد ابنه حسن بن قتادة »(٣) .

و بعد ما كان لايرتكب الكبائر ويمنع مرتكبيها و يعاقبهم أكثر هو منها فقتل عبدالله الأسير، و يقول أبو شامة إنه ورد كتاب من مرزوق الطشتدار(٤) الأسدي يقول فيه بأن قتادة قتل إمام الحنفية ، وإمام الشافعية ونهب اليمنيين(٥) .

وأثناء إمرة قتادة لمكة بنى حولها سوراً من أعلاها كما بنى داراً بوادي نخلة الشامية لجمع المكوس والضرائب التي تؤخذ من الحجاج العراقيين(٦) .

مقتل قتادة :

على اثر مرضه ورجوعه من الفرع عندما كان قاصداً الاستيلاء على المدينة ، وقيام ابنه الحسن بقتل عمه الحسن مما أغضب قتادة الذي أقسم ليقتلنه فأرسل إليه بعض أصحابه أن يعود لمكة للتخلص منْ أبيه قبل أن يتخلص منه ، فعاد على الفور، وقصد دار أبيه ، فوجد حشدا غفيرا من الناس أمام الباب أمرهم بالانصراف إلى منازلهم ودخل على أبيه الذي ما ان رآه حتى بادر بشتمه وتوبيخه وأخذ يتهدده بالقتل ، فما كان من الحسن الابن العاق إلا أن وثب على أبيه ، وخنقه بمساعدة غلام وجارية

---

(١) نفس المرجع ص ٥٦

(٢) نفس المرجع ص ٥٦ــ ٥٧

(٣) نفس المرجع جـ٧ ص ٥٤

(٤) الطشتدار: إحدى الوظائف الصغرى في الدولة المملوكية وصاحبها تابع للطشت خاناه السلطانية ، سميت بذلك لأن فيها يكون الطشت الذي تغسل فيه الأ يدي والقماش السلطاني وما يلبسه السلطان من الملابس ويجلس عليه من المفارش والمقاعد والسجاد « القلقشندي : صبح الأعشى جـ٤ ص ١٠ ، وجـ٥ ص ٤٦٩ » وطشت لفظ علمي وصوابه الطشت أو الطس وكلاهما معرب اللفظ تست وهي إناء غسل اليد .

(٥) ابو شامة : ذيل الروضتين ص ٧٧

(٦) **الفاسي : العقد الثمين جـ٧ ص ٦١ ، مؤلف مجهول : رسالة في النسب الشريف العلوي ص ٢١٦ .**

له اشتركا في مسك يديه ، و بعد قتل أبيه قام بقتلهما كيلا يكشفا الحقيقة وزعم للناس انه قتلهما لقتلهما أباه(١) .

و بعد قتله ذهب للحرم وجمع الأشراف ، وقال لهم «إن أبي قد اشتد مرضه وقد امركم أن تحلفوا لي أن أكون أميركم فحلفوا»(٢) وادعى أن أباه مات وأظهر تابوتا فارغا دفنه في الوقت الذي دفن أباه سراً في مكان مجهول حتى لاينكشف امره وقد ثبت، ان التابوت كان فارغا على اثر قيام الملك المسعود بن الكامل الأ يوبي بنبش قبر قتادة لإحراقه ، وعندما أخرجوا التابوت وجدوه فارغا ، فتأكد الناس أن الحسن قتل أباه ودفنه في مكان آخر ودفن التابوت في قبره لاخفاء امره(٣) وكان قتله سنة ٦١٧ هـ/١٢٢٠م بعد أن حكم مكة عشرين عاما وكان قد ناهز التسعين من عمره(٤) .

ولم يكتف الحسن بقتل عمه وأبيه بل أرسل إلى أخيه علي الذي كان بقلعة ينبع يستدعيه على لسان أبيه ، وكتم عنه موته حتى إذا ما حضر قتله أيضا وارتكب بذلك ثلاث جرائم ، قتل عمه وأباه وأخاه كما قتل العبد والجارية ، وخلف قتادة من الأ ولاد الحسن القاتل ، وراجح وهوالابن الأ كبر الذي نازع الحسن على الإمرة وعلي الأكبر جد أشراف بني علي وعلي الأصغر جد أبي نمى وجد أشراف أولاد خليص(٥).

الحسن بن قتادة:

تولى الإمرة في مكة بعد قتله أباه الشريف قتادة سنة ٦١٧ هـ/١٢٢٠م وكان يكنى أبا علي و يلقب شهاب الدين . ولكن الأمور لم تستتب له ببساطة إذ نازعه أخوه الأكبر الذي يعتبر نفسه أحق منه في الإمرة لذا أقام عند الأعراب ، وأخذ ينازعه .

وعندما قدم ركب الحجيج العراقي سنة ٦١٧ هـ/١٢٢٠م ذهب راجح إلى عرفات لمقابلة الأمير أقباش الناصري ــ أمير الحج ــ طالبا معاونته على أخيه وقدم الأموال والهدايا للخليفة(٦).

ولكن الخليفة العباسي الناصر كان قد أرسل مع أقباش تقليداً بإمرة مكة وخلعة للأميرحسن بن قتادة ، لذلك رفض الاستجابة لمطالب راجح رغم اصطحابه معه إلى مكة ، فظن الأميرحسن أنه ينوي

(١) الفاسي : المرجع السابق جـ٧ ص ٦٠

(٢) ابن الأثير: الكامل جـ٩ ص ٣٤٦ ، الصباغ : تحصيل المرام ص ١٨٥

(٣) الفاسي : المرجع السابق جـ٧ ص ٥٩

(٤) الذهبي : تاريخ الإسلام جـ٢٩ لوحة ٢٣٨ ، أبوشامة : ذيل الروضتين ص ١٢٣ ، المقريزي : السلوك جـ١ قسم ١ ص ٢٠٦ وابن الجوزي : مرآة الزمان جـ٨ ص ٦١٧ ، ابو الفداء : المختصر جـ٣ ص ١٣٠ ــ ١٣١ ، ابن الوردي : تتمة المختصر جـ٢ ص ٢١٢ ــ ٢١٣

(٥) الفاسي : المرجع السابق ص ٦٠ وخليص أو خلص . موضع آبار بين مكة والمدينة واد فيه قرى ونخل « ياقوت: معجم البلدان جـ٢ ص ٣٨٢ ــ ٣٨٣.

(٦) ابن الأثير الكامل جـ٩ ص ٣٤٦

عزله وتولية أخيه(١). لذا أعد قواته لقتاله، ولكن أقباش لم يقبل قتالهم وانفرد عن عسكره وصعد جبل الحبشي ليعرف على نفسه وليظهر للحسن أنه لم يأت لخلعه، وأنه لن يقدم أحدا عليه بل جاء لتقليده إمرة مكة على أثر وفاة أبيه(٢) وأنه لا يستطيع مخالفة أوامر الخليفة الذي أعطاه الخلعة والتقليد للحسن، ولكن الحسن خشي أن تكون تلك خدعة من أقباش، لذلك سمح لقواته بالقتال، فأحاطوا باقباش وقتلوه(٣).

أما ابن الجوزي فيقول: إن اقباش نزل بعد الحج بالشبيكة (٤) وركب ليضع حدا للفتنة و يصلح بين الأخوين، ولكن أصحاب الحسن خرجوا إليه وأحاطوا به فقال لهم: إني لم أقصد القتال، فلم يهتموا لقوله وقاتلوه فانهزم عنه أصحابه، وعرقب أصحاب الحسن فرسه فسقط عنه وقتلوه وقطعوا رأسه وحملوه إلى الحسن الذي أمر بتعليقه على دار العباس بالمسعى، ثم دفن مع جسده بالمعلاة، أما راجح فقد هرب إلى اليمن(٥).

وكان الحسن ينتظر بفارغ الصبر نتيجة المعركة، حتى ليقال إنه كان مع حجاج الشام شيخ جليل هو فخر الدين أبو منصور بن عساكر، فجاءه الأمير حسن بمكة وطلب منه الذهاب معه إلى بيته للتبرك به عل تلك الأزمة تنتهي لصالحه، فسار معه مع جماعة من الدمشقيين، و بعد أن تناولوا الطعام وهموا بالخروج جاءهم الخبر بمقتل اقباش وانتهاء الفتنة(٦) التي كانت تؤرق الحسن، وزوال الخطر الذي كان يتهدده والذي كان سيؤدي حسب اعتقاده إلى عزله من الإمرة. وكان الخاسر في ذلك الصراع اقباش الناصري الذي فقد حياته.

وكان مقتل أقباش في الخامس عشر من ذي الحجة سنة ٦١٧ هـ/١٢٢٠ ظلما وعدوانا من قبل قوات الحسن بن قتادة السفاح الذي باع كل شيء من أجل الدنيا والمركز. و بعد مقتله أحاط أصحاب الحسن بالحجاج العراقيين لنهبهم ولكن الحسن أرسل إليهم بعمامته أماناً لهم وهدأت الفتنة وسمح لهم بدخول مكة لاتمام مناسكهم و بيع بضائعهم، فدخلوها وأقاموا بها عشرة أيام ساروا بعدها للعراق فوصلوها سالمين(٧)

وعندما علم الخليفة الناصر بمقتل أقباش شق عليه ذلك وحزن عليه حزنا شديدا حتى انه امتنع عن الخروج للقاء الحاج كعادته.

---

(١) نفس المرجع والجزء والصفحة ولكن ابن الأثير يتناقض مع نفسه عندما يقول بأن أقباش اتفق مع راجح ثم يقول بعد ذلك انه يحمل خلعة وتقليدا للحسن وانه صعد الجبل ليدل على نفسه

(٢) ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٢، ابو شامة: ذيل الروضتين ص ١٢٤

(٣) ابن الأثير: المرجع السابق والجزء والصفحة

(٤) الشبيكة: على بعد حوالي فرسخ من مكة بالتنعيم وهي آبار عذبة تسمى الشبيكة «ابن جبير: الرحلة ص ٧٩»

(٥) مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٢٠

(٦) أبوشامة: ذيل الروضتين ص ١٢٤

(٧) الصباغ: تحصيل المرام ص ١٨٥، ابن الأثير: الكامل جـ٩ ص ٣٤٦، الفاسي: العقد الثمين جـ١/١٨٩ـ ١٩٠

أما الحسن فقد تدارك الخطأ الذي ارتكبه في حق الخليفة بقتل أقباش وأرسل إليه رسله معتذرا عما حدث طالبا العفو والصفح وأن ذلك لن يتكرر مرة أخرى فأجابه إلى ذلك(١).

وكان أقباش رجلاً عاقلاً محبوباً من الخليفة والحجيج لأنه كان يمنع الاعتداء عليهم خلال الطريق إلى مكة كما كان متواضعاً وكان يلقب بنور الدين أمير جيوش الحج والحرمين(٢).

استيلاء المسعود على مكة(٣)

بعد اضطراب شؤون اليمن سنة ٦١١ هـ/١٢١٤م أرسل السلطان الكامل محمد ابنه المسعود إليها لترتيب شؤونها وإعادة الأمن والاستقرار إليها، فمر وهو في طريقه إليها بمكة، وخطب لأبيه بها ونثر على الناس ألف دينار وأهدى الشريف قتادة ألف دينار فيما عدا الملابس والخلع التي قدرت بألف دينار اخرى، وحج وسار لليمن فامتلكها بها حتى سنة ٦١٩ هـ/١٢٢٢م حيث سار للحج، وفي يوم عرفة عزم أصحاب الخليفة على تقديم أعلامه ورفعها على جبل الرحمة، ولكن المسعود سار على رأس قواته ومنعهم من ذلك وقدم أعلامه وأعلام أبيه ولم يستطع أصحاب الخليفة منعه(٤).

وعظم ذلك على الخليفة عندما علم به وأرسل إلى أبيه الكامل يشكو من سوء تصرف المسعود، فاعتذر له الكامل، فقبل الخليفة اعتذاره(٥).

أما بالنسبة للحسن بن قتادة فقد تفرق عنه الأشراف ومماليك أبيه لسوء معاملته لهم، ولم يبق معه إلا أخواله من عنزة.

أما المسعود فقد تمادى في غيه وضلاله، فقام بأعمال مشينة أثناء الحج وفي مكة فأمر في عرفة بالأذان للنفرة قبل غروب الشمس، فلامه بعض الشيوخ والعلماء وتراجع. كما كان يرمي حمام

---

(١) الفاسي: المرجع السابق جـ٣ ص ٣٢٤

(٢) نفس المرجع والجزء والصفحة و يقول بأنه وجد القاب أقباش على حجر قبره بالمعلاة الذي عثر عليه بالقرب من قبر اسم سليمان

(٣) هو الملك يوسف المسعود صلاح الدين بن الكامل محمد بن العادل أبي بكر محمد بن أيوب واختلف في اسمه فنعته العيني: في عقد الجمان في حوادث سنة ٦١١هـو٦١٥ بعدة أسماء من بينها اتسز، واتسبز وأقسيس ومعناها بلغة اليمن موت. أما الحنبلي فنعته في شذرات الذهب جـ٥ ص ١٢ باطيز واطسيز وسماه ابن الجوزي في مرآة الزمان جـ٨ ص ٥٦٩ وغيرها بأقسيس، وكذلك أسماه ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص ٩٨، أما أبو المحاسن فأسماه في النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٢١٠ ٢١١. اضسيس ومعناها لا اسم له، وقد أشار بذلك بعض الأتراك على الملك الكامل لأنه لم يكن يعيش له أولاد بعد ولادتهم، وعادتهم في بلادهم أن من لم يعش له أولاد يسمى اضسيس وتعني أيضا لا اسم له، وكذلك أسماه ابن خلكان في وفيات الأعيان جـ٥ ص ٧٨، وأبو الفدا: المختصر جـ٣ ص ١٣١، وابن الوردي: تتمة المختصر جـ٢ ص ٢١٣ وغيرهم

(٤) ابو الفدا: المرجع السابق ص ١٣١

(٥) نفس المرجع جـ٣ ص ١٣١ ــ ١٣٢، ابن الوردي: تتمة المختصر جـ٢ ص ٢١٣ ــ ٢١٤

الحرم بالبندق(١) من أعلى قبة زمزم، كما كان غلمانه يضربون الناس بأطراف سيوفهم على سيقانهم و يقولون لهم «اسعوا قليلا قليلا فإن السلطان نائم سكران في دار السلطنة التي بالمسعى، والدم يجري على ساقات الناس»(٢).

ورغم مساوىء الملك المسعود وأفعاله المشينة، فقد ساد في عهده الأمن والاستقرار وأمنت الطرق واختفى قطاعها وانعدم الأشرار(٣).

و بعد أن حج الملك المسعود عاد إلى اليمن و بقي بها حتى سنة ٦٢٠هـ/١٢٢٣م حيث عاد في هذا العام إلى مكة لأخذها من الحسن بن قتادة الذي اشتد أذاه وفساده في مكة، والتقى الفريقان في المسعى وتقاتلا بين الصفا والمروة فهزم الحسن وفر إلى ينبع فولى علي بن رسول إمرة مكة(٤) وكان قد حضر مع المسعود من اليمن راجح بن قتادة فولاه السرين وحلي ونصف المخلاف(٥).

و بعد استيلاء المسعود على مكة قامت قواته بنهبها حتى قبيل العصر. وقال في ذلك ابن الأثير «حدثني بعض المجاورين المتأهلين أنهم نهبوها حتى أخذوا الثياب عن الناس وأخفروهم»(٦).

وخطب للملك الكامل في مكة، وفي ذلك قال عنه ابن خلكان بأنه «صاحب مكة وعبيدها واليمن وزبيدها، ومصر وصعيدها، والجزيرة ووليدها سلطان القبلتين ورب العلامتين، خادم

---

(١) البندق: كرات تصنع من الطين أو الحجارة أو الرصاص أو غيرها وهي فارسية بلفظها و يسمونه أيضا الجلاهقات. فكان الفرس يرمون هذا البندق على الأقواس كما يرمون النبال واقتبس العرب هذه اللعبة في أواخر أيام عثمان بن عفان، وعدوا ظهورها في المدينة منكرا، ثم ألفوها حتى شكلوا فرقا من الجند ترمي بها.. وكان رماة البندق في العصر العباسي طائفة كثيرة يخرجون إلى ضواحي المدن يتسابقون في رميه على الطير ونحوه و يعدون ذلك من قبيل الفتوة.. وكان لرمي البندق شأن كبير في العصور الوسطى بالعراق والشام ومصر وغيرها، ثم تفننوا في رمي البندق بالمزاريق أو الأنابيب بضغط الهواء من مؤخر الأنبوب بما يشبه أنابيب البنادق. فلما اخترعوا البنادق صاروا يرمون من تلك الأنابيب وسموا هذه الآلة بندقية نسبة إليه «جورجي زيدان: تاريخ التمدين الإسلامي جـ٥ ص ١٥٩ — ١٦٠»

(٢) ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٢٤ وذلك نقلا عن شيخه جمال الدين الحصري محمود ابن أحمد بن عبد السيد الذي حج ذلك العام ورأى ذلك بنفسه راجع أيضا: المقريزي: الذهب المسبوك ص ٧٨-٧٩، ابن كثير: البداية والنهاية ج١٣ ص٩٨

(٣) الفاسي: المرجع السابق جـ٧ ص ٤٩٣. الخزرجي: العسجد ص ٢١٦ ابن الديبع: قرة العيون ص ١١٧، يحيى بن الحسين: أنباء الزمن ص ٧٠

(٤) ابن حاتم: السمط ص ٩٧ ب الزيني دحلان: خلاصة الكلام ص ٢٥ Lane poole: Muhammadan Daynasty: p.99.

(٥) السرين: بلفظ تثنية السر الذي هو الكتمان مجرورا أو منصوبا: بليد قريب من مكة على ساحل البحر، بينها و بين مكة أربعة أيام أو خمسة قرب جدة «ياقوت: معجم البلدان جـ٣ ص ٢١٩

وحلي: من اطراف اليمن من جهة الحجاز وتعرف بحلي بن يعقوب «ابو الفدا: تقويم البلدان ص ٩٢، والقلقشندي: صبح الأعشى جـ٥ ص ١٣ و بقربها جبل حلي وقبالتها مرسى حلي .Enc.of Islam.Art.Hala

والمخلاف: لعله يقصد المخلفة وهوموضع أسفل مكة «ياقوت: معجم البلدان جـ٤ ص ٤٤٣» أما المخلاف فهومرادف الكورة وتسمى كورات اليمن مخاليف، نفس المرجع والجزء ١ ص ٣٦ — ٣٨

(٦) الكامل جـ٩ ص ٣٥٠

الحرمين الشريفين أبو المعالي محمد الكامل ناصرالدين خليل أمير المؤمنين»[1].

وقد صك المسعود الدراهم باسمه في مكة، وقال الزركلي بأن إليه كانت تنسب الدراهم المسعودية في مكة[2].

وقد حاول الحسن بن قتادة استعادة مكة فجمع بعض أتباعه من ينبع وهاجمها وذلك في نفس السنة التي طرد فيها، ولكن نورالدين عمر بن على بن رسول ألحق الهزيمة به و باتباعه[3].

أما المسعود فقد قام برد الأموال والأراضي ومزارع النخيل والدور بمكة والوادي إلى أصحابها بعد أن كان استولى عليها الأمير حسن بن قتادة. ثم عاد إلى اليمن[4].

وفاة الحسن بن قتادة:

بعد الهزيمة التي حلت به على يدي علي بن رسول هام الحسن بن قتادة على وجهه بعد أن باع قلعة ينبع إلى نورالدين[5] وسار إلى الشام فلم يجد بها قبولا من أحد لبقيتها للكامل محمد، فسار إلى العراق و وصل بغداد، فعلم أهلها به وخرجوا لقتله ثأرا لأقباش الناصري أمير الحج العراقي الذي قتله أتباعه ولكنهم وجدوه جثة هامدة على دكة بالجانب الغربي من بغداد، فحمل وغسل وكفن، وصلي عليه، ودفن بمشهد الامام موسى الرضى ببغداد[6].

وكانت تلك عاقبة الظالم العاق قاطع صلة الرحم، الذي طمع في الدنيا فخسر الدنيا والآخرة.

وكان الحسن فظا سيء الخلق لم يرع حرمة أبيه وعامله معاملة سيئة، يدل على ذلك أن قتادة كان مع الأشراف في الحرم فلجأ إليه أحد ابناء الحسن مستجيراً به فجذبه من بين يدي جده بعنف فقال قتادة «هكذا ربيتك ولهذا ذخرتك؟ فقال الحسن: ذاك الإخلال أوجب هذا الإدلال. فقال قتادة: ليس هذا بإدلال ولكنه إذلال»[7] وذهب الحسن بولده وفعل به مما اقتضت أخلاقه فالتفت قتادة إلى الأشراف وقال: والله لا أفلح هذا ولا أفلح معه» ولم يمر إلا القليل من الوقت حتى قتل أباه[8].

ورغم مساوئه التي لا حصر لها فإن له بمكة مكرمة وهي: أنه رد الموضع المعروف برباط الخرازين بالمسعى الذي كان وقفا على رباط السدرة إلى فقراء ذلك الرباط بعد استيلائه عليه[9].

---

(١) وفيات الأعيان جـ٥ ص ٨٢ــ ٨٣ (٢) الاعلام جـ٩ ص ٣٢٨

(٣) ابن حاتم: السمط ص ٩٧ ب، الزيني دحلان: خلاصة الكلام ص ٢٥، الفاسي: العقد الثمين جـ٤ ص ١٧٠

(٤) المقريزي: السلوك جـ١ قسم ١ ص ٢١٣

(٥) الطبري: المرجع السابق جـ١ ص ٣٥ مؤلف مجهول: رسالة في النسب الشريف العلوي ص ٢٢٠

(٦) الفاسي: العقد الثمين جـ٤ ص ١٧٣ ــ ١٧٤ (٨) نفس المرجع والجزء والصفحة

(٧) نفس المرجع والجزء ص ١٧٤ (٩) نفس المرجع والجزء ص ١٧٤

محاولة أمير المدينة قاسم الاستيلاء على مكة:

بعد أن خضعت مكة خضوعا تاما للأ يوبيين واصبحت ولاية تابعة لهم يعينون ولا تهم عليها وطردوا حكامها الأشراف الحسنيين، مما أغضب أبناء عمومتهم الحسينيين في المدينة الذين تناسوا الخلافات العدائية التي كانت قائمة بينهما، وعملوا على استرداد مكة من الأ يوبيين وإعادتها لحكامها الحسنيين لأنهم كانوا يفضلون أن تبقى تحت حكمهم رغم كل ما كان يصدر منهم على أن تؤول إلى الأ يوبيين. لذلك جمع الأمير قاسم قواته وزحف على مكة سنة ٦٢٢ هـ/١٢٢٥م وحاصرها شهراً وضيق عليها الحصار مما دفع بالأمير نور الدين عمر بن رسول الذي كان يحكم فيها نيابة عن أبيه إلى جمع حوالي ثلاثمائة فارس من أتباعه وخرج لقتال قاسم الذي هزم وخر صريعا في المعركة(١) وفشلت تلك المحاولة في الاستيلاء على مكة التي بقيت تحت الحكم الأ يوبي.

ولاية الأمير ياقوت مكة:

بعد عودة الملك المسعود إلى اليمن احتاج إلى علي بن رسول لمساعدته في الحكم، فترك ابنه نور الدين عمر نائبا عنه بها، واستطاع التغلب على الأمير قاسم الذي جاء لانتزاعها منه وإعادتها لبني قتادة. كما احتاج المسعود إلى نور الدين فاستدعاه لليمن فعاد إليها تاركاً بها الأمير ياقوت ابن عبدالله حسام الدين المكي المسعودي، ورغم أننا لانعرف متى تولى إمرة مكة إلا أنه يرجح أن يكون ذلك في أواخر سنة ٦٢٤ هـ/١٢٢٧م، وأن مدته لم تطل بها كثيراً، ومع ذلك فقد كان أميراً على مكة سنة ٦٢٥ هـ/١٢٢٨م يتضح ذلك من عقد بيع لدار بمكة كانت تابعة للدولة اضطر لبيعها لعدم وجود أموال ولا ذهب ولا فضة ولا غلال للإنفاق على الجند في بيت المال وكان ذلك العقد موقعاً باسمه وورد في أعلاه عن ياقوت هذا «أمير الحج والحرمين ومتولى الحرب السعيد بمكة، ومدبر أحوال الأجناد، وما حوت من الرعية»(٢) وهذا يدل على أنه كان متولياً الإمرة في مكة في هذا التاريخ.

وفاة المسعود بمكة:

بقيت مكة تابعة للأ يوبيين يعينون فيها نوابهم حتى كانت وفاة الملك عيسى صاحب دمشق سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م فاستدعى السلطان الكامل ابنه الملك المسعود من اليمن ليوليها له، فسر بذلك. وقبل مغادرته اليمن استدعى التجار من كافة الأجناس، وأخبرهم بأنه ينوي الذهاب إلى الشام ومصر، فمن أحب أن يسير معه فليستعد. فتجمع تجار اليمن ومن كان بها من التجار من مختلف الأنحاء، ومعهم بضائعهم وأموالهم الطائلة وجواهرهم الثمينة وتجمعت في زبيد(٣) فاستولى

(١) المقريزي: السلوك جـ١ قسم ١ ص ٢١٩ (٢) الفاسي: المرجع السابق جـ٧/٤٢٥

(٣) زبيد: اسم واد به مدينة يقال لها الحصيب ثم غلب عليها اسم الوادي ولا تعرف إلا به، وهي قصبة التهائم «ياقوت معجم البلدان جـ٣/١٣١ــ ١٣٢ ابوالفدا: تقويم البلدان ص ٨٨

عليها واعتقلهم و يقال انه حمل الأموال والأثقال في خمسمائة مركب، وكان معه مائة خادم ومائة قنطار عنبر وعود مسك، ومائة ألف ثوب، ومائة صندوق أموال وجواهر وسار إلى الشام عن طريق مكة.

وفي مكة أصيب بمرض عضال ــ الفالج ــ حيث يبست يداه ورجلاه وكان طامعاً في الدنيا عندما ظلم أولئك التجار المساكين واستولى على أموالهم وممتلكاتهم. فخسر كما سبق أن خسر الحسن بن قتادة الدنيا والآخرة و يقال ان الريح ضربت بعض السفن وأعادتها إلى زبيد فأخذها أصحابها(١).

أما حاشيته وغلمانه وجواريه فقد ساروا مع الأمير حسام الدين لؤلؤ إلى مصر وكان قد استناب على اليمن نورالدين عمر بن رسول(٢).

وفي مكة اشتد عليه المرض وشعر بدنو أجله فأوصى ألا يجهز بشيء من ماله، بل يسلم إلى الشيخ صديق بن بدر بن جناح ــ أحد الأكراد الصالحين من أربل بالعراق كان مجاوراً بمكة ــ ليتولى تكفينه ودفنه، كما أوصى بألا يبنى على قبره بل يدفن مع الفقراء، و يكتب على قبره «هذا قبر الفقير إلى رحمة الله تعالى يوسف بن محمد بن أبي بكر بن أيوب»(٣). كما أوصى ألا تهلب عليه الخيل، ولا تقلب السروج، وأن يدفن بين الغرباء(٤) واشتد عليه المرض وتوفي بمكة في الثالث عشر من جمادى الأولى سنة ٦٢٦ هـ/١٢٢٩م(٥).

أما الجندي فقد ذكر أنه مات مسموما في رجب أو في شعبان سنة ٦٢٥ هـ/١٢٢٨م(٦) مخالفا بذلك إجماع المؤرخين الذين ذكروا أنه مات مريضا بالفالج. واختلف فيمن تولى تكفينه ودفنه (٧) ومع

---

(١) ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨/٦٥٨، النويري: نهاية الأرب جـ٢٧/٤١، الذهبي سير النبلاء جـ١٣/٤٠٣، ابن ايبك: كنز الدرر ص ٢٤٠ ــ ٢٤١، الحنبلي: شذرات الذهب جـ٥/١٢

(٢) الخزرجي: العقود اللؤلؤية في تاريخ الرسولية جـ١/٤٢، الصباغ: تحصيل المرام ص ٤٢

(٣)(٤) اليماني: تاج الدين عبدالباقي: بهجة الزمن ص ٨٥ القاهرة ١٩٦٥م، الخزرجي: المرجع السابق ٤٣/١ وتهلب الخيل تنتف شعرها المنجد ص ٨٧

(٥) المقريزي: الذهب المسبوك ص ٧٨ ابن عبدالحميد: بهجة الزمن ص ٨٥، النويري: نهاية الأرب جـ٣١/٤٢، ابن الفوطي: الحوادث الجامعة ص ١٢ ــ ١٣، المنذري: التكملة ولكنها ناقصة هنا فنقلناه عن الفاسي العقد الثمين جـ٧ ص ٤٩٤، الخزرجي المرجع السابق جـ١ ص ٤٣، الحنبلي شذرات الذهب جـ٥ ص ١٢ وابن خلكان: وفيات الأعيان جـ٥ ص ٨٤، ابو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ٦/٢٧٢ وغيرهم.

(٦) الجندي: السلوك في طبقات العلماء جـ١ ص ١٢٠

(٧) يرى ابن خلكان في كتابه وفيات الأعيان جـ٥ ص ٨٤، أن الذي قام بذلك هو الشيخ صديق الذي أوصى له الملك المنعود بذلك، وقيل انه كفنه في ازار كان قد أحرم فيه للحج والعمرة سنين طويلة، وجهزه تجهيز الفقراء قدر امكانياته ودفنه بمقبرة المعلاة بمكة. وعندما علم أبوه الملك الكامل بما فعله الشيخ صديق أرسل إليه يشكره و يسأله أن يكتب إليه بما يحتاجه، ولكنه لم يرد عليه وقال: انني ما فعلت ما استحق عليه الشكر فإن هذا رجل فقير سألني القيام بأمره ومساعدته فقمت بما يجب على كل واحد القيام به من مواراة الميت.

اما اليافعي: مرآة الجنان جـ٤ ص ٦٣ ــ ٦٤ فيرى ان الذي كفنه رجل مغربي كان قد طلب المسعود منه أن يتولى تكفينه ودفنه عندما كان يحتضر، فتصدق عليه بكفن ومائتي درهم، كفنوه وجهزوه بها.

ذلك فإنه رفض أن يكفن من أمواله لأنه يعرف أنها أموال حرام لأن وازع الإيمان والخيرعاد إلى نفسه في اللحظات الأخيرة من عمره وندم على كل ما بدر منه من أفعال وتاب إلى الله ، لذا فضل أن يدفن فقيرا مع الفقراء ، فتصدق عليه بعض الصالحين بالكفن طالبين له الرحمة وكان في السابعة والعشرين من عمره عند وفاته(١) .

مكة تحت حكم الكامل محمد :

بعد وفاة الملك المسعود آلت ممتلكاته إلى أبيه الكامل محمد الأ يوبي صاحب مصر والشام ومن بينها مكة التي عين فيها أحد مماليكه وهو الأمير طغتكين بن عبدالله الكاملي نائباً عنه . ورغم أن المصادر لا تذكر تاريخ ولايته لها إلا أننا نرجح أنه تولاها سنة ٦٢٦ هـ/١٢٢٩م بعد وفاة المسعود ، لأنه من غير المعقول تركها دون أمير يدبر أمورها ، وكان سيستعيدها الأشراف من بني قتادة . و بعد وصوله مكة عمل على كسب أهلها بأن أنفق فيهم أموالا كثيرة فأعلنوا الولاء والطاعة للسلطان الكامل وحلفوا له على ذلك وأصبح له الثقة فيهم(٢) .

أما اليمن التي كانت تابعة للأ يوبيين حتى ذلك الوقت ، فكان المسعود قد عين بها الأمير نورالدين عمر بن رسول أتابك(٣) العسكر نائبا عنه عندما عزم على التوجه إلى الشام وقال له «إن مت فأنت أولى بملك اليمن من إخوتي لخدمتك ولنصحك لي ، وان عشت فأنت على حالك ، واياك أن تترك أحداً من أهلي يدخل اليمن ، ولوجاءك الملك الكامل والدي مطو يا في كتاب»(٤)

و بعد وفاة المسعود بمكة أضمر الأمير نورالدين الاستقلال باليمن عن الدولة الأ يوبية ولكنه تظاهر بالولاء والطاعة في بادىء الأمر وأنه نائب لهم بها ، وأبقى السكة والخطبة على حالها حتى مكن لنفسه واستقل بها سنة ٦٢٩ هـ/١٢٣٢م وإن كان قد أصبح الحاكم الفعلي لها منذ وفاة المسعود مباشرة .

الصراع بين الأيوبيين وبني رسول على حكم مكة:

لم يكتف نورالدين عمر بن رسول بالاستقلال باليمن ، وسلخها عن الدولة الأ يوبية ، بل عمل أيضا على الاستيلاء على مكة وإعادة آل قتادة إليها ، على أن يكونوا تابعين له . فجهز جيشاً بقيادة الأمير ابن عيدان ، صحبه الشريف راجح بن قتادة ، وأمدهما بالأموال للإنفاق في الجند ، واستمالة

---

(١) الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ١/٤٣ ، اليافعي : المرجع السابق والجزء الصفحة
وقد قام عتيقة الصارم قايماز الذي تولى القاهرة بعد ذلك ببناء قبة على قبره

(٢) الفاسي : العقد الثمين جـ٧/٤٩٤

(٣) **الأ تابك : لفظ تركي معناه الأب الأميرومعناه المربي لابن السلطان ثم أصبح لقبا تشريفيايمنح** لكبار القواد بمعنى قائد الجيوش ونائب السلطنة ، والوزير نظام الملك أول من تلقب بلقب اتابك وقد منحه إياه **السلطان** ملكشاه حينما فوض إليه تدبير أمور المملكة سنة ٤٦٥ هـ دكتور العبادي : قيام دولة المماليك في مصر والشام ، ص ٧٦ ، راجع أيضا

(٤) الفاسي : المرجع السابق ج ٦ ص ٣٤١

أهل مكة وإغرائهم بالأموال، وكان ذلك أول جيش يرسله بنو رسول للحجاز بعد استقلالهم باليمن. وكان بمكة في ذلك الوقت الأمير شجاع الدين طغتكين الذي كان يعمل على ترسيخ الحكم الأيوبي بها.

وعند اقتراب الجيش اليمني من مكة عمل ابن عيدان، وراجح على استمالة أهل مكة فذكرهم بإحسان نورالدين إليهم عندما كان واليا عليهم من قبل الملك المسعود، فمالوا إليهما، وعندما شعر بذلك الأمير طغتكين هرب في حوالي مائتي فارس من فرسانه إلى نخلة، ومنها إلى ينبع التي كانت مأوى الجيش المصري يأوي إليها كلما تعرض للخطر بمكة، كما كان لهم بها زردخاناه ـ أي مخزن لسلاحهم وتموينهم(١) ـ ومن هناك أرسل إلى السلطان الكامل محمد طالبا النجدة فأرسل إليهم جيشاً كثير العدد صحبة الأمير فخرالدين بن شيخ الشيوخ(٢) وأرسل إلى الشريف شيحة أمير المدينة المنورة، وإلى الشريف أبي سعد الحسن بن على بن قتادة أمير ينبع بأن ينضما له بقواتهما لأنهما كانا تابعين للأيوبيين، فتجمع لطغتكين جيش كبير سار به إلى مكة وحاصرها ثم نشبت المعركة بين الجيشين، فهزم الجيش اليمني وقتل قائده ابن عيدان وعدد كبير من أفراده ومن أهل مكة وفر الشريف راجح ونهبت قوات طغتكين المدينة مما أغضب السلطان الكامل الذي أمر بعزله(٣).

أما الشريف راجح فكان قد جمع بعض الأعراب و بعض أتباعه وسار بهم إلى مكة في صفر سنة ٦٣٠ هـ/١٢٣٣م فدخلها دون مقاومة و يبدو أن السلطان الكامل أمر بسحب قواته منها على أثر قيامه بنهبها، أو أنه احتاج إلى تلك القوات لحرب الصليبيين فسحبها من مكة. ورغم ذلك فقد بادر بإرسال قوات جديدة إليها بقيادة الأمير الزاهد الذي دخل مكة دون مقاومة لأن الأمير راجحاً عندما علم بقدوم القوات المصرية غادرها خوفا. وقام الزاهد بإعادة النظام والأمن إلى مكة فاطمأن الناس، وحج وعاد إلى القاهرة تاركا الأمير ابن مجلى بها(٤).

لذلك نلحظ أن مكة أصبحت مركزا للصراع بين بني رسول والأيوبيين، إذ لم تكد الهزيمة تحل بأحدهما أو بقواته حتى يبادر إلى إرسال قوات جديدة إليها لاستعادتها، واستمر ذلك طوال العصر الأيوبي.

فنرى أن بني رسول قد جهزوا جيشا كبيراً وصفه الخزرجي أنه كان جيشا جرارا ـ و يبدو أن الجيش الذي لم يكن يصل إلى الألف مقاتل كان يطلق عليه جيش جرار ـ وأموالا كثيرة أرسلوها

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى جـ٤/٩ ـ ١١، البستاني: محيط المحيط وعن الزرد راجع المجلة التاريخية المصرية المجلد ١٣٨/٢٣ القاهرة ١٩٧٦م

(٢) هو يوسف بن محمد بن عمر بن حمويه الأمير فخرالدين المعروف بابن الشيخ و يقال ابن شيخ الشيوخ الجويني أمير مكة «الفاسي: العقد الثمين جـ٤٧٦/٧، الخزرجي: العسجد المسبوك ص ٢٢٨، ابن الديبع: قرة العيون ص ١٢٣

(٣) الخزرجي: العقود اللؤلؤية جـ٤٩/١ ـ ٥٠، بامخرمة: تاريخ ثغر عدن جـ١٧٦/٢

(٤) ابن حاتم: السمط ص ١١٢ ب، العصامي: سمط النجوم العوالي ص ٤٨٠ الفاسي: شفاء الغرام جـ٢ ص ٢٠٠

إلى الشريف راجح سنة ٦٣١ هـ/١٢٣٤م لاستعادة مكة من المصريين. وعندما رأى الأمير ابن مجلى أن لا طاقة له على مواجهة تلك القوات غادر مكة فدخلها راجح دون قتال وأصبحت تابعة لبني أيوب(١).

وفي ذلك العام أرسل السلطان المنصور نورالدين عمر ابن وسول إلى الخليفة المستنصر العباسي يطلب تقليده سلطنة اليمن فوعده بإرسال الخلعة والتقليد له مع الحجاج وستصله يوم عرفة، لذلك خرج للحج، ولكن الأعراب قطعوا الطريق عليهم وردموا آبار المياه مما اضطرهم للعودة من حيث أتوا(٢). وأرسلت الخلعة له في العام التالي عن طريق البحر مع رجل يقال له معالي(٣).

و يبدو أن العلاقات كانت قد ساءت بين السلطان المنصور والأمير راجح الذي ما ان سمع بقدوم السلطان حتى هرب من مكة ولم يستقبله لأنه كان يخشى أن يقبض عليه ولم يحج معه مما أغضبه، ومع ذلك فإنه ما ان عاد إلى اليمن حتى عاد الشريف راجح إلى مكة، و يبدو أن الخلاف لم يكن كبيراً ولكنه خشي ان التقى به أن يعتقله.

أما السلطان المنصور فإنه ما ان وصل إلى اليمن حتى أرسل خزانة كبيرة مع ابن النضيري للشريف راجح ليجهز بها الفرسان والجند لمواجهة القوات المصرية إذا هاجمته، كما أرسل قناديل الذهب والفضة إلى الكعبة.

ولكن وصول ابن النضيري إلى مكة جاء متأخراً إذ لم يكد يصل و يعلق قناديل الذهب، حتى داهمه الجيش المصري الذي كان يتكون من خمسمائة فارس بقيادة خمسة من الأمراء هم: وجه السبع، والبندقي، وابن ابي زكريا، وابن برطاس، يتقدمهم الأمير جفريل ــ أو جبرائيل ــ ودخلوا مكة دون قتال، بعد أن غادرها الشريف راجح وابن النضيري اللذان سارا إلى اليمن(٤) وخضعت مكة للأ يوبيين.

ولكن الصراع بين الطرفين لم ينته، إذ جهز السلطان نورالدين في العام التالي جيشا بقيادة الأمير ابن عبدان، وأرسل معه الأموال للشريف راجح ليستخدم الأعراب، وعندما علم الأمير جفريل بقدومهم استعد للقتال والتقى الفريقان في مكان يقال له الخريقين بين مكة والسرين(٥) وتقاتلا فهزم ابن عبدان و وقع في الأسر، فقيده الأمير جفريل وأرسله إلى مصر، وفر الشريف راجح و بقيت مكة تحت حكم الأ يوبيين حتى سنة ٦٣٥ هـ/١٢٣٨م، حيث لم يرسل بنو رسول أي قوات إليها

(١) المرجع السابق جـ١ ص ٥٤

(٢) نفس المرجع والجزء والصفحة

(٣) بامخرمة: تاريخ ثغر عدن جـ٢ ص ١٧٦

(٤) الفاسي: العقد الثمين جـ٦ ص ٣٤٥، ابن الديبع: قرة العيون ص ١٢٤، العصامي: سمط النجوم ص ٤٨٠.

(٥) السرين: بليدة قرب مكة على ساحل البحر بينها و بين مكة اربعة أيام أو خمسة قرب جدة «ياقوت معجم البلدان جـ٢ ص ٢١٦»

خلال هذه الفترة لانشغال المنصور ببعض الفتوحات في اليمن(١).

و بعد فراغه منها سار بنفسه على رأس قواته التي بلغت حوالي ألف فارس لأخذها من القوات المصرية، وعمل على استخدام السياسة والحيل والمداهنة وإغراء أتباع جفريل بالأموال بأن جعل لكل جندى مصري ينضم إليه ألف دينار وحصانا وكسوة، فانضم إليه عدد كبير منهم، كما انضم إليه الشريف راجح في حوالي ثلا ثمائة فارس من أتباعه، وعندما علم الأمير جفريل بقدومهم وتفرق قواته وانضمامها للمنصور أحرق ما كان معه من الأ ثقال، وسار إلى مصر، وعندما علم الشريف راجح برحيل جفريل عن مكة أسرع إليها واستولى عليها بلا قتال، وأرسل البشارة للمنصور وهو على السرين، فسر بذلك وخلع على الرسول وأكرمه، كما أمر أمراءه ومماليكه بأن يخلعوا عليه ما كان عليهم من الثياب. فناله في ذلك اليوم الشيء الكثير(٢)

وسار السلطان إلى مكة معتمراً فوصلها في رجب من ذلك العام وتصدق على أهلها بأموال كثيرة، كما أنفق الكثير من المال على الجند ورتب فيها مائة وخمسين فارساً بقيادة كل من: ابن الوليدي، وابن الثغري(٣).

وعاد جفريل وقواته إلى مصر عن طريق المدينة التي ما كادوا يصلونها حتى جاءهم الخبر بوفاة السلطان الكامل محمد يوم الأ ر بعاء الثاني عشر من رجب سنة ٦٣٥ هـ/١٢٣٨ م(٤) بدمشق.

وعلى أثر وفاته نشبت الخلافات بين أبنائه حول السلطة مما أدى إلى إهمالهم أمر مكة، ولكن ما ان قضى السلطان الصالح نجم الدين أيوب على تلك الخلافات وأصبح سلطان مصر والشام في الرابع عشر من ذي القعدة سنة ٦٣٧ هـ/١٢٤٠ م حتى حضر الأمير شيحه أمير المدينة لتهنئته فأكرمه الصالح وأرسل معه ألف فارس لأخذ مكة من القوات اليمنية. و يبدو أن الشريف راجح لم يكن بمكة وأنه قد ذهب إلى اليمن مع المنصور، وعندما علم اليمنيون بمكة بقدوم تلك القوات غادروها إلى اليمن فدخلها شيحة دون قتال(٥).

واستمر الصراع بين الطرفين للسيطرة على مكة، إذ لم تكد الأخبار تصل إلى المنصور باستيلاء شيحه على مكة حتى جهز جيشا كبيرا صحبه الشريف راجح بن قتادة والأمير ابن النضيري لأخذها

(١) الخزرجي: المرجع السابق جـ١ ص ٥٥— ٦١

(٢) الفاسي: شفاء الغرام جـ٢ ص ٢٠٠— ٢٠١

(٣) الخزرجي: العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٦٢، و بعد استيلاء المنصور على مكة مدحه الشاعر الأديب جمال الدين بن محمد بن حمير بقوله:

،من ذا يلوم أميراً فر من ملك   لا ذاك ذاك ولا كالخنصر العضد

راجع أيضا بعض أبيات أخرى من هذه القصيدة في كتاب بامخرمة: تاريخ ثغر عدن جـ٢ ص ١٧٧

(٤) ابن حاتم: السمط ص ١١٨ أ

(٥) بامخرمة: المرجع السابق جـ٢ ص ١٧٧

منه . وعندما علم الشريف شيحة بقدومهم غادر مكة إلى الديار المصرية(١) لتجهيز جيش أقوى من الجيش اليمني ، وقد جهز الصالح جيشاً كبيراً يفوق في عدده وعُدده الجيش اليمني بقيادة الأميرين علم الدين الكبير وعلم الدين الصغير وتوجها إلى مكة سنة ٦٣٨ هـ/١٢٤١ م صحبه الشريف شيحة ودخلوا مكة بعد أن غادرها راجح والقوات اليمنية وحج شيحه بالناس ذلك العام(٢) .

وعلى أثر ذلك أعد السلطان المنصور نورالدين جيشا بقيادة الشريف على بن قتادة وأرسله إلى مكة ، وما ان علم الشريف شيحة بقدومه حتى أرسل إلى السلطان نجم الدين طالبا العون والنجدة . فأمده بمائة وخمسين فارسا بقيادة الأميرين : مبارزالدين على بن الحسن بن برطاس ومجد الدين أحمد التركماني . وعندما علم على بن قتادة بوصول النجدة توقف في السرين وأرسل للمنصور يخبره بذلك فتجهز بنفسه وسار على رأس جيش كبير من قواته مصطحبا معه مبالغ كبيرة من الأموال سنة ٦٣٩ هـ/١٢٤٢(٣) م

وعندما علم المصريون بقدومه هربوا من مكة بعد أن أحرقوا دار السلطنة بما فيها من عدد ومؤن وسلاح ودخلها المنصور دون مقاومة وصام بها رمضان ، وفي تلك الآونة قدم عليه الأمير مبارزالدين على بن برطاس في عدد من بني عمومته وأصحابه معلنين الطاعة والولاء والرغبة في خدمته فأنعم عليهم واستخدمهم(٤).

وفي ذلك العام أرسل للشريف ابن سعد صاحب قلعة ينبع للقدوم إليهَ لإكرامه فلبى الدعوة وحضر إلى مكة فأكرمه السلطان وأنعم عليه واشترى منه قلعته وأمر بخرابها كيلا تبقى مأوى للمصريين يلجأون إليها بين الحين والآخر واستنابه ببطن مر ليكون عونا للقوات اليمنية (٥).

وأبطل عن أهل مكة كافة المكوس والضرائب والمظالم والجبايات وكتب في ذلك صكاً جعله قبالة الحجر الأسود بالكعبة(٦) وعين على مكة مملوكه الأمير فخرالدين بن الشلاح والأمير ابن فيروز وعاد إلى اليمن سنة ٦٤٠ هـ/١٢٤٣م .

وفي هذا العام قدم ركب الحاج العراقي إلى مكة بعد انقطاع سبع سنوات وكسا أمير الحج الكعبة ، وجعل عليها الذهب والفضة وتصدق بأموال كثيرة (٧) وكان سبب ذلك الانقطاع الخوف من الغزو المغولي المدمر الذي اجتاح المشرق الإسلامي . وفي نفس العام توفى الخليفة المستنصر العباسي

---

(١) الخزرجي : العسجد ص ٢٣٤

(٢) المقريزي : السلوك جـ١ قسم ٢ ص ٣٢١

(٣) الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٦٨

(٤) نفس المرجع والجزء والصفحة

(٥) ابن حاتم : السمط ص ١١٩ ب ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، ابوالمحاسن : حوادث الدهور ص ٣٧٥
و بطن مر: من الحجاز فيها عدة قرى ومياه تجري ونخيل كثير وهي عن مكة مسيرة يوم ، وهي على طريق حجاج مصر والشام «ابوالفدا : تقويم ص ٩٥

(٦) الخزرجي : المرجع السابق جـ١ ص ٦٩ ، المقريزي : الذهب المسبوك ص ٨٠

(٧) المقريزي : السلوك جـ١ قسم ٢ ص ٣١٣

وخلفه ابنه المستعصم آخر الخلفاء العباسيين ببغداد.

واستمرت مكة بعد ذلك تحت حكم آل رسول يعينون فيها نوابهم. ودامت ولاية ابن الشلاح عليها حتى سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٩ فاستبدل به السلطان نورالدين الأمير محمد بن أحمد المسيب الملقب «أمين مكة»(١) الذي تعهد لنورالدين بأن يرسل إليه كمية من الأموال من مكة سنويا بدلا من أن ينفق عليها من خزائنه، وأن ينفق من مواردها على الجند اليمني الموجود بها، وأن يرسل له قودا مقداره مائة فرس سنويا(٢).

وبذلك نقض السلطان المنصور الصك الذي كتبه لأهل مكة بتعيينه لابن المسبب، لأنه لن يأتي بتلك الأموال والهدايا وينفق على الجند إلا بإعادة المكوس والمظالم، خصوصا وأنه يعرف أن مكة فقيرة وأن مواردها لا تتحمل كل ذلك بل إنها تعيش على المعونات الخارجية، إذاً من أين سيأتيه ابن المسيب بكل ذلك؟

وقد حدث ذلك فعلا إذ لم يكد ابن الشلاح يغادر مكة ويتولاها ابن المسيب حتى أعاد المكوس والجبايات بل وزادها عما كانت عليه وقلع مربعة السلطان واستولى على أموال الصدقة التي كانت تأتي لمكة من اليمن وبغداد وغيرها كما استولى على أموال المظفر بن المنصور نوالدين التي كانت مودعة عند المجد بن أبي القاسم، وبنى حصنا بنخلة أسماه العطشان وحلف هذيلا لنفسه محاولا التمرد على السلطان، ومنع النفقة عن الجند الذين ضاقوا به وتذمروا منه وفارقوه.

نتيجة لكل ذلك هاجمه الشريف أبوسعد على بن قتادة وقبض عليه وقيده واستولى على ممتلكاته وأمواله وقال للناس: «إنما فعلت به هذا لأني تحققت أنه يريد الفرار بالمال إلى العراق، وأنا غلام مولانا السلطان، والمال عندي محفوظ، والخيل والعدد إلى أن يصل مرسومه(٣)».

وبدل أن يأتيه مرسوم منه جاءه نعي السلطان المنصور نورالدين عمر حيث قتله بعض مماليكه بقصره بالجند بتشجيع من ابن أخيه الأمير أسد الدين محمد بن الحسن، ليلة السبت تاسع ذي القعدة سنة ٦٤٧هـ/١٢٥٠م لأن المنصور أراد عزله عن صنعاء وتولية ابنه المظفر(٤).

يبدو من ذلك أن أبا سعد على بن قتادة قد قبض على ابن المسيب خدمة منه للسلطان لأنه كان يعتزم الهرب بالأموال والعدد والخيل إلى بغداد ولكن ذلك لم يكن صحيحاً. إذ أن أبا سعد كان ناقما على حكام اليمن لاستيلائهم على مكة التي كانت لآبائه وأجداده وأخضعوها لأنفسهم يعينون فيها نوابهم. ولم يكتفوا بذلك بل اشتروا منه ينبع بالقوة وخربوها لذلك كان ناقماً عليهم ويسعى للخلاص منهم متحينا الفرصة المناسبة لذلك متظاهراً بالولاء والطاعة لبني رسول. وشجعه على ذلك

---

(١) الفاسي: العقد الثمين جـ١ ص ٣٨٦ ولم يوضح لنا المقصود بأمين مكة الذي لم يرد له ذكر في المصادر الأخرى

(٢) المقريزي: المرجع السابق والجزء ص ٣٣٢

(٣) المقريزي: المرجع السابق والجزء ص ٣٣٣

(٤) الفاسي: العقد الثمين جـ٦ ص ٣٤٩

بعض كبار عرب زبيد وحسنوا له الاستيلاء على مكة، والتنكيل بحكامها من جهة سلاطين اليمن الذين أصبح تابعاً لهم بعد أن كان أجداده أسياد مكة، وهونوا عليه أمر الجند اليمني، وعرفوه أن بمكة فرقتين تحرسانها: إحداهما في أعلاها والأخرى في أسفلها، وإذا ما هاجمت احدى الفرقتين وهزمتها استسلمت الأخرى فجمع أتباعه ومواليه ومن انضم إليهم من الأعراب، وهاجم إحدى الفرقتين فكسرها وضعفت الأخرى فاستسلمت له، وقبض على ابن المسيب(١).

وبذلك حقق الحلم الذي كان يسعى إليه باستعادة حكم آل قتادة على مكة وطرد اليمنيين، وخشي أن تهاجمه قوات المنصور وتقضي عليه فتظاهر أنه انما قبض على ابن المسيب لأنه كان ينوى الهرب بالأموال وغيرها إلى العراق. وأعلن ولاءه للسلطان.

واستقل بذلك أبو سعد الحسن بن على بن قتادة بإمرة مكة وعمل على تأمين حدودها، فحارب الأعراب، وأخضعهم. وفي إحدى حروبه معهم جاءته أمة في هودجها وقالت له: «إنك وقفت موقفا عظيما فإن ظفرت قالوا: ظفر ابن رسول الله، أو قتلت قالوا: قتل ابن رسول الله، وإن هزمت قالوا: هزم ولد السوداء ــ لأن أمه كانت أمة حبشية ــ فانظر أي الأمرين تحب أن يقال»(٢).

فشكرها على ذلك القول وحارب ببسالة حتى انتصر على الأعراب وعاد إلى مكة مرفوع الهامة، واستمر في الامر حتى قتله في الثالث من شعبان سنة ٦٥١ هـ/١٢٥٣م ابن عمه جماز بن حسن بن قتادة.

وقد وصف الفاسي أبا سعد نقلا عن ابن مسدى فقال: «كان فاضل الأخلاق طيب الأعراق، شديد الحياء، كثير الحباء جمع الشجاعة والكرم، والعلم والعمل، كان يشعر و ينظم و ينثر، إلا أنه نزع بآخره إلى هوى نفسه، واغتر يومه بأمسه، فحاد عما كان عليه من الحزم وحل عروة العزم، فأتى من مأمنه، وخرج عليه من مكمنه، وجرع بمكانه كأس المنايا، وعظم لفقده الرزايا»(٣).

يبدو من ذلك أن سيرته قد ساءت في أواخر عهده، وتبدلت أخلاقه وأصبح كثير الغرور بنفسه، ولم يعد يهتم بشؤون ملكه، واهتم بملذاته وأهوائه، شأنه في ذلك شأن حكام مكة من بني قتادة إذ يبدأون حكمهم بالسيرة الحسنة، والشهامة والشجاعة والأخلاق الحميدة، ثم يقلبون ذلك رأسا على عقب مما يودي بملكهم، رأينا ذلك منذ زمن مؤسس هذه الإمارة، ورأينا كيف كانت نهايته على يدي ولده، وكيف كانت نهاية ولده، وهكذا دواليك حتى كانت نهاية أبي سعد هذا على يدي ابن عمه الذي آلت إمرة مكة إليه والتي لم تدم له طويلا إذ لم تزد ولايته لها عن خمسة أشهر حتى نازعه عليها عمه راجح بن قتادة وأخذها منه في شوال من نفس العام بمساعدة عساكر اليمن ودخل مكة دون قتال(٤).

(١) الطبري: إتحاف فضلاء الزمن جـ١ ص ٣٦ــ ٣٧، الفاسي: المرجع السابق جـ٤ ص ١٦٠
(٢) الطبري: المرجع السابق جـ١ ص ٣٧ (٣) العقد الثمين: جـ٤ ص ١٦٢
(٤) نفس المرجع جـ٣ ص ٤٣٥، الطبري: المرجع السابق والجزء ص ٣٨

و يذكر الفاسي أن جماز بن حسن سار إلى الناصر يوسف ابن العزيز محمد بن الظاهر غازي بن الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب الشام وحلب يستعين به على أبي سعد على بن قتادة بعد أن أطمعه بالخطبة له بمكة وقطع خطبة صاحب اليمن ، فجهزه ببعض العساكر سار بهم إلى مكة واستولى عليها وأخرج أبا سعد منها ، ولكنه نقض عهد الناصر وخطب لصاحب اليمن ، واستمر في الإمرة حتى سنة ٦٥٣ هـ/١٢٥٥ م عندما أخرجه منها الشريف راجح بن قتادة فسار إلى ينبع(١) .

ولكننا نلاحظ أن هذا النص لا ينسجم والحقيقة التاريخية إذ أن أبا سعد كان قد قتله جماز وتولى إمرة مكة ، كما أن جمازاً لم يدم طويلا في الإمرة إذ لم يلبث أن عزله راجح بن قتادة في نفس السنة التي تولى فيها ٦٥١ هـ/١٢٥٣ م ولم يعد إليها مطلقا لأنه تولى إمرة مكة بعد راجح ولده غانم وذلك في ربيع الأول من سنة ٦٥٢ هـ/١٢٥٤ م(٢) الذي حجر على أبيه واعتقله حتى سأله أن يطلق سراحه ولن يعارضه في حكم مكة مطلقا فأطلقه وسار إلى اليمن ، وبقى غانم في الإمرة حتى تغلب عليه الشريف إدريس بن قتادة وأبو نمي محمد بن أبي سعد بعد أن قاتلاه وتغلبا عليه ، ودامت ولايته عليها إلى الخامس والعشرين من ذي القعدة من نفس السنة(٣) ثم تولاها الأمير مبارز الدين على بن برطاس بعد استيلائه عليها من قبل الملك المظفر بن المنصور صاحب اليمن الذي دامت ولايته عليها إلى يوم السبت السادس والعشرين من المحرم سنة ٦٥٣ هـ/١٢٥٥ م(٤) حيث تولاها من بعده إدريس وابو نمي .

ولو كان جماز قد استنجد بالناصر فعلا فلا يعقل أن يكون ضد أبي سعد ، وربما استنجد به على إدريس وأبي نمي ، وان الناصر لم يستطع مساعدته في تلك الظروف الحرجة بالنسبة له لأنه كان يسعى لاستعادة ملكه من المماليك الذين كانوا قد استقلوا بحكم مصر ، فلم يحاول استعادة مكة بعد ذلك .

المدينة في العصر الأيوبي:

حكم في المدينة طائفة أخرى من العبيديين(٥) يعرفون بالحسينيين واستعرضنا الصراع الذي حدث بينهم وبين أبناء عمهم في مكة .

وقبل أن نتكلم عن أحوال المدينة السياسية في العصر الأيوبي يجدر بنا أن نعود إلى الوراء قليلا لنلقي نظرة على أحوالها في تلك الفترة .

---

(١) الفاسي : العقد الثمين جـ٣ ص ٤٣٥ــ ٤٣٦

(٢) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ص ٢٧٣

(٣) الفاسي : شفاء الغرام جـ٢ ص ٢٠٢ ، الصباغ : تحصيل المرام ص ١٨٦

(٤) الفاسي : العقد الثمين جـ١ ص ١٧٦

(٥) **العبيديون: هم الخلفاء الفاطميون** الذين ينسبون إلى المعز لدين الله أبي تميم معد بن تميم بن اسماعيل بن محمد بن عبيد الله المهدي . « القلقشندي : صبح الأعشى جـ٣ ص ٤٣٠ » .

فنلاحظ عليها أنها كانت كمكة تخضع أحيانا للفاطميين في مصر وأخرى للعباسيين في بغداد وثالثة لنورالدين محمود في الموصل والشام، أي ان حكامها كانوا يعلنون الولاء لمن يدفع لهم أكثر أو لمن يرهبهم ومع ذلك فقد كانوا مستقلين استقلالا تاما عن تلك الدول، وأن التبعية كانت اسمية، وذلك بمجرد الخطبة لهم على المنابر.

وحاول الصليبيون في عهد نورالدين محمود سرقة رفات الرسول (صلى الله عليه وسلم) من المدينة ونقلها إلى بلادهم، ولكن الله كان مطلعا على ما يدبرون فحال بينهم و بين تنفيذ جريمتهم البشعة تلك.

فقد روى السمهودي أن السلطان نورالدين كان يتهجد قبل نومه، وذات ليلة بينما كان نائما نوما عميقا إذ رأى النبي (صلى الله عليه وسلم) يشيرإلى رجلين أشقرين و يقول: «انجدني، انقذني من هذين. فاستيقظ فزعا ثم توضأ وصلى ونام، فرأى المنام بعينه فاستيقظ وصلى ونام، فرآه أيضا مرة ثالثة»([1]).

عندئذ استيقظ وأرسل في طلب وزيره جمال الدين الموصلي وقص عليه كل ما رأى ودار معه أثناء نومه. فقال له الوزير: «وما قعودك، أخرج الآن إلى المدينة النبوية واكتم ما رأيت»([2]) فتجهز في بقية تلك الليلة وتجهز على عجل وخرج على رواحل خفيفة في عشرين نفرا صحبه الوزير جمال الدين، وأخذ معه مالاً كثيراً و وصل المدينة في ستة عشر يوما لأنه كان يسير بسرعة ليدرك المدينة قبل فوات الآوان.

وقبل وصوله المدينة اغتسل ثم دخلها، وتوجه على الفور إلى المسجد النبوي فصلى بالروضة، وزار قبر الرسول وصاحبيه، وجلس لا يعرف ماذا يفعل وقد اجتمع معظم أهل المدينة في المسجد لرؤيته فما كان من الوزير جمال الدين إلا أن قال للحاضرين: «إن السلطان قصد زيارة النبي (صلى الله عليه وسلم) وأحضر معه أموالاً للصدقة، فاكتبوا من عندكم فكتبوا أهل المدينة كلهم، وأمر السلطان بحضورهم، وكل من حضر ليأخذ يتأمله ليجد فيه الصفة التي أراها (النبي صلى الله عليه وسلم) له. فلا يجد تلك الصفة، فيعطيه و يأمره بالانصراف إلى أن انقضت الناس»([3]).

وكان السلطان ييأس من العثور على الرجلين اللذين استنجد به الرسول (صلى الله عليه وسلم) منهما ولكنه سأل أعيان المدينة. هل بقى أحد لم يأخذ من الصدقة؟ فقالوا له: لا اللهم إلا رجلين مغربيين غنيين ليسا في حاجة إلى الصدقة بل إنهما صالحان يكثران الصدقة على المحتاجين. فسر السلطان لذلك لأن الأمل في العثور عليهما ما زال قائما. وطلب إليهم إحضارهما. فجيء بهما

(١) وفاء الوفا. جـ٢ ص ٦٤٨

(٢) نفس المرجع والجزء والصفحة، راجع ايضا أحمد بن عبدالحميد العباسي: عمدة الأخبار في مدينة المختار ص١٢٩ــ ١٣٠ الطبعة الخامسة مكة ١٣٥٩هـ.

(٣) السمهودي: المرجع السابق ص٦٤٨ــ ٦٤٩، العباسي: المرجع السابق ص ١٣٠

وتأملهما، فعرف أنهما الرجلان المعنيان فسألهما: من أين أنتما؟ فقالا: من بلاد المغرب جئنا حاجين، فاخترنا المجاورة في هذا العام عند رسول الله (صلى الله عليه وسلم). فقال: أصدقاني؟ فصمما على قولهما. عندئذ سأل عن منزلهما. فقيل له: إنهما يقيمان في رباط قرب الحجرة النبوية الشريفة، فقبض عليهما وسار إلى الرباط، فوجد لديهما مالاً كثيراً ومصحفين وبعض الكتب، ولم يجد شيئا آخر، وأثنى عليهما أهل المدينة وقالوا: «إنهما صائمان الدهر، ملازمان الصلاة في الروضة الشريفة وزيارة النبي (صلى الله عليه وسلم) وزيارة البقيع كل يوم بكرة، وزيارة قباء كل سبت، ولا يردان سائلا قط، بحيث سدا خلة أهل المدينة في هذا العام المجدب(١).

فاستغرب السلطان من ذلك ولم يخبر أحدا بما رأى، ثم رفع حصيرا في الرباط وهاله ما رأى، فقد رأى سربا محفورا ينتهي قرب الحجرة الشريفة فانزعج الناس وارتاعوا لذلك، فاستجوبهما السلطان وطلب منهما الإفصاح عن حقيقة أمرهما.

وعندما امتنعا ضربهما ضرباً مبرحا، فاعترفا أنهما نصرانيان أرسلهما النصارى في زي الحجاج المغاربة بعد أن أمدوهما بأموال كثيرة ليستعينوا بها لإخفاء حقيقة أمرهما حتى يصلوا إلى الروضة الشريفة لجمع رفات النبي (صلى الله عليه وسلم) ونقلها إلى بلادهما فنزلا في أقرب رباط منها، وحفرا ذلك السرب. فكانا يحفران ليلا ويضعان التراب في محافظ لهما على هيئة محافظ المغاربة، ويذهبان في النهار لزيارة البقيع فيلقيان بالتراب بين القبور حتى أوشكا على الوصول إلى الحجرة. فألقى القبض عليهما. عندئذ بكى السلطان بكاء مرا وأمر بضرب عنقيهما، فقتلا تحت الشباك الذي يلي الحجرة الشريفة مما يلي البقيع سنة ٥٥٧هـ/١١٦٢م. وأمر بحفر خندق حول الحجرة حتى وصل الحفر إلى الماء، وأمر بإحضار رصاص كثير مذاب صبه في الخندق، وبذلك أصبح حول الحجرة سور عظيم من الرصاص(٢).

وفشلت تلك المحاولة الإجرامية التي قام بها الصليبيون لنقل رفات النبي (صلى الله عليه وسلم) من حجرته الشريفة إلى بلادهم وفشلت تلك المؤامرة البشعة في المساس بالرفات الطاهر، أو النيل من الرسول (صلى الله عليه وسلم) وإن الله تعالى حمى نبيه حيا كما حماه ميتا، ونال المجرمون جزاءهم العادل على ما اقترفت أيديهم، ومنع السلطان نورالدين محمود بعد ذلك استخدام النصارى في أي عمل من الأعمال وزاده إيمانا بضرورة طرد الصليبيين من الأراضي العربية الاسلامية.

وأمر السلطان نورالدين أن يبنى حول المدينة سور آخر غير السور القديم لأن ناساً كثيرين كانوا يقيمون خارج السور، فاستغاثوا به أن يحفظ أبناءهم وماشيتهم من اعتداءات اللصوص والمفسدين. وسواء كان نورالدين هو الذي بنى السور كله أو أكمل السور القديم فقد عمل عملا حسنا حفظ

---

(١) السمهودي نفس المرجع ص ٦٤٩، العباسي: نفس المرجع ص١٣١

(٢) راجع تلك الحادثة في السمهودي المرجع السابق والصفحة. والعباسي: المرجع السابق ص ١٣١

سكان المدينة من اعتداءات الأعراب المتكررة عليهم(١).

قاسم بن مهنا:

قبيل اعتلاء صلاح الدين الحكم وتأسيس الدولة الأيوبية كان يحكم بالمدينة الأمير قاسم بن أبي عبدالله بن أبي القاسم طاهر بن يحيى بن الحسين بن جعفر حجة الله بن أبي جعفر عبدالله بن الحسين الأصغر بن زين العابدين بن على بن الحسين بن على بن أبي طالب الحسيني الفليتي المدني(٢). الذي كان قد ولاه الخليفة المستضيء سنة ٥٦٦ هـ/١١٧١م إمرة المدينة.

والملاحظ هنا أنه على الرغم من أنه علوي إلا أنه تولى الإمرة في المدينة من قبل الخليفة العباسي السني مما يدل على أن أمراء المدينة كأمراء مكة يعلنون فروض الولاء والطاعة لمن يدفع لهم أكثر أو يقدم لهم العطايا والهدايا السخية، أو يرهبهم ويخوفهم فيطيعونه مكرهين.

وكانت الأطراف المختلفة في المشرق الاسلامي آنذاك ــ سواء السنية منها في العراق والشام أو العلوية في مصر تحاول كل منها فرض سيطرتها على الحجاز أو على منطقة الحرمين، لما سيعود عليها من مكاسب دينية ومعنوية في العالم الإسلامي.

هذا وبقى الأمير قاسم في حكم المدينة حتى قيام الدولة الأيوبية في مصر والشام وعمل على التقرب من الأيوبيين وبالذات من السلطان صلاح الدين الذي تزعم حركة الجهاد الإسلامي بعد نور الدين ضد الصليبيين، فاشترك معه الأمير قاسم في حروبه العديدة ومن بينها معركة حطين(٣).

محاولة أرناط الإغارة على المدينة: (٤)

تولى رينودي شاتيون «ريجنالد» المعروف في المصادر العربية باسم أرناط حكم أنطاكية بعد زواجه من وارثتها الأميرة كونستانس. وكان أرناط هذا فارسا متهورا، ومغامراً خطيراً عديم القيم والأخلاق، لم يرع العهود والمواثيق التي يوقعها ويلزم نفسه بها، ولم يكن سياسياً محنكاً بل كان أحمق مما جر عليه وعلى الصليبيين الكثير من المتاعب ببلاد الشام(٥).

وكانت سياسة ذلك الفارس المتهور قد أدت إلى وقوعه في أسر الأمير مجد الدين أبي بكر بن الداية

(١) السمهودي المرجع السابق ص ٧٦٦ــ ٧٦٧، العباسي: المرجع السابق ص ١٤٥ــ ١٤٦

(٢) الفاسي: العقد الثمين جـ٧ ص ٣١

(٣) العليمي: ابواليمن عبدالرحمن مجيرالدين الحنبلي: **الأنس الجليل** في تاريخ القدس والخليل جـ١ ص ٢٨٦ القاهرة ١٢٨٣ هـ

(٤) أرناط: فارس فرنسي جاء لبلاد الشام بعد حملة لويس السابع، وبعد عودة الحملة ورجالها إلى بلادهم بقى بفلسطين ويعرف في المراجع الأجنبية باسم رينودي شاتيون أو ريجنالد في حين يعرف في المصادر العربية باسم البرنس ارناط

Grousset op. cit. tome 11.p.329

راجع أيضا ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٧٨، ابوالفدا: المختصر جـ٣ ص٧٢، المقريزي: السلوك جـ١ قسم ٢ ص ٧٢، والعليمي: الانسي جـ١ ص ٢٨٥، ولكنه يسميه ارباط

(٥) عن أخلاق ارناط. راجع د. سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ٢ ص ٦٥٠ــ ٦٥١، قبرص والحروب الصليبية ص ٢٢.

نائب الأمير نور الدين محمود في حلب سنة ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠ م عندما حاول الإغارة على بلاد الجزيرة للسلب والنهب و بقي في الأسر مدة طويلة دون أن يحاول إنقاذه أو يكترث له أحد من الصليبيين حتى أطلق سراحه الأمير كمشتكين حاكم حلب تعبيرا عن اعترافه بالجميل للصليبيين سنة ٥٧١ هـ/١١٧٦ م(١).

و بعد اطلاق سراحه تزوج بالأميرة اتبنت دي ميلي وارثة ملك الأ ردن طمعا في إقطاعها، فأصبح حاكما عليها و يتبع له حصنا الكرك والشوبك(٢) اللذان كانا يتحكمان في طريق الحاج إلى الحرمين الشريفين، وفي الطريق الرئيسي بين إقليمي الدولة الأ يوبية في مصر والشام(٣).

لكن وكما يقول الدكتور سعيد عاشور «لم يكن صلاح الدين الرجل الذي يقبل السكوت عن اعتداءات وهجمات يقوم بها أمير صليبي متهوس ضد قوافل الحجاج والتجار بين مصر والشام والحجاز(٤).

ومع ذلك لم يدرك أرناط عواقب حماقاته خصوصا في ذلك الوقت العصيب الذي كانت تمر به الحركة الصليبية، بعد أن تمكن صلاح الدين من توحيد مصر والشام، وقد جرت تلك السياسة عواقب وخيمة عليه وعلى الوجود الصليبي ببلاد الشام(٥). حتى لقد خسروا تأييد المتعاطفين معهم من المسلمين المعادين لصلاح الدين أمثال أتابك الموصل(٦).

فقد قام أرناط الذي وصفه بعض مؤرخي المسلمين بأنه كان «من شياطين الفرنج ومردتهم وأشدهم عداوة للمسلمين» (٧) — في صيف سنة ٥٧٧ هـ/ ١١٨٢ م بمهاجمة تيماء(٨) التي كانت عبارة عن واحة في قلب الصحراء بين المدينة المنورة والأ ردن. والتي كان لها أهمية خاصة بالنسبة للمسلمين لأنها كما وصفها السلطان صلاح الدين في رسالة للخليفة الناصر العباسي بأنها «دهليز

---

(١) نفس المرجع: الحركة الصليبية جـ٢ ص ٧٤٥

(٢) الكرك: تعرف بكرك الشوبك لمقاربتها لها، وهي من البلقاء، وهي مدينة محدثة البناء كانت ديرا يديره رهبان، ثم كثروا فكبروا بناءه، وأدى إليهم من يجاورهم من النصارى الضرائب، فأقاموا لهم أسواقا درت لهم فيه معايش وأوت إليه الفرنج، فأداروا أسواره، فصارت مدينة عظيمة. «الدمشقي: نخبة الدهر ص ١٠٠، القلقشندي: صبح الأعشى جـ٤ ص ١٥٦».
أما ابن خلدون فقد وقع في الخطأ عندما قال: ان أرناط هو الذي اختط مدينة الكرك وقلعتها ولم تكن هنالك إذ أن أرناط ورثها عن زوجته كما بيّنا «العبر جـ٥ ص ٢٩٥».
أما الشوبك: فهي من جبل الشراة، وهي بلدة صغيرة أكثر دخولا في البر من الكرك، ذات عيون وجداول و بساتين وأشجار وفواكه مختلفة كانت بأيدي الفرنج مع الكرك وفتحت بفتحها «القلقشندي: المرجع السابق جـ٤ ص ١٥٧».

(٣) Runciman op.cit.11.p.431.

(٤) القلقشندي: المرجع السابق جـ٢ ص ٧٦٩ — ٧٧٠

(٥) Setton Ahistory of the Gusades,1.p.581.

(٦) R unciman op. cit.11.p.437.

(٧) ابن الأثير: الكامل جـ٩ ص ١٥٢، الروضتين جـ٢ ص ٢٣

(٨) تيماء: حصن أعمر من تبوك وهي في شمال تبوك وبها نخيل وهي ممتار البادية و بينها و بين أول الشام ثلاثة أيام «الاصطخري: المسالك والممالك ص ٢٥».

المدينة »[1] وكان ينوى أن يسير منها براً للاستيلاء على المدينة[2].

وكان الصليبيون و بالذات أرناط يهدفون من وراء ذلك تحقيق عدة أهداف هي:

١ـ ضرب المسلمين في أعز شيء لديهم، وأقدس أماكنهم، وذلك بمهاجمة الحرمين الشريفين والاستيلاء عليهما.

٢ـ نقل رفات الرسول (صلى الله عليه وسلم) من المدينة المنورة بالقوة المسلحة بعد أن فشلوا في ذلك بالسرقة والحيلة أيام نورالدين محمود. وإذا ما نجحوا في ذلك فانهم سيحرمون المسلمين من زيارة المدينة لأن الزيارة للرسول صلى الله عليه وسلم وإذا ما نجحوا في ذلك وساروا إلى مكة فسيعملون على هدم الكعبة أيضاً وأخذ الحجر الأسود و بذلك يقضون على الحج الإسلامي إحدى الفرائض الإسلامية الخمس و بذلك يعملون على هدم الإسلام، كما أرادوا دفن رفات الرسول (صلى الله عليه وسلم) عندهم ولا يسمحون للمسلمين بزيارته إلا بعد أن يدفعوا مكساً لذلك. وفي ذلك يقول العليمي «فيها قصد الإفرنج المقيمون بالكرك والشوبك المسير لمدينة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لينبشوا قبره الشريف و ينقلوا جسده الكريم إلى بلادهم و يدفنوه عندهم، ولا يمكنوا المسلمين من زيارته إلا بجعل »[3].

٣ـ السيطرة على البحر الأحمر بالوصول إلى اليمن جنوبا بعد الاستيلاء على الحجاز فتصبح لهم السيطرة على منافذه الشمالية والجنوبية، و يسيطرون على موانئه الهامة كجدة والجار[4] و ينبع وعدن وغيرها، و بذلك يسيطرون على تجارة هذا البحر الهامة بين الشرق والغرب مما يعود عليهم بالأرباح الطائلة و يزيد في قوتهم، ويحرم الأيوبيين من مورد هام من مواردهم مما يؤدي إلى ضعفها للتمهيد للاستيلاء عليها، لتزعمها حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، كما يعملون على إعادة التحالف القديم الذي كان قائما بين الدولة البيزنطية المسيحية و بين الحبشة بتحالف بين الصليبيين و بينها[5] و يشكلون بذلك خطراً كبيراً على صلاح الدين الذي تتوزع جهوده للقتال هنا وهناك.

٤ـ كان أرناط يريد أن يظهر على أنه قادر على الرد على الغارات التي يقوم بها صلاح الدين على بلادهم بغارات مماثلة على المناطق التابعة له.

بعد أن اكتملت استعدادات أرناط وجمع قواته وزودها بكل ما تحتاج إليه، علم الأمير عزالدين فرخشاه ابن أخي السلطان صلاح الدين ونائبه في دمشق فجمع العساكر الدمشقية، وسار إلى

---

(١) ابو شامة: الروضتين جـ٢ ص ٢٣

(٢) ابن الاثير: الكامل جـ٩ ص ١٥٢، المقريزي: السلوك جـ١ قسم٢ ص ٧٢، ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٢ ص ٣٠٩

(٣) الانس الجليل جـ١ ص ٢٨

(٤) الجار: بتخفيف الراء: مدينة على ساحل بحر القلزم بينها و بين المدينة يوم وليلة و بينها و بين ايلة نحو عشرة مراحل.. وهي فرضة لأهل المدينة ترفأ إليها السفن من أرض الحبشة ومصر وعدن والصين وسائر بلاد الهند «ابن عبدالحق: مراصد الاطلاع جـ١ ص ٣٠٥».

(٥) نظير سعداوي: التاريخ الحربي المصري ص ١٤٤

الكرك، فنهبها، وأحرق نواحيها، وأقام في مقابلة أرناط، الذي تراجع عن عزمه وفرق جموعه، فعاد فرخشاه إلى دمشق(١) وفشلت بذلك محاولة أرناط الأولى. ولكنه اعترض طريق قافلة اسلامية كبيرة كانت متجهة من دمشق إلى مكة فنهبها واستولى منها على ثروة كبيرة(٢).

وقد خرق أرناط بذلك العمل الغادر الهدنة التي كانت معقودة وقتئذ بين صلاح الدين والملك بلدوين الرابع ملك بيت المقدس هذا في الوقت الذي كان الصليبيون في أمس الحاجة لتلك الهدنة(٣). ورفض أرناط طلب مليكه برد الأسرى والأموال التي استولى عليها للمسلمين، مما يدل على مدى ما أصاب الصليبيين من ضعف وتفكك في ذلك الوقت(٤).

وكانت العواصف قد ألقت ببعض السفن التي تحمل حجاجا مسيحيين على ساحل دمياط فأسرهم صلاح الدين وكانوا ألفا وستمائة وتسعين حاجا، ورفض صلاح الدين إطلاق سراحهم عندما رفض أرناط إطلاق الأسرى المسلمين(٥).

ومع ذلك فإن ذلك الفارس الأرعن لم يكتف بتلك الأعمال الغادرة فعمل على تحقيق الفكرة التي اختمرت في ذهنه بمهاجمة الحجاز والسيطرة عليه ناسيا أو متناسيا أن مثل ذلك العمل سيثير عليه كافة المسلمين في كافة أنحاء العالم لأن محاولته تلك تعتبر ضربة قاسمة موجهة إلى صميم معتقداتهم ناسيا أو متناسيا أيضا تغير ميزان القوى في المنطقة في ذلك الوقت لصالح المسلمين خلافا لما كان عليه الحال قبيل ذلك بوقت قصير، عندما كانت السيادة والهيمنة للصليبيين في بلاد الشام(٦).

ولكن ذلك الفارس الذي يصفه بعض المؤرخين الأوربيين بالجشع وعدم الوفاء والغدر والوحشية والتعصب الأعمى(٧)، قد عقد العزم على تنفيذ مشروعه. فقام في العام التالي من محاولته الأولى «سنة ٥٧٨ هـ/١١٨٢ م» بمحاولته الثانية فصنع أسطولا في الكرك، ونقله مفككا على ظهور الإبل إلى البحر الأحمر حيث قام بتجميعه فوراً وشحنه بالمقاتلين والأسلحة والمؤن(٨) وقسمه إلى فرقتين: الفرقة الأولى: وأرسلها إلى حصن أيلة(٩) فقامت بمحاصرته ومنع الماء عنه، فقاسى أهله من

(١) ابن الأثير: الكامل جـ ٩ ص ١٥٢، المقريزي: السلوك جـ١ قسم ٢ ص ٧٢
(٢) د. سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ٢ ص ٧٧٠

(٣) Cambridge Medevial History vol.5.p.309-

(٤) Grousset: op.cit.11.p.703

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٢ ص ١١٤
(٦) د. سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ٢ ص ٧٨٥

(٧) King: The Kinghts Hospitallers in the holy land p.111

(٨) ابو شامة: الروضتين جـ٢ ص ٣٥، ابن الأثير: الكامل جـ٩ ص ١٥٩، المقريزي السلوك جـ١ قسم ٢ ص ٧٨
(٩) أيلة: بالفتح: مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام وقيل هي آخر الحجاز وأول الشام، ومدينة أيلة جليلة على لسان من البحر المالح وبها مجتمع حج الفسطاط والشام «ياقوت معجم البلدان جـ١ ص ٢٩٢»

الشدة الشيء الكثير(١). الفرقة الثانية: زج بها أرناط في البحر الأحمر للاغارة على جانبيه، فسارت نحو عيذاب، وأغار رجالها على سواحلها فقتلوا وأسروا أعدادا كبيرة، وأحرقوا في بحرها ستة عشر مركبا(٢). وأثاروا الرعب في قلوب الناس لأنهم باغتوهم وأخذوهم على حين غرة حيث لم يسبق لهم أن رأوا سفنا صليبية من قبل لاحربية ولا تجارية(٣). واستولوا في عيذاب على مركب كان عائدا بالحجاج من جدة كما قتلوا قافلة من الحجاج بين قوص وعيذاب، واستولوا على مركبين كانا محملين بالبضائع قدما من اليمن، ونهبوا مؤنا كثيرة كانت معدة لميرة الحرمين الشريفين و يقول المقريزي بأنهم «أحدثوا حوادث لم يسمع في الإسلام بمثلها، ولا وصل قبلهم رومي إلى ذلك الموضع، فإنه لم يبق بينهم و بين المدينة سوى مسيرة يوم واحد ومضوا إلى الحجاز يريدون المدينة النبوية»(٤).

و يضيف الحنبلي إلى ذلك بأن أرناط بعد أن غزا الساحل الغربي نقل عملياته إلى الساحل الشرقي قاصداً سواحل الحجاز واليمن، فاستولت على بعض السفن التجارية في البحر «واستطاعت أن تشق طريقها في البر إلى سواحل تهامة»(٥) دون أن تجد أية مقاومة لأنه لا توجد قوات في تلك المناطق للدفاع عنها لأنه لم يصل عدو إلى تلك المناطق من قبل(٦).

أما السلطان صلاح الدين فقد كان في تلك الأثناء في حوران ببلاد الشام. وكان أخوه الملك العادل أبوبكر بن أيوب ينوب عنه في حكم مصر. فسارع على الفور إلى إعداد أسطول شحنه بالمقاتلة بقيادة أمير البحر المصري الحاجب حسام الدين لؤلؤ الذي كان معروفا بالشجاعة والإقدام و وضع خطة يهاجم بمقتضاها أولا المحاصرين لحصن أيلة، ثم يلاحق الأسطول الصليبي في البحر بعد ذلك.

و بدأ بتنفيذ تلك الخطة بأن هاجم المحاصرين لحصن أيلة ودارت بينهم معركة انتهت بقتل وأسر جميع الصليبيين. وفي ذلك يقول ابن الأثير: «فسار لؤلؤ مجدا في طلبهم، فابتدأ بالذين على أيلة، وانقض عليهم انقضاض العقاب على صيده، فقاتلهم فقتل بعضهم وأسر الباقي»(٧).

---

(١) ابن الأثير: الكامل جـ٩ ص ١٥٩، ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ٣١٧، المقريزي: السلوك جـ١ قسم ٢ ص ٧٨

(٢) المقريزي: المرجع السابق جـ١ قسم ٢ ص ٧٨

(٣) ابن الأثير: المرجع السابق جـ٩ ص ١٥٩، ابوالفدا: المختصر جـ٣/٦٥

(٤) ابن جبير: الرحلة ص ٣١ـ ٣٢، المقريزي: السلوك جـ١ قسم ٢ ص ٧٩

(٥) شفاء القلوب لوحة ٢٨أ، نظير سعداوي: التاريخ الحربي ص١٤٢

(٦) Kammerer La Mer Rouge.vol.I.p.61
Wiet Histoire de la nation Egyptienne L'Egypte Arabe.p.322, Lane Poole Saladine.p.125
الشبال: تاريخ مصر الإسلامية جـ٢ ص ٥٨، الباز العريني: مصر في عصر الأيوبيين ص ٦٩

(٧) ابوالفدا: المختصر جـ٣ ص ٦٥، ابن الأثير: الكامل جـ٩ ص ١٦٠، الحنبلي شفاء القلوب لوحة ٢٨أ، ابن خلدون: العبر جـ٥ ص ٢٩٩ـ ٣٠٠، ابن الوردي: تتمة المختصر جـ٢ ص١٤٠، ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٢ ص ٣١١ أما العليمي فيذكر أن نائب صلاح الدين في مصر في ذلك الوقت كان سيف الدولة بن منقذ مخالفا بذلك بقية المؤرخين «الانس الجليل جـ١ ص ٢٨»

ثم سار الأمير حسام الدين بأسطوله في البحر يطارد الأسطول الصليبي فوصل عيذاب ولكنه لم يجد الصليبيين إذ كانوا قد أغاروا عليها، ورحلوا عنها إلى بر الحجاز فنزلوا رابغ(١) ومنها ساروا إلى ساحل الحوراء(٢) واعتدوا على التجار ودب الرعب والفزع في نفوس الناس حيث يقول ابن واصل: «فأخذت تجاراً وأخافت رفاقا»(٣) وكان قد دلهم على الطرقات بعض الأعراب الخونة المنتفعين من الحروب والخيانة، الذين لايعرفون الله» ودلها على غوارب البلاد من الأعراب من هو أشد كفرا ونفاقا(٤) وأصبحوا على مسافة يوم واحد من المدينة المنورة(٥) وعندما علم أهل المدينة بقدوم الحملة خافوا خوفا شديدا لأنهم لم يعهدوا من قبل أن داهمهم خطر أجنبي كهذا(٦).

ولكن الأمير حسام الدين كان لهم بالمرصاد، إذ لم يلبث أن داهم سفنهم على غرة فاستولى عليها وأطلق من فيها من التجار ومن أسرى المسلمين ورد إليهم بضائعهم وممتلكاتهم(٧) فما كان من الصليبيين الذين يزيدون على الثلاثمائة مقاتل إلا أن تركوا سفنهم، ولجأوا إلى قمة جبل صعب المرتقى، و يذكر العليمي أن الأمير حسام الدين «صعد إليهم في نحو عشرة أنفس، وضايقهم فيه فخارت قواهم بعدما كانوا معدودين من الشجعان، وقبض عليهم وقيدهم» (٨). ولكننا نلاحظ في هذا النص مبالغة كبيرة إذ لايعقل أن يتغلب عشرة مقاتلين على أكثر من ثلاثمائة مقاتل، وربما أراد من ذلك أن يظهر مدى القوة والروح المعنوية العالية التي كانت تتمتع بها القوات الإسلامية المدافعة عن الحرمين الشريفين ضد تلك المحاولة الإجرامية الخطيرة التي قام بها الصليبيون لأول مرة في تلك المنطقة.

ولكننا لانشك في أنهم تركوا سفنهم وساروا لمهاجمة المدينة للاستيلاء عليها وعندما شعروا بوصول قوات صلاح الدين لجأوا إلى الجبال علهم يجدون فيها المأوى والخلاص. ولكن الأمير حسام الدين جمع خيل الأعراب وتتبعهم بقواته التي كان فيها الفرسان والمشاة، واستمروا في ملاحقتهم خمسة أيام فقتلوا من قتلوا وأسروا مائة وسبعين في شوال سنة ٥٧٨ هـ/فبراير ١١٨٣ م(٩) وأرسل من الأسرى اثنين إلى منى نحروا بها كما تنحر الأضحية، أما الباقون فقد ارسلوا إلى القاهرة،

---

(١) رابغ: واد يقطعه الحاج بين البزواء والجحفة دون عزور «ياقوت: معجم البلدان جـ٢ ص ٧٢٧».

(٢) الحوراء: هي ساحل خيبر لها حصن وريض عامر فيه سوق نحو البحر: المقدسي: احسن التقاسيم ص ٨٣. الطبعة الثانية ليدن ١٩٠٦.

(٣) مفرج الكروب جـ٣ ص ٣١٨، راجع الحنبلي أيضا شفاء القلوب لوحة ٢٨أ

(٤) نفس المرجع والجزء والصفحة

(٥) ابن جبير: الرحلة ص ٣٢، العليمي: الانس الجليل جـ١ ص ٢٨، د. جمال الدين الشيال: تاريخ مصر الإسلامية جـ٢ ص ٥٨ — ٥٩، الباز العريني: مصر في عصر الأيوبيين ص ٦٩ — ٧٠

(٦) ابن واصل: المرجع السابق جـ٣ ص ٣١٨

(٧) الحنبلي: شفاء القلوب لوحة ٢٨أ — راجع أيضا

Wiet op.cit.,p.324, Lane Poole op.cit.p.125, Kammerer.op.cit.p.62

(٨) الانس الجليل: جـ١، ص ٢٨

(٩) ابوشامة: الروضتين، جـ٢، ص ٣٧، ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٣ ص ٣١٨

وكان يوم دخولهم لها يوما مشهودا(١). وأرسل صلاح الدين إلى أخيه العادل بأن يقتل الأسرى لتجرؤهم على مهاجمة الأماكن الإسلامية المقدسة ولمعرفتهم عورات المسلمين ومناطق الضعف في الحجاز، وهذا ربما دفعهم إلى تكرار تلك العملية. وكيلا يفكر الصليبيون مرة أخرى في مهاجمة تلك البقاع وقال صلاح الدين لأخيه العادل في رسالة أرسلها إليه بقلم القاضي الفاضل: نحن نهنىء المجلس السامي بظفره، ولم يكمله و ينصره؟ ولم لا يعجله و يشكره؟ وليس في قتل هؤلاء الكفار مراجعة، ولا للشرع في بقائهم مسخة، ولا في استبقاء واحد منهم مصلحة، ولا في التغاضي عنهم عند الله عذر مقبول.. فليمض العزم في قتلهم ليتناهى أمثالهم عن فعلهم وقال في أخرى «وقد تقرر القول في معنى أسارى بحر الحجاز، فلا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ولا توردهم بعد ماء البحر إلا نارا، فأقلهم إذا بقي جنى الأمر الأصعب، ومتى لم تعجل الراحة منهم، وعدت العاقبة بالأشق الأتعب» (٢).

وقال في رسالة أخرى لأخيه بشأن نصر لؤلؤ على الصليبيين «وهؤلاء الأسارى فقد ظهروا على عوزة الاسلام وكشفوها، وتطرقوا بلاد القبلة وتطوفوها، ولو جرى في ذلك سبب والعياذ بالله لضاقت الأعذار إلى الله والخلق، وانطلقت الألسن بالمذمة في الغرب والشرق، ولابد من تطهير الأرض من أرجاسهم، والهواء من أنفاسهم بحيث لايعود منهم مخبر يدل الكفار على عورات المسلمين وان هذا العدد القليل قد نال ذلك المقام الجليل، وهذا المقام ان روعي فيه حراسة الظاهر والوفاء للكافر، حدث الفتق الذي لايمكن في كل الأوقات سده ورتقه، ولدغ المؤمن مرتين، والأولى تكفي لمن له في النظر تفقه»(٣).

ووزع الأسرى بين القاهرة والإسكندرية فضربت أعناق بعضهم في القاهرة، وأرسل الباقي إلى الإسكندرية فدخلوها راكبين الإبل ووجوههم إلى أذنابها وحولهم الطبول والأبواق، وضربت أعناقهم أيضا(٤).

بذلك فشلت تلك الحملة التي دبرها صاحب الكرك أرناط ونال القائمون بها الجزاء الذي يستحقونه لتجرؤهم على مهاجمة الحرمين الشريفين بحيث لم يفكر الصليبيون بعد ذلك في تكرار مثل تلك المحاولة البشعة. وقد غضب السلطان صلاح الدين على أرناط ونذر أن يسفك دمه إذا وقع في قبضته(٥). كما عمل على أخذ الكرك منه لتهديده القوافل الإسلامية(٦) فهاجمه في تلك السنة

(١) ابوشامة: المرجع السابق والجزء والصفحة، نظير سعداوي: التاريخ الحربي ص ١٤٢، ١٤٣.
(٢) ابوشامة: ذيل الروضتين جـ٢ ص ٣٧، ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ٣١٤
(٣) ابوشامة: المرجع السابق والجزء ص ٣٦، ابن واصل: المرجع السابق والجزء ص ٣١٢ ـــ ٣١٣
(٤) ابوالفدا: المختصر جـ٣ ص ٦٥، المقريزي: السلوك جـ١ قسم ٢ ص ٧٩. أما العليمي فيقول: «فتولى قتلهم الصوفية والفقهاء وأرباب الديانة» الأنس الجليل جـ١ ص ٢٨٠، ابن جبير: الرحلة ص ٣٢
(٥) ابوشامة: الروضتين جـ٢ ص ٧٥
(٦) ابن شداد النوادر السلطانية ص ٧٨

(٥٧٨ هـ/١١٨٣م) وحاصره ولكنه لم يستطع الاستيلاء عليه، فهاجمه في العام التالي، ومع ذلك اضطر للانسحاب عنه مرة أخرى عندما هب الملك عموري الرابع ملك بيت المقدس لنجدته(١).

وعلى الرغم من الخطر الذي هدد الحجاز من ذلك الفارس اللص أرناط والدور الذي قامت به قوات صلاح الدين في الذود عن الحرمين الشريفين لمنع وصول الصليبيين إلى تلك المناطق إلا أننا لم نسمع عن أي دور قام به حكام المدينة الحسينيون أو حكام مكة الحسنيون، ولم نسمع عن أي دور قام به الأمير قاسم الذي كان الخطر قد دق أبواب مدينته، وأصبح قاب قوسين منها أو أدنى و يبدو أنه لم يكن في ذلك الوقت في المدينة إذ ربما كان في بلاد الشام يشترك مع صلاح الدين في جهاد الصليبيين. وأن نائبه بها قد أعد ما يستطيع إعداده للدفاع عن المدينة إذا ما حاصرها الصليبيون لأنه لا توجد لديهم قوات تستطيع الخروج لمقاتلة الصليبيين خارج المدينة. أما حكام مكة فكان الخطر مازال بعيدا عنهم وربما كانوا قد بدأوا في تجهيز قواتهم للتصدي للقوات الغازية ولنجدة أبناء عمومتهم في المدينة بالرغم من الصراع الذي كان قائما بينهما في ذلك الوقت إذ كانوا يتضامنون إذا ما داهمهم خطر خارجي.

على أية حال فقد فشلت تلك الحملة بفضل قوات صلاح الدين ــ التي كانت على استعداد للدفاع عن أي جزء من الأ راضي الإسلامية تتهددها الأخطار الخارجية ــ في تحقيق أهدافها بضرب المسلمين في أعز مقدساتهم، وقطع طرق تجارتهم والسيطرة على البحر الأحمر. و بقيت تلك المناطق طاهرة لم تنجسها أيدى الرجس والخيانة.

وقد كتب السلطان صلاح الدين إلى الخليفة الناصر العباسي يخبره بالعمل الإجرامي الذي قام به أرناط فقال: «أما الفريق القاصد سواحل الحجاز واليمن، فيستبيح والعياذ بالله المحارم، و يهيج جزيرة العرب بعظيمة دونها العظائم»(٢).

ولكن تلك الحملة كانت بداية النهاية لذلك اللص الذي لم يتورع عن نقض المعاهدات والا تفاقيات، مستغلا موقع حصنه في الطريق بين مصر والشام والحجاز لتعكير صفو السلام بين المسلمين والصليبيين بالاعتداء على قوافل المسلمين مستخدما في ذلك بعض الأعراب القاطنين بالقرب من حصن الكرك(٣).

ولكن ذلك الثعلب الماكر حاول تصحيح خطئه بالاعتذار لصلاح الدين عن جريمته في الإغارة على الحجاز بأن وعده بتأمين طرق القوافل سواء الذاهبة للحاج أو التي تعمل في التجارة، ولكنه لم يستطع التخلي عن خسته ودناءته لأنه لا يستطيع أن يعيش دون أن ينهب أو يسرق(٤) فمن شب

---

(١) نفس المرجع ص ١٠٨، المقريزي: السلوك جـ١ قسم ٢ ص ٨٤

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ٣١٧ ــ ٣١٨، ابوشامة: الروضتين جـ٢ ص ٣٧

(٣) ابوشامة: المرجع السابق والجزء ص ٧٥

(٤) Grousset: op.cit.,11.p.677.

على شيء شاب عليه. فهاجم سنة ٥٨١ هـ/١١٨٦م قافلة كبيرة للمسلمين كانت تحمل الكثير من الأموال والبضائع، فأسالت لعابه ــ واستولى عليها وأسر رجالها(١) ورفض إطلاق سراحهم وإعادة ممتلكاتهم عندما هدده صلاح الدين وتوعده وقال للرسول «قولوا لمحمد يخلصكم»(٢) ولم يراع أرناط الظروف الصعبة التي كان يمر بها الصليبيون، واستثار صلاح الدين في وقت كانت فيه الانقسامات بين الصليبيين والضعف قد بلغ ذروته(٣). في وقت تزايدت فيه قوة المسلمين، وتأكدت وحدتهم وزاد ذلك العمل من قبل أرناط غضب صلاح الدين الذي أكد قسمه بأن يقتل أرناط إذا ما ظفر به.

واتخذ صلاح الدين من ذلك اللص الحيطة والحذر ولم يعد يثق في وعوده وأصبح يذهب بنفسه على رأس قواته لاستقبال قوافل الحجاج عندما تقترب من حدود بلاد الشام لحمايتهم من اعتداءات ذلك الأرعن، وقد قال ابن واصل ان صلاح الدين ذهب بنفسه إلى بصرى لحماية قافلة الحجاج الآتية من الحرمين «خوفا عليهم من غدر عدوالله الابرنس أرناط» (٤) وكان في تلك القافلة أخت صلاح الدين وابنها محمد بن عمر بن لاجين (٥) والتي ذكرت عنها بعض المراجع الأجنبية أنها وقعت في أسر أرناط في العام السابق (٥٨١ هـ/١١٨٦م). وأخذ يضيق على الصليبيين ببلاد الشام و يسترجع منهم ما يستطيع استرجاعه إلى أن كانت معركة حطين سنة ٥٨٤ هـ/١١٨٩م بالقرب من طبرية بفلسطين حيث دارت بين المسلمين والصليبيين معركة حامية الوطيس كان قد خطط لها صلاح الدين بكل دقة وإتقان، وانتهت بهزيمة الصليبيين وأسر ملك بيت المقدس جاى لوزجنان(٦) والمغرور اللعين أرناط وغيرهما من مقدميه وقادة الصليبيين(٧).

و بعد النصر جلس السلطان صلاح الدين مسرورا بما من الله عليه واستحضر ملك بيت المقدس وأرناط ومقدم الداو ية(٨) وغيرهم، وكان السلطان كما ذكرنا قد نذر دم أرناط، وعندما حضر ذليلا بين يديه و بخه على غدره وعدم وفائه بالعهود والمواثيق واعتدائه على الآمنين وتهجمه على الأنبياء

---

(١) ابوشامة: المرجع السابق والجزء والصفحة

(٢) ابن واصل: المرجع السابق جـ٢ ص ١٩٤

(٣) King: The knights Haspotalleras in the holy land, p.p. 118-119.

(٤) ابن واصل: المرجع السابق جـ٢ ص ١٨٦

(٥) ابوشامة: المرجع السابق جـ٢ ص ٧٥، ابن الأثير: الكامل جـ٩ ص ١٧٥

(٦) Runciman: op.cit.11.p.433.

أما المراجع العربية فبعضها يسميه جفري «ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٧٨، ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٣٣، و بعضها يسميه سيركي وأن أخاه جفرين: «العليمي: الانس الجليل جـ١ ص ٢٨٥»

(٧) راجع واقعة حطين في كتاب الدكتور عاشور: الحركة الصليبية جـ٢ ص ٧٩٦ــ ٨١٠

(٨) الداو ية: اطلق المسلمون هذا الاسم على جمعية فرسان المعبد

Templiers وقد أسسها هودي باينز Hough de payns سنة ١١١٩م لحماية طريق الحجاج المسيحيين بين يافا و بيت المقدس، ثم تحولت الجمعية إلى هيئة حربية دينية فكان لرؤسائها وفرسانها شأن كبير في تاريخ الامارات الصليبية بالشام

king op.cit.pp.1-33

ومحاولته الاستيلاء على الحرمين. فرد عليه بقوله: «قد جرت عادة الملوك»(١) وكان الملك جاي لوزجنان يلهث من شدة العطش فناوله السلطان (جلابا)(٢) مثلجا فشرب منه وناوله لأ رناط فشرب منه فقال السلطان للترجمان: «قل للملك أنت الذي تسقيه وأما أنا ما سقيته»(٣) قال السلطان له ذلك لأن من عادات العرب أن الأسير إذا أكل أو شرب من ماء أو زاد من أسره أصبح آمنا، وانه لايريد أن يعطي الأمان لذلك الغادر الذي أهدر دمه.

وبعد أن تناولوا الطعام، أحضر السلطان صلاح الدين الغادر أرناط وقال له: «هأنذا استنصر لمحمد «عليه الصلاة والسلام» ثم عرض عليه الإسلام فلم يقبل فسل النمجاة(٤) وضربه بها فحل كتفه وتمم عليه من حضر وعجل الله بروحه إلى النار فأخذ ورمى على باب الخيمة»(٥).

وقد ارتاع الملك لوزجنان عندما رأى ذلك ولم يشك أنه مقتول ولكن السلطان استدعاه وطيب خاطره وقال له: «لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك، أما هذا فإنه تجاوز حده، فجرى ما جرى»(٦).

وبذلك ازهقت روح ذلك اللعين لما ارتكبه في حق الاسلام والمسلمين الآمنين واجترائه على مهاجمة الحرمين الشريفين، وسبه النبي (صلى الله عليه وسلم) فشرب من الكأس التي طالما جرع غيره منها، وهكذا تكون عاقبه المفسدين.

وقد شارك في تلك المعركة مع السلطان صلاح الدين الأمير قاسم بن مهنا الحسيني أمير المدينة النبوية حيث كان قد حضر إلى الشام مع قافلة الحجاج التي قدمت تلك السنة، فسر لانتصار المسلمين سرورا عظيما وما حل بذلك السفاح أرناط الذي تجاوز حده، وحاول الاستيلاء على الأماكن المقدسة.

وكان السلطان صلاح الدين يتيمن بالأمير قاسم و يتبرك به و يستشيره في كثير من الأمور الهامة التي ينوي القيام بها، كما اشترك معه في العديد من المعارك التي خاضها ضد الصليبيين، وكان يتبرك به السلطان صلاح الدين لوجوده في المدينة التي يوجد بها قبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) الذي يجله المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، وبما أن الأمير قاسماً هو خادم الحرم النبوي، وهو تابع للأيوبيين يخطب باسمهم و يعلن فروض الطاعة والولاء لهم، فيلقى مقابل ذلك الدعم

---

(١) العليمي: الأنس الجليل جـ١ ص ٢٨٥

(٢) الجلاب: ذكر في الملك المظفر يوسف بن رسول: المعتمد في الأدوية ص ٧١ بأنه ماء الورد وأنه فارسي معرب وقيل إنه الماء ينقع في الزبيب، راجع أيضا Dozy: Supp.Dict.Arabe.

(٣) ابن شداد: المرجع السابق ص ٧٨، ابو المحاسن: المرجع السابق جـ٦ ص ٣٣

(٤) النمجاة: بالهاء خنجر مقوس يشبه السيف القصير وهو معرب اللفظة الفارسية يمنجه و يقال أيضا نمجا ونمجه ونمشا راجع Dozy Supp.Dict Arabe

(٥) ابن شداد: المرجع السابق ص ٧٨ــ ٧٩ ابو المحاسن: المرجع السابق والجزء ص ٣٣ــ ٣٤

(٦) العليمي: المرجع السابق والجزء والصفحة

والعون، لذا فقد قدره الأيوبيون حق قدره وبالذات صلاح الدين كما أنه كان رجلاً عاقلاً متزناً، وكان رجلا مسنا محنكا وصفه العليمي بقوله: «وهو ذو شيبة نيرة، وحضر مع السلطان هذا الفتح جميعه»(١).

ولم يقتصر احترام الأمير قاسم على الأيوبيين فقط بل تعداهم إلى الخلفاء العباسيين الذين كان يخطب لهم على منابر المدينة فينال عطاياهم وإكرامهم كما أن الأمير قاسماً كان يعتبر الخليفة ابن عمه بالرغم من اختلافه معه في المذهب ولم يكن قاسم متعصباً للشيعة مما أدى إلى تقاربه مع العباسيين والأيوبيين السنة.

ومما يدل على مدى حب الخليفة العباسي الناصر للأمير قاسم وتقديره له أنه عمل يوما سرادقا كبيرا دعا فيه كبار رجال دولته، وكان من جملة المدعوين الأمير قاسم، وتقدم من الخليفة وزراؤه ونوابهم وكبار الأمراء وأعلنوا له فروض الطاعة والولاء وقبلوا الأرض ودعوا له وكانوا يقبلون ركابه ولكن الخليفة لم يرد على أحد منهم جهرا ولم يسمع منه أي كلام حتى جاء دور الأمير قاسم الذي قبل الأرض والركاب ودعا فأحسن وابلغ في دعائه، فوقف له الخليفة ورد عليه السلام جهرا «ورفع يده فوضعها عليه وأحسن له البشرى ثم مضى راكبا»(٢) وبذلك فقد قدمه الخليفة على كبار رجال دولته تقديرا له ولمكانته، وكان الوحيد الذي رد عليه السلام جهرا بل رفع يده ووضعها عليه زيادة في تشريفه وتقديره.

وقد اهتم السلطان صلاح الدين اهتماما خاصا بالمسجد النبوي الشريف الذي يضم رفات النبي (صلى الله عليه وسلم)، الطاهر بأن عين مجموعة من الخدم الخصيان به يقومون على خدمته والاهتمام بشؤون المسجد المختلفة. وقد كان الأشراف الحسينيون قد خرجوا عن طاعة الفاطميين، وعندما تولى صلاح الدين الحكم في مصر، أغدق عليهم الأموال ومنحهم الكثير من الهدايا والعطايا حتى وافقوا أن يجعل على المدينة جماعة من قبله يشرفون على الحرم النبوي وقال ابن اياس: «فقرر بالمدينة أربعة وعشرين خادما خصيا، وجعل عليهم شيخا من الخدام يقال له بدرالدين الأسدي»(٣).

ويبدو أنهم لم يكونوا مجرد خدم، بل كانوا عيونا وأعوانا للسلطان صلاح الدين في المدينة يراقبون تحركات وتصرفات أشرافها حتى يضمن ولاءهم له وحتى لاينشقوا عليه، وكي يحافظ على حقوق أهل السنة في المدينة التي كانت مهضومة في ذلك الوقت، وبذلك يضمن تبعية المدينة له.

وقد وقف السلطان صلاح الدين على المدينة بلدتين من بلاد الصعيد هما نقادة وقبالة اللتان بقيتا

(١) نفس المرجع ص ٢٨٦

(٢) محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبي: مضمار الحقائق وسر الخلائق ص ٣٩ـ ٤٠ تحقيق دكتور حسن حبشي القاهرة ١٩٦٨.

(٣) بدائع الزهور في وقائع الدهور جـ١ ص ٧٢ الطبعة الأولى بولاق ١٣١١ هـ

وقفا عليها حتى نهاية العصر الأيوبي وجزء من العصر المملوكي(١).

وكان لشيخ الحرم هيبة كبيرة بحيث كان إذا قدم على السلاطين أو الملوك استقبلوه استقبالا حسنا وقاموا له، وأجلسوه إلى جانبهم وتبركوا به لمجاورته للرسول (صلى الله عليه وسلم) واستمر الحال على ذلك إلى أيام السلطان المملوكي الأشرف برسباي(٢).

ونظرا لانشغال نورالدين محمود وصلاح الدين الأيوبي بالحروب الصليبية، فقد ازداد نفوذ الأشراف العلويين بالمدينة رغم تبعيتها لهم. ومما زاد في قوتهم قيام أميرهم بالمشاركة في تلك الحروب ضد الصليبيين إلى جانب صلاح الدين الذي كان يكن له كل احترام وتقدير، ويستشيره ويأخذ برأيه في أعقد الأمور. ونظرا لذلك لم يجرؤ أحد على مطالبة صلاح الدين بوضع حد لهم، وأصبحوا كما قال علي بن موسى «لم يتجاسر أحد على الكلام في الإمامية في ذلك الزمان»(٣).

سالم بن قاسم:

استمر قاسم في إمرة المدينة حتى وفاته سنة ٥٨٨ هـ/١١٩٢م بعد أن حكمها حوالي خمسة وعشرين عاما(٤) ليخلفه في الإمرة ابنه سالم الذي واصل سياسة أبيه في علاقاته مع العباسيين والأيوبيين، فمدوا له يد العون والمساعدة.

أما بالنسبة إلى علاقاته مع أبناء عمومته من بني قتادة في مكة فقد كانت كما رأينا علاقات عداء وقتال، لأن قتادة كان يحلم في تكوين امبراطورية كبرى في شبه الجزيرة العربية، فرد عليه حكام المدينة بالإغارة على مكة يساعدهم في ذلك الأيوبيون في مصر والشام(٥).

كما تعرضت المدينة إلى اعتداءات الاعراب المقيمين حولها مما اضطر نورالدين إلى بناء سور حولها، ومع ذلك فقد تجمعت قوات الأعراب سنة ٥٩٠ هـ/١١٩٤م بزعامة قبيلة زغب، وشنوا هجوما عليها منتهزين فرصة غياب أميرها في بلاد الشام وطمعوا في الاستيلاء عليها، فتصدى لهم الأمير هاشم بن قاسم أخو الأمير سالم الذي كان ينوب عنه بها أثناء غيابه، وقاتلهم حتى قتل.

---

(١) نفس المرجع والجزء والصفحة أما المقريزي فيقول في سنة ٥٦٩ هـ، وقف السلطان صلاح الدين ناحية نقادة من عمل قوص بناحية الصعيد الأعلى وثلث سنديس من القليوبية على أربعة وعشرين خادما لخدمة الضريح الشريف النبوي السلوك جـ١ قسم ٢ ص ٥٧.

(٢) ابن اياس: المرجع السابق والجزء والصفحة.

(٣) رسائل في تاريخ المدينة ص ١٤٩ الطبعة الأولى بيروت ١٩٧٢م

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى جـ٤ ص ٣٠٠ و يبدو أنه وقع في خطأ في السنة إذ ذكر وفاته في سنة ٥٣٣ هـ ونقل عنه البرادعي: احمد بن محمد بن صالح الحسيني حرفيا ذلك الخطأ «المدينة المنورة عبر التاريخ ص ١١٣».

(٥) راجع الفصل الأول من الباب الأول

واستولوا عليها بعض الوقت حيث نهبوها وسلبوها ثم تركوها وعادوا إلى بلادهم(١).

أما بالنسبة إلى الأمير سالم فكان له لدى السلطان صلاح الدين مكانة عالية ربما فاقت مكانة أبيه، كما اشترك معه في الحروب ضد الصليبيين، وكان السلطان يتبرك به و يتيمن بصحبته أيضا.

ولذلك كان صلاح الدين وأتباعه يمدون له يد المساعدة والعون على قتادة الذي كان يحاول الاستيلاء على ممتلكاته.

كما كان صلاح الدين يستشيره في العديد من الأمور الهامة السياسية منها والعسكرية و يأخذ بالكثير من آرائه. أي انه كان شبيها بالمستشار الخاص للسلطان(٢)، و بقي في إمرة المدينة حتى وفاته سنة ٦١٢هـ/١٢١٦م(٣).

قاسم بن جماز:

تولى إمرة المدينة بعد وفاة عمه سالم، ولكنه خالف السياسة التي سار عليها أسلافه مع الأ يوبيين، إذ قلب تلك السياسة رأسا على عقب لأنه عز عليه أن تخضع مكة للأ يوبيين السنة، وأن ينحى من حكمها ابناء عمومته من بني قتادة رغم خلافه معهم، والحروب المستمرة التي وقعت بين أشراف مكة والمدينة، لذا نراه يعمل على الذهاب إلى مكة لاسترجاعها من الأ يوبيين وإعادتها إلى بني قتادة أو على الأقل أن يتولى هو حكمها، خصوصا بعد سماعه عن التصرفات اللاأخلاقية الهوجاء التي قام بها الملك المسعود في مكة، تلك الحماقات والأفعال الصبيانية المشينة التي لا تليق وحرمة الحرم المكي.

فأعد قواته سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م وسار على رأسها إلى مكة، ولكنه فشل في الاستيلاء عليها، وقتل في المعركة التي دارت بينه و بين نورالدين عمر بن رسول(٤).

وفي زمن قاسم هذا حاول الصليبيون السيطرة على الحجاز وهدم الكعبة، فاتصلوا بنجاشي الحبشة المسيحي ليساعدهم في حرب المسلمين وغزو الحجاز وذلك سنة ٦١٤هـ/١٢١٨م(٥).

كما عملوا على السيطرة على البحر الأحمر وعلى تجارته (٦) مما يؤدي إلى ضعف الأ يوبيين

---

(١) ابن الأثير: الكامل جـ٩ ص ٢٣١.

(٢) القلقشندي: المرجع السابق والجزء والصفحة، والبرادعي: المرجع السابق ص ١١٤.

(٣) راجع الفصل الأول من الباب الأول، ولكن القلقشندي يقول إنه توفى في الطريق أثناء عودته من مصر ثم تولى بعده إمرة المدينة ابنه شيحة وهذا غير صحيح إذ الذي تولى الإمرة هو قاسم بن جماز

(٤) راجع الفصل الأول من الباب الأول.

(٥) د. سعيد عاشور: الحركة الصليبية جـ٢ ص ٩٦٥، فتحي غيث: الإسلام والحبشة عبر التاريخ ص ١٠٣

(٦) Kammerer La Mer Rouge,1.p.294.

المتزعمين حركة الجهاد الإسلامي ضدهم.

ورأينا محاولة أرناط قبل ذلك وفشلها، وقد حاول الصليبيون في تلك المرحلة توجيه بعض غزواتهم للحجاز، وذلك لضرب المسلمين ضربة قاسمة. إذ يحاولون هدم الكعبة من ناحية وأخذ رفات الرسول (صلى الله عليه وسلم)، من ناحية أخرى ونقلها من المدينة إلى أي مكان من بلادهم ليتحكموا في المسلمين. و بذلك يكونون قد حطموا الاسلام بأن هدموا كعبتهم التي يتوجهون إليها في صلواتهم ثم سرقوا رفات النبي (صلى الله عليه وسلم).

وعندما فشلت تلك المحاولات عملوا على النيل من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بسبه على رؤوس الأشهاد وقذفه بأقذع الألفاظ، إذ حدث أثناء قيام الصليبيين بالحملة الخامسة على مصر أن قام علج من أتباع حنا دي برين بسب النبي (صلى الله عليه وسلم) ــ حتى لقد جعل ذلك الأمر هدفه أو كما قال ابن خلكان «ديدن جهاده» ــ وإن كان المعتدي لايعتبر مجاهداً بل غازياً آثما ــ ولكنه لم يلبث أن وقع في الأسر سنة ٦٠٦ هـ/١٢١٠م فأرسله السلطان الكامل محمد إلى المدينة المنورة ليقتل عند قبر الرسول ــ صلى الله عليه وسلم جزاء له على ما ارتكبه في حق الرسول الكريم، فأحضر يوم عيد الفطر أمام الضريح الطاهر وقيل: «يارسول الله هذا عدو الله وعدوك، والمصرح في ملة كفره بسبك وسب صاحبك، قد أرسله محمد سلطان مصر ليقتل بين يديك ورام أن يجعله عبرة لمن انتهك حرمتك واجترأ عليك، فتهادته أيادي المنايا ضربا بالسيوف»(١).

شيحة بن هاشم بن قاسم:

تولى إمرة المدينة بعد مقتل ابن عمه قاسم بن جماز ــ جد الأشراف الجمامزة ــ وخالف سياسة ابن عمه في علاقاته مع الأ يوبيين إذ أعاد العلاقات الطيبة التي كانت قائمة بين الأشراف الحسينيين و بين الأ يوبيين إلى ما كانت عليه قبل اعتلاء قاسم الإمرة، وفي نفس الوقت عادت علاقات العداء والصدام المسلح بين الأمير شيحة وأشراف مكة من بني قتادة.

وأصبح شيحة تابعا للأ يوبيين يتلقى أوامره منهم، فقد أصدر الكامل محمد أوامره له سنة ٦٢٩ هـ/١٢٣٢م بالانضمام للجيش المصري الذي أرسله لطرد راجح بن قتادة والجيش اليمني من مكة، فانصاع لتلك الأ وامر كما أنه حضر على رأس الف فارس سنة ٦٣٩ هـ/١٢٤٢م من مصر كان قد جهزه بهم الملك الصالح نجم الدين أيوب لأخذ مكة من نواب المنصور نورالدين عمر وتمكن شيحة من الاستيلاء على مكة ونهبها واسر وزير ابن التعزي ولكنه اضطر للخروج منها عندما علم بقدوم الجيش اليمني(٢).

و يبدو أن إمرة المدينة لم تستقر لشيحة كما ذكر ابن فرحون في كتابه نصيحة ابن المشاور الذي

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ٥ ص ٩١

(٢) الفاسي: العقد الثمين جـ٥ ص ٢٣

لم أعثر عليه، فنقلته عن الفاسي الذي قال: «إن الجمامزة لم يتمكنوا من نزعها منه ولا من ذريته إلى الآن»(١). وقد نازعه عليها عمير بن قاسم بن جماز الذي جمع أعداداً كبيرة من الأعراب في صفر من سنة ٦٣٩هـ/١٢٤٢م وهاجم المدينة وتغلب على الأمير شيحة الذي فر منها وتحصن في بعض التلال أو الجبال المحيطة بالمدينة، و بقى ملتجئاً إليها حتى استطاع إعادة تجميع قواته وهاجم عمير بها وتغلب عليه(٢)، ومع ذلك لم نستطع معرفة المدة التي نحى فيها شيحة عن الإمرة، إلا أنه استمر فيها حتى سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م عندما قتله بنو لام من الأعراب المقيمين بالقرب من المدينة عندما هاجموها في ذلك العام(٣).

عيسى بن شيحة:

تولى إمرة المدينة بعد مقتل أبيه، ولكنه لم يستمر فيها طو يلا إذ لم يلبث أن نازعه عليها أخوه جماز بن شيحة الذي ألقى القبض عليه وحل محله في الإمرة سنة ٦٤٩هـ/١٢٥١م وقد حكم المدينة حوالي العامين فقط (٤).

جماز بن شيحة:

أصبح أميرا على المدينة بعد عزله أخاه عيسى، وقد هدأت الأمور في عهده وعهد أخيه عيسى من قبله، بينهما و بين أبناء عمومتهما في مكة، إذ لم تقم بينهما أية مشاحنات أو حروب، وفي عهدهما سقطت الدولة الأ يوبية في مصر وقامت على انقاضها الدولة المملوكية التي أصبحت في صراع مع بقايا الأ يوبيين في الشام.

و يبدو أن علاقات أشراف المدينة بقيت حسنة مع أيوبي الشام ولكن جمازاً لم يلبث أن أصبح تابعاً للمماليك الذين قضوا على الأ يوبيين في بلاد الشام و بقي في الحكم حتى وفاته سنة ٦٥٣هـ/١٢٥٥م فتولى الإمرة من بعده أخوه منيف بن شيحة(٥).



(١) الفاسي: العقد الثمين جـ٥ ص ٢٣، مجهول: رسالة في النسب الشريف العلوي ص ٢٦٦
(٢) نفس المرجع ص ٢٣ــ ٢٤
(٣) نفس المرجع ص ٢٤
(٤) مؤلف مجهول: رسالة في النسب الشريف العلوي ص ٢٦٧. القلقشندي: صبح الأعشى جـ٤ ص ٣٠٠
(٥) الشرفي: زهرة المعقول ص ٣٦، البرادعي: المرجع السابق ص ١١٥

الفصل الثاني
حياة اليمن السياسية في العصر الأيوبي

كانت اليمن حتى العصر العباسي الأول تدين بالمذهب السني: المالكي منها والحنفي(١) ونظرا لبعدها عن مركز الخلافة وطبيعة البلاد الجبلية الوعرة فقد لجأ إليها الخارجون عن الدولة محاولين الاستقلال، ونشر مذاهبهم بعيدا عن رجال السلطة. وأدى ذلك إلى انتشار المذاهب الشيعية بها ــ الاسماعيلية والزيدية ــ في المناطق الجبلية الوعرة(٢)، كما انتشر فيها المذهب الشافعي في القرن الرابع الهجري في المنطقة الواقعة بين صنعاء وعدن(٣). مما أدى إلى تفكك وحدة البلاد السياسية وقيام الدويلات المتصارعة بها.

وقبيل الحكم الأيوبي كان يحكم في اليمن ثلاث دول متنازعة هي: دولة بني زريع، ودولة بني حاتم، ودولة بني مهدي.

دولة بني زريع
٤٧٠ ــ ٥٦٩ هـ/١٠٧٨ ــ ١١٧٤م

يعرف آل زريع ببني الذئب الذين كانوا زعماء همدان، وكان جدهم الأكبر زريع قد ساعد الصليحيين في تأسيس دولتهم، كما ساعد المكرم الصليحي عندما سار من صنعاء إلى زبيد لتخليص أمه أسماء بنت شهاب بن أسعد من أسر سعيد الأحول بن نجاح(٤) «وبعد استيلاء الصليحي على عدن أبقاها في أيدي حكامها من بني معن وأنابهم عنه بها ليكسبهم إلى جانبه ويعتمد عليهم عند حل مشكلة تهامة وآل نجاح، ليؤكد سياسة المهادنة والود التي كان يتبعها لكسب الأنصار وليثبت احترامه لحقوق جيرانه بالرغم من تهاونهم معه، فالتزم بنو معن مقابل ذلك بدفع مائة ألف دينار سنويا له(٥).

ولما تزوج أحمد المكرم بن السلطان علي الصليحي، الحرة أروى بنت أحمد سنة ٤٥٨ هـ/١٠٦٦م

---

(١) حسن ابراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي جـ٣ ص ٢ وما بعدها

(٢) حسن ابراهيم، وطه شرف: عبيد الله المهدي ص ٣٠٧

(٣) ابن سمره: طبقات فقهاء اليمن ص ٧٤

(٤) عمارة: تاريخ اليمن ٨٣٨، بالخدمة: تاريخ ثغر عدن جـ١، ٤٠

(٥) ابن المجاور: المستبصر جـ١/١٢١، الخزرجي: العسجد ص ١٠٥، حسن سليمان محمود: تاريخ اليمن السياسي من العصر الإسلامي ص ٢٢٢، الهمداني وحسن سليمان: الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن ص ٨٦.

أصدقها خراج عدن الذي كان يؤديه له بنو معن والتزموا بإرساله لها سنويا حتى كان مقتل على الصليحي على أيدي بني نجاح سنة ٤٥٩ هـ/١٠٦٧م فشق بنومعن عصا الطاعة، وامتنعوا عن إرسال خراج عدن للحرة. فجهز إليهم المكرم جيشا بقيادة أحمد بن على الذي انتصر عليهم وطردهم من عدن وولاها المكرم الصليحي للعباس والمسعود ابني المكرم المعروفين بابني الزريع لثقته فيهما لمساعدتهما أباه في نشر المذهب الاسماعيلي في اليمن(١). فجعل للأول حصن التعكر(٢) وما يتبعه من جهة البر ولأخيه حصن الخضراء(٣) وما يتبعه من جهة البحر وفوض إليه أمر المدينة على أن يدفعا الخراج المقرر للحرة. ووفيا بالتزاماتها إذ كانا يحملان لها الخراج سنويا في نفس الموعد(٤).

وبعد وفاة العباس بن المكرم خلفه ابنه زريع، وبقى عمه مسعود في ممتلكاته، واستمر كل منهما يرسل المقرر عليه للحرة بانتظام(٥) ولكنهما امتنعا عن الدفع بعد وفاة المكرم الصليحي مما أغضب الحرة التي أرسلت إليه جيشها بقيادة وزيرها ومدبر أمور دولتها الأمير المفضل بن أبي البركات وانتهى الأمر بينهما على أن يدفعا نصف الخراج(٦).

ورغم الخلافات المادية التي كانت بينهماو بين الحرة إلا أنهما هبا لنجدة منصور بن فاتك بن نجاح عندما طلبت منهما الحرة ذلك لاستجارته بهاـــ ضد عمه عبدالواحد الذي استولى على زبيد وطرده منها. وانضم اليهما المفضل بن أبي البركات، ودارت بينهما معركة حامية سقط فيها زريع ومسعود سنة ٥٠٣ هـ/١١١٠م إلا أنها انتهت بهزيمة عبدالواحد وطرده من زبيد(٧).

وبعد مقتلهما تولى إمرة عدن ولداهما: أبو السعود بن زريع، وأبو الغارات بن مسعود اللذان خرجا عن طاعة الحرة وامتنعا عن ارسال الخراج لها بعدما علما بوفاة قائدها المفضل بن أبي البركات سنة ٥٠٤ هـ/١١١١م فأرسلت إليهما قواتها بقيادة الأمير أسعد بن أبي الفتوح، ابن عم المفضل فقاتلهما وتم الاتفاق على أن يدفعا ربع المقرر فقط ومقداره خمسة وعشرون ألف دينار(٨) ولكنهما عادا وامتنعا عن الدفع بعد ثورة بني الزرقي التعكر مما أدى إلى انسلاخ عدن عن ملك الحرة بسبب وفاة رجالها الأقوياء، وفشل مدبر أمورها ابن نجيب الدولة في فرض سيطرته على المنشقين، واستقلال بني زريع بحكم عدن.

وبعد وفاة أبي السعود خلفه ابنه سبأ، كما خلف محمد بن أبي الغارات والده، الذي خلفه أخوه

(١) عمارة تاريخ اليمن ص ٤٨

(٢) التعكر: قلعة حصينة في مخلاف جعفر مطلة على ذي جبله، ياقوت: معجم البلدان جـ٢/٣٤

(٣) الخضراء: حصن في جبل وصاب من عمل زبيد «ابن عبدالحق: مراصد الاطلاع جـ١/٣٥٧»

(٤) عمارة: المرجع السابق والصفحة

(٥) العرشي: بلوغ المرام ص ٢٧

(٦) العرشي: بلوغ المرام ص ٢٧

(٧) العبدلي: هدية الزمن ص ٥٥، حسن سليمان: تاريخ اليمن السياسي ص ٢٢٣

(٨) ابن المجاور: المستبصر جـ١/١٢٣، الخزرجي: العسجد ص ١٠٦، بامخرمة تاريخ ثغر عدن جـ٢/٨٨

علي الذي كان ينوب عنه علي بن أبي الخزري في نصف عدن ــ بعد وفاته ، كما كان الشيخ أحمد بن عتاب الهذلي ينوب عن سبأ في النصف الباقي .

ولكن أصحاب علي بن أبي الغارات تطاولوا على الناس ، وعلى أصحاب سبأ وعاثوا في البلد مفسدين ، وأخيرا تجرأوا على شتم الداعي سبأ نفسه الذي كان في ذلك يعمل على إعداد قواته وتجهيزها بما تحتاج إليه ، وعندما اكتملت استعداداته عين الشيخ بلال بن جرير قائداً لجيشه وأمره بمقاتلة ابن عمه . وقام هو بجمع حشود كثيرة من القبائل المقيمة بتلك المنطقة(١) ونزل من الدملوه(١) حيث دارت معارك طاحنة بين الجانبين قتل فيها أعداد كبيرة منهما مما أدى إلى تدخل همدان والفصل بينهما ، ومع ذلك فقد دامت الحرب بينهما سنين طويلة . وخلال ذلك أعلن سبأ ولاءه للفاطميين الذين لقبوه بالداعي سبأ المعظم(٢) وتمكن سبأ من دخول عدن سنة ٥٤٥ هـ/١١٥٢م وتوفى بها بعد ذلك بسبعة أشهر ودفن بالتعكر(٣) .

و بعد وفاته آل الحكم إلى ابنه على الأغر وعزم على قتل الشيخ بلال الذي توفى قبل أن ينفذ ذلك .

أما محمد بن سبأ فكان قد لجأ بعد وفاة أبيه إلى المنصور بن أبي الفضل بتعز مستجيرا به بعد تولي أخيه على السلطة . ولكن عليا لم يلبث أن توفى ، فأرسل الشيخ جماعة من قبله إلى الأمير محمد فأحضروه وملكوه البلاد وحلف له الناس ورجال الدولة وزوجه ابنته ، وحاصر حصن الدملوه الذي كان قد لجأ إليه أنيس ويحيى ابنا علي . واستولى عليه . و بذلك آلت جميع ممتلكات الزريعيين إلى محمد بن سبأ(٤) وفي ذلك الوقت كان على الأغر قد أرسل إلى الخليفة الفاطمي الحافظ عبد المجيد طالبا تقليده أمور الدعوة الفاطمية في اليمن ، ولكنه توفى قبل وصول التقليد ، فقلد الرسول أخاه محمداً بدله(٥) وكان محمد بن سبأ يعتبر نفسه أحق بالخلافة من الحافظ ، ولكنه كان يدعو له خوفا من بطشه(٦) .

وقد اتسعت الدولة الزريعية في عهد محمد بن سبأ حيث اشترى جميع حصون الصليحيين وضمها لممتلكاته ، كما تزوج بالأميرة أروى بنت على الصليحية فآلت ممتلكاتها إليه(٧) ولكنه لم يهنأ بذلك الملك إذ اختطفه الموت ، فخلفه ابنه الداعي عمران الذي استمر يخطب للفاطميين و يقيم

(١) حصن الدملوة : حصن في شمال عدن في جبال اليمن كانت خزانة صاجي اليمن «ابوالفدا : تقويم البلدان ص ٩٠»
(٢) بامخرمة : المرجع السابق والجزء ص ١٨٧
(٣) الخزرجي : المرجع السابق ص ١٠٧
(٤) عمارة : المرجع السابق ص ٨٧ ــ ٨٨
(٥) ابن عبدالمجيد/بهجة الزمن ص ٦١ ، جمال سرور : النفوذ الفاطمي في اليمن ص ١٠٢
(٦) الخزرجي : العسجد المسبوك ص ١١٠
(٧) الهمداني وسليمان : الصليحيون ص ٢٤١ ، حسن سليمان : الملكة أروى ص ١١١ ، حسن سليمان : تاريخ اليمن ص ٢٢٧

الدعوة الإسماعيلية في بلاده حتى وفاته سنة ٥٦٠ هـ/١١٦٥ م فحمل من اليمن ودفن بمكة(١).

و بعد وفاته بدأ الضعف يدب في أوصال الدولة الزريعية إذ خلفه ثلاثة أولاد صغار هم: محمد، وأبو الدر، ومنصور، وتولى الوصاية عليهم الأستاذ جوهر المعظمي. وأقاموا في حصن الدملوة. و ولي على عدن ياسر بن بلال بن جرير المحمدي و بقي الوضع على تلك الحال حتى حاول علي بن مهدي الاستيلاء على عدن سنة ٥٦٨ هـ ١١٧٣ م، ولكنه فشل بسبب مساعدة بني حاتم لبني زريع الذين بقوا على ذلك الوضع حتى قدم شمس الدولة توران شاه اليمن فاستولى على عدن وهرب ياسر بن بلال إلى الدملوة لاحقا بجوهر، وقتل سنة ٥٧٠ هـ/١١٧٥ م على أيدى اتباع الأيوبيين(٢).

دولة بني حاتم

٤٩٢ ـ ٥٩٩ هـ/١٠٩٩ ـ ١١٧٤ م

تأسست دولة بني حاتم في صنعاء، فبعد أن قرر الملك المكرم بن علي الصليحي الإقامة في ذي جبلة أناب عنه القاضي عمران بن الفضل اليامي الهمداني الذي لم يلبث أن غضب عليه وعزله، ولكن المكرم لم يلبث أن توفى، فاصطلح القاضي عمران مع الملكة الحرة و بقي في صنعاء ولكنه لم يلبث أن قتل في معركة الكظائم(٣) سنة ٤٧٩ هـ/١٠٨٧ م على يدي الشريف يحيى بن حمزة بن وهاس(٤).

وقد تولى الإمرة في صنعاء بعده السلطان سبأ بن أحمد الصليحي الذي بقي بها حتى وفاته سنة ٤٩٢ هـ/١٠٩٩ م وفي هذا العام استولى الأمير حاتم بن الغشيم المغلسي الهمداني على صنعاء فأطاعته قبائل همدان(٥) ولم تحاول الملكة أروى بنت أحمد استرجاعها منه، واستقل الأمير حاتم بحكمها»(٦).

و بعد وفاته سنة ٥٠٢ هـ/١١٠٩ م خلفه ولداه عبدالله ومعن، ولم يلبث أن تغلب عبدالله على معن، ولم ترض عنه همدان فعزلته سنة ٥١٠ هـ/١١١٧ م واختارت بدله رجلاً من بني القبيب الهمدانيين. ولكن القبائل الهمدانية اجتمعت سنة ٥٣٣ هـ/١١١٩ م واختارت حاتم بن أحمد بن عمران بن الفضل اليامي الهمداني سلطانا على صنعاء، فوافق بعد تردد، وجمع حوالي سبعمائة من

(١) بامخرمة: تاريخ ثغر عدن جـ٢/١٨٧

(٢) نفس المرجع والجزء والصفحة، دائرة المعارف الإسلامية جـ١٤ ص ٣٢٦، احمد حسين شرف الدين اليمن عبر التاريخ ص ٢٠٥ ـ ٢٠٧

(٣) الكظائم: جمع كظيمة والكظيمة هي شبه بئر من سطح الأرض وتستعمل هذه لتنظيف مجاري الماء تحت الأرض وهذه الكظائم منتشرة في اليمن: الهمداني وحسن سليمان: الصليحيون ص ٢٣٨، وحسن سليمان: تاريخ اليمن السياسي ص ٢٣٣ هامش ٧

(٤) ادريس عماد الدين: نزهة الأفكار جـ١/٦٣

(٥) الخزرجي: تاريخ الكفاية ص ٥٩

(٦) الخزرجي: العسجد المسبوك ص ٩١

قواته وهاجم صنعاء واستولى عليها(١).

وفي نفس العام الذي استولى فيه حاتم على صنعاء بو يع أحمد بن سليمان بن محمد بن المطهر بن علي بن الناصر بن أحمد بن الهادي يحيى بن الحسين بالامامة وامتد نفوذه على صعدة والجوف ونجران وشمالي صنعاء. وكان من الطبيعي أن يسود الصراع بين حاتم والإمام الذي رأى في قيام دولة بني حاتم في صنعاء خطرا كبيرا عليه وحاول الامام التخلص من حاتم سنة ٥٤٥ هـ/١١٥١م واستعد حاتم لقتاله ولكن القبائل المقيمة بالجوف حالت بينهما. ومع ذلك فقد تمكن الإمام من الانتصار على حاتم بالقرب من صنعاء مما جعله يتركها فاستولى الإمام احمد عليها(٢).

ولكن السلطان حاتماً لم يسكت على ذلك بل أعد قواته وهاجم صنعاء. ودارت معركة القليس بينه و بين الإمام، وانتصر عليه ودخل صنعاء، فسار الإمام إلى صعدة وأعاد تنظيم قواته وهاجم صنعاء سنة ٥٥٠ هـ/١١٥٥م واستولى عليها، فانسحب السلطان حاتم منها إلى حصن براش(٣) و بقي به حتى وفاته سنة ٥٥٦ هـ/١١٦١م(٤) فخلفه أخوه علي بن حاتم الذي استولى على صنعاء، ولكن أخاه الأصغر عمران قتل عندما كان يطارد فلول بعض المتمردين، فخشيت همدان انتقام علي منها، ولكنه كان رجلا محنكا فعفا عنهم ليكسبهم إلى جانبه فأطاعوه(٥) ولم يكتف بذلك بل استولى على عدة حصون حول صنعاء وعلى صعدة والجوف، فدعم بذلك ملكه(٦).

وفي تلك الأثناء ظهر عبدالنبي بن مهدي الذي قام بمهاجمة مناطق اليمن الجنوبية لتوسيع ممتلكاته فأذل أهلها وحكامها. وهاجم عدن فاستنجد سلطانها حاتم بن علي. بن سبأ الزريعي بالسلطان علي بن حاتم الذي سار على رأس قواته لنجدته. وأراد عبدالنبي بن مهدي مفاجأة علي بن حاتم والقضاء عليه قبل الوصول إلى عدن ففك الحصار عن عدن وسار لملاقاة علي بن حاتم حيث دارت بينهما معركة «ذي عدينة» بالقرب من تعز هزم فيها عبدالنبي سنة ٥٦٩ هـ/١١٧٤م وفر إلى زبيد(٧). فاستولى ابن حاتم على بعض المناطق التي كانت قد خضعت لعبدالنبي. و بقي علي بن حاتم سلطانا على صنعاء حتى قدم اليمن شمس الدولة توران شاه فاستولى عليها سنة ٥٧٠ هـ/١٢٧٥م. مما اضطره إلى اللجوء إلى حصن براش بعد أن هدم سور صنعاء(٨)

---

(١) نفس المرجع ص ٩٣، الهمداني وحسن سليمان: الصليحيون ص ٢٣٩

(٢) بامخرمة: قلادة النحر جـ٢/٧٣٨
Kay: Yaman,its Early Medevial History p.317

(٣) براش: حصن مطل على مدينة صنعاء وعلى جبل نقم «ياقوت: معجم البلدان جـ١ ص ٣٦٤، ابن عبدالحق: مراصد الاطلاع جـ١ ص ١٧٤.

(٤) ابن عبدالمجيد: بهجة الأمن ص ٦٣

(٥) الكبسي: اللطائف ص ٢٦، ابن رسول: فاكهة الزمن ص ١٨١ ــ ١٨٢

(٦) الجرافي: المقتطف ص ٧٢، شرف الدين: اليمن عبر التاريخ ص ٢٠٨ ــ ٢١٠

(٧) الجرافي: المقتطف ص ٧٢، شرف الدين: اليمن عبر التاريخ ص ٢٠٨ ــ ٢١٠

(٨) شرف الدين: المرجع السابق، ص ٢١١

دولة بني مهدي

٥٣٣هـ/٥٦٩هـ/١١٣٩ـ ١١٧٤م

أسس هذه الدولة أبو الحسن على بن داود بن محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالله بن محمد بن أحمد بن عبدالقادر بن عبدالله بن الأغلب بن أبي الفوارس بن ميمون الحميري الرعيني(١). من أهالي قرية العنبرة(٢). كان رجلا شجاعا، اشتهر بالزهد والعبادة وكثرة الحج، وكان كلما التقى جماعة وعظهم وحذرهم من صحبة رجال الدولة، فانتشرت سمعته في العديد من قرى اليمن، وعندما شعر بقوته أخذ يفكر في تأسيس دولة له، فبدأ بمحاولة الاستيلاء على زبيد لأخذها من بني نجاح ولكنه فشل، ومع ذلك فقد نجح في كسب عطف أم فاتك النجاحي التي أعجبت بمعتقداته وصلاحه فأعفته وأتباعه من خراج أراضيهم حتى سنة ٥٣٦هـ/١١٤١م فتحسنت أحوالهم المادية، واقتنوا الخيل(٣).

وعندما كثر أتباعه وشعر بقوته هاجم الكدرا سنة ٥٣٨هـ/١١٤٤ ولكن صاحبها اسحاق تصدى له وهزمه فلجأ إلى الجبال وأقام بها حتى سنة ٥٤١هـ/١١٤٧م عندما أعادته أم فاتك إلى بلدته(٤).

وبعد وفاة أم فاتك سنة ٥٤٥هـ/١١٥١م زاد أتباعه زيادة كبيرة وبايعه أهل قضيب(٥) سنة ٥٤٦/١١٥٢م ومنها سار إلى منطقة خولان حيث يوجد حصن الشرف الشاهق الارتفاع فبايعه أهله وسماهم الأنصار، وسمى أصحابه الذين جاءوا معه المهاجرين تشبها بالرسول (صلى الله عليه وسلم) عندما هاجر إلى المدينة. وعندما كثر أتباعه أخذ يخشى على نفسه منهم ويشك في كل من حوله فاحتجب عنهم وعين للأنصار نقيبا من خولان يدعى سبأ بن يوسف وكناه سيف الإسلام وآخر للمهاجرين من العمرانيين يدعى النوبي وكناه شيخ الإسلام، وكان هذان النقيبان هما حلقة الوصل بينه وبين أتباعه من أبناء الطائفتين، وكان نادراً ما يسمح لغيرهما بمقابلته خوفا على نفسه وزيادة في الحيطة والحذر(٦).

وعلى أثر ذلك قرر تأسيس دولة له، فأخذ يشن الغارات على بني نجاح الذين كانوا يعانون من الضعف والتفكك، فكان ينال من أعدائه ولا يستطيع أحد الوصول إليه لتحصنه في ذلك الحصن

(١) زامباور: معجم الاسرات الحاكمة جـ١ ص ٨٢، العرشي: بلوغ المرام ص ١٧

(٢) العنبره: قرية بسواحل زبيد «ياقوت: معجم البلدان جـ٤ ص ٦١

(٣) عمارة: تاريخ اليمن ص ١٢٦

(٤) ابو الفداء: المختصر جـ٣ ص ٣٥

(٥) قضيب: من أرض قيس عيلان «ياقوت: معجم البلدان جـ٧/٤٢٥»

(٦) عمارة: المرجع السابق ص ٩٤، ابو الفدا: المرجع السابق والجزء والصفحة، ابن الوردي: تتمة المختصر جـ٢/٦١

المنيع ، ولابد لمن يريد الوصول إليه من المرور في واد ضيق بين جبلين مسيرة يوم كامل ، ويحتاج إلى مسيرة نصف يوم ليقطع العقبة الموصلة إلى قمة الجبل(١).

وفي سنة ٥٤٩ هـ/١١٥٥م سار علي بن مهدي إلى الداعي محمد بن سبأ في عدن طالبا مساعدته على صاحب زبيد ، فلم يجبه إلى طلبه . عندئذ لجأ إلى الحيلة لقتل القائد سرور الفاتكي وزير آل نجاح لإثارة الفتنة في زبيد ، ونجح في ذلك عندما تم قتله على أيدى أعوانه سنة ٥٥١ هـ/١١٥٦م مما أدى إلى انتشار الفتن والقلاقل في زبيد بسبب تصارع القادة ورجال الحاشية على تولي منصبه(٢) .

وعلى أثر ذلك قرر الاستيلاء على زبيد فزحف عليها سنة ٥٥٣ هـ/١١٥٨م وحاصرها فدافع أهلها عنها دفاعا مستميتا «حتى أكلوا الميتة من شدة الجهد والبلاء»(٣) . فاستنجد أهلها بالإمام أحمد بن سليمان الذي اشترط عليهم قتل قائدهم فاتك بن جياش مقابل ذلك ، لأنه بقتله يتخلص من قائد قوى يعتبر حجر عثرة في سبيل تحقيق أطماعهفي السيطرة على زبيد فأجابوه لذلك وقتلوه سنة ٥٥٣ هـ/١١٥٨م ومع ذلك تخلى عنهم وعاد إلى صعدة(٤) .

عندئذ ضيق عليها الحصار واقتحمها عنوة سنة ٥٥٤ هـ/١١٥٩م وقضى بذلك على دولة بني نجاح وقتل فاتك بن محمد آخر ملوكهم وعددا كبيرا من جنده وعبيده وانتقم من الفقهاء والعلماء السنيين بقتلهم وتشريدهم فهاجروا إلى الجبال والحصون ، وأقام دولة بني مهدى على أنقاض دولة بني نجاح (٥).

ومع ذلك فإنه لم يعمر طويلا إذ لم يلبث أن توفى في زبيد في السادس من شوال من نفس العام ودفن بالمشهد بالقرب من زبيد ، وبنى عليه أولاده بعد ذلك مسجداً جامعاً بالقرب من المدرسة المعروفة بالمائلين ، كما بنوا على قبره قبة لم يعمل في اليمن مثلها صفحت جدرانها بالذهب والجواهر الثمينة وستائر الحرير(٦) .

وكان ابن مهدي هذا حنفي المذهب في الفروع خارجيا في الأصول(٧) وكان يكفر مرتكب الكبائر و يقتله ، كما كان يقتل مخالفي مبادئه و يستبيح أموالهم ووطء نسائهم واسترقاق أطفالهم و بسبب ذلك قتل العديد من الفقهاء والعلماء ومن أقاربه(٨) كما كان يقتل من يهرب من جنده

(١) أبو الفدا : المختصر ٣/٣٥
(٢) الخزرجي : العسجد المسبوك ص ١٥٤ ، ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٩ أ
(٣) عمارة : تاريخ اليمن ص ١٢٧
(٤) بامخرمة : قلادة النحر جـ٢ ص ٧٣٨
(٥) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن ص ١٨٧ — ١٩٤ ، ادريس عماد الدين : نزهة الأفكار ص ٦ ، ابن الديبع : المرجع السابق والصفحة
(٦) ابن رسول : نزهة العيون ، ص ١٨٤
(٧) راجع في ذلك الشهرستاني الملل والنحل ، ص ٥٥
(٨) ابو الفدا : المختصر ، جـ٣ ، ص ٣٦

من المعركة، ومن يشرب الخمر منهم أو يسمع الغناء، أو من يزني أو يتأخر عن صلاة الجمعة، أو عن مجالس وعظه التي كان يعقدها يومي الاثنين والخميس(١).

و يقول ابن خلدون: «كان يخطب له بالإمام المهدي أمير المؤمنين، وقاطع الكفرة المعتدين، وكان على رأي الخوارج، يبرأ من علي وعثمان، و يكفر بالذنوب وله قواعد ونواميس في مذهبه يطول ذكرها(٢)

وكان اعتقاد أصحابه فيه عظيما، يفوق اعتقاد الناس في الأنبياء، وإذا غضب على أحد عذبه أشد العذاب بحيث كان يحبسه في الشمس، ويمنع عنه الطعام والشراب، ولا يسمح لأحد من أقاربه أو أصحابه بالاتصال به، ولا يستطيع أحد أن يشفع له(٣).

ليس هذا فقط بل كان كل واحد من أتباعه يأتيه بما تغزله زوجته و بناته، فيضعه في بيت المال، وكان لايسمح لأحد من أتباعه بامتلاك فرس أو سلاح، بل كانت الخيل تجمع في اصطبلاته والسلاح في زردخاناته، وإذا ما أراد الهجوم أو الدفاع وزعها عليهم(٤) لأنه كان يخشى انقلابهم عليه.

و بعد وفاة على بن مهدي سنة ٥٥٦ هـ/١١٦١م خلفه ابنه مهدي الذي سار على سياسة أبيه فأكثر من القتل وسفك الدماء، وهاجم لحج وقتل أعداداً كبيرة من أهلها(٥)، واستولى على مدينة الجند سنة ٥٥٨ هـ/١١٦٣م واستباحها وقتل كثيرا من أهلها ورمى بجثثهم في بئر المسجد، ثم أحرق المسجد على من لجأ إليه(٦). ومع ذلك فقد مات مسموما في نفس العام ودفن مع أبيه في مشهده(٧).

وقد خافه الداعي عمران بن سبأ وصالحه على مال يحمله إليه كل عام(٨). و بعد وفاته خلفه أخوه عبدالنبي سنة ٥٥٨ هـ/١١٦٣م، ولكن الأمور لم تستتب له بسهولة إذ نازعه أخوه عبدالله الذي تغلب عليه وتولى الملك بدله، ولكن عبدالنبي أعاد تجميع قواته وهاجم أخاه وانتصر عليه واستعاد ملكه(٩).

وقد فاق عبدالنبي أسلافه في التدمير والتخريب والقتل والنهب والسلب فأحرق «ذي ابين» سنة ٥٥٩ هـ/١١٥٤م، وأغار على المخلاف السليماني وقتل العديد من الأشراف وسبى عدداً من نسائهم واستولى على أموالهم، وكان من بين القتلى الشريف وهاس السليماني(١٠).

(١) عمارة: تاريخ اليمن، ص ١٠٠
(٢) العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ١ ص ٢٢٢
(٣) عمارة: المرجع السابق والصفحة
(٤) عمارة: المرجع السابق والصفحة
(٥) العبدلي: هدية الزمن، ص ٦٣
(٦) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن، ص ١٨٢، يحيى بن الحسين: ابناء الزمن، ص ٥٢
(٧) الخزرجي: العسجد ص ١٦٥، شرف الدين: اليمن عبر التاريخ ٢١٤ ــ ٢١٥
(٨) شرف الدين: المرجع السابق، ص ٢١٥
(٩) إدريس عماد الدين: نزهة الأفكار ص ٦
(١٠) ابن الديبع: بغية المستفيد ص ٩أ، بامخرمة: قلادة النحر، جـ٢، ص ٧٥٦

وقد أرسل أخاه أحمد إلى مدينة الجرة التابعة للزريعيين . فاستولى عليها بعد قتال عنيف ، ودمرها وأحرقها([1]) .

بعد ذلك سار عبدالنبي إلى مدينة الجند وحاصرها مدة ثم فك الحصار عنها وسار منها إلى تعز فاستولى عليها وعلى البلاد المجاورة لها سنة ٥٦١ هـ/١١٦٦م كما استولى على مدينة إب و بعض الحصون المجاورة لها ودانت له معظم تهامة واليمن الجنوبي ماعدا عدن([2]) . وأصبح يشكل خطراً كبيراً على دولتي بني زريع و بني هاشم الإسماعيليتين ، و يقول الدكتور حسن سليمان محمود :

« واستولى على اليمن اجمع ، فاجتمع لعبدالنبي هذا ملك الجبال والتهائم وانتقل إليه ملك جميع الملوك وذخائرهم ، وحصل في خزائنه ملك خمس وعشرين دولة من دول اليمن منها : أموال أهل زبيد من ملوك وعبيد آل نجاح ، وكذلك معاقل من بقى من آل الصليحي ، كما انتقل إليه ملك بني سليمان من الأشراف ، وملك بني وائل سلاطين وحاطه ، وكل معقل منها له أعمال واسعة ، ومعاقل الداعي عمران بن محمد ، وهي حصون : سامح ومطران ، كما انتقل إليه حصن السمدان بعد التعكر وحب . . . ولم يمتنع عليه من كل اليمن إلا عدن »([3]) .

وقد شرع في حصار عدن ، فسار صاحبها الداعي هاشم بن علي بن أبي السعود إلى صنعاء للاستنجاد بصاحبها علي بني هاشم الذي يجمعه والداعي أنهما من عشيرة بسام . فاشترط على أن تنضم إليه قبيلتا جنب ومذحج فوافقتا ، كما انضم إليه عدد كبير من القبائل ، وساروا جميعا لقتال عبدالنبي التقوا مع قواته بالقرب من اب وهزموها كما التقوا مع عبدالنبي عند « ذي عدينة » قرب تعز وألحقوا به هزيمة منكرة وشتتوا قواته مما اضطره إلى رفع الحصار عن عدن([4]) .

وانسحب جيشه من الزعازع ، وأراد علي بن حاتم مطاردته للقضاء عليه نهائيا فلم توافقه القبائل المتحالفة معه على ذلك ، فاضطر للعودة إلى صنعاء سنة ٥٦٩ هـ/١١٧٤م ، وعاد عبدالنبي إلى زبيد([5]) .

وفي تلك الأثناء قدم شمس الدولة توران شاه إلى اليمن لتخليصها من عبدالنبي والقضاء على الصراع الدامي الذي قسم البلاد إلى دويلات وقضى على وحدتها ، وكان قد وصل إلى أبي تراب ، فانضم إليه الشريف قاسم بن غانم بن يحيى بن وهاس ، وتمكن شمس الدولة من الوصول إلى زبيد والاستيلاء عليها وأسر عبدالنبي وأخويه أحمد ويحيى وقتلوا جميعا في السابع من رجب سنة ٥٧٠ هـ/١١٧٥م وخضعت دولتهم للأيوبيين([6]) .

(١) ابن الديبع : قرة العيون ، ص ٩٥
(٢) الخزرجي : العسجد المسبوك ، ص ١٦٦
(٣) تاريخ اليمن السياسي ، ص ٢٤٢
(٤) ابن عبدالمجيد : بهجة الزمن ، ص ٦٣
(٥) الشرفي : اللآلىء المضيئة ، جـ٢ ص ١٣١ب
(٦) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ٢ ، ص ١٢٧ — ١٢٨ ، شرف الدين : اليمن عبر التاريخ ص ٢١٤ — ٢١٥ ، د. حسن سليمان : تاريخ اليمن ، ص ٢٤٢ — ٢٤٣

وكان عبدالنبي بن مهدي سيء السيرة، قتل خلقاً كثيراً، وشق بطون الحوامل، وذبح الأطفال، ومنع أهل اليمن من الحج إلى الكعبة وأمرهم بالحج إلى القبة المبنية على قبر أبيه، وفرض عليهم جزية يحملونها إلى القبة سنويا، ومن لم يحمل شيئا يقتل. وأمرهم بالطواف حولها، وأكثر من سفك الدماء (١) كما كان يقتل من تأخر عن زيارة قبر أبيه (٢).

اليمن تحت الحكم الأيوبي

٥٦٩ ــ ٦٢٦هـ/١١٧٤ ــ ١٢٢٩م

إلى جانب الدويلات التي تكلمنا عنها في اليمن قبيل العصر الأيوبي وجدت أشباه دويلات مستقلة لم يهتم المؤرخون كثيرا بالحديث عنها كدويلة المخلاف السليماني، ومنطقة الجريب ومناطق الشرف التي كانت شبه دويلة تابعة لعمر بن شرحبيل وذمار وما يتبعها وكانت لقبائل جنب، ومناطق شهارة وما يتبعها لأولاد القاسم بن على العياني، كما كانت صعدة والجبال المحيطة بها للأشراف أبناء المتوكل أحمد بن سليمان، وكانت بلاد الجوف بالهضبة الشرقية للسلاطين آل الدعام(٣).

وكانت هذه الدويلات في صراع دام فيما بينها أدى إلى تفتيت وحدة اليمن السياسية.

ونظراً لأهمية موقع اليمن الاستراتيجي في ذلك الوقت، لذا سنلقى ضوءاً على الأسباب التي دفعت الأيوبيين للاستيلاء عليها وضمها لمملكتهم. وقد تحدث المؤرخون عن بعض تلك الأسباب، أما البعض الآخر فما زال غير معروف وسنحاول أن نميط اللثام عنه. فمن تلك الأسباب:

١ ــ كان صلاح الدين يتطلع إلى تكوين مملكة إسلامية مستقلة في الوقت الذي كان تابعا لنورالدين محمود بن زنكي، فبدأ بمحاولة الاستقلال بمصر في الوقت الذي كان نورالدين مشغولا فيه بمحاربة الصليبيين، لذا أخذ يخطب لنفسه بعد الخليفة العباسي وسيده نورالدين، وأخذ يعمل جاداً على توطيد نفوذه في مصر (٤).

ولم تلبث الخلافات أن نشبت بين صلاح الدين وسيده نورالدين عندما طلب منه أن يحضر على رأس قواته من مصر لمحاصرة حصن الشوبك وبالرغم من انصياعه لأوامر نورالدين إذ جهز قواته، وسار إلى الحصن وحاصره، وعندما أصبح على وشك السقوط في يده، قدم نور الدين على رأس قواته لمساعدة صلاح الدين الذي خشي أن يقبض عليه ويتحكم فيه لذلك

---

(١) محمد بن عبدالعاطي الإسحاقي: أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول ص ١٢٤.

(٢) بامخرمة: المرجع السابق والجزء، ص ١٢٨

(٣) يحيى بن الحسين: أنباء الزمن ص ٥٣، زبارة: أئمة اليمن جـ١/١٠٨

(٤) ابوالمحاسن: النجوم الزاهرة جـ٥ ص ٣٥٧ Runciman Op.cit. P.390

فك الحصار وعاد إلى مصر على وجه السرعة متعللا بمساعدة أخيه توران شاه الذي كان يعمل على تصفية جيوب المقاومة، وعلى المتآمرين الذين كانوا يسعون لاستعادة الدولة الفاطمية، وأنه كان يخشى اندلاع الثورة ضده(1).

فغضب نورالدين لذلك التصرف من تابعه صلاح الدين واعتبره تمردا على طاعته، وقرر المسير إليه وأخذ مصر منه، فسارع صلاح الدين إلى عقد اجتماع ضم كبار رجال أسرته وقادته، وشاورهم في أمر نورالدين. فأشاروا عليه بمقاومته والتصدي له إذا حضر لمصر، ولكن والده نجم الدين الذي حنكته السياسة أنكر ذلك عليهم، واعتبره تهورا سياسيا من ابنه يدل على قلة الخبرة السياسية. وأعلن أمام الحاضرين أنه وأولاده مماليك لنورالدين، يبقيهم في الحكم إذا شاء و يعزلهم إذا شاء، وطلب من الحاضرين الانصراف، واختلى بصلاح الدين وبين له أن اولئك الناس إنما يتظاهرون بتأييده وإذا حضر نورالدين فسينضمون إليه ضده(2).

و بعد ما انصرفوا كتب بعضهم إلى نورالدين يعلمونه بما دار في ذلك الاجتماع وطلب نجم الدين من صلاح الدين أن يكتب إلى نورالدين يعلن فروض الطاعة والولاء له ففعل، و بادر بإرسال هدايا ثمينة له، ولم يكتف بذلك بل قام في العام التالي ٥٦٨ هـ/١١٧٣م بغزو الكرك والشوبك و بعض الحصون الصليبية الأخرى ليثبت لنورالدين تبعيته و ولاءه له(3).

لذلك فكر صلاح الدين في إيجاد مكان يلجأ إليه وأهله إذا هاجمه نورالدين وطردهم من مصر، لذا فكر في الإستيلاء على النوبة أو اليمن لإقامة مملكة لهم بها (4).

ولكن الدكتور محمد عبدالعال يقول: إن هذا الرأي انفرد به ابن الأثير وهومتهم في كثير مما كتبه عن العلاقة بين صلاح الدين ونورالدين، وسبب ذلك أن ابن الأثير أصله موصلي من موطن نورالدين(5).

ولكننا نرى أن ابن الأثير لم ينفرد بذلك الرأى بل ذكره العديد من المؤرخين بعضهم كان معاصراً لتلك الفترة كأبي الفدا، وابن واصل وابن العديم وغيرهم (6). وحتى لوانفرد ابن الأثير بذلك الرأي أيتهم بالتحيز لنورالدين لأنه موصلي مثله فقط؟ و بناء عليه فإن الدمشقي عندما يكتب عن أحد مواطنيه لابد أن يتحيز إليه أو المقدسي أو القاهري ...الخ. خصوصا

---

(1) Runciman,op.cit.11.p.394

(2) المقريزي: السلوك جـ١ قسم ١ ص ٤٩

(3) ابن واصل: مفرج الكروب جـ١ ص ٢٢٢ــ ٢٢٤

(4) ابن الأثير: الكامل جـ١١ ص ١٤٨، أبوالفدا: المختصر جـ٣ ص ٥٧، ابن واصل: المرجع السابق والجزء ص ٢٣٧، ابن العديم: زبدة الحلب في تاريخ حلب ص ٣٣٩، العبري: مسالك الابصار جـ٦ ص ٦٩، المقريزي: المرجع السابق والجزء ص ١٥، ابن الشحنة: روضة الناظر في أخبار الأوائل والأواخر ص ٥، الخزرجي: العسجد المسبوك ص ١٧٦، ابن خلدون: العبر جـ٥ ص ٨٦، ستة من أهل الأندلس: النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ص ١٨٨ــ ١٨٩ الباز العريني: مصر في عصر الأيوبيين ص ٤٠، وغيرهم

(5) دولة بني أيوب في اليمن ص ٥٠

(6) راجع هامش ٥ من هذه الصفحة

وأن المصادر تكاد تجمع على وجود الخلافات بين نورالدين وصلاح الدين حتى لقد فكر نورالدين سنة ٥٦٩ هـ/١١٧٤م في أن يسير إلى صلاح الدين في مصر، و ينتزعها منه لولا أن وافته المنية قبل تحقيق ذلك(١) . وكان في استطاعة نورالدين أن يقضي عليه بسهولة لأنه أقوى منه عسكرياً ، وأكثر خبرة سياسية منه ، وأن صلاح الدين كان يواجه صعوبات كثيرة في مصر بسبب الفتن والمؤامرات ، وأن القوات الموجودة مع صلاح الدين كانت لا تزال على ولائها لنورالدين ، ورأينا كيف كتب بعض القادة لنورالدين يخبرونه بما دار في الاجتماع الذي عقده صلاح الدين لاتخاذ موقف من نورالدين إذا هاجم مصر. وكان صلاح الدين على ثقة بانضمام تلك القوات إلى نورالدين لوسار لمهاجمة صلاح الدين في مصر.
و يعلق الدكتور عبدالعال على موقف صلاح الدين من نورالدين وأنه سيتخذ النوبة أو اليمن مكانا يلجأ إليه ، وعن علاقة ابن الأثير بنورالدين بقوله : «إن ذلك لايتفق مع ما ذكره في موضع آخر من كتابه من أن صلاح الدين استأذن نورالدين إذا كان قد قصد الخروج عن طاعته أو الوقوف ضده. ورغم ما يقال عن الجفوة التي حدثت بين نورالدين وصلاح الدين ، إلا أنه من غير المحتمل أن يكون صلاح الدين قد قصد من فتح النوبة أو اليمن أن تكون إحداهما مركزا لدولته الجديدة إذا ما أجبر على الخروج من مصر، وذلك أن صلاح الدين مشهود له بالشجاعة النادرة والإقدام والاستبسال في الجهاد عن عقيدة وإيمان ضد الصليبيين ، ولو علم نورالدين ماذا ادخر الله تعالى للإسلام من الفتوح الجليلة على يد صلاح الدين من بعده لقرت عينه ، فإنه بنى على ما أسسه نورالدين من جهاد المشركين ، وقام بذلك على أكمل الوجوه وأتمها ، ولهذا فإن قول ابن الأثير لايقبله المنطق ، وتنفيه الوقائع خاصة وأنه فيما يبدو متهم في كثير مما كتبه عن العلاقات بين صلاح الدين ونورالدين ، ولو كان ما ذكره ابن الأثير صحيحا لكان من المحتم أن يستعيد صلاح الدين قواته من اليمن بعد زوال الأسباب الداعية لإرسالها وأعني بذلك وفاة نورالدين بعد قيام الحملة بوقت قصير، و بهذا انتهت المخاطر التي كانت تهدد صلاح الدين من قبله ، واستطاع صلاح الدين أن يستولي على مملكة نورالدين، و بدلا من أن يسترد قواته من اليمن للاستفادة منها في تدعيم مركزه، والمساهمة في حروبه ضد الصليبيين واصل إرسال المزيد من الإمدادات إلى اليمن ضمانا لاستمرار تبعيتها للدولة الأم التي أصبح مركزها مصر(٢).
ونرى أنه كان لزاما على صلاح الدين أن يستأذن سيده نورالدين في إرسال القوات إلى اليمن لأنه كان لايزال تابعا له وهو السلطان الفعلي للدولة النورية في الشام ومصر، وهو قائد لجميع قوات المملكة الذي يصدر أوامر الحرب والقتال وما صلاح الدين إلا أحد قواده الذين

(١) ابوشامة : الروضتين جـ١ ص ٢٢٠

(٢) دولة بني أيوب في اليمن ص ٥٢ ــ ٥٣ ، أما الدكتور حسن سليمان محمود ، تاريخ اليمن ص ٣٤٦ فيقول ان الذي استأذن نورالدين في المسير إلى اليمن هو توران شاه فأذن له

يأتمرون بأمره، و بالتالي فإنه لايستطيع إرسال قواته إلى أي مكان إلا بأمره، وإرسالها دون ذلك يعتبر مخالفة من صلاح الدين وخروجا عن الطاعة.

لذا نرى أن استئذان صلاح الدين من نورالدين كان منطقيا يدل على حسن تقديره لعواقب الأمور، بل كان واجباً يحتمه عليه وضعه كتابع لنورالدين. وليظهر أمام نورالدين أنه التابع المخلص المطيع، وحتى لايشعر أنه يسعى لتكوين دولة بعيدة عن مصر يلجأ إليها إذا طرده نورالدين، مما يضطر نورالدين إلى ترك كل شيء حتى جهاد الصليبيين ليسير إلى صلاح الدين و يقضي عليه، و يأخذ مصر منه، وقد كان ذلك من حسن تدبير صلاح الدين.

وعلى العكس ما يقول الدكتور عبدالعال بأنه من المستبعد أن يستأذن صلاح الدين نور الدين إذا كان قصد الخروج عن طاعته أو الوقوف ضده، فلو كان صلاح الدين يسعى لتحقيق ذلك لجعله غاية في السرية والتكتم ولن يعلم به نور الدين الذي لوعلم بأنه ينوي الخروج عليه لسار إليه وقضى عليه، لذا لابد أن يتظاهر صلاح الدين بالإخلاص والولاء لنور الدين. كما أن أحدا لم يقل إن صلاح الدين كان ينوي أن تكون اليمن نواة لدولته الجديدة بل ملجأ يأوي إليها إذا طرد من مصر، كما أنه مما لا شك فيه أنه كان يسعى إلى تكوين دولة عربية إسلامية كبرى تضم كل ما يستطيع أن يضمه إليها لمواجهة التحدي الصليبي.

أما قوله ان صلاح الدين كان مشهورا بالشجاعة والاستبسال فإن ذلك لايختلف فيه اثنان وإن كان صلاح الدين في تلك الفترة مازال في بداية حياته السياسية والعسكرية، لم تكن قد عركته الأيام وعلمته فنونها وحيلها التي اكتسبها وأتقنها فيما بعد. في وقت كان فيه نورالدين يتقن ذلك ويمارسه بحنكة وتعقل و بذلك فإن قول ابن الأثير لايتعارض مع المنطق والعقل بل هو عين المنطق والعقل، ولا نرى ما يرى الدكتور عبدالعال من أنه كان يجب على صلاح الدين أن يعيد قواته من اليمن بعد وفاة نورالدين وزوال الخطر، بل كان لابد له من مواصلة فتحها وضمها للدولة الأيوبية التي كانت تسعى جاهدة لاقامة الوحدة الإسلامية لمواجهة الخطر الصليبي الذي كان يهدد المسلمين في المنطقة العربية في ذلك الوقت. وكان لابد من فتح اليمن للسيطرة على مفتاح البحر الأحمر الجنوبي، وكان صلاح الدين حكيما عندما قام إلى جانب ذلك بضم بلاد الشام إلى دولته بعد وفاة سيده نورالدين لأنه لولم يفعل ذلك لبقي محصورا في مصر والدويلات الإسلامية في الشام تتصارع وتتفتت وحدة المسلمين مما يقوي الصليبيين في ذلك الوقت العصيب الذي أصبح فيه التحدي واضحا بين الغرب المسيحي والشرق الإسلامي.

كما أننا لانرى ما يرى الدكتور عبدالعال من أنه كان يجب على صلاح الدين سحب قواته من اليمن للاستفادة منها في حرب الصليبيين، لأن فتح اليمن سيعود عليه بفوائد مادية، وأخرى معنوية، وثالثة استراتيجية تساعده كلها في التصدي للصليبيين، وكان لديه من البشر في مصر والشام الكثير، ولم يكن في حاجة إلى ذلك النفر اليسير الذي أرسلهم إلى اليمن

بل كان عليه أن يدعم تلك القوات وإمدادها بالمال والرجال والسلاح ليضمن لها السيطرة على اليمن.

٢ــ أراد الحاقدون على سقوط الدولة الفاطمية الشيعية وقيام الدولة الأيوبية السنية التخلص من صلاح الدين والقضاء على دولته وإعادة الدولة الفاطمية ولتحقيق ذلك كان لابد من إضعاف صلاح الدين، بإبعاد جزء من قواته عن مصر حتى يستطيعوا تنفيذ مؤامراتهم(١). وكان من بين المتآمرين الشاعر عمارة اليمني الذي كان قد تقرب من توران(٢) شاه في ذلك الوقت وتوطدت علاقاته معه لذا أخذ يحثه على امتلاك اليمن وأطمعه في خيراتها، ولكن صلاح الدين اكتشف المؤامرة قبل تنفيذها وقضى على مدبريها، وصلب الشاعر عمارة اليمني سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م(٣). ولم يضعف مسير توران شاه إلى اليمن من عزيمة صلاح الدين الذي واجه المتآمرين والحشيشية والصليبية(٤).

٣ــ لأن صلاح الدين كان يخشى أن يستغل الصليبيون وجود مملكة الحبشة المسيحية في الجزء الجنوبي الغربي للبحر الأحمر، فيتحالفوا معهم، و يدفعوهم للسيطرة على الجزء الجنوبي الغربي للبحر الأحمر(٥). و بذلك يسيطرون على مفتاح البحر الأحمر، و يسيطرون على تجارة البحر الأحمر وتجارة الشرق و يقفلون ذلك البحر في وجه التجارة الإسلامية. كما كان يخشى إن سيطر الصليبيون على تلك المنطقة أن يهاجموا الحجاز و يستولوعلى الأماكن المقدسة. لذلك أرسل صلاح الدين أخاه توران شاه للسيطرة على مفتاح البحر الأحمر الجنوبي.

---

(١) عن تلك المؤامرة راجع: ابو شامة: الروضتين جـ١ ص ٢٢٠، ابن واصل مفرج الكروب جـ١ ص ٢٤٣، المقريزي: السلوك جـ١ قسم ١ ص ٥٣

(٢) وقد قال في ذلك:

أمامك الفتح من شام ومن يمن	فلا ترد رؤوس الخيل باللجم
فعمك الملك المنصور سومها	من الفرات إلى مصر بلا سأم
فأخلق لنفسك ملكا لا تضاف به	إلى سواك وأور النار في العلم

ومنها

حاسب ضميرك عن رأي أتاك وقل	نصيحة وردت من غير متهم

وقال في أخرى

متى توقد النار التي أنت قادح	بغمدان مشبوبا سناها بمندل
وتفتح ما بين الحصن وأنتن	وصنعاء من حصن حصين ومعقل
وتملك من مخلاف طرف وجعفر	نقيضين من حزن خصيب ومهل
وتخلق ملكا لايميل بفخره	على أحد إلا على عزمك العلي

وهناك قصائد يستحثه على المسير إلى اليمن: راجع أبو شامة: الروضتين جـ١ ص ٢١٦ــ٢١٧

(٣) ابن شداد النوادر السلطانية ص ٨٠، المقريزي: السلوك جـ١ قسم ١ ص ٥٧
د. سعيد عاشور: الحركة الصليبية ص ٧٣١

(٤) الحشيشية: هي فرقة الباطنية المنسوبة إلى الحسن بن الصباح الاسماعيلي الملقب بالعباد، ملك قلعة الموت سنة ٤٨٣هـ «راجع الشهرستاني جـ١ ص ٣٣٣ــ ٣٤٥»

(٥) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية جـ٢ ص ٢٢٨

٤ــ لأن توران شاه كان الأخ الأكبر لصلاح الدين، و يرى أنه أحق بالسلطنة منه، وعندما لم يتحقق له ذلك في مصر سعى إلى تكوين مملكة له في منطقة أخرى، و يدل على ذلك أنه بعد استيلائه على اليمن خطب لنفسه بعد الخليفة العباسي وتلقب بالملك المعظم(١) ولم يغضب صلاح الدين عندما علم بأنه لم يخطب له بل تركه يشبع أطماعه.

أما القول بأن صلاح الدين أرسله لفتح اليمن ليزيد في اقطاعه لأنه كان كثير النفقات(٢) فإن ذلك غير منطقي لأنه كان بإمكان صلاح الدين أن يخصص له إقطاعاً في مصر يكفي نفقاته و يزيد عن حاجته.

كما أن القول بأن إخوة صلاح الدين كانوا كثيرين فرأى أن يتخلص منهم ومن منافستهم له بإرسالهم إلى اليمن(٣) غير معقول أيضا لأنه كان في أمس الحاجة لهم في ذلك الوقت العصيب الذي كانت الأخطار تتربص به من جميع النواحي ليشدوا أزره و يساندوه.

٥ــ قيام عبدالنبي بن مهدي بالاستيلاء على مناطق كثيرة وإذلال أهلها وسبي نسائها وأطفالها، ومنع الناس من الحج إلى الكعبة واجبارهم على الحج إلى قبر أبيه... الخ. من الأعمال التي قام بها عبدالنبي، وقتله في إحدى غاراته على المخلاف السليماني الشريف وهاس بن غانم بن يحيى زعيم المخلاف سنة ٥٦١ هـ/١١٦٦م فاستنجد أخوه وخليفته الأمير قاسم بن غانم بالخليفة الفاطمي العاضد الذي كان يعاني من الضعف والمؤامرات الداخلية التي لا تسمح له بنجدة أحد.

و بعد تولى صلاح الدين الوزارة للخليفة العاضد سنة ٥٦٤ هـ/١١٦٩م طلب منه إرسال حملة لليمن للقضاء على عبدالنبي(٤). و يبدو أن الأمير قاسما أرسل رسله مراراً إلى مصر يستنجد بالخليفة من عبدالنبي الذي أخذ نفوذه يقوى في اليمن في ذلك الوقت و واصل اعتداءه على سكانها، ولكن صلاح الدين لم يستطع إرسال مثل تلك الحملة في تلك الظروف الصعبة التي كانت تمر بها مصر.

و بقى الحال في اليمن على ما هو عليه حتى سقطت الدولة الفاطمية في مصر وقامت على أنقاضها الدولة الأيوبية، ورغم أن المصادر لم توضح لنا ما حدث بعد ذلك إلا أن الأمير قاسما قد استنجد بالسلطان صلاح الدين ضد عبدالنبي الذي أذل أهل اليمن وزعم أن ملكه يمتد و يتسع حتى يملك الأرض كلها بعد أن امتلك مناطق كثيرة من بلاد اليمن وحصونها وخطب لنفسه بها(٥) ولا نستبعد أن يكون الأمير قاسم قد استنجد بالخليفة المستضيء بالله

(١) المقريزي: السلوك جـ١ قسم ١ ص ٥٣

(٢) ابو شامة: الروضتين جـ١ ص ٢١٦، العيني: عقد الجمان جـ٥٠ ص ٥٥٢، الدمشقي: الدر الثمين حوادث سنة ٥٦٩ هـ، المقريزي: الخطط جـ٣ ص ٥٩، النويري: نهاية الأرب جـ٢٦ ص ١١٣

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ١ ص ٢٧٣، ابن الديبع: قرة العيون ص ٩٧، و بغية المستفيد ص ٩ ب

(٤) شرف الدين: اليمن عبر التاريخ ص ٢١٧، ومحمود كامل المحامي: اليمن شماله وجنوبه ص ١٧٩

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٢ ص ٤٨٦ وما بعدها، أبوشامة: الروضتين ٢٤١ وما بعدها وابن خلكان: وفيات الأعيان جـ١ ص ٣٠٦، ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٢ ص ٢٧٣

العباسي بعد ما مل الاستنجاد بالخليفة الفاطمي العاضد دون جدوى. كما أن بعض أمراء اليمن وأعيانها قد استنجدوا بالخليفة العباسي ضد ابن مهدي الذي خطب لنفسه باليمن، وهذا دفع الخليفة إلى أن يرسل لصلاح الدين بعد أن استقرت أحوال مصر أن يسير جيوشه لليمن للقضاء على عبدالنبي(١).

ولا نرى ما يرى الدكتور عبدالعال من أنه كان على أشراف المخلاف السليماني باعتبارهم علويين أن يلجأوا إلى الخليفة الفاطمي في مصر وليس إلى الخليفة العباسي في بغداد لأنهم استنجدوا به أكثر من مرة دون جدوى، ولانرى ما يمنع أن يستنجدوا به خصوصا وهم يعلمون بأن الدولة الفاطمية كانت في أيامها الأخيرة وتعاني من الضعف. وقد رأينا أشراف الحجاز في مكة والمدينة وهم علويون يخطبون للخليفة العباسي ولصلاح الدين السنيين، ولا نرى مانعاً من أن يستنجدوا به ضد عدوهم المشترك ابن مهدي الذي كان بأرائه ومعتقداته يعمل على هدم الدين الاسلامي خصوصا وأن عبدالنبي كان يقتل ويدمر دون تفريق بين سنة وشيعة.

أما رواية استنجاد ابن النساخ(٢) بالخليفة العباسي الذي أرسل إلى صلاح الدين ليسيّر حملة إلى اليمن للقضاء على عبدالنبي الخارجي(٣) غير صحيحة لأن تلك الرسالة أرسلت سنة ٦١١هـ/١٢١٤م في وقت لم يكن فيه صلاح الدين ولا توران شاه على قيد الحياة. وقد أرسل ابن النساخ تلك الرسالة للخليفة مستنجداً به ضد الإمام الزيدي عبدالله بن حمزة وأن الذي قام بالحملة على أثرها إلى اليمن هو الملك المسعود بن الكامل(٤).

٦ــ أراد صلاح الدين من فتح اليمن نشر المذهب السني الذي عمل على نشره في دولته منذ وصوله للسلطة عندما قضى على الخلافة الفاطمية الاسماعيلية وعلى مراكز الدعوة بمصر، وفتح المدارس لتعليم الفقه السني ومبادىء السنة المختلفة.

ولا نرى ما يرى الدكتور عبدالعال أن ذلك هو السبب الرئيسي للحملة إذ نعرف أن الحجاز مهد الإسلام والذي يحتوى على المقدسات الإسلامية حيث توجد الكعبة والحرمان المكي والمدني وضريح الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه ومناطق الحج المختلفة ورغم كل ذلك فإن صلاح الدين لم يقض على المذاهب الشيعية فيها بل ترك حكامها العلويين يحكمون بها ويطبقون مذاهبهم، حتى لقد كان أهل السنة في المدينة مهضومي الحقوق ولا يستطيعون ممارسة عقيدتهم والفصل في خصوماتهم.. وما إلى ذلك بحرية، وكان الأجدر به تطهير تلك الأماكن منهم ومن أفعالهم، بدلا من إرسالها لليمن، وإن كان صلاح الدين

---

(١) ابن واصل: المرجع السابق جـ١ ص ٢٣٨

(٢) ابن النساخ: رجل من أهل اليمن: كان فقيها فاضلا «الخزرجي: العسجد المسبوك ص ١٧٥» ابن الديبع: قرة العيون ص ٩٧

(٣) الخزرجي: العسجد المسبوك ص ١٧٥ــ ١٧٦، ابن الديبع: قرة العيون ص ٩٧

(٤) د.عبدالعال: اليمن في العصر الأيوبي ص ٥٥

يرغب في ذلك و يتمنى تحقيقه .

لذلك فإن هذا السبب مكمل للأسباب الأخرى وليس أهمها .

ولكل هذه الأسباب مجتمعة جهز صلاح الدين حملة بقيادة أخيه الأكبر توران شاه وأرسلها لفتح اليمن .

فتح توران شاه اليمن سنة ٥٦٩ هـ/١١٧٤ م :

أرسل صلاح الدين أخاه توران شاه على رأس حملة للنوبة ، فسار إليها وتغلغل حتى قلعة ابريم ثم عاد لأنه وجد قوت أهلها الذرة ، وأنهم يعيشون في شظف من العيش مع كثرة الحروب بين سكانها ــ عاد ومعه بعض الغنائم والعبيد والجواري(١) .

على أثر ذلك قرر فتح اليمن مستغلا الفرصة للقضاء على عبدالنبي الخارجي وتحقيق أهدافه في السيطرة عليها . فأرسل إلى نورالدين طالبا الاذن إلى أخيه توران شاه لأن يسير إلى اليمن فأجابه إلى ذلك(٢) .

فأعد له جيشا قدر بثلا ثة آلاف مقاتل(٣) زودهم بكل ما يحتاجونه من مؤن ومال وسلاح ، وسار توران شاه في مستهل رجب سنة ٥٦٩ هـ/١١٧٤م ، فوصل مكة وأدى العمرة وأخضعها ولو اسميا للأ يو بيين ثم سار إلى اليمن فوصل حرض في المخلاف السليماني ، وانضم إليه أميره الأمير قاسم بن غانم ، واشتكى إليه من ظلم عبدالنبي بن مهدى(٤) . ومنها توجه على رأس جيشه إلى ز بيد حيث يوجد عبدالنبي ، ولما رآه أهلها استخفوا بمن معه ، وقال لهم عبدالنبي « كأنكم بهؤلاء وقد حمى عليهم الحر فهلكوا ، وما هم إلا أكلة رأس »(٥) .

واستعد عبدالنبي للقتال وخرج بقواته للقاء توران شاه خارج ز بيد ودارت المعركة بينهما فهزم عبدالنبي ولجأ إلى داخل المدينة بعد أن تفرقت عنه قواته ، ولم يجد من يدافع عن الأسوار، فنصب توران شاه السلالم عليها وتسلقتها بعض قواته وتمكنت من فتح الأ بواب ، واقتحمت قواته المدينة عنوة وحوصر عبدالنبي في مقره مدة حتى طلب الأمان ، فأمنه توران شاه ، وعندما نزل إليه قبض عليه وقيده في السابع من شوال سنة ٥٦٩ هـ/١١٧٤م(٦) .

---

(١) ابن الأثير: الكامل جـ٩ ص ١٢٢ ، ستة من أهل الأندلس : النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ص ١٨٨ ــ ١٨٩ ، دائرة المعارف الإسلامية جـ٦ ص ٥٥٩ ــ ٥٦٠

(٢) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٩ ص ٦٩

(٣) ابو شامة : الروضتين جـ١ ص ٢١٧ ، العيني : عقد الجمان جـ٥٠ ص ٥٢٢ ، الدمشقي : الدر الثمين حوادث سنة ٥٦٩ هـ ، ابن فضل الله : التعريف بالمصطلح الشريف ص ١٧٤

(٤) ابن حاتم : السمط ص ٣أ ــ ٣ ب

(٥) ابن الأ ثير: المرجع السابق والجزء والصفحة

(٦) النو يري : نهاية الأ رب جـ٢٦ ص ١١٣ ، الخزرجي : العسجد ص ١٦٩ ، ابن الديبع : بغية المستفيد ص ٩ ب

كما ألقى القبض على أخويه، وأسرت زوجته «الحرة» التي كانت ذات ثراء طائل، و يقال انها كانت امرأة صالحة كثيرة الصدقات خصوصا إذا ذهبت إلى الحج فكانت تعم فقراء الحاج بصدقاتها وهذا يناقض ما كان عليه زوجها وقد أوكل توران شاه أمر عبدالنبي إلى الأمير سيف الدولة مبارك بن منقذ وأمره أن يستخرج منه الأموال التي لديه، وكانت أموالاً جليلة المقدار(١) وقام بهدم القبة وأخذ الجواهر والأموال الموجودة فيها «وكان جملة ما أخذه ستمائة حمل» وأخرج عظام على الخارجي وأحرقها(٢).

وقام الجند بنهب زبيد التي خضعت للأيوبيين وخطب على منابرها للخليفة المستضيء العباسي، وأصلح توران شاه أحوالها(٣).

وبعد سقوط زبيد في يدي توران شاه أخذت المدن والحصون الأخرى تسقط الواحدة تلو الأخرى، فاستولى على الجند وتعز(٤) ثم توجه بعد ذلك للاستيلاء على عدن التي كان بنو زريع قد قووا تحصيناتها. وقد ارتكب ياسر بلال المحمدي خطأً كبيراً عندما خرج لقتال توران شاه خارج الأسوار لأنه لو تحصن داخل الأسوار لأصبح من الصعوبة على توران شاه اقتحامها خصوصا وأن الامدادات تأتيها من البحر، وعندما دارت المعركة هزم بلال الذي حاول الفرار والالتجاء إلى الأسوار ولكن قوات توران شاه كانت أسرع منه إذ تمكنت من الاستيلاء على المدينة وأسر بلال وأراد عسكره نهبها ولكن توران شاه منعهم وقال: «ما جئنا لنخرب البلاد، وانما جئنا لنملك البلاد ونعمرها وننتفع بدخلها»(٥).

واستناب توران شاه على عدن الأمير عزالدين عثمان الزنجيلي وعلى زبيد سيف الدولة مبارك بن منقذ، وجعل على كل مدينة أو حصن استولى عليه نائبا له بها وعامل الناس معاملة حسنة فأطاعوه لعدله وإحسانه، وعمرت زبيد بعد خرابها(٦).

وفي تلك الأثناء قتل ياسر بن بلال لأن صهره عباسا زور على لسانه كتابا موجهاً لزيد بن عمرو بن حاتم يدعوه فيه لمقاومة شمس الدولة(٧). واستولى شمس الدولة بعد ذلك على عدة حصون من بينها حصن التعكر وذمار الذي سار منه إلى صنعاء فتجمعت قبائل جنب ومن انضم إليها من الأعراب وكادت الهزيمة تحل بتوران شاه لولا أنه استبسل في القتال وحث جنوده على الصمود قائلا لهم: «قاتلوا عن أنفسكم وإلا أكلتكم العرب»(٨) فقاتلوا قتالا مستميتا حتى حققوا النصر، وقتلوا

(١) ابن الأثير: الكامل جـ٩ ص ١٢٢
(٢) اخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول ص ١٢٤
(٣) ابن خلدون: العبر جـ٥ ص ٢٨٧
(٤) الخزرجي: العسجد ص ١٧٧، طراز الزمن جـ٢ ص ٤٤٠، الكبسي: اللطائف ص ٢٧ ب
(٥) ابن خلدون: المرجع السابق والجزء والصفحة
(٦) ابن الأثير: المرجع السابق والجزء ص ١٢٣
(٧) ابوشامة: الروضتين جـ١ ص ٢٥٩
(٨) ابن حاتم: السمط ص ٥٤، الكبسي: اللطائف ص ٢٧ ب

من أعدائهم اعدادا كبيرة وفر علي بن حاتم من صنعاء بعد أن هدم سورها إلى قلعة براش وتحصن بها(١).

و يقول أبو شامة ان شمس الدولة بعد أن دخل صنعاء «لم يجد بها سوى شيخ وأمرأة عجوز»(٢) ونستبعد ذلك وإن كنا لانشك أن كثيرا من أهلها قد هر بوا منها خوفا من بطش توران شاه وقواته، خصوصا وأن الخزرجي قال: «إن وفدا من وجهاء وأعيان صنعاء قد وفد على توران شاه وهو في الجيوب، فتفاوض معهم على تسليم المدينة واتفقوا على ذلك فدخل صنعاء و بقي بها أياما غادرها بعدها إلى ز بيد(٣).

و بعد رجوعه إلى ز بيد وجد ابن منقذ قد قتل عبدالنبي بن مهدي وأخاه أحمد سنة ٥٧١ هـ/١١٧٦ م(٤) وفي تلك الأثناء قدم عليه صاحب حصن طمار وصالحه على أن يبقيه به مقابل مبلغ من المال يدفعه له سنو ياً(٥) وحتى ذلك الوقت فتح توران شاه ثمانين حصناً ومدينة وقرية صلحا(٦). و بذلك خضع له معظم اليمن وساعده على ذلك التفكك والصراع الدامي الذي كان قد عم البلاد قبل مجيئه إلى اليمن، مما جعل أهالي البلاد ينضمون إليه و يساعدونه ليخلصهم مما كانوا يعانون منه(٧).

كما استولى توران شاه على حضرموت وأناب بها رجلا كردياً من أتباعه(٨) وسيطر توران شاه بذلك على معظم اليمن فيما عدا بعض المناطق الجبلية في أقصى شمال وشمال غرب اليمن والتي كان يسيطر عليها الزيديون، وهدأت الأحوال نسبيا بها وتوحدت السلطة فيها لاسيما المناطق الجنو بية(٩). وأناب توران شاه عنه بتعز مملوكه الأمير ياقوت التعزي بالإضافة إلى الجند وأناب مملوكه مظفرالدين قايماز بقلعة التعكر وأضاف إليه جبلة ونواحيها(١٠)

وعلى أثر تلك الفتوحات تلقب توران شاه بالملك المعظم وخطب لنفسه في البلاد التي فتحها بعد

---

(١) الخزرجي: العسجد ص ١٨٠، يحيى بن الحسين: أنباء الزمن ص ٥٤
(٢) الروضتين: جـ١ ص ٢٥٩
(٣) الخزرجي: العسجد ص ١٨٠، راجع ايضا الكبسي: المرجع السابق والصفحة
(٤) اليافعي: مرآة الجنان جـ٣ ص ٣٩٣
(٥) ابو شامة: المرجع السابق والجزء ص ٢١٧
(٦) الحنبلي: شفاء القلوب ص ١٣
(٧) ابن عبدالمجيد: بهجة الزمن ص ٦٣
(٨) العيني: عقد الجمان جـ٥٠ ص ٥٨٥، الحريري: الأخبار السنية ص ١٧٩
(٩) دائرة المعارف الإسلامية: المجلد السادس ص ٥٦٠
(١٠) ابن حاتم: السمط ص ٦ ب، ابن الديبع: قرة العيون ص ١٠٢، الكبسي: اللطائف ص ٢٨أ، بامخرمة: تاريخ ثغر عدن جـ٢ ص ٣٨، قلادة النحر جـ٢ ص ٧٤٨، التعكر: قلعة حصينة عظيمة باليمن من مخلاف جعفر مطلة على ذي جبلة ليس في اليمن قلعة أحصن منها «ياقوت: معجم البلدان جـ٢ ص ٣٤»

وذي جبلة: مدينة بمخلاف جعفر في الجنوب الغربي من مدينة اب «الواسعي: البدر المزيل للحزن ص ٢٢» كان قد اختطها السلطان عبدالله بن محمد الصليحي سنة ٤٥٧ هـ في سفح جبل التعكر وتسمى مدينة النهرين. وادريس عمادالدين: نزهة الأفكار لوحة ٢٤

الخليفة المستضيء بأمر الله(١) وأراد توران شاه أن يتخذ من صنعاء عاصمة له ولكنها لم تعجبه لأنها كانت قليلة الخيرات ، وأراد أن يتخذ من زبيد عاصمة ولكنها كانت رديئة المناخ فعزف عنها أيضا وجمع الأطباء وسار بهم في الجبال بحثا عن مكان صحي طيب الهواء ، فوقع الاختيار على «تعز» فاختاط هناك مدينة أصبحت عاصمة لملكه ، كما اتخذها حكام اليمن الأيوبيون والرسوليون عاصمة لهم من بعده(٢) .

وعلى اثر ذلك أرسل توران شاه إلى أخيه صلاح الدين بأنه قد فتح اليمن وأقر الأمن والاستقرار وأعاد الخطبة للخليفة العباسي ، فارسل صلاح الدين بالبشارة إلى سيده نورالدين الذي أرسل بدوره يبشر الخليفة المستضيء(٣) .

واكتفى توران شاه بتلك الفتوحات في بلاد اليمن والحجاز وقضى على عبدالنبي الخارجي وعلى الدويلات الشيعية التي كانت مازالت قائمة في اليمن وأعاد الخطبة للعباسيين ، وأمن مفتاح البحر الأحمر الجنوبي من محاولات سيطرة القوى المسيحية والصليبية عليه . ثم قرر العودة إلى الشام لأنه كره الإقامة باليمن ، وجرت عدة مراسلات بينه وبين أخيه صلاح الدين انتهت بأن سمح له صلاح الدين بالعودة(٤) .

وقد عاد توران شاه إلى الشام محملا بالغنائم ولما سمع صلاح الدين بوصول أخيه في المحرم من سنة ٥٧١ هـ/١١٧٦م أرسل إليه كتابا يقول فيه «أنا يوسف وهذا أخي قد منَّ الله علينا .. ولقد أحسن عدنان المبشر إذ طلع علينا طلوع الفجر قبل شمسه ، وغرس في القلوب ما يسرنا ويسره جني غرسه»(٥) .

أحوال اليمن بعد توران شاه(٦)

بعد عودة توران شاه من اليمن بقى ولاته يجمعون إيراداتها ويرسلونها إليه حتى توفى بالإسكندرية في صفر سنة ٥٧٦ هـ/١١٨١م وبعد ذلك اضطربت أحوال اليمن لأن صلاح الدين كان مشغولا بحرب الصليبيين ، ولم يستطع أن يرسل أحداً يتفقد أحوالها مما أدى إلى خروج النواب

(١) المقريزي : السلوك جـ١ قسم ١ ص ٥٣ ، دائرة المعارف الإسلامية المجلد ١٤ العدد الأول ص ٢٦٨ .
(٢) ابن خلدون : العبر جـ٥ ص ٢٨٧
(٣) الذهبي : سير أعلام النبلاء جـ١٣ قسم١ص ١٥ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ١ ص ٣٠٧ — ٣٠٧ ، ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ص ٤٩ . ابوشامة : الروضتين جـ١ ص ٨٦ — ٨٧ ، ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ٣ ص ٤٨ — ٤٩ الخزرجي : العسجد ص ١٨١ — ١٨٢ ، الكبسي : اللطائف ص ٢٨أ ، المقريزي : الخطط جـ٣ ص ٦٠ ، العبدلي : هدية الزمن ص ٦٧ — ٦٨
(٤) د.احمد عبدالعال : تاريخ اليمن في العصر الأيوبي ص ٧٩
(٥) ابوشامة : الروضتين جـ١ ص ٢٥٩ ويقول العيني : السيف المهند ص ١٨٩ أن توران شاه حضر مع أخيه غزوات كثيرة ولا نعتقد ذلك
(٦) سنحاول في هذا البحث القاء الضوء فقط على أحوال اليمن ومن أراد الاستزادة فيرجع إلى كتاب اليمن في العصر الأيوبي الذي أسهب في ذكر أحداث هذه الفترة

عن طاعته، فضرب كل منهم سكة لنفسه ومنع أهل بلده من التعامل بغيرها، وخطب لنفسه على منابرها، ومنعوا الخراج الذي كانوا يرسلونه سنوياً إلى مصر حتى أصبح كل منهم مستقلاً بولايته(١). وطمع كل منهم في الاستيلاء على ولاية الآخر فنشب الصراع بين حطان بن منقذ ــ الذي ناب عن توران شاه بزبيد بعد عودة أخيه المبارك إلى الشام ــ وعثمان الزنجيلي والي عدن(٢).

وقد خشى صلاح الدين على اليمن لذا أرسل قائده صارم الدين خطابا لتهدئة الأمور بها بحملة ضمت خمسمائة رجل، وكتب إلى أمراء اليمن بالانضمام إليه لقتال حطان بن منقذ وإخراجه من زبيد. وسارت الحملة ونزلت بعدن فاستقبلها الزنجيلي الذي أعلن الولاء والطاعة له. وساروا إلى الجند فانضم إليهم الأمير ياقوت التعزي والأمير قايماز، وساروا جميعا إلى زبيد لأخذها من حطان الذي ما إن سمع بقدومهم حتى غادرها إلى حصن قوارير ــ قرب زبيد ــ فدخلها خطلبا دون قتال وعاد كل أمير إلى ولايته(٣).

واستخدم حطان السياسة مع خطلبا بأن تودد إليه وأرسل له الهدايا القيمة حتى توطدت أواصر الصداقة والمودة بينهما، وفي تلك الأثناء مرض خطلبا وأشرف على الموت، عندئذ قرر تسليم المدينة إلى حطان، ولم يلبث خطلبا إلى أن توفى. فعادت الأمور باليمن إلى ما كانت عليه قبل قدوم الحملة(٤) وعاد الصراع من جديد بين حطان والزنجيلي الذي أرسل يستنجد بالسلطان صلاح الدين.

حملة سيف الإسلام طغتكين:

على أثر الاضطراب والفوضى الذي ساد اليمن بعد وفاة خطلبا قرر السلطان صلاح الدين إرسال أخيه سيف الإسلام طغتكين على رأس حملة لليمن لإعادة الأمور إلى ما كانت عليه ويعيد الأمن والاستقرار إلى ربوع اليمن(٥).

فسار إليها على رأس ألف فارس وخمسمائة راجل سنة ٥٧٨ هـ/ ١١٨٢م، وعندما علم حطان بقدومه خرج لاستقباله بمدينة الكدراء، فسر لذلك طغتكين وخلع عليه وقال له:

---

(١) ابن عبدالمجيد: بهجة الزمن ص ٧٧، النويري: نهاية الأرب جـ٣١ ص ٤٠ ابن الديبع: بغية المستفيد ص ١٠أ، العبدلي: هدية الزمن ص ٧٣ــ ٧٤

(٢) ابن حاتم: السمط ص ٧أ

(٣) يذكر ابن الأثير في الكامل جـ٩ ص ١٥٣، ابن خلدون: العبر جـ٥ ص ٢٩٦ وأخذ عنهما د. سليمان محمود تاريخ اليمن ص ٢٥١ أن الذي أرسله صلاح الدين قتلغ أبه ويقول ابو المحاسن: النجوم جـ٦ ص ٨٩ أن صلاح الدين أرسل الخادم بهاء الدين قراقوش إلى اليمن فقبض على سيف الدين مبارك وطلب منه المال وكان نائب أخيه. ولكن ذلك لم يحدث وترجح أن الذي أرسله صلاح الدين هو خطلبا

(٤) بامخرمة: تاريخ ثغر عدن جـ٢ ص ٧٠، الخزرجي: العسجد: ص ١٨٨، ابن الديبع: قرة العيون ص ١٠٣، ابن اياب: كنز الدرر جـ٧ ص ٥١

(٥) ابن أيبك: المرجع السابق والجزء والصفحة

«انت أخي بعد أخي» وسار معه إلى زبيد وأنعم عليه بحصن قوارير»[١].

ويبدو أن العلاقات الودية لم تدم طويلا بين طغتكين وحطان، إذ لم يلبث أن قبض عليه وسلمه إلى ياقوت التعزي الذي سجنه في حصن تعز، ثم قتله سرا في أواخر سنة ٥٧٩ هـ/١١٨٤م[٢]

أما قايماز فكان قد استولى على ذي جبلة والمناطق التابعة لها فأرسل إليه طغتكين جماعة من أتباعه استرجعتها منه[٣].

وعندما علم عزالدين عثمان الزنجيلي بما حل بحطان بن منقذ خاف على نفسه وعلى أمواله، لذا قرر الهرب من عدن إلى بلاد الشام، فأعد سفنا حمل فيها أمتعته وأمواله وأرسلها إلى بلاد الشام[٤] ولكن سفن سيف الإسلام صادفتها في البحر فاستولت عليها وأعادتها. ولم ينج ابن الزنجيلي إلا بنفسه وما معه[٥]. ووصل إلى مكة وحج ومنها سار إلى الشام، وبقي بها حتى وفاته سنة ٥٨٣ هـ/١١٨٨م[٦].

وعمل طغتكين بعد أن فرغ من مشاكل الولاة على إخضاع اليمن للأيوبيين باعادة فتح البلاد التي كانت خاضعة لهم واستقل أصحابها بها أو بفتح مناطق جديدة لم يسبق للأيوبيين فتحها. فأخذ يستولي على المدن والحصون الواحد تلو الآخر فاستولى سنة ٥٨٠ هـ/١١٨٤م على حصون وصاب شرقي زبيد وحصون أولاد أبي النوار واستولى سنة ٥٨١ هـ/١١٨٥م على حصن خدد وتسلم سنة ٥٨٢ هـ/١١٨٦م حصون شواحط ويفوز، واستولى على حصن حب سنة ٥٨٣ هـ/١١٨٨ وقتل معظم سكانه[٧] فأخاف ذلك أهل اليمن الذين خشوا أن يكون مصيرهم نفس مصير ذلك الحصن. فهرع إليه زعماء القبائل معلنين فروض الولاء والطاعة له فقابلهم طغتكين بالصفح والإكرام[٨] ثم وفد عليه مشايخ قبيلة جنب معلنة الولاء والطاعة له بعد العداء فعفا عنهم وأكرمهم وفي هذا العام استولى على ذمار واستولى قايماز على حصن ذروان، ثم استولى بعد ذلك على حصن الدملوه[٩].

---

(١) الخزرجي: العسجد ص ١٨٩، ابن حاتم: السمط ص ٨أ الكدراء: مدينة في أعلى وادي سهام في الجنوب الغربي من برع، وعلى بعد مرحلتين من زبيد اختطها حسين بن سلامة حوالي سنة ٤٠٠ هـ «ياقوت الحموي» معجم البلدان جـ٣ ص ٢٤٤

(٢) بامخرمة: قلادة النحر جـ٢ ص ٧٥٣، المقريزي: السلوك جـ١ قسم ٢ ص ٧٨ الكبسي: اللطائف ص ٢٨ ب

(٣) ابن عبدالمجيد: بهجة الزمن ص ٧٨

(٤) النويري: نهاية الأرب جـ٣١ ص ٤٠

(٥) المختصر جـ٣ ص ٦٤، بامخرمة: تاريخ ثغر عدن جـ٢ ص ١٣١، قلادة النحر جـ٢ ص ٧٥٣، ابن خلدون العبر جـ٥ ص ٢٩٦، ابن الوردي: تتمة المختصر جـ٢ ص ١٣٩

(٦) بامخرمة: تاريخ ثغر عدن جـ٢ ص ١٣٢، قلادة النحر جـ٢ ص ٧٦٦

(٧) الخزرجي: العسجد ص ١٩١، ابن الديبع: قرة العيون ص ١٠٥، يحيى بن الحسين: أنباء الزمن ص ٥٥

(٨) ابن حاتم: السمط ص ٩أ، ادريس عماد الدين: نزهة الأفكار ص ٨

(٩) ابن حاتم: المرجع السابق ص ١٠م يحيى بن الحسين: المرجع السابق والصفحة

ولم تلبث العلاقات أن ساءت بين طغتكين وبني حاتم مما دفعه إلى الاستيلاء على حصونهم، و بعد ذلك سار إلى صنعاء واستولى عليها سنة ٥٨٥ هـ/١١٨٩م(١) **كما استولى بعد ذلك** على حصن الفص ووقع في أسره أبناء بشر بن حاتم الثلاثة(٢) كما استولى على الظفر وكوكبان وفده وذمرمر (٣).

ولم يلبث الصدام أن وقع بين طغتكين والزيديين الذين كانوا يحاولون إقامة إمام لهم بعد أن شغر منصب الإمامة عندهم على أثر وفاة أحمد بن سليمان، وتمكن من الانتصار على عبدالله بن حمزه الذي فر إلى الجوف، فلحق به طغتكين وهزمه واستولى على الجوف وصعدة سنة ٥٨٦ هـ/١١٩٠م(٤).

ونجح بذلك طغتكين في إعادة الهدوء إلى اليمن بعد أن قضى على الفتن التي أثارها نواب أخيه توران شاه، وفتح بلاداً جديدة لم يفتحها الأيوبيون من قبل، وقام بتحصين المدن اليمنية. فبنى سوراً جديداً حول زبيد، وجدد سور صنعاء واستقر بصنعاء أول الأمر ثم انتقل إلى تعز واتخذها عاصمة له واختط مدينة المنصورة سنة ٥٩٢ هـ/١١٩٦م التي تبعد اثنى عشر كيلو مترا عن الجند(٥).

ومنع طغتكين الأذان بمكة واليمن بـ«حي على خير العمل» ولكنه في أواخر أيامه حاول ظلم أهل اليمن بالاستيلاء على أراضيهم، ولكنه مات قبل أن يتم تنفيذ ذلك المشروع سنة ٥٩٣ هـ/١١٩٧ م في المنصورة ونقل ابن المعز جثمانه إلى تعز ودفنه هناك(٦).

المعز اسماعيل بن طغتكين:

كان طغتكين يعد ابنه المعز اسماعيل لتولي الملك من بعده، لذلك كان يعتمد عليه في إدارة شؤون الدولة(٧). إلا أنه أظهر التشيع، فأغضب أباه عليه سنة ٥٨٩ هـ/١١٩٣م فطرده من اليمن وسار إلى بغداد، فأكرمه الخليفة وأرسله بكتاب منه إلى ابيه **يطلب الصفح** له(٨) و يبدو أن المعز تظاهر أمام الخليفة بالصلاح والمحافظة على السنة. فعاد إلى اليمن عن طريق دمشق ولكنه لم يتراجع عن أفكاره الشيعية مما جعل أباه يطرده مرة أخرى سنة ٥٩٣ هـ/١١٩٧م في الوقت الذي اشتد فيه مرض طغتكين، وما كان يصل السرين حتى أرسل إليه جمال الدين كافور

(١) ابن حاتم: المرجع السابق ص ١٣ب ــ ١٤أ، ادريس عماد الدين: المرجع السابق ص ٩
(٢) الشرفي: اللآلىء المضيئة جـ٢ ص ١٣٣، الكبسي: اللطائف ص ٣٠أ
(٣) الخزرجي: العسجد ص ١٩٧، زبارة: أئمة اليمن جـ١/١١١
(٤) الشرفي: المرجع السابق والجزء ص ٢١٦، العرشي: بلوغ المرام ص ٤٢٠
(٥) اليافعي: مرآة الجنان جـ٣ ص ٤٧٦، الزركلي: الاعلام جـ٣ ص ٣٢٧، شرف الدين اليمن عبر التاريخ ص ٢١٩
(٦) الخزرجي: العسجد ص ٢٠١ بامخرمة: قلادة النحر جـ٢ ص ٧٨٣، شرف الدين: المرجع السابق ص ٢١٩ ــ ٢٢٠
(٧) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٢ ص ٣٤٨، ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك ص ١٧٨
(٨) الخزرجي: طراز الزمن جـ٢ ص ٣٦٨

مدير الدولة جماعة من الجند أخبروه بوفاة أبيه، فعاد إلى اليمن وسلمه جمال الدين مقاليد الأمور(١).

وأخذ المعز بعد ذلك يتخبط في حياته إذ نراه مرة يتشيع، وثانية يدعي النبوة وثالثة يدعي الألوهية وأخرى يدعي أنه قرشي من بني أمية(٢) وكتب كتابا بذلك تلقب فيه «إمام الأئمة وكاشف الغمة.. المفترض الطاعة على كافة الأمة، المستخرج من السلالة الطاهرة النبوية، وفرع الشجرة الإمامية الأموية، المعز، الناصر، العزيز، القاهر، الرحيم، القادر، الحليم، الذاكر، السيد، الهادي إلى الحق بأمر الله، أمير المؤمنين المعز إسماعيل بن طغتكين بن شادي بن مروان الأموي خليفة رب العالمين صلوات الله عليه و بركاته»(٣).

كما ادعى الخلافة، ودعا لنفسه في اليمن، وتلقب بالإمام الهادي بنورالله المعزلدين الله، ولبس ثياب الخلافة الخضراء وقطع خطبة بني العباس في شهر جمدى الآخرة سنة ٥٩٧هـ/١٢٠١م وخطب بنفسه على المنابر، وكتب إلى مختلف أنحاء العالم الإسلامي يخبرهم بذلك، و يطلب إليهم الدخول في طاعته ومن بين الرسائل رسالة إلى عمه العادل(٤).

وعندما وصله ذلك الخطاب غضب غضبا شديداً وأرسل إليه يلومه و يوبخه و يأمره بالعودة إلى نسبه الصحيح، وتركه ما ارتكبه من أفعال تضحك الناس منه ولكنه لم يلتفت لذلك أو يهتم به، بل تمادي في غيه(٥) كما غضب الخليفة الناصر من تصرفاته حتى لقد فكر في إرسال جيش إليه للقضاء عليه(٦).

ورغم شجاعة المعز إلا أنه كان سيء السيرة حتى مع أتباعه الذين عاملهم معاملة سيئة وقتل من توجس منه إذ قتل عدداً من مماليك أبيه دون ذنب(٧). وولد بذلك الكراهية في نفوس أتباعه بعد أن عرفوا عنه حبه لسفك الدماء حتى لقد أشيع عنه حبه بأكل لحوم البشر(٨) مما أدى إلى هرب العديد من أتباعه إلى أعدائه واتفقوا للقضاء عليه ومعظمهم لجأ إلى الإمام عبدالله بن حمزه الذي رحب بهم منهم الأمير سيف الدين حكو الذي عينه الإمام قائدا لقواته والأمير هشام الكردي(٩) وغيرهما.

---

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام جـ٢٧ ص ٤٥٢، ابن الساعي: الجامع المختصر جـ٩ ص ٩٧

(٢) ابن رسول: نزهة العيون ص ٨٣ ب، الذهبي: المرجع السابق والجزء والصفحة يحيى بن الحسين: أنباء الزمن ص ٥٧

(٣) ابن حاتم: السمط ص ٣٦ـــ٣٨

(٤) الخزرجي: طراز الزمن ص ٣٦٩، النو يري: نهاية الأ رب جـ٢٧ ص ٦، العيني: عقد الجمان جـ٥٢ ص ٢٧٩

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ١٣٧، ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك جـ٨ ص ٩٢ـــ ٢٩٣

(٦) ابن الساعي: الجامع المختصر جـ٩ ص ٤٧

(٧) ابن عبدالمجيد: بهجة الزمن ص ٧٩

(٨) الشرفي: اللآلىء المضيئة جـ٢ ص ١٣٣ب، زيارة: أئمة اليمن جـ١ ص ١١٤

(٩) ابن حاتم: السمط ص ٢٢أـــ ٢٢ب، يحيى بن الحسين: انباء الزمن ص ٥٨

وفي ذلك بدأ نفوذ عبدالله بن حمزة يقوى بسبب التفكك الذي ساد صفوف الأيوبيين ومعاملة المعز السيئة لأتباعه، وأخذ يدعو لنفسه بالإمامة في صعدة سنة ٥٩٤هـ/١١٩٨م (١).

وبدأ المعز يعمل على مواجهة الإمام، وبينما كان ذاهبا لقتاله خرج عليه الأمير شمس الخواص لأن المعز كان يخطط للتخلص منه فعمل على الاستيلاء على زبيد ولكن أصحابه قبضوا عليه وسلموه للمعز الذي نفاه إلى جزيرة دهلك بالبحر الأحمر(٢).

وبدأ ميزان القوى يرجح في ذلك الوقت لصالح المعز، وتحرج موقف الإمام الذي حلت به الهزائم وأخذ موقف الطرفين يتردى، فأحيانا يكون سيئا وآخر يتحسن إذ لم يلبث أن انضم إلى الإمام عبدالله بن حمزة جماعة من أتباع المعز منهم الأمير وردسار، والأمير سيف الدين سنقر الأتابك الذي كان قد خرج على المعز وبينما كان في ظريقه إلى الإمام جاءته الأخبار بموت المعز، فتراجع عن الانضمام للإمام وأخذ يسعى للاستقلال بحكم البلاد(٣).

وكان سبب مقتل المعز سوء معاملته لأصحابه وأتباعه الذين دبروا مؤامرة للتخلص منه، فاجتمع بعض الأكراد من جنده وعلى رأسهم الأمير شمس الدين بن الدقيق، والأمير باخل، وقررا التخلص من المعز، وانتهزوا فرصة خروجه للنزهة يوم الأحد الثامن عشر من رجب سنة ٥٩٨هـ/١٢٠٢ قاصدا القوز بضواحي زبيد ولحقوا به عند مسجد شاشة، ولم يكن معه إلا أحد مماليكه وقتلوهما(٤) ونصبوا رأسه على رمح داروا به بلاد اليمن، وساروا إلى زبيد ونهبوها تسعة أيام(٥).

السلطان الناصر محمد بن طغتكين:

اضطربت الأمور باليمن على اثر مقتل المعز. فقد استولى القتلة على خزينة الدولة وتحصنوا في إحدى القلاع الحصينة بالقرب من زبيد واشترطوا أنهم لن يسلموا القلعة والأموال إلا لرجل أيوبي، وكان للمعز أخ صغير يدعى محمداً سلطنوه عليهم ولقبوه الناصر(٦) واختاروه طفلا صغيرا حتى لايستطيع الانتقام منهم لقتلهم أخاه، وليكون ألعوبة في أيديهم.

وحاول أعداء الأيوبيين الاستفادة من ذلك الوضع، فقام الإمام عبدالله بن حمزة بإرسال وردسار إلى صنعاء فاستولى عليها(٧).

---

(١) يحيى بن الحسن: المرجع السابق والصفحة زبارة أئمة اليمن جـ١ ص ١١٦
(٢) ابن حاتم: السمط ص ٢٨
(٣) ابن حاتم: السمط ص ٤١ ب، الكبسي: اللطائف ص ٣٣أ، زبارة: المرجع السابق والجزء ص ١١٤
(٤) الكبسي: اللطائف ص ٣٣أ، العرشي: بلوغ المرام ص ٤١
(٥) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ١٣٧، المقريزي: السلوك جـ١ قسم ١ ص ١٦٠
(٦) ابن واصل: المرجع السابق والجزء والصفحة، الكبسي: المرجع السابق ص ٣٣ ب
(٧) ابن حاتم: السمط ص ٤٤ ب

وفي ذلك الوقت كان قد تولى الأمير سيف الدين سنقر الأتابكية للسلطان الناصر وتزوج أم الناصر[1] وأخذ على عاتقه إعادة الأمور إلى ما كانت عليه، فعزل بعض الولاة الذين لايثق فيهم وعين بدلهم من الموالين له، ولكن الأمور لم تسر حسب ما يشتهي إذ خرج عليه بعض جنده، ودارت معركة بينهم انتهت بانتصاره عليهم وقتل جماعة من الأكراد والأتراك، وسجن آخرين وعمل على إعادة السلطة الأيوبية في اليمن إلى ما كانت عليه[2].

وبدأت الأمور تسير في صالحه إذ ندم وردسار على انضمامه للإمام وأعلن طاعته للأيوبيين فعينه سنقر واليا على صنعاء وانقلب على الإمام وأخذ يحاربه ويهاجم القرى والقلاع التابعة له، وقتل إبراهيم أخو الإمام في إحدى المعارك، وساءت أحوال الإمام إذ قدم زعماء القبائل على «وردسار» معلنة الولاء والطاعة بل استولى على صعدة مركز الإمام وخطب فيها للخليفة العباسي الناصر[3] ولكن الأحداث لم تلبث أن هدأت بين الأيوبيين والإمام سنة ٦٠٢هـ/١٢٠٦م حيث عقد صلح بينهما لمدة عشر سنين وعشرة أيام وعشر ساعات[4] واستغل الإمام تلك الهدنة وأخذ يوسع ممتلكاته في جبال اليمن الشمالية، واعتبر سنقر ذلك العمل نقضا للصلح وأعد حملة سار على رأسها لقتال الإمام والقضاء عليه وانضم إليه «وردسار» بجيشه ودارت بينهما معركة وصاب سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٨م هزم فيها سنقر واتباعه وعاد إلى زبيد[5].

وكان لتلك الهزيمة أثرها السيء على الأيوبيين إذ عمت الفوضى مناطق اليمن الشمالي، وفي تلك الفترة أصبحت الحرب سجالاً بين الطرفين ومل الطرفان القتال مما دفعهما إلى تجديد الصلح[6].

وحاول الإمام الاستفادة من ذلك الصلح بتوسيع ممتلكاته حتى انه تجرأ سنة ٦٠٨هـ/١٢١١م وهاجم تهامة، ولكن قواته هزمت، مما دفع سنقر إلى مهاجمة ممتلكات الإمام في الجبال وخرب العديد من القرى والحصون التابعة له مما جعله يطلب الصلح، فعقدا صلحاً بينهما لمدة سنتين لم يعمر بعده سنقر طويلا إذ توفي في نفس العام ٦٠٨هـ/١٢١٢[7].

وبعد وفاته عين الناصر الأمير بدرالدين غازي الذي كان ينوب عنه في الحج وكان غازي سيء السيرة استخدم السم في التخلص من معارضيه مما أضعف الأيوبيين في اليمن وقوى مركز الإمام[8].

(١) الذهبي: تاريخ الاسلام جـ٢٧ ص ٤٥٣، ابن الديبع: بغية المستفيد ص ١٠ ب
(٢) ابن واصل: المرجع السابق والجزء والصفحة، الذهبي: المرجع السابق والجزء والصفحة
(٣) ابن حاتم: المرجع السابق ص ٦٤ب ــ ٦٥ب، يحيى بن الحسين: انباء الزمن ص ٦٥
(٤) ابن حاتم: السمط ص ٧١م
(٥) نفس المرجع ص ٧٣م ــ ٧٤م
(٦) نفس المرجع ص ٧٩ ب، الخزرجي: العسجد ص ٢٩٠
(٧) زيارة: أئمة اليمن جـ١ ص ١٣٣
(٨) ابن حاتم: المرجع السابق ص ٨٢أ، يحيى بن الحسين: أنباء الزمن ص ٦٧

ولم يكتف بذلك بل عمل على الاستقلال بحكم اليمن منتهزا ضعف الناصر وسوء تدبيره للأمور ووفاته سنة ٦١١هـ/١٢١٥م. واتهم غازي بسمه والتخلص منه(١).

والملاحظ على الصراع بين الأيوبيين والزيديين في اليمن، كثرة الفتن في ذلك الوقت بين الأيوبيين وأتباعهم وكان الإمام يستفيد من ذلك ويعمل على توسيع ممتلكاته على حسابهم ويشجع أتباع الأيوبيين على الانضمام إليه بإغرائهم بالأموال أو المناصب في وقت كانوا يلاقون فيه معاملة سيئة من رؤسائهم. وكان ذلك يضعف مركز الأيوبيين لأن أولئك القادة كانوا على اطلاع على مراكز القوة والضعف في صفوف الأيوبيين. وبالرغم مما كان يصيب الأيوبيين من الضعف أحيانا إلا أن الإمام لم ينجح إلا في السيطرة على بعض أجزاء اليمن الشمالية فقط. بعد موت الناصر أعلن الأمير غازي بن جبريل نفسه سلطانا وتلقب بالملك الظافر وسك النقود باسمه وخطب له على منابر صنعاء(٢) وفي طريق عودته إلى تعز هاجمته القبائل القاطنة بها ونهبت أثقاله وأمواله وتمكن من الوصول إلى مدينة اب وهناك ثار عليه بعض جنوده وقتلوه سنة ٦١١هـ/١٢١٥م(٣).

وبذلك خلت اليمن من سلطان أيوبي قوي يدبر شؤونها في ذلك الوقت العصيب، وتولت أمورها أم الناصر وأصبح الأمير المجاهد أتابكا لها(٤). وانتهز أعداء الأيوبيين تلك الفرصة وحاولوا توسيع ممتلكاتهم حتى بنو حاتم الذين طالما خطبوا ودهم استولوا على عدة حصون لهم ناهيك عن الإمام عبدالله بن حمزة الذي استولى على صنعاء وذمار وغيرهما(٥).

وكان لابد لليمن من رجل قوي يعيد إلى اليمن وحدتها واستقرارها، ولكن الأيوبيين لم يكن في مقدورهم إرسال أحد في تلك الظروف لأنهم كانوا يتوقعون هجوما صليبيا على مصر. لذا أخذت أم الناصر تسعى للعثور على رجل أيوبي تتزوجه وتملكه اليمن، فأرسلت غلمانها في موسم الحج إلى مكة ليأتوها بأخبار مصر والشام(٦).

سلطنة سليمان بن شاهنشاه:

لقد عثر غلمان أم الناصر في مكة على سليمان بن سعدالدين شاهنشاه بن المظفر تقي الدين عمر الذي كان قد خلع لباس الجند وحمل ركوة على كتفه وأخذ يتنقل مع الفقراء من مكان لآخر،

(١) ابن حاتم: المرجع السابق ص ٨٤ب، الخزرجي: طراز الزمن جـ١ ص ٤١٥، بامخرمة: قلادة النحر جـ٣ ص ٨٢٠، الشرفي: اللآلىء المضيئة جـ٢ ص ١٣٤أ

(٢) ابن حاتم: السمط ص ٨٥أ، الخزرجي: العسجد ص ٢١١

(٣) الكبسي: اللطائف ص ٣٦ب، ابن الديبع: بغية المستفيد ص ١١أ

(٤) الذهبي: تاريخ الإسلام جـ٢٧ ص ٤٥٣، الحنبلي: شفاء القلوب ص ٧٤

(٥) ابن حاتم المرجع السابق ص ٨٦ب، الشرفي: اللآلىء المضيئة ص ٦٨، الكبسي: اللطائف ص ٣٦ب

(٦) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ١٣٩، ابوالفداء: المختصر جـ٣ ص ١٠٨، العيني: عقد الجمان مجلد ٥٢ ص ١٧٩، الحنبلي: شفاء القلوب ص ٧٥أ

واتفق أن حضر سنة ٦١١هـ/١٢١٥م للحج مع الفقراء فأحضره غلمان أم الناصر إليها وقالت له: «إنا نخشى أن يطمع فينا العرب ونحن نساء لاحيلة لنا، وقد ساقك الله إلينا، فقم بملك ابن عمك، فأجاب إلى ذلك، فأطلعوه الحصن ـ تعز ـ وأجلسوه على سرير الملك وحلف الجند»(١) وتزوج أم الناصر وأصبح حاكم اليمن.

ولكن الأتابك المجاهد لم يقبل بسلطنته، وحاول التخلص منه بسجنه إلا أن سليمان بمساعدة نساء القصر تمكن من الإفلات من السجن والقبض على المجاهد وأتباعه وقتلهم(٢) ولم تكن البلاد في ذلك الوقت في حاجة إلى رجل مثل سليمان، الذي كان ضعيف الشخصية قليل الخبرة بأمور السياسة والحكم محبا للانغماس في حياة اللهو والملذات، أساء معاملة زوجته التي ملكته البلاد، وهجرها(٣) كما أساء إلى جنده وعاملهم بالعنف والتجسس، وإلى كبار قادته كالمؤيد بن قاسم وبدرالدين حسن بن علي بن رسول اللذين خرجا عليه. وانضم جماعة من أتباعه إلى الإمام عبدالله بن حمزة(٤) وأدى ذلك إلى ضعف الأيوبيين في اليمن، وأطمع فيها ابن حمزة الذي أخذ يسعى لتحقيق أحلامه في السيطرة على اليمن كله.

حملة المسعود على اليمن:

خشى الأيوبيون أن يفقدوا سيطرتهم على اليمن، وأن يستولى عليها الإمام عبدالله بن حمزة. لذا قرر السلطان العادل أبوبكر بن أيوب إرسال حفيده المسعود بن الكامل في حملة إلى اليمن لإعادة السيطرة الأيوبية عليها والقضاء على الفوضى التي عمت أرجاءها.

وأسباب تلك الحملة:

١ ـ الحالة المزرية من الضعف والتفكك في صفوف الأيوبيين في اليمن مما أدى إلى انسلاخ أجزاء كثيرة من ممتلكاتهم، واستيلاء أعدائهم عليها، ولما أصاب البلاد من الفوضى وعدم الاستقرار.

٢ ـ سوء سياسة السلاطين الذين تولوا الحكم بعد طغتكين، واضطراب الأحوال في تلك الفترة وخاصة في عهد سليمان شاه الذي لم يهتم إلا بملذاته، وأساء معاملة أتباعه مما أدى إلى انضمام معظمهم إلى الإمام ابن حمزة(٥).

---

(١) ابن واصل: المرجع السابق والجزء والصفحة، الخزرجي: العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٣٠، أما دائرة المعارف الإسلامية فتذكر أن سليمان قدم اليمن ووطد ملكه بها بدعوة من أخي الناصر. وهذا غير صحيح «دائرة المعارف المجلد السادس ص ٥٦»

(٢) ابن حاتم: السمط ص ٨٨م

(٣) نفس المرجع والصفحة

(٤) ابوالفدا: المختصر جـ٣ ص ١٠٢ ـ ١٠٣، الحنبلي: شفاء القلوب ص ١١٢

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب جـ٣ ص ١٣٨، وقد استخف العادل بسليمان شاه عندما أرسل إليه يقول «إنه من سليمان، وإنه بسم الله الرحمن الرحيم»

٣ـــ سوء معاملة سليمان لزوجه التي أرسلت إلى السلطان العادل تشكوه إليه وتطلب منه أن يرسل أحد الأيوبيين الأكفاء للحفاظ على اليمن وإلا ضاعت منهم(١).

٤ـــ ادعاء الإمام عبدالله بن حمزة الخلافة، واعتباره الخليفة الناصر العباسي مغتصبا للخلافة والدعوة لنفسه، وتهديده بالاستيلاء على بغداد(٢) وعلى الرغم من أن الامام لم يستطع السيطرة على اليمن فكيف له أن يمد سلطانه إلى بغداد؟ لكن ذلك يعتبر تطاولاً منه على الخلافة وتحدياً للأيوبيين والعباسيين.

٥ـــ استنجاد ابن النساخ زعيم فرقة المطرفية بالخليفة الناصر العباسي ضد الظلم الذي لحق بطائفته وبسكان اليمن من الإمام عبدالله بن حمزة(٣).

لذلك جهز الكامل محمد حملة أوكل قيادتها إلى ابنه المسعود ضمت ألف فارس وخمسمائة من الخازندارية والرماة(٤) وأمدهم بما يحتاجون إليه من العدد والمؤن، وسارت الحملة من القاهرة سنة ٦١١هـ/١٢١٥م، فمر بمكة ومنها سار لليمن وعندما اقترب منها خرج عدد كبير من أهلها لاستقباله وعلى رأسهم المؤيد بن قاسم السليماني نائب حرض، فأكرمه وخلع عليه(٥).

وعندما اقترب من زبيد خرج الأمير نورالدين عمر وإخوته لاستقباله، فسر المسعود بذلك وأكرمهم، وتسلم زبيد دون قتال(٦) أما سليمان شاه فعندما علم بقدومه لجأ إلى حصن تعز وتحصن به. فأرسل المسعود إليه يعرض عليه أن تكون التهائم له والجبال لسليمان(٧).

ولكن نورالدين أشار على المسعود أن يهدد أهل الحصن إن لم يسلموا له فسيخرب حصنهم. فقبضوا عليه وصعد نورالدين للحصن وتسلمه، وأرسله المسعود إلى مصر، وبقي مقيما في مصر حتى جاءت حملة لويس التاسع إلى مصر فاشترك سليمان في التصدي لها فسقط شهيدا دفاعا عن مصر(٨).

وبعد أن فرغ المسعود من سليمان تفرغ للإمام عبدالله بن حمزة، وأخذ يستولي على ممتلكاته وحصونه الواحد تلو الآخر. وأثناء ذلك توفى الإمام في الثاني عشر من المحرم سنة ٦١٤هـ/١٢١٨م(٩)، فعين الزيديون ابنه عزالدين محمد محتسبا ونازعه المعتضد يحيى بن المحسن بن المحفوظ الذي ادعى الإمامة في صعدة في ذلك العام مما أدى إلى انقسام الزيديين على أنفسهم وضعفهم.

(١) ابوالفدا: المختصر جـ٣ ص ١٠٢ ـــ ١٠٣، الحنبلي: شفاء القلوب ص ١١٢
(٢) الكبسي: اللطائف ص ٣٧أ
(٣) زيارة: أئمة اليمن جـ١ ص ١٣٢
(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ٢ ص ٤٨، النويري: نهاية الأرب جـ٢٧ ص ١٨
(٥) ابن حاتم: السمط ص ٩٢أ، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٢٣٤
(٦) الخزرجي: العسجد ص ٢١٣، العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٣١، ابن الديبع بغية المستفيد ص ١١أ
(٧) ابن الديبع: المرجع السابق والصفحة
(٨) ابوالفدا: المختصر جـ٣ ص ١٠٣، المقريزى: السلوك جـ١ قسم ١ ص ١٨١
(٩) زيارة: أئمة اليمن جـ١ ص ١٤٢

وفي سنة ٦١٥ هـ/١٢١٩م شن المسعود هجوما عنيفا على حصون وقلاع الزيديين واستولى على العديد منها وانتهى الأمر بتوقيع صلح معهم في رجب سنة ٦١٦ هـ/١٢٢٠م. وهدأت الأمور ذلك العام بينهما، ولكن الصراع لم يلبث أن تجدد سنة ٦١٧ هـ/١٢٢٠م فاستولى المسعود على معظم ما تبقى من حصون الزيديين(١) و وبدأت الأمور تستقر للأ يوبيين في اليمن، لذا قرر المسعود القيام بحملة على مكة لتأديب الحسن بن قتادة سنة ٦١٩ هـ/١٢٢٢م، ثم عاد إلى اليمن وعمل على تنظيم أحوالها فعين الأمير نورالدين عمر بن رسول واليا عليها، وعين أخاه بدرالدين والياً على صنعاء(٢) وعاد إلى القاهرة، وفي تلك الأ ثناء قام «مرغم» الصوفي يدعو لنفسه في منطقة تهامة. وكان يدعو الإمام حق، فانضم إليه جمع غفير من الغوغاء، فجمع نورالدين قواته واصطحب معه راشد بن مظفر بن الهرش فقال الصوفي لأصحابه: «إن قاتلونا في غد هزمناهم وقتلنا راشد بن مظفر، فوقع القتال، فكان كما قال اتفاقا، فازداد الناس له محبة وصدقا»(٣).

وقد جرت تلك المعركة سنة ٦٢٣ هـ/١٢٢٦م وازداد أتباع مرغم اثر ذلك وطمع في انتزاع الملك من الأ يوبيين، وسار إلى ذروان التي كان قد لجأ إليها ابن رسول بعد هزيمته وحاصرها فاستنجد بأخيه بدرالدين في صنعاء. وعندما علم أفراد القبائل المنضمة للصوفي بقدوم بدرالدين تفرقوا عنه، واكتشفوا كذبه وخداعه فهرب متنقلا من بلد لآخر(٤).

وانتهز الأشراف بزعامة عزالدين محمد بن حمزة فتنة مرغم الصوفي وحاولوا الاستيلاء على صنعاء، ولكن نورالدين وأخاه بدرالدين سارا بعد القضاء على مرغم لنجدة صنعاء التي استبسل بنوحاتم في الدفاع عنها. وعندما علم عزالدين بقدومهما لجأ إلى جبل عقر حيث دارت المعركة بينهما هناك، ورتب الأمير بدرالدين قواته إلى جناح أيمن وجناح أيسر، ووقف هوفي القلب، وجعل أصحاب النشاب في المقدمة، وحضهم على الثبات والقتال والتفت فيهم يمينا و يسارا وقال: «هي هي، فقالوا: هي هي» وكان هذا شعاره في عسكره، وتقاتل الفريقان قتالا شديدا انتصر فيه الرسوليون على الأشراف، وأصاب عزالدين نبلة في عينه وولى اتباعه هربا، فقتل منهم في الهريبة أكثر مما قتل في القتال(٥).

وكان بدرالدين قد أبلى بلاء حسنا حتى يقال إنه كسر ثلاثة رماح وانكسر سيفه وصرع فارسا بفارس(٦)، وحصلوا على غنائم كبيرة ثم عاد إلى صنعاء ليجد جماعة من أهلها قد كاتبوا عزالدين يؤيدونه فشنقهم(٧).

---

(١) ابن حاتم: المرجع السابق ص ٩٧أ ابن تغري بردى: المنهل الصافي جـ١ ص ٣٩ ب، العصامي: سمط النجوم ص ٤٧٨

(٢) ابن حاتم: السمط ص ٩٧أ، المقريزي: الذهب المسبوك ص ٧٨، ابو المحاسن حوادث الدهور ص ٣٧٤

(٣) الخزرجي: العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٣٣ — ٣٤

(٤) نفس المرجع والجزء ص ٣٤

(٥) الخزرجي: العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٣٤ — ٣٥

(٦) نفس المرجع والجزء ص ٣٥

(٧) ابن حاتم: المرجع السابق ص ١٠٢ب — ١٠٣أ

وقد توفى عزالدين محمد متأثرا بجراحه سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦م فأقاموا أخاه شمس الدين محتسبا بعده(١).

وعلى إثر القلاقل التي سادت اليمن بعد عودة المسعود إلى مصر خشى الأ يو بيون عليها وكان أكثر خوفهم من بني رسول الذين ارتفع صيتهم بعد معركة عصر، لذا قرر المسعود العودة إليها فوصلها في صفر سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٧م وعمل على التخلص من أبناء رسول فقبض على بدرالدين، وأخيه فخرالدين، وأرسلهما تحت الحيطة إلى مصر(٢).

أما أخوهم الرابع نورالدين فقد اختص به المسعود، ووثق به ثقة مطلقة، لذا قلده أمور اليمن، وأخذ يستعد للعودة إلى مصر بعد وفاة والي دمشق عمه الملك المعظم عيسى فأرسل إليه والده السلطان الكامل يعلمه بذلك و يطلب إليه الحضور ليوليها له(٣) ففرح بذلك فرحا شديدا.

وقد ولى نورالدين على اليمن وقال له: «قد عزمت على السفر، وقد جعلتك نائبي في اليمن، فإن مت فأنت أولى بملك اليمن من إخوتي لأنك خدمتني وعرفت منك النصيحة والاجتهاد. وإن عشت فأنت على حالك. إياك أن تترك أحدا يدخل اليمن من أهلي، ولو جاءك الملك الكامل والدي مطو يا في كتاب فإذا ألح عليك أعلمتني حتى اجتمع أنا وعمي الأشرف عليه ونحار به ونشغله»(٤).

وجمع المسعود أموالا كثيرة، وسار عائداً إلى مصر فأصيب بالفالج، وعندما وصل مكة اشتد مرضه، ومات ودفن بمقبرة بالمعلاة(٥) أما حاشيته وأولاده فقد تمكن الأمير حسام الدين «لؤلؤ» من العودة بهم إلى مصر وتسلمهم أبوه السلطان الكامل الذي حزن حزناً شديداً على وفاة ولده حتى إنه لبس البياض(٦).

انتهاء الحكم الأ يوبي في اليمن وقيام دولة بني رسول:

كان بنو رسول يتطلعون إلى ملك اليمن ولكنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئا في الفترة السابقة بسبب قوة الدولة الأ يوبية، وقوة الملك المسعود الذي نظم أمورها. كما كان الأ يو بيون على استعداد لإرسال الحملات إليها كلما شعروا بخطر يتهددها. وكان آخر تلك الحملات حملة المسعود الذي توفي في طريق عودته لمصر لينتهي الحكم الأ يوبي رسمياً في اليمن، ولم يستطع الأ يو بيون إرسال حملات جديدة بسبب ما أصاب الدولة من ضعف وانحلال داخلي، و بسبب الصراع الدامي بين الأ يو بيين في مصر والشام. و بسبب التهديدات والأخطار الخارجية المتمثلة في الصليبيين والخوارزميين الذين كانوا يذكون نار الفتنة بين الأ يو بيين علها تتاح لهم الفرصة للانقضاض على

(١) زيارة: أئمة اليمن جـ١ ص ١٤٨، العرشي: بلوغ المرام ص ٤٤
(٢) بامخرمة: تاريخ ثغرعدن جـ٢ ص ١٧٥
(٣) سبط بن الجوزي: مرآة الزمان جـ٨ ص ٦٥٨، ابن ايبك: كنز الدررص ٢٤١، الذهبي: سير النبلاء جـ١٣ ص ٤٠٣
(٤) الخزرجي: العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٤٠ ــ ٤١
(٥) المقريزي: الذهب المسبوك ص ٧٨، النو يري: نهاية الأ رب جـ٣١ ص ٤٢
(٦) ابن ايبك: كنز الدررص ٢٤١

دولتهم وإسقاطها(١). واستمرت محاولات الصليبيين حتى سقوط الدولة الأيوبية وقيام الدولة المملوكية عندما جاءت الحملة الصليبية السابقة بقيادة لويس التاسع وهزمتها شجرة الدر وتوران شاه في المنصورة.

وقد شجع نورالدين على الاستقلال باليمن تهاون الملك المسعود وتوصيته إياه بعدم السماح لأحد من أهله دخول اليمن غيره.

وكان نورالدين رجلا ذكيا عاقلا، فلم يعلن استقلاله باليمن بعد وفاة المسعود مباشرة بل تريث حتى لايستثير الملك الكامل و يدفعه بالرغم من كل المشاكل التي كان يواجهها إلى إرسال حملة إليه للقضاء عليه. وأعلن ولاءه للأيوبيين وطاعته لهم وأنه نائب عنهم بها(٢). ولإثبات إخلاصه وولائه قام بإرسال الأموال والهدايا القيمة إلى السلطان الكامل(٣). ولم يغير شيئا في الخطبة أو السكة بل أبقاهما على حالهما. وإن كان في حقيقة الأمر قد بدأ يعمل على الاستقلال(٤).

وقد أخذ نورالدين يولي أتباعه في الحصون والقلاع و يعزل من يخشى معارضته أو عصيانه(٥) وكان لايتوانى لحظة في إنزال اقسى العقوبات فيمن حاول مخالفته أو معاداته، وفي نفس الوقت كان شجاعا كريما لايمل الحرب والقتال ذا حلم ودهاء(٦).

وعندما علم بوفاة المسعود رتب أمور تهامة التي أصبحت موالية له، واخضع عدن وتعز وحصن التعكر وخدد، ثم دخل صنعاء سنة ٦٢٧ هـ/١٢٣٠م دون قتال ثم أخذت حصون اليمن تخضع له الواحد تلو الآخر، ثم عقد صلحا مع الأشراف أقرهم على البلاد التي تحت أيديهم بعد أن تعهدوا بمساعدته إذا جاء الأيوبيون لقتاله(٧).

وفي أواخر سنة ٦٢٨ هـ/١٢٣١م أعلن نورالدين استقلاله باليمن عن الدولة الأيوبية التي ظل يتظاهر لها بالتبعية والولاء حتى مكن لنفسه، وتلقب بالملك المنصور(٨).

ورغم ذلك فقد بقيت السكة والخطبة باسم الأيوبيين حتى قطعها سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٣م. فخطب لنفسه باليمن وضربت السكة باسمه، وليضفي على حكمه صفة الشرعية أرسل سنة ٦٣١ هـ/١٢٣٤م إلى الخليفة المستنصر بالله العباسي ببغداد يخبره باستقلاله باليمن، وطاعته للخليفة

---

(١) الباز العريني: مصر في عصر الأيوبيين ص ١١٧
(٢) ابن تغرى بردى: المنهل الصافي جـ١ ص ٤٠
(٣) النويري: نهاية الأرب جـ٢٧ ص ٤٢
(٤) ابن تغرى بردى: حوادث الدهور ص ٣٧٥، يحيى بن الحسين: أنباء الزمن ص ٧١
(٥) ابن تغرى بردى: المنهل الصافي جـ١ ص ٤٠أ، الفاسي: العقد الثمين جـ٦ ص ٣٤٢
(٦) الخزرجي: العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٤٦، الفاسي: المرجع السابق والصفحة
(٧) ابن حاتم: السمط ص ١١٠ب، الخزرجي: العسجد ص ٢٢٧. ابن الديبع قرة العيون ص ١٢٣
(٨) الكبسي: اللطائف ص ٣٩ب زبارة: أئمة اليمن جـ١ ص ١٤٩، العرشي: بلوغ المرام ص ٤٦

و يطلب منه تقليده السلطنة(١) .

فأجابه الخليفة إلى طلبه وأرسل إليه التشريف والخلعة في البحر عن طريق البصرة سنة ٦٣٢ هـ/١٢٣٥م مع أحد مماليكه ، وكان السلطان في ذلك الوقت في الجند فسار إليه الرسول وصعد المنبر وقال : «يانورالدين ، الديوان السعيد يقرئك السلام و يقول : قد تصدقنا عليك باليمن ، وألبسه الخلعة على المنبر»(٢) .

و بذلك قامت الدولة الرسولية على أنقاض الدولة الأ يو بية باليمن ولم يكتف بذلك بل نافس الأ يو بيين على حكم مكة .



(١) ابن حاتم : السمط ص ١١٢ ب ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٥٤ ، النو يري : نهاية الأ رب جـ٢٧ ص ٤٢

(٢) الفاسي : العقد الثمين جـ٦ ص ٣٤٣

الباب الثاني

الحياة الاقتصادية في الحجاز واليمن في العصر الأيوبي

سنحاول في هذا الباب أن نلقي نظرة على الحياة الاقتصادية في الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، وسنهتم بالأعمدة الأساسية التي يرتكز عليها الاقتصاد وهي:

الزراعة - الصناعة - التجارة

الفصل الأول : في الحجاز .

الفصل الثاني : في اليمن .

الفصل الأول
الحياة الاقتصادية في الحجاز

الزراعة:

الملاحظ على تضاريس شبه الجزيرة العربية بصفة عامة والحجاز بصفة خاصة انه يغلب عليها الجبال والصحارى التي تتخللها الأودية التي تجف صيفا ولا يوجد بها أنهار جارية، مما يجعل الأهالي يعتمدون في الزراعة على مياه الأمطار، أو على الآبار والعيون التي توجد هنا وهناك، فتقوم حولها القرى والحدائق والبساتين، كما هو الحال بالنسبة للطائف، و بطن مر، ونخلة، وعسفان، و بدر، وغيرها.

لذلك فإن الحاصلات الزراعية في الحجاز لا تكفي حاجة سكانه أو من يأتيه سنويا لأداء العمرة أو فريضة الحج، وزيارة قبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) وقبور أصحابه (رضي الله عنهم) ومشاهدة مكة والمدينة.

أما بالنسبة إلى الزراعة بمكة فنجدها تكاد تكون معدومة ومحاصيلها قليلة جدا لا تكفي بأي حال من الأحوال حاجة سكانها، ناهيك عن آلاف الحجاج الذين كانوا يأتونها سنويا، لذلك اضطروا إلى جلب ما يحتاجون إليه من المناطق المجاورة كالطائف و بطن مر وغيرهما، كما كان الحجاج في الغالب يجلبون ميرتهم معهم من بلادهم.

أما الذي كان يخفف الأزمات الاقتصادية في مكة فكان: ما يجلبه معهم سرو اليمن الذين كانوا يأتون إلى مكة مرتين في السنة لأداء العمرة والحج، فكانوا يغمرون مكة بالبضائع والسلع مما كان يؤدي إلى رخص الأسعار بها، كما كانت مصر ترسل مساعدات سنوية لمكة، منها ما كان أموالا ومنها ما كان مواد تموينية.

أما بالنسبة إلى نظرة الرجل العربي للزراعة فقد تبدلت عما كانت عليه في العصر الجاهلي عندما كان يأنف العمل بالزراعة أو الصناعة وكان يفضل عليهما حرفتي التجارة والرعي. أما في العصر الإسلامي فأخذ يمارس الزراعة يساعده الخدم والعبيد مقابل ربع غلة المحصول(١).

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٥، ص ٨٢ لوبون: حضارة العرب ص ٣٥٠

أما الوسائل التي استخدمها العربي في الزراعة في العصور الوسطى فقد كانت بدائية تتماشى وأحوال العصر الذي نتحدث عنه فاستخدم في حرث الأرض المحراث اليدوي الذي كانت تجره الجمال أو الأبقار، أو الحمير. أما البذور فكان يبذرها باليد ثم ينتظر سقوط الأمطار لينمو المحصول ـ وكان يسود القحط والجفاف إذا لم تسقط الأمطار أو سقطت بكميات قليلة ـ وعندما ينضج المحصول يقوم بحصده يساعده أفراد عائلته وخدمه ثم يجمع المحصول، و يدرسه بواسطة الحيوانات التي كانت تجر لوحاً خشبياً يوجد أسفله بعض قطع الحديد كالسكاكين لدرس المحصول وفصل الحب عن القش وتنعيم القش. و يقوم بعد ذلك بتذريته بمذراة خشبية لفصل الحب عن التبن ويجمع كل منها على حدة.

كما كان يستخدم الفأس في تقليب الأرض لزراعتها بأشجار الفواكه والخضروات وقد استخدم الساقية في ري البساتين وكان يساعده في ذلك الخدم والعبيد. وقد بين لنا ذلك العباسي عند حديثه عن بلدة العوالي فقال: «وهي محفوفة بالحدائق ذات النخيل والآبار العذبة، كثيرة المياه، ترف بساتينها غدارة ونضارة رونق الحضارة. تجري في أكثر النهار مذانب(١) تلك الأنهار المنقادة بالسواقي من الآبار في بساتينها الملتفة النخيل والأشجار، وحدائقها اليانعة الثمار»(٢)

الحاصلات الزراعية في الحجاز:

تنوعت الحاصلات الزراعية في الحجاز في العصر الأيوبي، وكان أهمها: التمور والحبوب، وأشجار الفواكه، والخضروات.

التمور:

كثرت أشجار النخيل بالحجاز و بالذات في منطقة المدينة المنورة، التي كان بها أعداد كبيرة، كما كان بها أحسن أنواع التمور بالحجاز.

وكان أهل المدينة يروون نخيلهم من مياه الآبار التي كان يقوم بنقلها العبيد، وكان المار بشوارعها يعجب من كثرة الأشجار على جانبي الطريق، كأنها غابة ممتدة لانهاية لها. وفي طريق الذاهب إلى قباء ترى أشجار النخيل على الجانبين لمسافة حوالي ثلاثة أميال(٣). وقد وصف القلقشندي المدينة بقوله: «وحول المدينة حدائق النخل الأنيقة وثمرها من أطيب الثمر وأحسنه، وغالب قوت أهلها منه»(٤) كما تمتد أشجار النخيل إلى جبل أحد(٥) الذي يبعد عن المدينة حوالي ستة أميال.

---

(١) المذانب: الجداول «محيط المحيط»

(٢) عمدة الأخبار في مدينة المختار ص ٣٧٥، والعوالي ضيعة عامرة بينها و بين المدينة ثلاثة أميال نفس المرجع والصفحة

(٣) نفس المرجع والصفحة

(٤) صبح الأعشى، جـ٤، ص ٢٨٩

(٥) ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٥، ص ٨٤

وتكثر أشجار النخيل بقرية أم العيال التي ذكر العباسي بأن بها أكثر من عشرين ألف نخلة(١). كما تكثر بالمغسلة وهي من أقرب الحدائق إلى المدينة(٢).

و يوجد في العشيرة نخل كثير، وتعتبر تمورها من أجود تمور الحجاز فيما عدا الصبحاني بخيبر، والبرني، والعجوة بالمدينة(٣). وكذلك بالسرارة التي تحتوي على حديقة كبيرة بها أشجار النخيل، وتتميز بوجود شجرة مائلة بها يقال انها انحنت للرسول (صلى الله عليه وسلم) عندما أراد أن يأكل منها، وما زال الناس يتبركون بها، و يشترون ثمارها بأغلى الأثمان رغم أنه ليس من التمر الجيد، بل من الأوسط المسمى وحشيا. وكانت تلك الحديقة في العصر الأيوبي ملك الأشراف آل شاهين الحميضيين، وهم من الأشراف المناصير الوحاحدة الحسينيين(٤).

و يكثر النخيل بالصفراء لكثرة العيون بتلك المنطقة التي تصب في ينبع(٥). كما يوجد في ينبع، ووادي خلص(٦)، وفي خيبر التي كانت آنذاك ملكا لبني عنزة(٧)

و يعتقد من يزور المدينة أن في تمرها شفاء للسقم، كما كان غبارها شفاء للجذام. و يقول العباسي نقلا عن ابن زبالة وغيره: «من تصبح بتسع تمرات من العجوة من العالية لم يضره يومئذ سم ولا سحر، ولمسلم حديث: من أكل سبع تمرات عجوة لم يضره في ذلك اليوم سم ولا سحر. ولمسلم ان في عجوة العالية شفاء، وانها ترياق أول البكرة.. واعلموا أن الكمأة دواء العين وأن العجوة من فاكهة الجنة.. وهي شفاء من السم(٨).

و بالاضافة إلى منطقة المدينة توجد التمور في مختلف أنحاء الحجاز فيكثر في: قرية معدن البرم(٩) ذات المياه الوفيرة المستمدة من الآبار، كما يكثر بالفرع(١٠)لوجود عينين للماء يقال لهما الربض والنجف يسقيان عشرين ألف نخلة.

كما يوجد في نخلة محمود، و يكثر في نخلة الشامية أو ذات عرق(١١).كذلك يوجد في حده(١٢)

---

(١) العباسي: عمدة الأخبار، جـ٥، ص ٢٤١، وأم العيال: عين عليها قرية صدقة فاطمة الزهراء أصبحت فيما بعد لبني الحسن

(٢) نفس المرجع والجزء صفحة ٤٢٠، والمغسلة: جبانة في طريق المدينة يغسل فيها وهي غرب بطحان

(٣) العباسي: عمدة الأخبار، جـ٥، ص ٣٧١، والعشيرة: تصغير عشرة من العدد أو تصغير واحدة العشر للشجر المعروف. وهي حصن صغير بين ينبع وذي المروة وذو العشيرة من أودية العقيق

(٤) نفس المرجع والجزء ص ٣٣٤، والسرارة حديقة عند قباء

(٥) ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٣، ص ٤١٢

(٦) خلص: موضع بآره بين مكة والمدينة. وهو واد فيه قرى ونخل «ياقوت: المرجع السابق، جـ٢، ص ٣٨٢ــ ٣٨٣»

(٧) ابوالفدا: تقويم البلدان، ص ٨٩ وخيبر: من الحجاز في الجهة الشمالية الشرقية من المدينة

(٨) عمدة الأخبار، جـ٥، ص ٤٤٦ ــ ٤٤٨

(٩) معدن البرم: قرية بين مكة والطائف لبني عقيل «ابن عبدالحق: مراصد الاطلاع جـ٣، ص ١٢٨٧»

(١٠) الفرع: قرية من نواحي الربذة عن يسار السقيا، بينها و بين المدينة ثمانية برد على طريق مكة «نفس المرجع والجزء، ص ١٠٢٨»

(١١) نخلة محمود: موضع بالحجاز قريب من مكة وهي المرحلة الأولى للصادر من مكة، أما الشامية التي تسمى ذات عرق فهي أعلى نخلة وهي لبني سعد بن بكر «نفس المرجع والجزء، ص ١٣٦٤

(١٢) حدة: منزل بين جدة ومكة في وسط الطريق «ياقوت: معجم البلدان، جـ٢، ص ٢٢٩

لوجود عين ماء بها ، و يوجد بكميات كبيرة في بيشة وفي العرض(١) ، وفي تبوك(٢) ، والعقيق(٣).

و يوجد بكميات قليلة في مكة حيث يعملون منه الرطب ، وهي غاية في الطيبة واللذة ، وكان المكيون عندما يطيب يبسطونه على الأرض حتى يجف قليلا ، و يرصونه في سلال فوق بعضه البعض و يرفعونه(٤). كما يوجد في مناطق أخرى متفرقة من الحجاز.

و يعتبر التمر الغذاء الرئيسي لسكان الحجاز بصفة خاصة وسكان شبه الجزيرة العربية بصفة عامة.

أما أنواع التمر في الحجاز بصفة عامة وفي المدينة بصفة خاصة فهي: الصيحاني: الذي يقال ان الرسول (صلى الله عليه وسلم) عندما مر بأشجار النخيل بالقرب من المدينة وكان معه على بن أبي طالب (رضي الله عنه) صاح: « هذا محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم ، وهذا علي سيف الله) ، فالتفت النبي (صلى الله عليه وسلم) وقال لعلي: سمه الصيحاني ، فسمي بذلك ، و يكثر وجوده بمنطقة الحائط بالمدينة(٥).

العجوة: وهي نوع من التمر أكبر من الصيحاني ويميل إلى السواد(٦). ومن أنواع التمر العديدة الأخرى: البرني ، والطبرجلي ، والشلبي ، والحلوة ، وحلوة ريحاني ، والسكري ، وقصب السكر ، والحلي ، والغريس ، والجعفري السقوي ، والجعفري البعلوي ، والجادي ، وفرخ جادي ، والغدق ، والوحشي ، والبيض ، والغارب ، والبردي ، والحبشي ، والوزن الحمصة ، وفسبه ، والشبهانة ، والقيساني ، والوازن ، والجوز ، والمصيص ، والعاوي ، وتارجة ، ورباعيه ، وزعبلي ، وصفر الجيل ، وأبو حمار ، و براطم العبيد ، و بذنجان ، وسمنة ، ومجهولي ، والمنشارة ، وخطرية ، وسنة ، وأبو لبن ، وأم نمه ، وأم البنين ، و بربر أسود ، و بربر أصفر ، وحشر مطوق ، وخشر مدرع ، وخشر مكرم ، والظفيرات ، وهي ثلاثة أنواع: حمر وصفر وسود ، والثنينة ، والرمادي ، والعسفاني ، والكبيشي ، والسواد ، والبرقان ، والقطارات ، والشقرى ، ولسان الطير ، والقرن ، والحزر ، وشرشور ، وحمرى ذبالي ، وعنتري ، والمسكاني ، والكياث ، والمورد ، والخف ، والمرطابه ، والعذر ، والجنة ، والعظامية ، والدبانة ، والطبية ، والسارية ، ولونه بركة ، واللبانة ، وأصابيع الغولة ، والشعيرية ، والمسوكة ، والجوهرة ، وحمامة ، والشمعة ، والزهرة ، وفخارة ، والسنقرية ، والمشاطة ، والكعكة ، والروثة ، وجلية أبي صالح ، والفتوتة ، والبنوتة(٧).

---

(١) العرض: بكسر أوله وسكون ثانيه وآخره ضاد معجمة: أخصب أعراض المدينة «نفس المرجع ، جـ٤ ، ص ١٠٢»

(٢) تبوك: بين الحجر وأول الشام ، على نحو اربع مراحل ، نحو نصف طريق الشام «الاصطخرى: الأقاليم ، ص ١١»

(٣) العقيق: بفتح أوله وكسر ثانيه وقافين بينهما مثناة من تحت: ناحية المدينة «ياقوت المرجع السابق والجزء ، ص ١٣٨»

(٤) ابن جبير: الرحلة ، ص ٨٩

(٥) العباسي: عمدة المختار ، جـ٥ ، ص ٤٤٨

(٦) نفس المرجع والجزء والصفحة

(٧) العباسي: عمدة المختار ، جـ٥ ، ص ٤٤٨ ــ ٤٤٩

الحبوب:

يزرع في الحجاز من الحبوب: القمح، والشعير، والذرة، والسلت[1].

أما القمح فنظراً لأنه يحتاج إلى كمية أكبر من المياه ــ من الشعير والذرة ــ لذا فإنه يزرع في المناطق الأكثر مطرا في الحجاز أو على مياه العيون كالطائف، و بطن مر، وآدم[2] ونخلة، وخيبر[3].

أما الشعير والذرة اللذان يحتاجان إلى كميات أقل من المياه، فإنهما يزرعان في المناطق السابق ذكرها في زراعة القمح، بالاضافة إلى ضواحي مكة والمدينة و ينبع، وتبوك، ونواح أخرى متفرقة من الحجاز[4].

و يكثر أهل الحجاز من زراعة الذرة لأنها تعتبر الغذاء الرئيسي للسكان[5] و يليها الشعير، وأقلها القمح، الذي يحتاج إلى كميات كبيرة من المياه والتي لا تتوفر بالحجاز.

الفواكه:

وجدت بالحجاز عدة أنواع من الفواكه والتي كان أهمها كما أوضحنا التمور، التي كانت تعتبر من المواد الغذائية الأساسية للسكان. وإلى جانب التمور يوجد بالحجاز: العنب، والموز، والتفاح، والرمان والتين، والخوخ، واللوز، والجوز، والسفرجل، والبرتقال، والليمون.

وتكثر هذه الفواكه في منطقة الطائف لاعتدال مناخها لأنها ترتفع عن مستوى سطح البحر بحوالي ألف وستمائة وخمسين مترا ــ وكثرة أمطارها بالنسبة إلى باقي مناطق الحجاز، وكثرة العيون والآبار بها. كما تكثر في آدم و بطن مر ونخلة وعسفان وخليص والمدينة المنورة، و ينبع والمروة وغيرها[6].

الخضروات:

تزرع حيث تكثر المياه، وتكثر في المناطق التي تكثر بها زراعة الفواكه، وأهم أنواعها بالحجاز: البطيخ، والقثاء، والخيار، والباذنجان، والجزر، والملوخية، والكرنب، واليقطين، كما تزرع بعض أنواع البقوليات: كالفول، والبازلاء، والحمص، واللوبيا، والبصل، والثوم، والفجل،

(١) السلت: الشعير بعينه أو ضرب منه، أو هو الشعير الحامض، وقال الليث: السلت شعير لا قشر له أجرد.. وكأنه الحنطة يتبردون لسويقه في الصيف. الدمياطي: معجم أسماء النباتات ص ٧٣

(٢) آدم: موضع على بعد يوم من مكة يسمى بطن الطائف «ابن جبير: الرحلة ص ٨٨»

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، حـ٤، ص ٤٤٧

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص ٤٤٧

(٥) القلقشندي: المرجع السابق والجزء والصفحة

(٦) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ٧٩ــ ٨٤، والمروى من مدن خيبر. راجع أيضا: لوبون: حضارة العرب، ص ٤٢ــ ٤٣

والكرات[1].

وقد وصف ابن جبير وابن بطوطة الفواكه والخضروات التي كانت توجد بمكة، والتي تجلب إليها من المناطق المجاورة لها بأنها من أفضل الأنواع وان لها مذاقا خاصا يفضل أي مذاق آخر لنفس النوع في أي مكان آخر و يقولان: بأن للبطيخ من الفضل خاصية عجيبة، وأن له رائحة شبه عطرية «يدخل به الداخل عليك فتجد رائحته العبقة قد سبقت إليك، فيكاد يشغلك الاستمتاع بطيب رياه عن أكلك إياه، حتى إذا ذقته خيل إليك أنه شيب بسكر مذاب، أو بجني النحل اللباب»[2].

الرياحين:

أهم رياحين الحجاز: التامر حناء التي تسمى عندهم الفاغية[3] والسنا المكي، وهو نبات كالحناء له زهر مائل إلى الزرقة وحبه مفرطح إلى الطول، ومنه نوع عريض الأوراق أصفر الزهر[4].

الأشجار:

توجد بالحجاز أشجار الجميز **والطلح**[5]، والمرّان[6]، وهو شجر يتخذ منه الرماح[7]، كما تنمو في جبال مكة بعض أشجار **الضهباء**[8].

وما دمنا بصدد الحديث عن الزراعة بالحجاز يجدر بنا أن نلقى بعض الضوء على ثرواته الحيوانية والسمكية.

الحيوانات:

من الحيوانات التي تكثر بالحجاز: الإبل، والضأن، والماعز. أما الأبقار فقليلة لعدم توفر الأعشاب اللازمة لها. كما توجد به الخيول العربية الأصيلة التي وصفها القلقشندي بقوله: «وبه من الخيل ما يفوق الوصف حسنه، و يعجز البرق إدراكه»[9].

وتعتبر الإبل والخيل من أكثر الحيوانات نفعا للإنسان بصفة خاصة، وفي شبه الجزيرة العربية والوطن العربي بصفة عامة لاعتماده عليهما في تنقلاته وحروبه.

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص ٢٤٧ــ٢٤٨

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص ٨٧، ابن بطوطة: الرحلة، ص ١٣٢

(٣) القلقشندي: المرجع السابق والجزء، ص ٢٤٨

(٤) لوبون: حضارة العرب، ص ٤٣

(٥) الطلح: شجر عظيم حجازي له شوك أحجن وهو أعظم العضاه شوكا، وأصلبها عودا، وأجودها صمغا «معجم اسماء النبات، ص ٩٤»

(٦) المران: مفرده مرانة، والمران نبات الرماح، وهو شجر باسق «المرجع السابق، ص ١٤٢

(٧) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص ٢٤٨

(٨) الضهباء: شجر كالطلح يكثر في جبال مكة «ياقوت معجم البلدان، جـ٢، ص ٢٣٤

(٩) القلقشندي: المرجع السابق والجزء والصفحة

والجمل أفضل الحيوانات على الإطلاق لأنه لايمكن قطع الصحاري العربية الشاسعة إلا به ، لذا أطلق عليه اسم «سفينة الصحراء» لقدرته الفائقة على تحمل الجوع والعطش ، كما أنه يأكل مختلف أنواع النباتات و بالذات الشوكية منها التي تنمو في الصحراء(١) . و يوجد بالحجاز حيوانات برية : كالغزلان ، وحمر الوحش ، والثعالب ، والأرانب ، وغيرها(٢) .

هذا ويجتاح شبه الجزيرة العربية بما فيها الحجاز الجراد الذي يخشاه السكان أكثر من الحيوانات الضارية لأنه يأتي على الأخضر واليابس ، إلا انه لا يخلو من بعض الفائدة ، إذ يعتبر غذاء المسافرين في البادية(٣) .

الطيور:

أهم الطيور الموجودة في الحجاز هي: الحمام و بالذات البازي(٤) ، والعادي ، والدجاج ، والحدأة ، والرّخم(٥) ، كما يقوم السكان بتربية النحل الذي يأخذون منه عسلا غاية في الطيبة يعرف لديهم بالمسعودي(٦) .

وقد وصف ابن جبير لحوم الحجاز ومكة بصفة خاصة بقوله : «وأما لحوم ضأنها فهناك العجب العجيب ، قد وقع القطع من كل من تطوف على الآفاق وضرب نواحي الأقطار أنها اطيب لحم يؤكل في الدنيا ، وما ذاك والله أعلم إلا لبركة مراعيها ، هذا على إفراط سمنه ، ولو كان سواه من لحوم البلاد ينتهي ذلك المنتهى في السمن للفظته الأفواه زهما ، ولعافته وتجنبته ، والأمر في هذا بالضد كلما ازداد سمنا زادت النفوس فيه رغبة ، والنفس له قبولا ، فتجده هنيئا ، رخصا ، يذوب في الفم قبل أن يلاك مضغا ، وليسرع لخفته عن المعدة انهضاما»(٧) .

الأسماك:

مما يؤسف له أن المصادر والمراجع التي اطلعت عليها لم تتحدث عن الثروة السمكية في الحجاز في ذلك العصر ، سوى نص واحد وجدناه في كتاب مراصد الاطلاع لابن عبدالحق عند تعريفه لجبل شوران إذ يقول : «جبل عن يسارك وانت ببطن عقيق المدينة تريد مكة ، وهو جبل مطل على السد مرتفع وفيه مياه سماء كثيرة ، وفي كلها سمك أسود قدر الذراع من أطيب سمك يكون»(٨) .

(١) لو بون : حضارة العرب ، ص ٤٣
(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ، جـ٤ ، ص ٢٤٨
(٣) لو بون : المرجع السابق والجزء والصفحة
(٤) البازي : نسبة إلى بلد بالسودان وراء سواكن يجلب منه الحمام البازي إلى مكة «ياقوت معجم البلدان ، جـ١ ، ص ٣٢١
(٥) الرخم : طائر من فصيلة النسور ريشه أبيض ممزوج بسواد وشقرة يكثر في بلدان عديدة من المتوسط و يتغذى باللحوم «المنجد ، ص ٢٥٤»
(٦) ابن جبير: الرحلة ، ص ٨٧ .
(٧) ابن جبير: الرحلة ، ص ٨٧
(٨) مراصد الاطلاع ، جـ٢ ، ص ١٣٣ «طبعة بريل»

ولاشك أنهم كانوا يصطادون أنواعاً أخرى من الأسماك الموجودة بالبحر الأحمر الذي تمتد شواطئه من جنوب الحجاز إلى شماله كالكنعد والبوري والسردين والبياض والقرش وغيرها .

الصناعة والمعادن في الحجاز:

كانت الصناعة في مختلف أنحاء العالم في العصور الوسطى صناعة يدو ية و بدائية ، و ينطبق ذلك على الحجاز في العصر الأ يو بي حيث كان الانسان يعتمد على جهده وطاقاته وعضلا ته .

ونظرا لأن الحياة التي كانت سائدة في الحجاز وفي شبه الجزيرة العر بية يغلب عليها البداوة ، لذا لم تتقدم الصناعة بها تقدما ملحوظا لأن الصناعة تحتاج إلى الاستقرار وتوفر المواد الخام الأ ولية ــ المعدنية منها والزراعية ــ كما تطلب كثرة الأسواق والمستهلكين ، وهذا مالايتوفر في الحجاز، لذا بقى تطور الصناعة في الحجاز جامدا عما كان عليه منذ العصور القديمة . ناهيك عن ان الحجازيين ورثوا عن آبائهم واجدادهم كرههم وازدراءهم لمهنة الصناعة ، واحتقارهم لمن يعمل فيها على اعتبار انها من الحرف الوضيعة . ورغم ذلك فقد وجدت بالحجاز بعض الصناعات مثل :

صناعة الأسلحة :

قام الحجازيون بصناعة بعض أنواع الأسلحة اللازمة للقتال ، مثل صناعة السيوف في مكة والمدينة ، والسهام التي كانت تصنع برقم المدينة ، أو برقم غطفان بالقرب من مكة ، والتي تنسب إليهما السهام الرقميات(١) .

صناعة الذهب :

نظرا لتوفر خام الذهب بالحجاز بالقرب من المدينة المنورة ، فقد عرف الحجازيون صناعة الحلي من الذهب حيث كانت تتزين به النساء ، وتفننوا في عمل اشكال مختلفة من العقود والأسوار والخواتم والخلاخيل . حتى لقد كان بزهرة احدى قرى المدينة حوالي ثلا ثمائة صائغ(٢) .

وقس على ذلك كم كان منهم بالمدن الكبرى كمكة والمدينة والطائف وغيرها .

صناعة البناء :

لم يكن للعرب في الأ زمان السابقة معرفة بصناعة البناء لأنهم كانوا يعيشون عيشة البداوة والتنقل ، وإذا ما احتاج زعماؤهم إلى بناء القصور كانوا يستعينون بمهندسين و بنائين من الروم ــ كما كان يحدث في العصر الجاهلي ــ ولكنهم تعلموا هذه الصناعة بعد الإسلام ، واصبحت مبانيهم معظمها بالحجارة لوفرتها بالحجاز(٣) أو بالآجر الذي كانوا يصنعونه في مكة . ونظرا لقرب

---

(١) رقم : بفتح أوله وثانيه . موضع بالمدينة والرقم جبال دون مكة بديار غطفان « ياقوت : معجم البلدان جـ٣ ص ٥٨ »

(٢) العباسي : عمدة الاخبار جـ٥ ص ٣٣١

(٣) ياقوت : معجم البلدان جـ٢ ص ٣٩٢

المحاجر بمكة كمحجر جبل خندمة(١) وجبل الهيلاء(٢). فقد أدى ذلك إلى انتشار البيوت المبنية بالحجر في مكة، كما بنيت مساكن المدينة والطائف و ينبع وجدة وغيرها من مدن الحجاز بالحجارة التي كانت تؤخذ من الجبال المجاورة لها(٣). وإن كنا للأسف لم نستطع معرفة اسماء الجبال التي كانت تؤخذ منها حجارة البناء بتلك المناطق لقصور المصادر التي بين أيدينا عن ذلك.

أما مساكن الاعراب فكانت في الغالب تصنع من شعر الماعز الذي كان تنسجه النسوة لأنه يسهل نقله معهم أينما ساروا أو رحلوا، ولايزال يستخدمه البدو في الصحراء العربية إلى يومنا هذا.

كما كانت النسوة تصنع بعض الملابس الصوفية، لأنه كان من الواجب على المرأة العربية أن تعرف الغزل. ومن كانت تتعالى منهن عن ذلك، وتترك لخادماتها القيام بما يجب أن تقوم به، كان يسميها العرب الخرقاء(٤).

صناعات متفرقة:

عرف العرب في الحجاز بعض الصناعات اليدوية الأخرى، كصناعة: القطران الذي كان يؤخذ من شجرة تسمى غربه، متوفرة بالحجاز(٥).

كما عرفوا صناعة المسان، لتوفر حجارتها في منطقة جبل رضوى حيث كانوا يقطعونها و يشذبونها، و يقومون بتصديرها إلى مختلف الانحاء(٦).

كما صنعوا الرحى لطحن الغلال في المنازل وذلك لتوفر حجارتها في الحجاز (٧)وعرفوا كذلك صناعة الأدوات الفخارية لحفظ مياه الشرب فيها، وصنعوا بعض الأواني من الفخار لاستخدامها في الطهي(٨).

كما عرفوا صناعة دبغ الجلود لعمل النعال التي كان يستخدمها الرجال(٩) وما زالت شائعة في الحجاز إلى يومنا هذا.

---

(١) خندمة: بفتح أوله. جبل بمكة «ياقوت: المرجع السابق والجزء والصفحة»

(٢) هيلاء: بالمد، والهيل: الرمل الذي يثبت مكانه حتى ينهال و يسقط، وقال عرام: من جبال مكة جبل اسود مرتفع يقال له الهيلاء تقطع منه الحجارة للبناء والارحاء «ياقوت: المرجع السابق جـ٥ ص ٤٢٢»

(٣) ياقوت: المرجع السابق والجزء والصفحة

(٤) ابوزيد شلبي: تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٣٠

(٥) غربة: بالتحريك كأنه واحد من شجر الغرب وهو الخلاف: وقال أبوزياد: الغرب واحده غربة وهي شجرة ضخمة شاكة خضراء يؤخذ منها القطران، تكون بالحجاز «ياقوت: معجم البلدان جـ٤ ص ١٩٢»

(٦) ابوالفدا: تقويم البلدان ص ٨٨ — ٨٩، ورضوى جبل قرب ينبع يطل عليها من شرقيها

(٧) لوبون: حضارة العرب ص ٤٣

(٨) نفس المرجع ص ٤٤

(٩) نفس المرجع

المعادن بالحجاز:

وجد بالحجاز عدة معادن منها ماهو ثمين كالذهب والأحجار الكريمة والفضة ومنها معادن عادية، كالحديد والنحاس(١).

و يقول ياقوت الحموي «إن معدن النقرة ــ الذهب ــ في الطريق من المدينة إلى البصرة»(٢).

كما يذكر انه يوجد معدن البرام في قدقد بالقرب من مكة .(٣) ومن المعادن التي ذكر انها توجد بالحجاز معدن البورق الذي يوجد في حرة النار بين وادي القرى وتيماء، من ديار غطفان، كان يسكنها بنو عنزة في العصر الأ يو بي(٤).

التجارة في الحجاز في العصر الأ يو بي:

اشتغل العرب في شبه الجزيرة العربية بالتجارة منذ العصر الجاهلي، وكانت من الحرف المفضلة لديهم إلى جانب الرعى، و بعد مجيء الإسلام وتطور الزراعة والصناعة، ازداد نشاط التجارة حتى اشتمل معظم انحاء العالم في ذلك الوقت. وكان للتجار العرب دور هام في هذا النشاط حتى أصبحت موانىء الجنوب العربي والبحر الأحمر تلعب دورا رئيسيا في التجارة العالمية. ولقد أنشأ التجار المسلمون نقابة لهم في العصر العباسي تعتبر أول نقابة في تاريخ البشرية، كانت تعمل على مراقبة المعاملات التجارية ومنع الغش وكان رئيسها ينتخب من بين الأعضاء الأكفاء المعروفين بحسن السيرة، و يسمونه رئيس التجار. كما كان أعضاء النقابة يسمون بالنقباء(٥).

ومع مضى الوقت تبدلت الأمور، و بدلا من قيام النقابة بالمحافظة على حقوق التجار، وعدم استغلالهم، والمحافظة على ممتلكاتهم. ضعفوا أمام سلطان الحكومة وجشعها، حتى أصبح رجالها ــ الحكومة ــ يستغلون التجار أبشع استغلال ولايطبقون ما نصت عليه الشريعة الإسلامية، بل فرضوا عليهم العشور والمكوس، وكثيرا ما كانوا يستولون على ممتلكاتهم.

المكوس:

تعنى المكوس في اللغة الضريبة التي كانت تؤخذ من بائعي السلع في الأسواق الجاهلية(٦). أما في مصطلح مؤرخي العصور الوسطى فكانت تعني كل ما تحصل من الأموال لديوان السلطان، أو

---

(١) نفس المرجع ص ٤٥ . والراجح أنها كانت توجد بمنطقة المدينة حيث ظهرت بها هذه المعادن حديثا

(٢) ياقوت: معجم البلدان جـ٥ ص ٨٨

(٣) نفس المرجع جـ٤ ص ٣١١ وقد قد بالكسر والتكرير: جبل قرب مكة فيه معدن البرام وهو من الجبال الذي لايوصل إلى ذروتها .«راجع أيضا ابن عبدالحق: مراصد الاطلاع جـ٣ ص ١٠٦٨ » .توجد حاليا هذه المعادن في المدينة ولذلك ارجح وجودها هناك في ذلك الوقت

(٤) ياقوت الحموي: معجم البلدان جـ٢ ص ٢٤٨ ، وحرة النار بمعنى النار المحرقة

(٥) سيد أميرعلي: مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي ص ٣٦١

(٦) محيط المحيط

لاصحاب الاقطاعات، أو لكبار موظفي الدولة خارجا عن العشر الشرعي، و يسمونها أيضا المال الهلالي(١). وعرفت هذه الأموال بالمكوس في مصر منذ عصر الدولة الفاطمية.

وكانت تلك المكوس تؤدى أحيانا في عيذاب، أوفي جدة، وكان مقدار المكس على كل شخص سبعة دنانير ونصفاً، وكان المساكين والفقراء، وضعفاء الحال الذين لايستطيعون دفع ذلك المكس يمنعون من آداء فريضة الحج، ولم يقتصر الأمر عند ذلك الحد بل كانوا يعذبون تعذيبا رهيبا بأن كان يعلق الواحد منهم من أنثييه(٢).

وكان محصلو تلك المكوس يؤشرون أمام أسماء من دفع ومن لم يدفع المكس من الحجاج بعيذاب ليحصل منهم بجدة، وإلا فالويل لمن لم يستطع الدفع(٣).

أما ابوشامة فقد قال عن هذا المكس: «كان الرسم بمكة أن يؤخذ من حاج المغرب على عدد الرؤوس بما ينسب إلى الضرائب والمكوس، فإذا دخل حاج حبس حتى يؤدي مكسه، ولا يترك، و يفوته الوقفة بعرفة ولا يدرك»(٤).

ولعل أبا شامة يقصد بحاج المغرب هنا الحجاج الذين يأتون عن طريق جدة أي من جهة الغرب عن طريق عيذاب، سواء كانوا من مصر أو من بلاد المغرب أو من غيرها من دول افريقيا، ومع ذلك لم يذكر لنا كم كان يؤخذ على الحاج.

و يذكر لنا الشيخ عبدالله غازي ان السبب في تعو يض صلاح الدين الأ يو بي لاشراف الحجاز عن المكوس التي كانوا يتقاضونها من الحجاج انه كان قد حج الشيخ علوان الأسدي الحلبي في عهد الأمير مكثر عن طريق جدة.

وعندما وصلها طولب بالرسوم المفروضة، فامتنع عن الدفع، واراد الرجوع من حيث أتى، ولكن القائمين على ذلك الأمر استخدموا معه اللين ولاطفوه، وارسلوا إلى الامير مكثر يخبرونه بالأمر. فأمر بمسامحته، وسار إلى مكة واجتمع مع الأمير مكثر الذي اعتذر له عما بدر من أعوانه، و بين له حاجة أمراء الحجاز إلى مثل ذلك المال الذي لولاه لقاسى أهل الحجاز الأمرين. عندئذ كتب الشيخ الحلبي إلى السلطان صلاح الدين يخبره بالوضع، وأنه يجب تعو يض أمراء مكة عن تلك المكوس المرهقة للحجاج(٥).

---

(١) المال الهلالي: المال الذي يجبى كل شهر عربي من الدور والحوانيت والأفران والطواحين ومصايد السمك ومعاصر الزيت والمراعي وغيرها هذا في مصر (وكذلك كان الحال في الحجاز) راجع د. حلمي سالم: اقتصاد مصر الداخلي وانظمته في العصر المماليكي ص ٢١٧ هامش ١

(٢) المقريزي: السلوك جـ١، قسم ١ ص ٦٤، عبدالله غازي: افادة الأنام ص ٣٤٣

(٣) الفاسي: العقد الثمين، جـ٧، ص ٢٧٧

(٤) الروضتين: جـ٢، ص ٣

(٥) إفادة الأنام ص ٣٤٤

وقد وصف ابن جبير تلك المكوس وجبايتها، وحكام الحجاز كشاهد عيان بأنهم فرق وشيع لادين لهم «قد تفرقوا على مذاهب شتى وهم يعتقدون في الحاج مالا يعتقدون في أهل الذمة. قد صيروهم من أعظم غلاتهم التي يستغلونها، ينتهبونهم انتهابا و يسببون لاستجلاب ما بأيديهم استجلابا. فالحاج لايزال معهم في غرامة ومؤونة إلى أن ييسر الله رجوعه إلى وطنه، ولولا ماتلافى الله به المسلمين في هذه الجهات بصلاح الدين لكانوا من الظلم في أمر لاينادى وليده، ولا يلين شديده، فإنه رفع ضرائب المكوس عن الحاج وجعل عوض ذلك مالا وطعاما يأمر بتوصيلها إلى مكثر أمير مكة، فمتى ابطأت عنهم تلك الوظيفة المترتبة لهم، عاد هذا الأمير إلى ترو يع الحاج، واظهار تثقيفهم بسبب المكوس»(١) وكان حجاج العراق يدفعون العشور في سطح بين وادي نخلة ومكة(٢).

ولم يكن أمير مكة يتهاون في حقه في استحصال ذلك المكس، فمتى تأخرت المعونات التي كانت ترد من مصر، كان يقوم بتحصيلها من الحجاج بمختلف الوسائل اللاانسانية. وكان إذا أراد التساهل معهم يسمح لهم بأن يضمن بعضهم البعض حتى تأتي المعونة «وإلا فهو لايترك ماله قبل الحاج»(٣).

وكأن الحرم ميراث له، ورثه عن أجداده، و بالتالي يحق له أن يؤجره كيفما شاء.

اسقاط المكوس عن الحاج:

كان الحجاج يستفيدون أحيانا من الصراع الذي كان ينشب بين أمراء مكة بإسقاط المكوس عنهم، من ذلك ما حدث سنة ٥٧١ هـ/١١٧٦م عندما كان الصراع محتدما في مكة بين داود بن فليته وأخيه مكثر. وقد قام أمير الحج العراقي طاشتكين ابن عبدالمقتفوى مجيرالدين بمساعدة داود ضد مكثر، وجعله اميرا على مكة بعد أن اشترط عليه اسقاط جميع المكوس عن الحاج، وأخذ عليه العهود المغلظة بعدم اعادتها بل ان يعمل على مساعدة الحجاج والرفق في معاملتهم. فأجابه إلى ذلك(٤).

ولكن مكثراً لم يلبث أن تغلب. على أخيه داود وعاد إلى إمرة مكة واعاد المكوس إلى ما كانت عليه، وتفنن في وسائل التعذيب لاستحصالها. و بلغ ذلك السلطان صلاح الدين الذي كان مشغولا في ذلك الحين في محار بة الصليبيين و يعمل على القضاء على وجودهم في بلاد الشام، فقرر رفع تلك المكوس عن الحجيج، على أن يعوض أمير مكة عنها، وأرسل إليه كتابا يهدده فيه بأنه سيسير إليه إن لم يرفع تلك المكوس على رأس جيوشه و يقضي عليه. وقد قال له: «اعلم أيها الأمير الشريف انه ما أزال نعما عن أماكنها وأبرز الهمم عن مكامنها، وأثار سهم النوائب عن كنانتها، كالظلم الذي لايعفو الله عن فاعله، والجور الذي لايفرق في الأثم بين قاتله وقابله، فأما رهبت ذلك

---

(١) الرحلة ص ٤٨
(٢) ابن عبدالحق: مراصد الاطلاع جـ٢ ص ٧١٣
(٣) نفس المرجع ص ٤٩
(٤) الفاسي: العقد الثمين جـ٤ ص ٣٥٥

الحرم الشريف، واجللت ذلك المقام المنيف، وإلا قوينا العزائم، واطلقنا الشكائم وكان الجواب ماتراه لا ما تقرأه، وغير ذلك فانا نهضنا إلى ثغر مكة المحروسة في شهر جمادى الآخرة، طالبين الأولى بالأخرى، في جيش قد ملأ السهل والجبل، وكظم عن أنفاس الرياح»(١).

ومع التهديد أرسل إليه يرغبه في أن يعوضه عن ذلك المكس بألفي دينار وألف اردب قمح تحمل إليه سنويا، بالاضافة إلى اقطاعات اقطعها له بصعيد مصر واليمن كانت تدر سنويا حوالي ثمانية آلاف أردب قمح(٢).

وبذلك الغيت تلك المكوس عن الحجاج بفضل السلطان صلاح الدين الذي كان في أشد الحاجة إلى تلك الأموال والغلال لاعداد الرجال لقتال الصليبيين، إلا أنه رأى أن يجاهد الصليبيين بالسيف وأن يرفع الظلم عن الحجيج بالأموال والغلال. وكان ذلك العمل رحمة بعباد الله وبالذات الفقراء منهم، الذين كانوا يقطعون المسافات الطويلة سيرا على الأقدام، وإذا ما اقتربوا من الحرم منعوا من الوصول إليه وأداء الفريضة وعذبوا أشد ألوان العذاب. وقد تم ذلك عام ٥٧٢ هـ/١١٧٧م والغيت وظيفة المكاسين الذين كانوا يقومون بتحصيل تلك المكوس، وسر الناس بذلك سرورا عظيما(٣).

وبذلك زال الذل والبؤس الذي طالما نال حجاج بيت الله الحرام على أيدي أولئك الأمراء الجشعين الذين لم يرعوا حرمة الحرم، وحرمة البيت العتيق ولم يكن يهمهم شيء سوى جمع المال وكنزه.

وكانت تلك مكرمة عظيمة من مكارم السلطان صلاح الدين الأيوبي توج بها جهاده

---

(١) نفس المرجع، ص ٧، ص ٢٧٨

(٢) المقريزي: السلوك جـ١، قسم ١، ص ٦٤، ابن جبير، ص ٤٩، أما صاحب الروضتين فيقول انه عوضه عن ذلك مبلغ ثمانمائة أردب قمح «راجع جـ٢، ص ٣» أما ابن تغري بردى فيقول: إن صلاح الدين عوّض امير مكة في كل سنة ثمانمائة أردب تحمل إليه سنويا في البحر ويحمل مثلها لتوزع على سكان الحرمين «النجوم الزاهرة، جـ٦، ص ٧٨» وشبيه بذلك قال ابن كثير في البداية والنهاية جـ١٢، ص ٢٩٩»

(٣) ابوشامة: المرجع السابق، جـ٢، ص ٣ـ ٤

وانتصاراته على الصليبيين(١).

ورغم ذلك فقد كان الأمراء لايلبثون أن يعيدوا تلك المكوس كلما انقطعت تلك الامدادات عنهم من مصر، أو إذا رأوا أنها قليلة.

إذ نرى أن السلطان منصور نورالدين عمر بن رسول سلطان اليمن قد قام بإلغاء تلك المكوس عندما حج سنة ٦٣٩هـ/١٢٤١م واسقط سائر المكوسات والجبايات والمظالم، وكتب بذلك مربعة، وجعلت قبالة الحجر الأسود ودامت هذه المربعة حتى قلعها ابن المسيب لما ولى مكة سنة ست واربعين وستمائة، وأعاد الجبايات والمكوسات بمكة(٢).

و بعدما تولى محمد بن احمد بن المسيب إمرة مكة سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م بعد أن ألزم نفسه مالا يؤديه إلى السلطان من الحجاز والانفاق على الجند من دخلها وقود مائة فرس كل عام، بدل كل ما

---

(١) ومدح ابن جبير السلطان صلاح الدين بقصيدة قال فيها:

رفعت مغارم مكس الحجا ... زبانعامك الشامل الغامر
وأمنت أكناف تلك البلا ... د فهان السبيل على العابر
وسحب أياديك فياضة ... على وارد وعلى صادر
فكم لك بالشرق من حامد ... وكم لك بالغرب من شاكر
وكم بالدعاء لكم كل عا ... م بمكة من معلن جاهر
وقد بقيت حسبة في فلا ... ن وتلك الذخيرة للذاخر
يعنف حجاج بيت الإله ... و يسطو بهم سطوة الجابر
وقد وقفوا بعدما كشفوا ... كأنهم في يد الآسر
و يلزمهم حلفا باطلا ... وعقبى اليمين على الفاجر
أليس بخاف غدا عرضه ... على الملك القادر القاهر
أليس على حرم المسلمين ... ن بتلك المشاهد من غابر
ألا ناصح مبلغ نصحه ... إلى الملك الناصر الظافر
ظلوم تضمن مال الزكا ... ة لقد تعست صفقة الخاسر
يسر الخيانة في باطن ... و يبدي النصيحة في الظاهر
فأوقع به حادثا أنه ... يقبح أحدوثة الذاكر
وحاشاك ان لم تزل رسمها ... سواك و بالعرف من آمر
ورفعك أمثالها موسع ... فما لك في الناس من غادر
وآثارك الغر تبقى لها ... وتلك المآثر للآثر
نذرت النصيحة في حقكم ... وحق الوفاء على الناذر
وحبك انطقني بالقريـ ... ض وما ابتغي صلة الشاعر
ولا كان فيما مضى مكسبي ... و بئس البضاعة للتاجر
إذ الشعر صار شعار الفتى ... فناهيك من لقب شاهر
وان كان فيك قبول له ... فتلك الكرامة للزائر

ابوشامة: الروضتين جـ٢ ص ٤ـ ٥

(٢) الفاسي: العقد الثمين، جـ١، ص ١٩١

فعله المنصور اذ قلع المربعة وأعاد الجبايات والمكوس بمكة، واستولى على أموال الزكاة والصدقة(١) وقد استمر الحال على ذلك بعد سقوط الدولة الأيوبية وقيام الدولة المملوكية.

أما معاملة التجار: فكانت لا تقل عن معاملة الحجاج بل كانوا يعاملونهم بمنتهى القسوة والعنف، فكما يقول ابن جبير بعد تحيزه للموحدين: «وكل من سواهم من الملوك في هذا الزمان فعلى غير الطريقة يعشرون تجار المسلمين كأنهم أهل ذمة لديهم، و يستجلبون أموالهم بكل حيلة وسبب، و يركبون طرائق من الظلم لم يسمع بمثلها اللهم هذا السلطان العادل صلاح الدين»(٢).

يتضح لنا من هذا النص مخالفة حكام الحجاز، وحكام اليمن كما سنرى وغيرهم من حكام المسلمين للشريعة الإسلامية إذ يأخذون العشور على بضائع التجار المسلمين، مع أن نصوص الشريعة أخذ الزكاة عليها، وإذا اشترى بثمنها شيئا وخرج به وعاد بنظير المبلغ الأول لايؤخذ منه شيء إلا إذا تجاوز العام، ولا تؤخذ منه الزكاة إلا اذا خرج وعاد اكثر من أربع مرات في العام(٣).

أما التجار غير المسلمين فينص الشرع على أخذ العشر على بضائعهم إذا ما دخلوا البلاد الإسلامية. كما يجيز الشرع حسب ما ارتأى الامام المتبع للمذهب الشافعي في ذلك الوقت زيادة المأخوذ منهم عن العشر أو تخفيضه إلى نصف العشر لتشجيع التجار لجلب بضائعهم إلى البلاد الإسلامية، وأن يرفع ذلك كلية إذا رأى مصلحة في ذلك، بشرط ألا يؤخذ منه إلا مرة واحدة في العام حتى ولو عاد إلى بلده ورجع إلى بلاد المسلمين، إلا إذا تم الاتفاق أن يؤخذ منه العشر إذا عاد. و بناء على ذلك فقد كان يؤخذ من السفن الفرنجية بميناء الاسكندرية الخمس في كل مرة يأتون إليه وربما زاد عن ذلك(٤).

أما حكام مكة فقد عاملوا التجار المسلمين معاملة غيرهم من التجار غير المسلمين إذ كانوا يأخذون منهم العشور بدلا من الزكاة. كما كان التجار والحجاج المسافرون لجدة عن طريق صعيد مصر مرورا بأخميم وقوص وعيذاب يلقون من جباة الزكاة أقسى معاملة وكأنهم ليسوا مسلمين، وكذلك كان الحال في مياه جدة. فقد كان المفتشون يقومون بتفتيش المراكب تفتيشا دقيقا، و يفتشون الراكب تفتيشا ذاتيا بإدخال ايديهم إلى أوساط التجار بحثا عما خبأوه من الأموال. وفي ذلك قال ابن جبير:

«وادخال الايدي إلى اوساط التجار فحصا عما تأبطوه واحتضنوه من دراهم أو دنانير ما يقبح سماعه، وتشنع الاحدوثة عنه، كل ذلك برسم الزكاة، دون مراعاة لمحلها أو ما يدرك النصاب منها»(٥).

---

(١) المرجع السابق والجزء، ص ٣٨٦ — ٣٨٧، جـ٨، ص ١٨٣
(٢) الرحلة، ص ٥٣
(٣) القلقشندي: صبح الأعشى جـ٣ ص ٤٥٧
(٤) نفس المرجع ص ٤٥٩ — ٤٦٠
(٥) ابن جبير: الرحلة ص ٣٥

ومع ذلك فرغم الوسائل اللاأخلاقية التي كان يتبعها اولئك المفتشون في البحث عما يخفيه التجار إلا أننا نرى أن لهم الحق في ذلك لأن ذمم التجار كانت قد فسدت في تلك الآونة حتى أصبحوا يخفون الأموال والذهب في أماكن من أجسادهم لا تليق بأمثالهم أن يخفوها فيها تهر با من دفع الزكاة التي قررها الشرع عليها ، وحتى لو كانوا يأخذون عليها العشور فلا يجب إخفاؤها على تلك الصورة لأن ذمة وأخلاق المسلم أهم من أمواله ، فما بالك إذا حلف أحدهم وأنكر وهو يخفي ، ولو ترك الحبل للتجار على الغارب لتعلم الصالح من الفاسد كيف يخفيها ولفسدت الضمائر والذمم وضعف الإسلام . ولم يلجأ المفتشون إلى ذلك إلا بعد ان اكتشفوا بعض الحالات التي يخفي فيها التجار أموالهم في أجسامهم ، كما كان المفتشون يلزمون التجار الايمان على ما معهم وانهم لا يخفون غير ما يقرون به « فيقف الحاج بين ايدي هؤلاء المتناولين لها مواقف خزي ومهانة »(١) مما يدل على أن الحجاج الذاهبين إلى أداء فريضة الحج كانوا يخفون الأموال رغم الايمان التي يقسمون عليها .

ليس هذا فقط بل كان يقوم أعوان الزكاة بالبحث في امتعة التجار والحجاج بإدخال المسال الطوال فيها بحثا عما يجوز قد اخفى فيها من أموال و بضائع . وقد قال ابن جبير في ذلك : « ومن اشنع ما شاهدناه من ذلك خروج شرذمة من مردة أعوان الزكاة في أيديهم المسال الطوال ذوات الأنصبة فيصعدون إلى المراكب استكشافا لما فيها فلا يتركون عكما ولا غرارة إلا و يتخللونها بتلك المسال الملعونة مخافة أن يكون في تلك الغراره أو العكم اللذين لايحتو يان سوى الزاد شيء غيب عليه من بضاعة أو مال ، وهذا أقبح ما يؤثر في الأحاديث المعلنة »(٢) .

واننا نرى رغم قسوة الوسائل والطرق المستعملة للبحث عما يخفيه أو يهر به التجار أو الحجاج ان ذلك ضروري لردع الفاسدين منهم حتى لايصبح ذلك و باء يستشري في المجتمع . واننا لنسمع ونقرأ عن تفنن المهر بين في أيامنا في التهريب حتى انه ليعجز المفتشون المتخصصون في كثير من الأحيان في القبض على المهر بات رغم مرورها من بين أيديهم .

الأزمات الاقتصادية في الحجاز في العصر الأيوبي:

يبدو أن الحجاز لم يمر بأزمات اقتصادية فائقة في العصر الأيوبي ، اللهم سنة ٥٦٩ هـ/١١٧٤ م إذ أصاب البلاد جدب وقحط شديدان ، حتى لقد أكل الناس الدم والجلود بسبب شدة الغلاء . وقد أدى ذلك إلى موت الكثيرين من أهل مكة(٣) .

وكذلك في سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م إذ حدث قحط بمكة أدى إلى هجرة بعض المجاورين بها

---

(١) نفس المرجع والصفحة

(٢) ابن جبير: الرحلة ص ٣٥ـ ٣٦

أما العكم : فهو ماشد وجمع من ثوب أو سواه « المنجد في اللغة ص ٥٢٣ »

والغرارة : الجوالق : وهي : العدل من صوف أو شعر « نفس المرجع ص ٥٤٧ »

(٣) الفاسي : العقد الثمين جـ١/٢٠٩

كالشيخ المقرىء المحدث ابي الفتوح برهان الدين نصر بن محمد بن ابي الفرج أحمد بن الحصري الهمذاني البغدادي الحنبلي إلى المهجم باليمن(١)، و يبدو أن سرو اليمن قد حضروا بالميرة إلى مكة مما خفف من وطأة تلك الأزمة وعادت الأحوال إلى طبيعتها. وفيما عدا ذلك لم يحدث أي أزمات اقتصادية في الحجاز طوال العصر الأيوبي، بل على العكس من ذلك فقد عم الرخاء حتى لقد بيعت الغرارة من الحنطة التي كانت تعرف في ذلك الوقت باللقيمية بأربعين درهما كاملية وقال الفاسي في ذلك: «وهذا ارخص شيء سمعناه في سعر اللقيمة»(٢).

اما غرارة الذرة فقد بيعت بثلاثة وثلاثين درهما كاملية وثلث و بيع المن من السمن ــ اثنتى عشرة أوقية ــ باثنى عشر درهما مسعودية(٣).

ومما كان يخفف من الأزمات الاقتصادية التي كان يتعرض لها الحجاز الميرة التي كان يأتي بها سرو اليمن في مواسم العمرة والحج والتي كانت تسد حاجة أهله وحاجة الحجيج، بالإضافة إلى المعونات التي كانت تأتيه من مصر واليمن والعراق والشام.

بل عندما كانت تتعرض مصر للأزمات الاقتصادية بسبب انخفاض منسوب النيل. كان يهاجر الكثيرون من أهلها إلى الحجاز واليمن كما حدث سنة ٥٩٧ هـ/١٢٠١م(٤).

أهم الموانىء الحجازية:

قبل الكلام عن أهم موانىء الحجاز ودورها التجاري في العصر الأيوبي وعلاقاتها بموانىء مصر واليمن يجدر بنا أن نلقى نظرة سريعة على التجارة العالمية في العصور الوسطى، و بالذات في العصر الأيوبي.

لقد نشطت التجارة في العصور الوسطى نشاطا عظيما بين الشرق والغرب مما اضفى على موانىء المشرق العربي أهمية خاصة لوقوعها وسط العالم مما جعل موقعها استراتيجيا هاما، إذ كان لابد لمعظم المتاجر المتجهة من الشرق إلى الغرب و بالعكس من المرور بموانىء الوطن العربي أو أراضيه، مما كان يعود عليه بالنفع الكبير من الرسوم التي كان يتقاضاها، كما انتعشت أسواقه وغصت بالبضائع المختلفة المجلوبة من مختلف أنحاء العالم، وذلك رغم الحروب الطاحنة التي كانت دائرة في ذلك الوقت بين المشرق الإسلامي والغرب الأوربي والمعروفة بالحروب الصليبية. حتى ان ابن

(١) الحنبلي: شذرات الذهب جـ٥/٨٣

(٢) العقد الثمين جـ١ ص ٢٠٩

(٣) العقد الثمين جـ١ ص ٢٠٩

المن كان مقداره يختلف تبعا للسلطة. فالمن الذي يوزن به الطيب مقداره، ٢٦٠ درهما فقط «القلقشندي: صبح الأعشى جـ٣ ص ٤٤١» والمن كيل أو ميزان وهو شرعا مائة وثمانون مثقالا وعرفا مائتان وثمانون مثقالا» المنجد ص ٧٧٦»

(٤) ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة جـ٦ ص ١٧٣ــ ١٧٤

جبير عجب من ذلك وقال: «ومن اعجب ما يحدث في الدنيا ان قوافل المسلمين تخرج إلى بلاد الافرنج وسبيهم يدخل إلى بلاد المسلمين»(١).

وقد كان لتجارة التوابل في العصور الوسطى السيطرة عل التجارة العالمية لأهميتها الطبية والغذائية، مما جعل السلطان صلاح الدين يخصص حيا خاصا في القاهرة لسكنى الأوروبيين ومزاولة تجارتهم(٢).

وكان التجار يبيعون التوابل والعطور في شوارع القاهرة الضيقة وفي اسواقها حتى ان جوها المشبع برائحة التوابل والعطور العبقة الحادة طوال تلك العصور لتبدو كما تقول السيدة سونيا هاو: «كأنه بين طيات دورة خيال ذلك العهد البعيد»(٣).

بالإضافة إلى ذلك فقد عمل التجار المسلمون وغير المسلمين على نقل منتجات الشرق والغرب كالتوابل بأنواعها، والعود والكافور والبخور، والعطور، والخزف والأحجار الكريمة، والياقوت، والذهب، والحلي، والمسك، والتمور، والخيل، والنيلج ـ الذي كان يستخرج من نبات العظلم ـ، والسنا المكي والبلسان، وسن الفيل، والأبنوس والعاج والصندل، والرقيق، والمنسوجات الحريرية والقطنية والكتانية.. الخ(٤)، إلى مختلف أنحاء العالم في ذلك الوقت.

إذا كيف كان يتم التعامل في تلك الانواع المختلفة المتباينة القادمة من مختلف الأنحاء، وبأي عملة؟ يبدو أن التجار كانوا يعرفون أكثر من لغة مما كان ييسر عليهم التعامل مع أهالي البلاد التي كانوا يذهبون إليها. كما انه كان من المحظور على التجار بيع بالقطاعي، وكان لابد لهم من بيعها أو التوكيل في بيعها للتجار المحليين أو لتجار الدولة الذين يتولون بيعها بالمفرد(٥).

أما العملة التي كان يستخدمها التجار في معاملاتهم، فإنه من الصعب معرفتها لقلة الوثائق وغموضها، ولكن ادوار بروى يقول: «احتفظت كل من بيزنطة والعالم الإسلامي حتى ظهور الحروب الصليبية بنقد من الذهب لم يتم للغرب منه شيء، وهو نقد مستقر قوي معتمد دوليا، مع العلم ان كلا من ايران ومن أسبانيا ابتداء من القرن العاشر عولتا على الأكثر على النقد الأبيض أي الفضة وكان هذا يتعارض مع ما كانت عليه العلاقات التجارية في الداخل حيث تدنت قيمة النقد الشرائية»(٦).

---

(١) الرحلة ص ٢٨٨

(٢) سونيا هاو: في طلب التوابل ص ٤٠

(٣) نفس المرجع والصفحة

(٤) عن تلك البضائع راجع: «ياقوت الحموي: معجم البلدان جـ١ ص ٤٩٨-٤٩٩ جـ٢ ص ١٣-١٥، ٤٠٠-٤٨٤، جـ٣ ص ٢٠٦، ٤٤٨، جـ٥ ص ١٩٣-٢٠٩» راجع أيضا: جوستان لوبون: حضارة العرب ص ٥٥٤-٥٦١، سونيا هاو: في طلب التوابل ص ١٦ ـ ٥٤ ادوار بروى: تاريخ الحضارات العام جـ٣ ص ١٩٢ ـ ١٩٣

(٥) بروى: المرجع السابق جـ٣ ص ١٩٥

(٦) بروى: المرجع السابق جـ٣ ص ١٩٣

كما يقول بأن التجار غير المسلمين وحتى المسلمين منهم كانوا يتعاملون بالر با و يتحايلون على ذلك ، كما عرف المسلمون الصكوك والسندات وتعاملوا بها(١) .

و يرجع الفضل للعالم الإسلامي الذي قام بتنظيم أعراف التجارة وآدابها وسلوكها وأساليبها ، التي لم تلبث ان انتشرت في اطراف عالم البحر المتوسط المسيحي(٢) .

إذا ما هي أشهر الموانىء الحجازية في العصر الأ يو بي ؟ وما دورها في النشاط التجاري في ذلك الوقت ؟

كان أشهر الموانىء الحجازية في ذلك العصر ميناء جدة الذي يعتبر مرسى مكة ، وهي تبعد عن مكة حوالي ار بعين ميلا إلى جهة الغرب وكانت تصل إليها قوافل التجار والحجاج التي كانت تقوم من القاهرة إلى قوص في صعيد مصر، ومنها إلى عيذاب أشهر الموانىء المصرية على البحر الأحمر في ذلك الوقت، ومنها إلى جدة. وكانت تلك القوافل تنقل بحرا وهي محملة بالبضائع المصرية والأو ربية وترسو في ميناء جدة(٣) كما كانت تأتي إليها السفن اليمنية محملة ببضائع اليمن والشرق(٤) ، كما كانت تصل إليها السفن الحبشية حاملة البضائع الحبشية والافريقية(٥) . وكان جزء من هذه البضائع يباع في الحجاز فينقل إلى الموانىء المصرية أو اليمنية ومنها إلى الشرق أو بالعكس إلى الغرب ، وكأن ميناء جدة محطة ترانزيت بين موانىء البحر الأحمر والعالم الخارجي .

وكانت بضائع الشرق ينقل بعضها عن طريق جدة إلى عيذاب التي كانت تنقل منها برا إلى القاهرة والفسطاط عبر الصحراء ، وكانت الكميات الهائلة من تلك البضائع ملقاة في الصحراء بين قوص وعيذاب دون أن يتعرض لها أحد حتى يتمكن صاحبها من نقلها(٦).

كما كان لميناء جدة علاقات تجارية مع ميناء القصير الواقع إلى الشمال من عيذاب ، وكانت تصل إليه بعض المراكب لقر به من قوص ، ولكن ما كان يصل إليه أقل بكثير مما كان يصل إلى عيذاب(٧).

كما كان لميناء جدة علاقات مع ميناء الطور، وهو ساحل في جانب الرأس الداخل في بحر القلزم بين أيلة و بر الديار المصرية ، حيث كان يصل إليه الكثير من المراكب نظرا لقر به من شاطىء الحجاز الذي لم يكن يغيب عن أنظار الركاب ولكثرة المراسي في بره حتى إذا ما تغير البحر دخلت

---

(١) نفس المرجع جـ٣ ص ١٩٤

(٢) نفس المرجع جـ٣ ص ١٩٦

(٣) ابن جبير: الرحلة ص ٤٦ ــ ٤٧

(٤) ياقوت : معجم البلدان جـ٣ ص ٢٨٦

(٥) ياقوت : معجم البلدان جـ٣ ص ٢٨٦

(٦) ابن جبير: المرجع السابق ص ٤٨ و يضيف صاحب صبح الأعشى جـ٣ ص ٤٦٤ ان التجار كانوا يفضلون ميناء عيذاب لرغبة رؤساء المراكب في التعدية من جدة إليه ، لأن باحته متسعة لغزارة الماء

(٧) ياقوت : معجم البلدان جـ٤ ص ٣٨٧

المراكب في تلك المراسي واحتمت بها، ولكن أهمية ذلك الميناء قلت لكثرة شعابه المرجانية(١).

كما كان لميناء جدة علاقة بميناء السويس الذي كان في عصر ياقوت الحموي أي في العصر الأيوبي، ميناء أهل مصر لمكة والمدينة، وهو أقرب السواحل المصرية على البحر الأحمر للقاهرة والفسطاط(٢).

أما الموانىء الحجازية الأخرى التي كان لها علاقة مع الموانىء المصرية واليمنية: ميناء الجار، الواقع على البحر الأحمر مقابل المدينة المنورة، لذا فإنه يعتبر مرسى لها، وكانت تصل إليه السفن القادمة من مصر وعدن والحبشة والصين والهند(٣) وكانت الجار مقسومة إلى قسمين: قسم عبارة عن جزيرة، والآخر على الشاطىء، و بجوارها توجد جزيرة قيراف التي كانت تعتبر مرسى خاصا للسفن الحبشية(٤).

كذلك كان هناك مرسى صغير للسفن بالقرب من الجار هو: السرير، كانت ترسو إليه أيضا السفن القادمة من مصر أو من الحبشة(٥) وكان يغلب على سكان تلك الموانىء اشتغالهم بالتجارة.

أشهر أسواق الحجاز في العصر الأيوبي: سوق المسجد الحرام:

كان المسجد الحرام يعتبر سوقا كبيرا أيام موسم الحج، وكان معظم السوق يقع في الجزء الشمالي الغربي لحائط المسجد، وفي الجهة الشمالية الشرقية كانت دار الندوة تابعة للسوق، كما كانت الصفا طريقا وسوقا(٦).

وكانت في ذلك الوقت تعتبر ملتقى أهل المشرق والمغرب من المسلمين وكان يوجد بذلك السوق من بضائع الشرق والغرب الشيء الكثير، منه النفيس الغالي الثمن، ومنه الرخيص، إذ كان به الجواهر والأحجار الكريمة والياقوت ومن أنواع الطيب: المسك، والكافور، والعنبر، والعود، والعقاقير الهندية، إلى غير ذلك مما هو مجلوب من الهند والحبشة، والبضائع والأمتعة اليمنية والعراقية والسلع الخراسانية والمغربية(٧) ووصف ابن جبير السوق بعد أن عدّد السلع الموجودة به فقال: «إلى مالا ينحصر ولا ينضبط ما لو فرّق على البلاد كلها لأقام لها الأسواق النافعة، ولعم جميعها بالمنفعة التجارية»(٨).

---

(١) نفس المرجع والجزء ص ٣٨٧ ــ ٣٨٨

(٢) ياقوت: معجم البلدان، جـ٣، ص ٢٨٦

(٣) ابن عبدالحق مراصد الاطلاع، جـ١، ص ٣٠٥، العباسي: عمدة الأخبار جـ٥، ص ٢٩٤

(٤) ياقوت: المرجع السابق، جـ٢، ص ٩٢ ــ ٩٣، العباسي: المرجع السابق والصفحة

(٥) ياقوت: المرجع السابق، جـ٣، ص ٢١٩

(٦) ابن جبير: الرحلة ص ١٤٣، ياقوت الحموي: معجم البلدان جـ٣ ص ٤١١

(٧) ابن جبير: المرجع السابق والصفحة

(٨) نفس المرجع والصفحة

و يضيف إلى ما كان يباع بالسوق: «من الرقيق إلى العتيق، ومن البر إلى الد ر، إلى غير ذلك من السلع» وكان يباع الرقيق بدار الندوة(١).

وكان السوق يفتح مع حضور التجار الذين يأتون إلى الحج قبل الموسم من مختلف الآفاق، ومع سرو اليمن، ومع ذلك فقد كان يعقد رسميا لمدة ثمانية أيام بعد انتهاء الموسم (٢).

كما كانت منى أثناء الإقامة بها تعتبر سوقا كبيرة، و يشترى الحجاج ما يحتاجون إليه، و يبيعون على بعضهم بعض السلع التي احضروها معهم من بلادهم(٣).

أما المعاملات في مكة فكانت في بداية العصر الأ يوبي بالدينار والدرهم الصلاحيين المنسوبين إلى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، والتي كان قد ضربها في مكة اخوه طغتكين سنة ٥٨١ هـ/١١٨٥م(٤).

و بعد ذلك شاعت الدنانير والدراهم النقرة(٥) المعروفة بالكاملية والمنسوبة إلى السلطان الكامل محمد بن العادل ابي بكر بن ايوب(٦). وتعاملوا بعد ذلك بدراهم من الفضة الخالصة تسمى المسعودية نسبة إلى الملك المسعود يوسف بن الكامل وقد كثر التعامل بها بعد ذلك (٧).

أما وزن البضائع فكان بالمن الذي يزن مائتين وستين درهما، و يكيلون بالغرارة، و يقيسون القماش بالذراع المصري(٨). وكانت الأسعار في مكة على العموم أغلى منها في مصر والشام وأقل منها في المدينة(٩).

سوق المدينة:

كان يوجد بالمدينة في العصر الجاهلي عدة أسواق، احداها في الجسر في بني قينقاع، وآخر في يثرب، وثالث بالصفاصف، ورابع في موضع زقاق ابن حيين ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم قرر لهم سوقا واحدا هوسوق المدينة في نهاية الطريق إلى دور القياشين بالقرب من دور طلحة، و بقى هذا السوق على حاله حتى العصر الأ يوبي، وكانت البضائع التي تتوفر في مكة توجد في المدينة

(١) نفس المرجع والصفحة
(٢) نفس المرجع والصفحة ص ٨٦ ـــ ٨٧
(٣) الشيخ عبدالله غازي: إفادة الأنام ص ١٢٦
(٤) الطبري: اتحاف فضلاء الزمن جـ١ ص ٢٩، عبدالله غازي: إفادة الأنام ص ١٢٤ الفاسي: شفاء الغرام جـ٢ ص ٢٣٠
(٥) الدراهم النقرة: كان عيارها ثلثين فضة وثلث نحاس، وهذا هو الذي عليه العيار الصحيح، وربما زاد عيار النحاس على الثلث شيئاً يسيرا بحيث يظهره النقد ولكنه يروح في جملة الفضة «القلقشندي: صبح الأعشى جـ٣ ص ٤٦٧، المقريزي: اغاثة الامة ص ٦٦»
(٦) القلقشندي: المرجع السابق جـ٤ ص ٢٧٥ ـــ ٢٧٦
(٧) نفس المرجع والجزء ص ٢٧٦
(٨) نفس المرجع والجزء والصفحة
(٩) نفس المرجع والجزء والصفحة

كذلك(1) .

أما معاملاتها فكانت بالدينار والدرهم الكاملي ، والدرهم المسعودي كما كان في مكة ، كذلك كانوا يزنون بالمن ، و يكيلون بالمد(2) ، أما قياس اقمشتهم فكان بالذراع الشامي ، وأسعارها أغلى قليلا من أسعار مكة(3) .

و بالقرب من المدينة كان يوجد سوق يسمى سعداً ــ على بعد ثلاثة أميال من المدينة ــ كان يفي بحاجة سكان تلك المنطقة (4) .

سوق الطائف :

كان بالطائف في العصر الجاهلي سوق عكاظ ، وكان يوجد مكانه سوق لأهلها في العصر الأيوبي ، كما كانت هناك أسواق كثيرة صغيرة في طريق الحج و يقول عنها ادوار بروى : «أما الأسواق القائمة على طريق الحج فلم يكن لها شأن يذكر(5) هذا بالاضافة إلى أسواق الموانىء التي تحدثنا عنها .



(1) السمهودي : وفاء الوفا جـ٢ ص ٧٢٦ و٧٤٧ ــ ٧٤٨

(2) المد : ضرب من المكاييل سمي بذلك لأنه يمد المكيل بالمكيل مثله ، و يتجزأ إلى نصف مد ، وربعه ، وثمنه ، والمد يساوي ثمانية عشر لترا افرنجيا على التقريب «المنجد ص ٧٥١»

(3) القلقشندي : صبح الأعشى جـ٤ ص ٣٠٢

(4) ياقوت : معجم البلدان جـ٣ ص ٢٢١

(5) كتاب الحضارات العام جـ٣ ص ١٩٥

الفصل الثاني
الحياة الاقتصادية في اليمن
في العصر الأيوبي

اختلفت الأحوال الاقتصادية في اليمن عنها في الحجاز في العصور القديمة إلى حد ما ، إذ بينما رأينا عدم اهتمام أهل الحجاز بالزراعة والصناعة نرى عكس ذلك في اليمن إذ كان الاهتمام بالزراعة والصناعة إلى جانب التجارة اهتماما كبيرا .

والذي ساعد على ازدهار الزراعة ، وكذلك الصناعة في اليمن ، اختلاف المناخ به عن مناخ الحجاز، إذ بينما نرى أن المناخ الصحراوي يسود الحجاز مما يؤدي إلى قلة الأمطار به أو انعدامها تقريبا ، نرى أن المناخ الموسمي يسود اليمن ، مما يؤدي إلى سقوط الأمطار الغزيرة عليه. وقد عرف اليمنيون منذ القدم كيف يستفيدون من مياه الأمطار بتخزينها في السدود والخزانات كسد مأرب الشهير.

بالاضافة إلى اختلاف في المناخ هناك اختلاف في التضاريس أيضا إذ بينما يغلب على تضاريس الحجاز كثرة الصحارى، والجبال الجرداء، نرى في اليمن كثرة السهول والجبال الخصبة الصالحة للزراعة ، كما أن تربة اليمن أجود من تربة الحجاز.

كما ان موقع اليمن في الجزء الجنوبي الغربي لشبه الجزيرة العربية وللقارة الآسيوية ووقوعها على البحر الأحمر والمحيط الهندي ، اكسبها موقعا استراتيجيا هاما وجعلها تتحكم في مفتاح البحر الأحمر الجنوبي ، وجعل موانئه مأوى للسفن تأتي إليها اما لبيع بضائعها أو للتزود بالمؤن وبما تحتاج إليه كشراء بعض البضائع اليمنية ونقلها إلى بلادهم أو إلى البلاد الأخرى .

كذلك تكثر باليمن المواد الخام سواء الزراعية منها أو المعدنية . وهذا شجع سكانه على استغلالها واقامة بعض الصناعات .

كما أن اليمني عرف حياة الاستقرار منذ القدم في المدن والقرى بعكس أهل الحجاز الذين كانوا من البدو كثيري التنقل والترحال ، اللهم بعض الفئات القليلة التي سكنت المدن وعملت بالتجارة و بعض الحرف الأخرى. كما أن اليمني اختلف عن الحجازي في عدم شعوره بالحقارة والمهانة لاشتغاله بالزراعة أو الصناعة .

الزراعة في اليمن في العصر الأيوبي:

عمل معظم سكان اليمن منذ العصور الجاهلية القديمة ، وفي العصر الإسلامي الذي يعتبر العصر

الأ يوبي جزءا منه بالزراعة، وقد زرعوا مختلف أنواع المحاصيل الزراعية: كالحبوب والفواكه، والخضروات، والرياحين، كما جلبوا بعض أنواع الأشجار من بلاد أخرى وزرعوها في بلادهم.

الحبوب:

زرع اليمنيون من الحبوب، القمح، والشعير، والذرة، والأرز، والسمسم. أما المحاصيل الثلاثة فانتشرت زراعتها في معظم سهول ومناطق اليمن حيثما توفرت المياه الكافية لزراعتها. ولكن أشهر مناطق زراعتها كانت في ذمار، ورعين والسحول التي كان يطلق عليها اسم مصر اليمن(١) وكانت تلك المحاصيل تزرع لفترات طويلة من الزمن وفي ذلك يقول ياقوت الحموي: «رأيت في جبل مستور برا أتى عليه ثلاثون سنة لم يتغير»(٢).

وهذه المناطق تقع في مخلافي ذي جرة وخولان، وهما مخلافان واسعان فيهما أودية وقرى كثيرة(٣)، ويدل على كثرة هذه المحاصيل باليمن ما أورده ياقوت الحموي عندما قال: «اجتمع زياد بن عبدالله الحارسي خال السفاح بابن هبيرة الفزاري، فقال لزياد: فممن الرجل؟ فقال: من اليمن، فقال: اخبرني عنها فقال: أما جبالها فكروم وورس، وسهولها بر وشعير وذرة»(٤).

كما يزرع القمح والذرة في الهجران(٥) وحضرموت بسبب توفر المياه بالقرب منها «فكانوا ـ أهلها ـ يشربون منها، ويروون محاصيلهم»(٦).

كذلك كان يزرع الشعير في منطقة مأرب ـ بين حضرموت وصنعاء ـ على ماء جار يأتي من ناحية السد، وكانوا يروون أراضيهم مرة واحدة في السنة ويزرعونها ثلاث مرات(٧)، وقد قال في ذلك ياقوت الحموي: «ويكون بين بذر الشعير وحصاده في ذلك الموضع شهران»(٨).

ولكننا نرى أن في ذلك مبالغة كبيرة إذ عندما زرت المنطقة وسألت بعض المختصين في النواحي الزراعية هناك عن صحة ذلك، أفادوا بأن ذلك لايحدث، ولو افترضنا أن التربة كانت في ذلك الوقت أجود منها الآن لاستهلاكها فترة طويلة مما أدى إلى ضعفها لكن ذلك لايعني أنها تحتفظ

---

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان جـ٥ ص ٦٩.

(٢) ياقوت الحموي: معجم البلدان جـ٥ ص ٦٩

(٣) نفس المرجع جزء ٥ ص ٦٩، ومخلافا ذي جره وخولان يقعان في المنطقة الواقعة بين مأرب وصنعاء ويطلق عليها اسم خزانة اليمن «نفس المرجع والجزء والصفحة»

(٤) نفس المرجع والجزء ص ٤٤٨. والورس: نبات كالسمسم يصبغ به، اصفر اللون كالزعفران «معجم أسماء النبات ص ١٥٨، المنجد ص ٨٩٦»

الهجران: بلد بأعلى حضرموت «الجندي: السلوك لوحة ٢١٧»

(٦) نفس المرجع والجزء ص ٣٩٢ ـ ٣٩٣، والهجران: منطقة تضم مدينتين متقابلتين في رأس جبل حصين هما خودون، ودومون، وهوتثنية الهجر بلغة أهل اليمن، والهجر: القرية «نفس المرجع والجزء والصفحة»

(٧) نفس المرجع والجزء ص ٣٤

(٨) نفس المرجع والجزء ص ٣٤ ـ ٣٨

بالمياه طيلة العام ليزرع عليها اكثر من محصول كما اننا لم نسمع في غير اليمن عن زرع المحصول ـــ الشعير ـــ ونضجه وحصاده خلال شهرين بالرغم من تقدم وسائل العلم الحديث في هذا العصر عنه في ذلك الحين.

كما تزرع هذه المحاصيل بكميات متفاوتة في اليمن، ومع ذلك فقد غلبت زراعة الذرة على المحاصيل الأخرى، لأنها كانت الغذاء الرئيسي لسكان اليمن(١).

أما الأرز فنظرا لأنه يحتاج إلى كميات كبيرة من الماء، فقد كان يزرع في منطقة مأرب والهجران بكميات محدودة(٢).

أما السمسم: فكان يزرع في نفس مناطق زراعة الذرة والشعير(٣).

النخيل:

يزرع النخيل في مناطق متفرقة من اليمن، و بالذات في المناطق السهلية والصحراوية، و بعض المناطق الجبلية، لذا فإن أهم مناطق زراعته في زبيد وذلك لتوفر مياه الآبار بها(٤) وفي جرش ونجران، و بكميات كبيرة في مرخه، وفي الهجران و بيشة و يوجد بكميات كبيرة أيضا في رباك التي كان بها نخل كثير لأهل عدن، وفي مناطق أخرى متفرقة(٥).

الفواكه:

كان يوجد باليمن أنواع كثيرة من الفواكه المعروفة في ذلك الوقت كالكروم والرمان والتفاح، والخوخ، والسفرجل، والتوت، واللوز، والأترح، والبطيخ بنوعيه الأخضر والأصفر، كما كان يوجد باليمن أنواع أخرى من الفواكه ذات الأهمية القليلة بسبب قلة انتاجها. وعلى العموم فإن

---

(١) القلقشندي صبح الأعشى جـ٥ ص ١٦

(٢) نفس المرجع والجزء والصفحة

(٣) نفس المرجع والجزء والصفحة

(٤) ابو الفدا: تقويم البلدان ص ٨٨، ابن عبدالحق: مراصد الاطلاع جـ٣ ص ١٤١ القلقشندي: نهاية الأرب ص ١٧، دائرة المعارف الإسلامية جـ١٠ ص ٣٣٧

(٥) جرش: بضم الجيم وفتح الراء المهملة وفي آخرها شين معجمة: بلدة في اليمن قريبة من نجران «ابوالفدا تقويم البلدان ص ٩٥، القلقشندي: صبح الأعشى جـ٥ ص ٤٢» ونجران: بفتح النون وسكون الجيم: وهي بلدة ذات نخيل وأشجار على القرب من صنعاء وهي بين عدن وحضرموت في جبال دهمى من بلاد همدان «القلقشندي: نهاية الأرب ص ١٨» أما الحجري: في جغرافية بلدان اليمن فيذكر أن نجران بلد في الشمال الشرقي من صنعاء على مسافة ثمانية مراحل منها تسكنه قبائل يام من همدان ثم من حاشد وتعرف قبائل نجران في الوقت الحاضر بمواحد وجشم ومذاكر «جـ٢ ص ٢٤٧»

ومرخة: بلد باليمن له عمل ورستاق وهو واد كثير النخل والعلوب «ياقوت: معجم البلدان جـ٥ ص ١٠٣» و بيشه بالهاء: اسم قرية غناء في واد كثير الأهل من بلاد اليمن «نفس المرجع جـ١ ص ٥٢٩» ورباك: بضم الراء وفتح الباء الموحدة خفيفة وسكون الألف وآخر كاف: قرية بين ابين ولحج «بامخرمة تاريخ ثغر عدن جـ١ ص ٢٠ Hill op.cit.p.135

معظم الفواكه التي كانت تزرع بمصر تزرع باليمن(١).

الكروم:

أما الكروم فهي أكثر ما تزرع من الفواكه في اليمن لاسيما في منطقة السراة(٢) التي كان يأتي منها السرو بميرة مكة لاسيما الزبيب واللوز وغيرهما أيام العمرة والحج. كذلك يكثر في مخلاف ذمار(٣) وفي قرية شروم واثافت(٤)، و يزرع بكميات أقل في بقية أنحاء اليمن، وفي وصف أشجاره وأصنافه يقول الدكتور أبوزيد شلبي: «واكبر ما تكون أشجاره في اليمن، وكانت أصنافه كثيرة متنوعة»(٥).

فواكه متنوعة:

كالموز الذي يكثر في المهجم، ور باك(٦) حيث أحضره إليها الأمير ناصر الدين بن فاروت مع أشجار أخرى كالنارنج والاترنج والنارجيل وزرعها بها وحفر بها الآبار لريها(٧).

و يوجد بصنعاء أنواع عديدة من الفواكه حتى شبهها القلقشندي بدمشق الشام أو ببعلبك، لكثرة فواكهها وأشجارها ومياهها واعتدال هوائها(٨).

القرظ:

القرظ(٩) من النباتات الزراعية المهمة في اليمن نبات القرظ الذي توجد مزارعه بكثرة في صعدة(١٠) وصنعاء وجرش التي يوجد بها من أشجار مالا يحصى كثره(١١) كما يكثر في نهبان ومنطقة السراة(١٢).

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى جـ٥ ص ١٦

(٢) ياقوت: معجم البلدان جـ٣ ص ٢٠٤ ـــ ٢٠٥

(٣) ياقوت: معجم البلدان جـ٣ ص ٦٠٨ ـــ ٦٠٩

(٤) شروم: قرية كبيرة عامرة باليمن فيها عيون وكروم وأهلها همدان، بينها و بين الهجيرة خمسة وعشرون ميلا «نفس المرجع جـ٣ ص ٣٣٩» واثافت: اسم قرية باليمن ذات كروم كثيرة كان بها معصرة للخمر «نفس المرجع جـ١ ص ٨٩»

(٥) تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٣٠٢

(٦) المهجم: بلدة في تهامة في وادي سردد ما بين جبل ملحان و بلدة الزيدية «الحجري: جغرافية اليمن جـ٢ ص ٢٣٩»
ور باك: احدى قرى عدن «بامخرمة: تاريخ ثغر عدن جـ٢ ص ٢٣٧»

(٧) ناصر الدين بن فاروت: كان أحد أمراء عدن سنة ٦١١ هـ نفس المرجع والجزء والصفحة» والاترنج: او الأترج: هي ثمرة متعددة الأنواع. فمنها ما هو بيضي الشكل ذهبي اللون طيب الرائحة جوفه أبيض اللون، حامض الطعم به بذر، ومن أنواعه نوع يعرف باسم النفاش وهو يميل للاستدارة وسطحه الخارجي به هدبات صغيرة وهو ذكي الرائحة أيضا «ابن البيطار: الجامع لمفردات الأدوية جـ١ ص ١٠، د. حلمي سالم: اقتصاد مصر ص ١٠ هامش ٣».

(٨) القلقشندي: صبح الأعشى جـ٥ ص ٣٩

(٩) القرظ: هو ورق شجر يقال له السلع يدبغ به الأدم «ابن عبدالحق: مراصد الاطلاع جـ٣ ص ١٠٧٩»

(١٠) ابن عبدالحق: مراصد الاطلاع جـ٣ ص ١٢٤١، دائرة المعارف الإسلامية جـ١٤ العدد الأول ص ٢٠٤

(١١) القلقشندي: صبح الأعشى جـ٥ ص ٤٢

(١٢) ياقوت: معجم البلدان جـ٥ ص ٣١٤ ـــ ٣١٥، ونهبان: الفتح، فعلان من النهب وهما جبلان في تهامة، يقال لهما نهب الأسفل ونهب الأعلى وهما جبلان مرتفعان شاهقان: «نفس المرجع والجزء والصفحة»

اللبان:

أما اللبان وهو صمغ يستخرج من شجر اللبان ،فإن أهم مراكز انتاجه باليمن في ظفار القريبة من مرباط (١) في إقليم الشحر و يقول ياقوت: «إن اللبان لا يوجد في الدنيا إلا في جبال ظفار، وهو غلة لسلطانها، وانه شجر تلك البادية وذلك انهم يجيئون إلى شجرته ويجرحونها بالسكين فيسيل اللبان منه على الأرض ويجمعونه ويحملونه إلى ظفار، فيأخذ السلطان قسطه و يعطيهم قسطهم(٢).

وهذا يدل على أن اللبان في تلك المنطقة كان يملكه سلطان ظفار وما السكان هناك إلا أجراء عليهم التقاط المحصول مقابل جزء منه. وإذا حاول أحد السكان أن يذهب بالمحصول الذي يلتقطه إلى غير ظفار محاولا الاستيلاء عليه لنفسه، وعلم به السلطان قتله(٣).

كذلك يوجد بمنطقة مرباط نفسها كميات كبيرة من اللبان بالقرب من جبل أسيوت على امتداد مسافة ثلاثة أيام، ومنها كان يحمل إلى مختلف أنحاء العالم.

العنبر:

أما العنبر(٤) الذي يستخرج منه العطور فكان يوجد في الشحر الواقعة بين عدن وعمان و ينسب إليها العنبر الشحري لتوفره في سواحله(٥)، كما يوجد في سقطرى و يسمونه العنبر السقطري، و يوجد أيضا في ظفار، وكانوا يطلقون عليه اسم حشيش البحر(٦).

الورس:

وكان يوجد في جبل المذبخرة و يقول الاصطخري: «إن أعلاه نحو من عشرين فرسخا فيه مزارع ومياه، ونباتها الورس»(٧) كما يوجد في مخلاف اليحصبيين في منطقة شيقان، وكان به نوع جيد من أنفس أنواع الورس(٨).

الصبر ودم الأخوين:

وهو صمغ شجر يوجد بجزيرة سقطرى و يسمونه القاطر، وهو صنفان: الأول خالص، و يشبه

(١) مرباط: مدينة قديمة كانت على ساحل المحيط الهندي على بعد خمسة فراسخ من ظفار، وهي من أعمال الشحر شرقي حضرموت، وسميت مرباط لكثرة ما يربط بها من الخيل «الحجري: جغرافية اليمن جـ٢ ص ٩٤» نفس المرجع جزء ٤ ص ٦٠، جـ٥ ص ٩٧، ابن عبدالحق: المرجع السابق والجزء ص ١٢٥٢

(٢) ياقوت: المرجع السابق والجزء والصفحة، ابو الفدا: تقويم البلدان ص ٩٨ ــ ٩٩، الأنصاري: نخبة الدهر ص ٢١٧

(٣) ياقوت: المرجع السابق جـ١ ص ١٩٣، جـ٥ ص ٩٧

(٤) العنبر: يقال انه دهن عيون بقر البحر الذي تقذفه فإذا فارت على وجه الماء جمدت، فيلقيها و يقذفها البحر إلى الساحل، وأحسن أنواعه الأشهب المعطر ثم الأزرق وأردأه الأسود «ابن البيطار: مختصر مفردات الطيب ص ٢٠٦»

(٥) ياقوت الحموي: معجم البلدان جـ٣ ص ٣١٨

(٦) بامخرمة: تاريخ ثغر عدن جـ١ ص ٤٠ Hill op. cit. p. 136

(٧) الأقاليم ص ١٣ ــ ١٤، راجع أيضا ياقوت: المرجع السابق جـ٥ ص ٦٨

(٨) ياقوت: المرجع السابق جـ٥ ص Hill op.cit.p.1369

الصمغ في شكله ولكنه شديد الحمرة، والصنف الثاني مصنوع منه، وإلى سقطرى ينسب الصبر السقطري(١).

الزعفران:

ويزرع في سفح جبل صبر في منطقة المذبخرة(٢).

العرعر والاثرار:

وهما نباتان يتخذ منهما القطران، ويكثران في نهبان(٣).

نباتات متنوعة:

تكثر في اليمن أنواع الأشجار والنباتات، منها ما ينمو محليا، ومنها ما جلب إلى بلاد اليمن من بلاد الشرق وبالذات من الهند.

ومن النباتات التي جلبت لليمن: الرابخ والتنبل(٤) وهي نباتات هندية زرعت في بساتين خاصة في ظفار (٥).

ونبات الدادي: ويستخدم في صناعة النبيذ، ويوجد في اسيوت(٦) شجر الشكى والبركى: يقول عنه بامخرمه إنه: «يخرج من بدن الشجر بخلاف جميع الأشجار»(٧) أي إنه يركب على غيره من الأشجار. كان قد أدخله إلى اليمن الناخوذه عمر الأمدى سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٨م وزرعه بر باك(٨).

كما يوجد باليمن شجر النارنج والاترنج والنارجيل، وكان قد جلبه إلى اليمن الامير ناصر الدين بن فاروت وزرعه بر باك أيضا سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٧م(٩) الفسيل: ويوجد في بيشة، كما

---

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان جـ٣ ص ٢٢٧

(٢) نفس المرجع جـ٥ ص ٩٠ــ ٩١

(٣) نفس المرجع جـ٥ ص ٣١٤ــ ٤١٥

(٤) الرابخ: قيل هو تمر أملس كالتعضوض واحدته بهاء وهو أيضا النارجيل وهو الجوز الهندي.. وصبيان مكة ينادون على المقل ولد الرابخ «معجم اسماء النبات ص ٦٢»

التنبل: أو تامول. هو ضرب من اليقطين.. طعم ورقه كالقرنفل وريحه طيبة يمضغونه.. وهو مشه للطعام ينبت كاللوبيا و يرتقي في الشجر «المرجع السابق ص ٢٧ــ ٢٨» راجع أيضا: البيطار: مختصر مفردات الطيب ص ١٨٨».

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى جـ٥ ص ١٢ــ ١٣، نهاية الأرب ص ١٨ Hill: op. cit.p.138

(٦) ياقوت: معجم البلدان جـ١ ص ١٩٣

(٧) بامخرمة: تاريخ ثغر عدن جـ٢ ص ١٧٣

الناخوذة: هو ربان السفينة «المرجع السابق والصفحة»

(٨) نفس المرجع والجزء والصفحة

(٩) نفس المرجع جـ١ ص ٢٠. الأترج: راجع الأترنج

توجد باليمن نباتات طبية متنوعة(١) . أما قصب السكر والاسحل فيوجد بمنطقة السراة(٢).

الخضروات :

وتزرع في معظم أنحاء اليمن ، وأهم الأنواع الموجودة به الباذنجان ، والجزر ، والقثاء ، والخيار ، والبطيخ ، والكرنب ، والملوخيا ، واليقطين ، والقرع العسلي ، والبصل ، والثوم ، والفجل ، والكرات ، كما توجد به البقوليات بأنواعها ، كالبازلاء ، والحمص ، والفول ، والعدس ، واللوبيا . وكان يكفي الانتاج حاجة البلاد ، وأسعارها زهيدة(٣).

حيوانات اليمن :

توجد باليمن أنواع مختلفة من الحيوانات . منها المستأنس ومنها المتوحش .

ومن أشهر الحيوانات الأليفة : الخيول العربية الأصيلة ، وبالذات تلك التي تربى في صحراء الجوف بشمال صنعاء ، والتي تمتاز بالسرعة والرشاقة(٤).

كما يوجد به البغال الجيدة ، والحمير ، والبقر ، وأشهر الأبقار ما يوجد بجبلان(٥) ويطلق عليها اسم البقر الجبلاني ، ذات الجلود الحرش التي كانت ترسل لصنعاء(٦) ومن حيواناته أيضا الأغنام والماعز(٧).

أما حيوانات اليمن المتوحشة فأهمها : الزرافات ، والأسود ، والغزلان ، والقردة ، وغيرها(٨).

الطيور :

أما أهم الطيور التي توجد في اليمن ، فهي الدجاج والأوز ، والحمام(٩) كما يربي أهل اليمن النحل للحصول على العسل ، وبالذات في جبلان(١٠).

صيد السمك :

اشتغل اليمنيون بصيد السمك من البحر الأحمر والمحيط الهندي ، وكانوا يطلقون على جميع أنواعه

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية جـ١٠ ص ٣٣٧ -134 Hill op. Cit .p.138.

(٢) ياقوت : المرجع السابق جـ٣ ص ٢٠٤ ، ابن جبير الرحلة ص ٨٨ ، والاسحل : شجر يشبه الأثل منابته منابت الآراك في السهول يستاك به أي بقضبانه «معجم أسماء النبات ص ١١»

(٣) القلشندي : صبح الأعشى جـ٥ ص ١٤

(٤) لوبون : حضارة العرب ص ٥٥

(٥) جيلان : من مخاليف اليمن ناحية المعافر« المقدسي : احسن التقاسيم ص ٩٠»

(٦) ياقوت : معجم البلدان جـ٢ ص ١٠٢ ، وجيلان بالضم : بلد واسع باليمن بين وادي زبيد ووادي رمع

(٧) القلقشندي : صبح الأعشى جـ٥ ص ١٥

(٨) نفس المرجع والجزء ص ١٦

(٩) نفس المرجع والجزء والصفحة

(١٠) ياقوت : المرجع السابق جـ٢ ص ١٠٢

اسم الحوت(١).

الصناعة في اليمن في العصر الأيوبي:

لقد شجع ملوك اليمن وحكامها الصناعة بها، وكانوا يجلبون إليها الصناع من أصحاب الحرف المختلفة من مصر وبلاد الشام ويقول القلقشندي: «وصاحب هذه المملكة ابدا يرغب في الغرباء، ويحسن تلقيهم غاية الإحسان، ويستخدمهم بما يناسب كلا منهم، ويتفقدهم في كل وقت بما يأخذ به قلوبهم، ويوطنهم عنده»(٢).

لذلك فقد كان أصحاب الحرف والصناعات مكرمين عند ملوك اليمن، وكل من وجد في نفسه الحذق والمهارة في إحدى الصناعات عمل بمختلف السبل على الذهاب إلى اليمن، ويقول القلقشندي نقلا عن مسالك الأبصار عن ملوك هذه المملكة: «إنهم لم يزالوا مقصودين من آفاق الأرض، قل أن يبقى مجيد في صنعة من الصنائع إلا ويصنع لأحدهم شيئا على اسمه، ويجيد فيها بحسب الطاقة، ثم يجهزه إليه، ويقصده به فيقدمه إليه، فيقبل عليه، ويقبل منه، ويحسن نزله، ويسني جائزته»(٣).

وكان الصانع إذا ما راد أن يقيم إقامة دائمة في اليمن لقى من الإكرام والترحيب مالا حد له، وان رغب في العودة، أعادوه مكرما كما أحضروه. «ما قصدهم قاصد إلا وحصل له من البر والايناس، وتنويع الكرامة ما يسلبهم عن الأوطان»(٤).

أما إذا كان الصانع قد قرر الإقامة الدائمة عندهم، فإنه كان لايسمح له بالعودة، وإن صمم على ذلك سمحوا له بشرط أن يعود كما جاء دون أن يحمل معه شيئا مما كسب عندهم عقابا له على ذلك(٥).

وساعد على تقدم الصناعة في اليمن إلى جانب ذلك توفر المواد الخام بها سواء الزراعية منها أو المعدنية، والتي كانوا يحصلون عليها بسهولة عن طريق استيرادها بواسطة التجار الذين يأتون إلى الموانىء اليمنية الهامة بكثرة.

ومن أهم الصناعات التي اشتهرت بها اليمن في ذلك العصر: صناعة دبغ الجلود، وصناعة الملابس الحريرية والصوفية والقطنية، وصناعة السيوف والخناجر وصناعة الحلي من الذهب والفضة، وصناعة الخمور، وصناعة المربى، وصناعة الاقداح وصناعة القطران.. الخ.

(١) لوبون: حضارة العرب ص ٥٦
(٢) القلقشندي غ صبح الأعشى جـ٥ ص ٣٦
(٣) نفس المرجع والجزء والصفحة
(٤) نفس المرجع والجزء والصفحة
(٥) القلقشندي: صبح الأعشى جزء ٥ ص ٣٦ ــ ٣٧

صناعة دبغ الجلود:

نظرا لكثرة نبات القرظ باليمن، ووفرة الجلود، و بالذات جلود الأ بقار الجيدة، فقد قامت صناعة دبغ الجلود، وعمل النعال في مناطق عدة من اليمن و بالذات في منطقة صعدة، التي وجدت بها ايضا مدابغ للآدم لتوفره بها(١).

كما اشتهرت صعدة بصناعة الجلود الجيدة التي كانت تستخدم في عمل قرب الماء، وكانت تصدر انتاجها إلى معظم أنحاء اليمن، وإلى الحجاز(٢).

ومن المدن التي اشتهرت بدباغة الجلود أيضا: ز بيد التي كان لجلودها صيت ذائع في مختلف الأنحاء(٣)، كما قامت صناعة دبغ الجلود في صنعاء حيث كان يورد إليها جلود البقر الجبلاني(٤).

صناعة الملابس:

اشتهرت اليمن بصناعة الملابس سواء الحريرية أو الصوفية أو القطنية، ولكن أشهرها كان صناعة الملابس القطنية التي كانت تصنع في سحول وتعرف بالسحولية وكانت تصدر إلى كافة الانحاء(٥). كما كانت تصنع الملابس في معافر وتعرف بالثياب المعافرية(٦) وكذلك كانت تصنع في صنعاء، وتقول دائرة المعارف الإسلامية: وكان بها صناعة الأقمشة اليمنية المشهورة(٧) «كما وجدت صناعة الملابس أيضا في ز بيد وفي بعض المناطق المجاورة لها» فضلا عن أن المدينة تعد مركزا هاما لحياكة الملابس هي و بيت الفقيه، و بعض أماكن صغيرة أخرى(٨).

صناعة الخناجر اليمنية:

اشتهرت اليمن بصناعة الخناجر اليمنية المقوسة و بالذات في مدينة صنعاء وكانت تلك الخناجر ذات مقابض من العظم المطعم بالفضة يحملها الناس عادة(٩). ولازالت في اليمن إلى يومنا هذا.

---

(١) ياقوت: معجم البلدان جـ٣ ص ٤٠٦، ابوالفدا: تقويم البلدان ص ٩٤، القلقشندي صبح الأعشى جـ٥ ص ٤١

(٢) دائرة المعارف الإسلامية جـ١٤ العدد الأول ص ٢٠٤

(٣) نفس المرجع جزء ١٠ ص ٣٣٧

(٤) ياقوت: معجم البلدان جـ٢ ص ١٠٢

(٥) ياقوت: المرجع السابق جـ٣ ص ٩٥ أوسحول: بضم أوله وآخره لام قرية من قرى اليمن أما الحجري فيذكرها السحول بتشديد السين مع الفتح: مدينة بين آب والمخاذات تربة خصبة وإليها تنسب الثياب السحولية وهي ثياب قطن «جغرافية اليمن جـ١ ص ١٣»

(٦) ياقوت: المرجع السابق جـ٥ ص ٥٣، والمعافر: هو المخلاف الذي يعرف الآن بالحجرية في الشمال الغربي لصنعاء على مسافة يومين «الحجري: جغرافية اليمن جـ٢ ص ١٧١»

(٧) دائرة المعارف الإسلامية جـ١٤ ص ٣٤٥

(٨) نفس المرجع جـ١٠ ص ٣٣٧

(٩) نفس المرجع جـ١٤ ص ٤٤٥

صناعة السيوف:

وجدت باليمن أيضا صناعة السيوف، وأشهرها كانت السيوف البيلمانية التي تصنع في بيلمان[1].

صناعة الرماح:

واشتهرت بعض مناطق اليمن كصعدة بصناعة الرماح ذات المقابض الحديدية وذلك لوجود خام الحديد بالقرب منها[2].

صناعة الأقداح:

وجدت صناعة الأقداح في اليمن في جيشان، لذلك يطلق عليها اسم الأقداح الجيشانية[3].

صناعة الخمور:

توجد في اليمن صناعة النبيذ وذلك لوجود نبات الدادي بأسيوت[4]، كما توجد صناعة الخمور في اثافت، وتوجد بها معاصر لها.

قال الأصمعي: وقفت باليمن على قرية فقلت لامرأة: بم تسمى هذه القرية؟

فقالت: أما سمعت قول الشاعر الأعشى:

أحب اثافت ذات الكرو   م عند عصارة اعنابها[5]

واشتهرت اليمن بصناعة الخمور لكثرة أعنابها.

صناعة المربى:

وهي التي يطلق عليها أيضا اسم «معقدات الفاكهة» التي قال عنها الدكتور ابوزيد شلبي: «كان لأهل اليمن افتنان في صناعة معقدات الفاكهة من اترح وجزر وقرع، وخوخ ونحوها مما إذا شرع الجاهل في أكله قضم بعض أنامله كما كان لهم الشهد الجامد الذي يقطع بالسكاكين.. ولهم في عمله طريقة خاصة»[6].

(١) ياقوت: معجم البلدان جـ١ ص ٥٣٤، و بيلمان من أرض اليمن

(٢) دائرة المعارف جـ١٤ العدد الأول ص ٢٠٤

(٣) ياقوت: المرجع السابق جـ٢ ص ٢٠٠ وجيشان بالفتح ثم السكون وشين معجمة والف ونون باليمن. أما الحجري فيقول هي: قرية من مريس قرب قعطبة شمالي لحج وقرب بلاد يافع: «معجم جـ١ ص ١٥٥»

(٤) ياقوت المرجع السابق جـ١ ص ١٩٣

(٥) ياقوت: معجم البلدان جـ١ ص ٨٩

(٦) تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٣٠٧

صناعة الآجر والزجاج :

كانت صناعة الآجر والزجاج في لخبة ومنها كان ينقل إلى عدن(١) .

صناعة القطران :

نظرا لوجود شجر العرعر والاثرار والذي كان يكثر في نهبان ، فقد قامت عليه صناعة القطران في تلك المنطقة(٢) .

صناعة الحديد :

نظرا لوجود خام الحديد في رغافه ، لذا وجد بها صناعة سبك الحديد حيث كان يوجد بها خمسة عشر كيرا لسباكته(٣) .

صناعة الحلي :

كانت تصنع الحلي في اليمن من الذهب أو الفضة ، وكانت تكثر صناعتها في القفاعة قرب صعدة ، وفي صنعاء لوجود خام الذهب بها(٤) .

صناعات متنوعة :

كان يوجد باليمن عدة صناعات أخرى أقل أهمية كصناعة الغزل ، وصناعة الأخشاب التي كانت تؤخذ من أشجار الطلح والروم (٥) .

معادن اليمن :

اشتهرت اليمن ببعض المعادن الثمينة التي لا توجد إلا في القليل من البلاد . كالعقيق الذي يؤخذ منه الجزع(٦) . الذي يكون والعقيق داخل حجارة كالصدف له قشرة رقيقة إذا حكت خرج منها العقيق والجزع .

ومن أشهر أنواع الجزع في اليمن والذي لامثيل له الجزع البقراني الذي ينسب إلى بقران ، حتى ليقال ان الفص منه بلغت قيمته في ذلك الوقت ــ العصر الأيوبي ــ مائة دينار (٧)

---

(١) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ١ ص ٢١ ــ ٢٢ ، ولخبة : بلام ثم خاء معجمة ثم موحدة مفتوحات ثم هاء : موضع بظاهر عدن أبين

(٢) ياقوت : المرجع السابق جـ٥ ص ٣١٤ ، والعرعر : شجر السرو ، وقيل هو الساسم و يقال له الشيزي و يقال هو شجر يعزل به القطران « معجم اسماء النبات ص ١٠٠ »

(٣) ياقوت : معجم البلدان : جـ٣ ص ٥٣ ، ورغافة قرية على مرحلة من صعدة باليمن

(٤) نفس المرجع جـ٤ ص ٣٨٠

(٥) دائرة المعارف جـ١٤ العدد الأول ص ٣١٤ ، ٣٤٥

(٦) الجزع : خرز فيه سواد و بياض « المنجد ص ٩٠ »

(٧) ياقوت : معجم البلدان جـ١ ص ٤٧١ ، و بقران ثلاث فتحات ــ وقد تكسر القاف وربما سكنت من مخاليف اليمن لبنى نجيد « راجع أيضا ابن عبدالحق مراصد الاطلاع جـ١ ص ٢١١

ومن أنواعه أيضا الجزع الظفاري الذي ينسب إلى ظفار القريبة من صنعاء كما يوجد في شبام(١) أما أجود أنواع العقيق فيوجد في مقرى(٢). وهناك أنواع مختلفة من العقيق، كالعرواني، والفارسي، والحبشي، والمعسل، والمعرق(٣) وغيرها. إلا أن الأنواع التي ذكرناها هي أجود الأنواع.

أما الذهب فيوجد بالقفاعة بالقرب من صعدة(٤)، كما يوجد في اليمن معدن البردخر أو اللازورد، في الحز في منطقة السراة بين تهامة واليمن(٥).

ومن المعادن أيضا: معدن الحديد في جبل الحديد(٦)، وفي رغافة وتقول دائرة المعارف الإسلامية: «وكانت تصنع في صعدة أيضا الرماح الجيدة ونصالها ولاشك أنه كان يستخدم في تلك الصناعة حديد كان يجلب إلى صعدة من النواحي المجاورة على هيئة تراب، ثم يعالج فيها، ولا يزال الحديد موجوداً قرب صعدة في القفاعة»(٧).

واننا نرى أن الحديد كان يأتي إلى صعدة كمواد خام أحيانا وتجري تنقيته فيها كما ذكرت دائرة المعارف الإسلامية، كما كان يأتيها أحيانا أخرى نقيا مسبوكا من رغافة حيث كان بها خمسة عشر كيرا لسبك الحديد(٨).

ومن معادن اليمن أيضا اللؤلؤ الذي كان يوجد في عدن(٩). وكذلك يوجد معدن الملح بمأرب، حيث كان يوجد بها جبل من الملح في الأرض يحفرون عليه، و يأخذون منه ما يحتاجونه، و يوزعونه في أنحاء اليمن، وقد كانت عملية الحفر لاستغلال الملح خطرة، إذ أن الحفارين كانوا يضطرون إلى الحفر أحيانا مسافات طويلة، وكان ينتج عن ذلك انهيار الجدران عليهم فيلقون حتفهم(١٠).

كذلك توجد في اليمن عدة أنواع من المعادن الأقل أهمية و بالذات في منطقة بيش وغيرها(١١).

---

(١) ياقوت: المرجع السابق جـ٤ ص ٦٠. وشبام: جبل منيع جدا فيه قرى ومزارع وسكانه كثير وهو مشهور من جبال اليمن «الاصطخري: الأقاليم ص ١٤ راجع أيضا القلقشندي: صبح الأعشى جـ٥ ص ٤٣»

(٢) ابن عبدالحق: المرجع السابق جـ٣ ص ١٣٣٧ ومقرى بالضم والسكون وراء الألف مكسورة بلد باليمن

(٣) الهمذاني: مختصر كتاب البلدان ص ٣٦

(٤) ياقوت: معجم البلدان جـ٤ ص ٣٨٠

(٥) نفس المرجع جـ٢ ص ٢٥٢، والح. بالفتح ثم التشديد: موضع بالسراة

(٦) بامخرمة: تاريخ ثغر عدن جـ١ ص ١٨، وجبل الحديد على بعد ربع فرسخ من المياه

(٧) دائرة المعارف جـ١٤ العدد الأول ص ٢٠٤

(٨) ياقوت: معجم البلدان جـ٣ ص ٥٣

(٩) الاصطخري: الأقاليم ص ١٤

(١٠) ياقوت: المرجع السابق جـ٥ ص ٦٨

(١١) نفس المرجع جـ١٠ ص ٥٢٨
و بيش: بالشين المعجمة: من مخاليف اليمن فيه عدة معادن وهو واد فيه مدينة يقال لها ابوتراب: وهي ملك الأشراف بني سليمان الحسينيين «نفس المرجع والجزء والصفحة»

التجارة في اليمن في العصر الأيوبي :

نظرا لموقع اليمن الاستراتيجي في الجزء الجنوبي الغربي لقارة آسيا وشبه الجزيرة العربية ، على بحرين من أهم بحار العالم في ذلك الوقت ، وهما البحر الأحمر ، و بحر العرب الذي هوجزء من المحيط الهندي ، فقد انتعشت التجارة به انتعاشا كبيرا ، واقيمت عدة موانىء على سواحله . كانت تعتبر حلقة وصل بين الشرق والغرب . وقد استفادت من هذا الموقع فوائد كبيرة مما اطمع فيها الدول الأخرى التي سعت للسيطرة عليها .

المكوس وكيفية جبايتها :

كانت البضائع التي ترد إلى اليمن نوعين : نوع يؤخذ عليه المكوس ـــ أو العشور كما كانت تسمى ـــ ونوع آخر لامكوس عليه . أما المكوس فكان يتم تحصيلها لخمسة جهات : مال الفرضة ، وعشور الشواني ، وعشور دار الوكالة ، وعشور دار الزكاة ـــ وهاتان تأسستا سنة ٦٢٥ هـ/١٢٢٨م ـــ والدلالة(١) .

ولقد استجد العمل بهذه المكوس زمن بنى زريع ، وكان أول من سنها خلف اليهودي النهاوندي ، وعنها أخذت الدول الأخرى(٢) .

كما اختلفت المكوس باختلاف السلع التي كانت تحصل عنها . فقد كان يؤخذ على بهار الفلفل ثمانية دنانير شواني ، وخروجه على الفرضة ديناران .

وعلى قطعة النبل اربعة دنانير، وشواني خروجه من الفرضة ربع دينار وعلى بهار الانكزة وهو الحلتيت . ثمانية دنانير. وعلى بهار قشر المحلب ثلاثة دنانير ونصف .

وعلى بهار الطباشير(٣) احدى وعشرون دينارا إلا ثلث ، ودينار شواني

وعلى عود الدفواء نصف المبلغ . وعلى فراسلة الكافور خمسة وعشرون وثلثا دينار وعلى بهار الهيل سبعة دنانير، وعلى فراسلة القرنفل عشرة دنانير، وشواني دينار وعلى الفراسلة عشرة امنان عنها عشرون رطلا . وعلى فراسلة الزعفران ثلاثة دنانير وثلث وعلى بهار الكتان سبعة دنانير ونصف ، وإذا بيع مركب اخذ من بائعه عشرة في المائة .

(١) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن جـ١ ص ٥٨

(٢) نفس المرجع والجزء والصفحة

(٣) بهار الانكزة : هو الحلتيت ، هو ابو كبير بعامية مصر . عصارة متجمدة لنبات الانجذان « معجم اسماء النبات ص ٤٤ هامش ١ » و يقول ابن البيطار انه : صمغ يجلب من أرض قورينا وهو حريف وأجوده ما كان إلى الحمرة أميل وكان صافيا « مختصر مفردات الطبيب ص ١٩٣ » بهار الطباشير: قالوا هو دواء يكون في جوف القنا الهندي أو هو رماد اصولها المحرقة وفلوسه التي في جوف قصبه مستديرة كالدرهم ، قالوا وانما يوجد هذا فيما احترق منه بنفسه لاحتكاك بعضه ببعض أو احتكاك أطرافه عند عصوف الرياح فيخرج منه الطباشير وهو معرب « المرجع السابق ص ٩٣ »

بهار نبت طيب الرائحة و يقال له عين البقر أو بهار البر « المنجد ص ٥١ »

وعلى الحديد يؤخذ نصف العشر، وهذا استجد زمن السلطان سيف الاسلام طغتكين بن ايوب، الذي أخذ ذلك عن أبي الحسن البغدادي سنة ٥٩٨ هـ/١٢٠٢ م

و يؤخذ على اللال الربع، أو الثلث وديناران استظهارا وعلى بهار الفوه(١) اثنا عشر دينارا، وهذا استجد زمن السلطان المعز اسماعيل بن طغتكين، وكان يؤخذ عليه قبل ذلك ديناران أو ثلاثة. وعلى بهار الحمر(٢) وهو القفر اليهودي ــ ثلاثة جوز(٣) وعلى العشرة مقاطع ديناران ونصف. وعلى العشر عقدات ثلاثة ارباع دينار، وعلى رأس الضأن ربع دينار. وعلى الحصان إذا دخل البلد خمسون دينارا، وهذا استجد أيام الناصر أيوب بن طغتكين، و يؤخذ في خروجه إلى البحر سبعون دينارا. وعلى الرأس من الرقيق ديناران، وإذا خرج من الباب نصف دينار. وعلى العويلي ــ وهو ضامن دار النبيذ ــ نصف دينار. وعلى شقق الحرير من عمل زبيد نصف دينار وجائز. وعلى الثوب الظفاري ربع وجائز. وعلى الشقة البيضاء ثمن دينار. وعلى السويسى ثلاثة قراريط(٤)، وعلى كورجه الثياب الخام الهندي ديناران وعلى كل قفة ذرة ثمن دينار(٥).

أما عشور الشواني فإنها استحدثت في اليمن في عهد السلطان توران شاه وكانت تؤخذ من التجار مقابل قيام تلك الشواني بحراسة سفنهم من القراصنة(٦) كما كان بعض السلاطين يأخذون تلك العشور من التجار دون خروج تلك الشواني لحماية سفنهم(٧).

ولكن الملك المسعود بن الكامل قرر عدم أخذ تلك العشور إلا إذا خرجت الشواني لحماية مراكب التجار(٨).

اما الأشياء التي لم تكن تؤخذ عليها العشور، فكانت السلع التي ترد من مصر كالقمح والدقيق والصابون، والأشنان(٩) وزيت الزيتون، وزيت الحار، والزيتون المملح(١٠).

---

(١) بهار الفوه: عروق رقاق طوال حمر يصبغ بها «معجم أسماء النبات ص ١٢٠»

(٢) بهار الحمر: أو القفر اليهودي: هو كصرد التمر الهندي وهو بالسراة كثير كذلك ببلاد عمان وورقه مثل ورق الخلاف الذي يقال له البلخي: يطبخ به الناس وشجرة عظام مثل شجر الجوز وثمرة قرون مثل ثمر القرظ «معجم أسماء النبات ص ٤٦»

(٣) كان الدينار المعمول به في اليمن الدينار الملكي يساوي الدينار المصري منه أربعة دنانير ونصف والدينار يقسم إلى أربعة أرباع كل ربع ثلاثة جوز وكل جائز ثمانية فلوس، وكل فلس بيضتين وكان أول من ضرب به أحمد بن على الصليحي في صنعاء «بامخرمة: تاريخ ثغر عدن جـ١ ص ٦٥»

(٤) القيراط نصف دانق معرب كيراتون باليونانية، وقيل القيراط بمكة ربع سدس دينار «**محيط المحيط**»: المجلد الثاني ص ١٦٩٣

(٥) بامخرمة: تاريخ ثغرعدن جـ١ ص ٥٨ ــ ٦١

(٦) نفس المرجع ص ٦١

(٧) نفس المرجع والجزء والصفحة

(٨) نفس المرجع والجزء ص ٦٢

(٩) الأشنان: هو المعروف بأبي حلسا أو الزوفا، تغسل به الثياب والأيدي «ابن البيطار: مختصر مفردات الطيب ص ١٨٢، معجم اسماء النبات ص ١٢»

(١٠) بامخرمة: المرجع السابق والجزء ص ٦٢

كذلك كان يعفى من العشور ما يجلب من الهند بواسطة البحر كالأهليلج (١) المربى، والمخاد، والانطاع، والأرز الكحلي، والماشي(٢) المخلوط والسمسم والصابون، ومن البضائع حطب القرنفل، والثياب العرابية التي تعمل في بادقله(٣) ومن ثمار الشجر: التمر المقلف الذي استخرج نواه (٤).

كذلك السمك المملح إن كان بلا رأس، أما إذا كان برأس فيدفع العشور والنعال الهندية، وأنواع الماعز التي كانت تدفع العشور حتى زمن الداعي عمران بن سبأ(٥) الذي أمر بإلغائها(٦) كذلك لا تؤخذ العشور على الخرز المجلوب من الديبل، أو على الغلمان الشودريين الذين كانوا يجلبون من شودرة بالهند (٧).

هذا وقد كانت العشور تصل أحيانا إلى أكثر من قيمة الشيء بل إلى أضعافه(٨). وكان أمير عدن يستطيع أن يضمن(٩) كل ما فيها ما عدا السمك والماء، كما كان يحق له الزيادة في الميزان وأن يغير المكاييل كما حدث سنة ٦٢٥ هـ/١٢٢٨م(١٠) عندما غير الأمير ابن فاروت جميع مكاييل عدن وجعلها كزبيد والجند، كما زاد في الميزان سدس بهار (١١) عما كان عليه سابقا.

(١) الأهليلج: هو معرب هليلة الواحدة أهليلجة «ثمر معروف» معجم اسماء النبات ص ١٥

(٢) الماش: حب معروف مدور اصفر من الحمص، اسمر اللون يميل إلى الخضرة يكون بالشام و بالهند، يزرع زرعا «نفس المرجع ص ١٤٢»

(٣) بامخرمة: تاريخ ثغر عدن جـ١ ص ٦٢

(٤) نفس المرجع والجزء والصفحة

(٥) عمران بن سبأ: هو حاكم عدن الزريعي، وأحد دعاة الاسماعيلية بها، توفي سنة ٥٦٠ هـ/١١٦٥م بامخرمة: تاريخ ثغر عدن جـ٢ ص ١٨٧.

(٦) يروى أن سبب الغائها انه كانت قد قدمت سفارة من الحبشة إلى عدن بأغنام و بينما العدادون يعدونها جاء تيس وجلس وراء الداعي عمران بن سبأ فأرادوا عده مع الغنم، فقال لهم معاذ الله ان نأخذ عليه شيئا إنه قد استجارني وقد رأى الداعي لحيته

فقال: معاذ الله ان يوزن على لحيته عشور «بامخرمة: تاريخ ثغر عدن جـ٢ ص ٦٢ــ ٦٣ ولكننا نرى أن سبب الغائها عدم رفع أسعار اللحوم بها لأن كل شيء كان يجلب إلى عدن وكانت الأسعار بها مرتفعة

(٧) المرجع السابق والجزء ص ٦٣

(٨) من ذلك ما حدث مع الناخوذة ــ ربان السفينة عثمان بن عمر الأمدي الذي حضر إلى عدن ومعه منان عود، فأخذوهما منه وعندما حان موعد دفع المكوس عليهما قدر المن بستة دنانير أي نصف القيمة، ودينارين ونصف دينار ضريبة شواني، وثمانية دنانير ودانقين للوكالة التي قدرتها بخمسة وعشرين دينارا ودينار وربع زكاة، ونصف دينار دلالة فيصبح المطلوب منه حوالي خمسة عشر دينارا، يخصم منها ستة دنانير قيمتها فعليه أن يدفع من عنده إذا تسعة دنانير وكاد يجن جنون ابن فاروت وتدخل في ذلك الأمير ناصر الدين بن فاروت وجماعة من الأعيان و بينوا انه رجل كثير التردد على عدن، و يستفيدون منه. لذا قرروا ان لايدفع شيئا و يؤخذ منه منا العود «بامخرمة: تاريخ ثغر عدن جـ٢ ص ٦٢ــ ٦٤

(٩) الضمان: معناه أن يلتزم شخص للحكومة بأن يدفع لها مقدما المال الذي يجبى من جهة معينة في مقابل ان تسمح له الحكومة بجباية هذا المال بمعرفته هو، فإن زاد المال الذي يجمعه عن المال الذي يدفعه للحكومة كانت له هذه الزيادة، وان نقص فعليه هذا النقص. وكان الضامن يحرص على أن يزيد المال الذي يجبيه عن المال الذي يدفعه للحكومة ليحقق من وراء ذلك أكبر ربح ممكن. «القلقشندي: صبح الأعشى جـ٢ ص ٤٦٦، دكتور حلمي سالم اقتصاد مصر ص ٢٨٥ــ ٢٨٦

(١٠) بامخرمة: تاريخ ثغر عدن جـ١ ص ٦٤ــ ٦٥

(١١) البهار: وحدة وزن تساوي ثلا ثمائة رطل «المقدسي: احسن التقاسيم ص ٩٩»

كيف كان يتم تفتيش الراكب ومعاملة التجار؟:

كان بعض سكان عدن يخرجون إلى الجبل الأخضر المجاور للمدينة لاستطلاع المراكب القادمة إلى الميناء ــ عند طلوع الشمس وغروبها ــ لأنه في هذه الأوقات يقع شعاع الشمس على سطح البحر، فيضع الناظر عودا أمامه ينظر على مستواه فإذا رأى شيئا في البحر قاس ذلك الشيء على العود، فإذا كان طائرا أو ما إلى ذلك تحرك بسهولة يمينا أو يسارا، إلى أعلى أو إلى أسفل، فيعرف انه ليس مركبا أما إذا كان خيال ما يرى مستقيما على فيء العود تأكد له أنه مركب فيصيح إلى صاحبه هيريا هيريا، فيرد عليه بمثل ذلك، و يشير بعد ذلك إلى الجراب ــ المسؤول عن استطلاع السفن ــ بمثل ذلك، فيذهب بدوره ويخبر الوالي بقدوم احدى السفن، ثم يذهب إلى مشايخ الفرضه و يعلمهم بذلك، ثم يصعد إلى قمة الجبل و ينادي بأعلى صوته: هيريا هيريا فإذا سمع العامة صوته صعد كل منهم إلى جبل من الجبال المحيطة بعدن أو على المنازل يستطلعون صحة ذلك، فإن كان صحيحا يعطى دينارا ملكيا عن كل مركب من الفرضة، وإن كان كاذبا يجلد عشر جلدات.

وإذا اقتربت المركب من الشاطيء ركب المبشرون الصنابيق ــ نوع من السفن الصغيرة للقائها، ثم يصعدون إليها، و يسلمون على الناخوذة و يسألونه من أين قدم و يسألهم بدوره عن والي البلد، وأسعار البضائع و يتعرفون على بعض أهل البلد القادمين على السفينة و يهنئونهم بسلامة الوصول أو يعزونهم في وفاة قريب أو صديق، و يسجلون أسماء من على المركب من النوخذة والتجار، كما يجردون جميع ما على المركب من بضائع وأمتعة وما إلى ذلك. ثم ينزل المبشرون بصنابيقهم إلى الساحل، و يذهبون إلى الوالي، و يقدمون إليه سجلات اسماء الركاب والبضائع. و يعرفونه بأخبار المركب ومن أين جاءت، وما بها من بضائع وغيرها. ويخرجون إلى البلد يبشرون أهالي من وصل من ذويهم ليأخذوا بشارتهم على ذلك. وعندما يصل المركب إلى المرسى و يرسو يتقدم لاستقبالهم نائب السلطان(١).

بعد ذلك يصعد المفتشون إلى المركب يفتشون التجار والبضائع و يبدو انه لم يكن هناك فرق بين المفتشين سواء في الموانيء المصرية أو الحجازية أو اليمنية إذ نرى المفتشين في اليمن كما سبق أن رأينا مفتشى الحجاز غلاظ الطبع. جفاة لا أخلاق لهم، لايتركون صغيرة ولا كبيرة إلا و يقومون بتفتيشها، كما يتم تفتيش جميع الركاب الرجال منهم والنساء تفتيشا ذاتيا، يبين لنا ذلك بامخرمة بكل توضيح عندما يقول: «يصعد المفتش يفتش رجلا بعد رجل، و يصل التفتيش إلى العمامة والشعر والكمين، وحزة السراويل، وتحت الاباط و يضرب بيده على حجزة الإنسان، و يدخل يده بين إليتيه، و يشتمه على قدر المجهود وكذلك عجوز تفتش النساء تضرب بيدها في اعجازهن وفروجهن، وإذا نزلت التجار إلى البلد نزلوا بدبشهم من الغد»(٢).

(١) بامخرمة: تاريخ ثغرعدن جـ١ ص ٥٦ ــ ٥٨

(٢) نفس المرجع والجزء ص ٥٨. والدبش: اثاث البيت أو سقط المتاع «المنجد ص ٢٠٦»

يبدو أن التجار كانوا قد بدأوا كما سبق أن أوضحنا عند كلامنا عن الحجاز إلى اللجوء إلى وسائل التهريب مما كان يضطر المفتشين إلى التفتيش الدقيق وهذا من واجبهم، لكن كان من المفروض تفتيشهم بلطف دون اللجوء إلى الشتائم أو إلى ما يسيء إلى التجار.

و بعد ثلاثة أيام من وصول السفينة تنزل الأمتعة والبضائع إلى الفرضة ويجري تفتيشها قطعة قطعة، وتعد ثيابها ثوبا ثوبا، كما كان يوزن البهار بالقبان و يبحثون عن كل صغيرة وكبيرة، ولايتركون شيئا إلا بعد تفتيشه بكل دقة، وكما يقول بامخرمة: «وقد عاهدوا الله عز وجل أن يبذلوا المجهود قدام المشايخ»(١).

وكان التجار على اثر ذلك يصيبهم الأسى والحزن والألم والندم لمجيئهم إلى ذلك الميناء لما يلاقونه من شدة وعذاب «وحينئذ يظهر على التاجر الحراف و يقتله الحزن، و يبقى في وادي الدبور بما يعملون معه من الفعل الذي يطير منه البركة والسعادة»(٢).

وكان يحصل من تلك السفن والمراكب عشور طائلة. حتى لقد بلغت عشور مركب واحد ثمانين الف دينار، وكان يصل إلى ميناء عدن في العام مابين سبعين إلى ثمانين مركبا. كان يؤخذ منها أربع خزائن تحمل إلى حصن تعز «خزانة قدوم المركب من الهند، وخزانة دخول القوة إلى عدن، وخزانة خروج الخيل من عدن إلى الهند، وخزانة سفر المراكب إلى الهند» وكان جملة ما تحويه كل خزانة مائة وخمسين الف دينار(٣).

وإذا سارت المراكب إلى موانىء الحجاز أو مصر، كان التجار يدفعون الزكاة على ما يحملونه من ذهب وفضة، وعلى ما يحضرونه معهم من بضائع وحال عليه الحول.

هذا وقد اصبح مرتب السلطان بعد ذلك عشر قيمة البضائع وقد ورد سنة ٥٧٧ هـ/١١٨١م تجار الكارم(٤) ـــ العنبر الأصفر ـــ إلى فندق خاص بهم في الفسطاط من عدن، فطلبت منهم زكاة اربع سنين(٥).

وقد جنى حكام اليمن وولاتها من تلك المكوس اموالا طائلة، بالذات مما كانوا يأخذونه من التجار القادمين من مصر والحبشة و بلاد الشرق ـــ كالهند والسند والصين ـــ والحجاز(٦) حيث كان يأتي التجار من تلك النواحي محملين بالبضائع المختلفة.

(١) بامخرمة: تاريخ ثغر عدن جـ١ ص ٥٨
(٢) نفس المرجع والجزء والصفحة
(٣) نفس المرجع والجزء ص ٦٥
(٤) تجار الكارم: هم تجار العنبر الأصفر، وكان للتجار فندق خاص بهم في الفسطاط «القلقشندي: صبح الأعشى جـ٣ ص ٤٦٩»
(٥) المقريزي: السلوك جـ١ قسم ١ ص ٧٢، القلقشندي: صبح الأعشى جـ٣ ص ٤٦٩
(٦) القلقشندي: المرجع السابق جـ٥ ص ٦، ١١

أهم موانىء اليمن : ميناء عدن :

كان ميناء عدن الواقع عند مفتاح البحر الأحمر الجنوبي أهم الموانىء اليمنية حيث كانت تأتيه السفن من مختلف الأنحاء . لذا كان سكان عدن يعملون بالتجارة ويحصلون من وراء ذلك على ارباح طائلة .

وكان هناك مواسم لوصول المراكب إلى ميناء عدن والسفر منه . وكان إذا أراد ناخوذة السفر إلى جهة من الجهات اعلن في البلد عن ذلك فيتوافد عليه التجار ببضائعهم وعبيدهم . ووصف القلقشندي الدعاية للسفر بقوله : «إذا أراد النوخذة السفر . . أقام فيها علما برنك خاص(١) به فيعلم التجار بسفره ، و يتسامع الناس ، فيبقى كذلك أياما ، و يقع الاهتمام بالرحيل ، وتسارع التجار في نقل بضائعهم ، وحولهم بالقماش السرى والاسلحة النافعة ، وتنصب على شاطىء البحر الاسواق ، ويخرج أهل عدن للتفرج هناك»(٢) .

وكانت عدن من الموانىء التي تغلوبها أسعار السلع الضرورية خصوصا المواد الغذائية لأن كل شيء يجلب إليها ولا زراعة فيها . وهي من المدن الحارة بحيث يحتاج المقيم بها إلى ما يبرد به نفسه أثناء النهار في فصل الصيف ، ورغم وخامتها وغلوها إلا أن المقيمين بها لا يبالون بذلك لكثرة ما يعود عليهم من الأموال .

ميناء غلافه :

هو مرسى زبيد ، يبعد عنها حوالي خمسة عشر ميلا ، تقصدها السفن التي تحمل البضائع والتجار إلى زبيد ، خصوصا من موانىء مصر الواقعة على البحر الأحمر ومن الحجاز ، خصوصا من مينائي جدة والجار ، أو من موانىء الحبشة ، والصومال وكذلك تصل إليها السفن القادمة من الشرق ، خصوصا من الصين والهند والديبل وغيرها(٣) وكانت في العصر الأيوبي ميناء عامرا .

ميناء مرباط :

هو مرسى مدينة ظفار ، و يبعد عنها حوالي خمسة عشر ميلا . وهو من الموانىء الهامة على بحر العرب ، وكانت ترسوبه السفن التي تأتيه من مختلف الانحاء بالذات السفن القادمة من الشرق ،

---

(١) الرنك : هو الشعار أو العلامة المميزة التي تظهر على الاختام أو الدروع أو على ملابس النجلاء أو الجند أو على الأغلام ، وكانت تستخدم للدلالة على وظائف أرباب السيوف ، ومن هذه العلامات : الكاس ، والسيف ، والدواة ، والنسر ، والهلال والصليب وزهرة الزنبق وغيرها

وقد نمت تلك الرنوك وتقدمت في فترة الحروب الصليبية تبعا للظروف فاستلزم تجمع فرق الجيش من شعوب مختلفة التمييز بينهم حتى لايقع الخلط والاضطراب في صفوفهم وكذلك أصبح للنبلاء والوزراء والقضاة وكبار الموظفين ورجال الكنيسة و بعض المدن ونقابات المهن والحرف علامات خاصة بها Mayer Saracenic Heraldry.p.p 26-32

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى جـ٥ ص ١١

(٣) ياقوت الحموي : معجم البلدان جـ٤ ص ٦٤ ، القلقشندي : المرجع السابق والجزء ص ١٢

و يقول ياقوت الحموي عنه : « ولمر باط مرسى جيد كثر ذكره على أفواه التجار»(١) .

ميناء ظفار:

لم يكن لميناء ظفار أية أهمية حتى سنة ٦١٩هـ/١٢٢٢م لوجود ميناء مرباط القريب منه. ولكن الناخوذة احمد بن محمود الحميري قام في هذا العام بتدمير مدينة ظفار القديمة، و بناء مدينة جديدة على الساحل سماها الأحمدية وهي مدينة على ساحل خور داخل في البر، ومدينة ظفار على طرفه، ولا تستطيع المراكب الخروج من ذلك الميناء إلا إذا هبت رياح قوية من جهة البر، ومنه تقلع السفن إلى الهند وغيرها من بلاد الشرق(٢) .

موانىء صغيرة:

كانت توجد باليمن إلى جانب الموانىء الرئيسية التي ذكرناها عدة موانىء صغيرة مثل ميناء مندب(٣) ، وميناء دهلك(٤)، وميناء سرحه(٥) وميناثي شبومة والشحر(٦). ومن المعتقد أن بعض السفن التي كانت تأتي من مصر والحجاز والحبشة أو من بلاد الشرق كانت ترسو في هذه الموانىء أحيانا، خصوصا إذا ما كانت تواجهها أية مصاعب ملاحية في البحر.

وقد وصف بامخرمه خروج التجار من مراكبهم بعد رحلة مضنية عبر البحر وما كانوا يلاقونه من الشدائد والأهوال نقلا عن ابن المجاور بقوله :

« وخروج الانسان من البحر كخروجه من القبر، والفرضة كالمحشر فيه : المناقشة والمحاسبة، والوزن، والعدد، فإن كان رابحا طاب قلبه وإن كان خاسرا اغتم، فإن سافر في البر، فهو من ذات أهل اليمين، وإن رجع في البحر فهو من ذات أهل الشمال، وإذا كان هذا حال المخلوق في عالم الكون والفساد مع مخلوق كذا، فكيف حال المخلوق بين يدي الخالق غدا »(٧).

---

(١) ياقوت: معجم البلدان جـ٤ ص ٢٠٨، ابو الفدا: تقويم البلدان ص ٨٨، وغلافقة : بالفتح: بلد على ساحل بحر اليمن مقابل زبيد وهي مرسى زبيد

(٢) ياقوت: المرجع السابق جـ٥ ص ٩٧

(٣) ابن الأثير: الكامل جـ٩ ص ٢٦٦

مندب: بالفتح ثم السكون وفتح الدال والباء موحدة. هو اسم ساحل مقابل لزبيد باليمن «ياقوت: المرجع السابق والجزء ص ٢٠٩»

(٤) دهلك بحذاء مخلاف عك باليمن «ابن خرداذبه: المسالك والممالك ص ١٤٢»

(٥) سرحة: بلفظ واحد السرح: مخلاف باليمن. وهو أحد مراسي البحر هناك «ياقوت: المرجع السابق جـ٣ ص ٢٠٨»

(٦) شبومة والشحر: فرضتان على ساحل بحر حضرموت «الأنصاري: نخبة الدهر ص ٢١٧ — ٢١٨»

(٧) تاريخ ثغر عدن جـ١ ص ٤٨

الباب الثالث

الحياة الدينية والفكرية في الحجاز واليمن في العصر الأيوبي

الفصل الأول : في الحجاز .

الفصل الثاني : في اليمن .

الفصل الأول
الحياة الدينية والفكرية في الحجاز

المذاهب الدينية التي سادت الحجاز في العصر الأ يوبي:

خضع الحجاز ولو اسميا للأ يو بيين بعد الحكم الفاطمي الذي دام بها حوالي قرن من الزمان. وقد كان حكامه من الأشراف سواء الحسنيون في مكة أو الحسينيون في المدينة المنورة يعتنقون المذهب الشيعي الزيدي. كما انتشر هذا المذهب في ر بوع الحجاز المختلفة خصوصا في ينبع وجدة وغيرهما لانتشار الأشراف في هذه النواحي. وإن كان من بين هؤلاء من كان يعتنق المذهب الجعفري.

و بعد مجيء الأ يوبيين إلى الحكم ابقوا حكام الحجاز من الأشراف على حالهم مع الاكتفاء منهم بالخطبة للعباسيين وللأ يو بيين على المنابر. وإن كان بعض اولئك الحكام ــ و بالذات حكام مكة قد حاولوا التمرد، واعتبار انفسهم أحق بالخلافة من العباسيين كما فعل الأمير قتادة إلا أنهم لم ينجحوا في ذلك و بقيت تبعيتهم للعباسيين.

وقد اختلف الوضع في مكة عنه في المدينة، إذ نرى الأ يو بيين قد تدخلوا تدخلا مباشرا في كثير من الأحيان في شؤون مكة، في حين لم يحدث مثل ذلك في المدينة كما أن مكة قد خضعت في بعض الأحيان للأ يو بيين خضوعا مباشرا كما سبق أن بينا في حين لم يحدث أن خضعت لهم المدينة مباشرة.

وكان من نتائج ذلك الوضع في مكة أن اصبح للمذاهب السنية أهمية كبيرة بها. حتى لقد اصبح للحرم المكي خمسة أئمة. منهم ار بعة سنيين وخامس زيدي.

وكان ائمة السنة مرتبين على النحو التالي:

الأ ول: هو الامام الشافعي. وهو الذي قدمه الخليفة العباسي. وقد ساعد على انتشار المذهب الشافعي في مكة في ذلك الوقت أن الأ يو بيين كانوا شافعيين، وقد شجعوا منذ اقامة دولتهم في مصر على انتشار هذا المذهب في كافة انحاء مملكتهم.

بالاضافة إلى أن كبير أئمة الحرم كان شافعيا. فقد وجد بمكة عدد كبير من الفقهاء والقضاة والعلماء الذين يعتنقون هذا المذهب، و يعملون على نشره. وكان الامام الشافعي أول من يصلي في الحرم. وكان مقامه خلف مقام ابراهيم عليه السلام(١).

(١) ابن جبير: الرحلة ص ٧٠

ثم الامام المالكي: و يصلى قبالة الركن اليماني، وله محراب حجر يشبه محاريب الطرق الموضوعة فيها(١).

فالحنفي: و يصلى قبالة الميزاب تحت حطيم مصنوع له. وكان أكثر الأئمة ابهة وكان يتوافر لديه الكثير من الشمع وغيره لأن الأعاجم كانوا على مذهبه، فيأتونه بها(٢).

وأخيرا الحنبلي: وكان مكانه قبالة الحجر الأسود. وصلاته مع صلاة الامام المالكي في وقت واحد. كما كان يصلي الظهر والعصر قريبا من الحنفي في البلاط الآخذ من الغرب إلى الشمال(٣) والحنفي يصليها في البلاط الآخذ من الغرب إلى الجنوب قبالة محرابه وليس له ـــ حطيم ـــ أما الشافعي فله حطيم عظيم ازاء المقام. وللحنبلي حطيم كان معطلا في العصر الأ يوبي، كان قريبا من حطيم الحنفي و ينسب لرامشت أحد أغنياء الأعاجم(٤).

أما بالنسبة إلى صلاة المغرب فكان الأئمة الأ ر بعة يصلونها في وقت واحد مجتمعين بسبب ضيق وقتهم وكان مؤذن الشافعي يبدأ بالاقامة و بعده يقيم مؤذنو سائر الأئمة. كما كان يدخل على المصلين السهو أحيانا للتكبير في الحرم من كل ناحية. لذا كان المالكي ربما يركع لركوع الشافعي أو الحنفي يركع بركوع المالكي. او كان يسلم أحدهم بغير سلام امامه. لذا ترى المصلين يصغون باهتمام شديد لصوت امامهم او مؤذنهم ليتلافوا الوقوع في السهو(٥).

أما الزيدي: فلم تشر المراجع إلى المكان الذي كان يصلي فيه. وانما اكتفت بالقول بأنهم كانوا يقولون في الآذان بـ« حي على خير العمل » بدلا من قول المؤذن السني حي على الفلاح. ولا يجمعون مع الناس، وانما يصلون الظهر أر بعاً و يصلون المغرب بعد فراغ الأئمة السنيين من صلا تهم (٦).

و يقول ابن جبير عند كلامه عن الشمع الذي يوضع في المحاريب. بأن الامام المالكي كان اقلهم شمعا واضعفهم حالا لأن أتباع المذهب بعيدون عن تلك الأماكن أما الشافعي فاكثر الجمهور على مذهبه وعليه علماء البلاد وفقهاؤها(٧).

وكان المؤذن الزمزمي يقف بعد صلاة المغرب في سطح قبة زمزم، و يدعو بأعلى صوته للخليفة العباسي، ولسلطان مصر، وأمير مكة. وفي سنة ٥٧٩ هـ/١١٨٤م عندما حج ابن جبير كان الناس عندما يأتي الدور للدعاء للسلطان صلاح الدين ـــ وهم يطوفون في كل أنحاء الحرم يدعون له بالنصر على أعداء الإسلام. كما كان يدعو لحاكم اليمن الأ يوبي ولسائر المسلمين والحجاج والمسافرين(٨).

---

(١) نفس المرجع والصفحة
(٢) نفس المرجع والصفحة
(٣) نفس المرجع صفحة ٧٠ ـــ ٧١
(٤) ابن جبير صفحة ٧١
(٥) نفس المرجع والصفحة
(٦) نفس المرجع الرحلة صفحة ٧٠ ـــ ٧١، الفاسي: العقد الثمين جـ١ ص ٨٨ ـــ ٨٩
(٧) ابن جبير: المرجع السابق ص ٧١
(٨) ابن جبير ص ٧١ ـــ ٧٢

أما خطبة الجمعة فقد كان يتولاها الخطيب الشافعي الذي كان يحضر إلى الحرم لابسا الخلعة الخليفية ــ التي كانت عبارة عن ثوب أسود موشى بالذهب، و يتعمم بعمامة سوداء مرسومة بالذهب وعليه طيلسان شرب رقيق ــ وكان يتقدم إلى المنبر ببطء مبديا السكينة والوقار بين رايتين سوداوين يمسكهما رجلان من قومه المؤذنين، و يسعى بين يديه قيم بيده عود مخروط أحمر وفي يده مرس من الأديم المفتول الرقيق الطويل في طرفه عذبة صغيرة ينفضها في الهواء بيده، فتعمل صوتا مرتفعا يسمعه من بالحرم وخارجه «يسمونها الفرقعة» و يعني ذلك وصول الخطيب. و يستمر في نفضها حتى يصل المنبر. وعندما يقترب من المنبر يعرج على الحجر الأسود فيقبله و يدعو عنده ثم يعود إلى المنبر ورئيس المؤذنين «المؤذن الزمزمي» بين يديه لابسا ثيابا سوداء ممسكا سيفا بيده. ثم يبدأ الخطيب في صعود المنبر. وعندما يعتلي الدرجة الأولى يقلده المؤذن السيف فيضرب به بنعله ضربة يسمعها الحاضرون و يكرر ذلك في الدرجة الثانية والثالثة، وإذا ما صعد أعلى درجة ضربه ضربة رابعة، و يقف مستقبلا الكعبة داعيا بصوت منخفض، و يلتفت يمنة و يسرة و يلقى السلام على الحاضرين، فيردون عليه، ويجلس، و يبادر المؤذنون في المنبر بالأذان بين يديه بصوت واحد، وإذا فرغوا وقف للخطبة، فذكر و وعظ وخشع، وجلس الجلسة الخطيبية وضرب السيف ضربة خامسة، ثم يقف للخطبة الثانية، فيكثر من الصلاة على سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) وعلى آله و يرضى عن اصحابه خصوصا الخلفاء الراشدين الأربعة، ثم يدعو لعمي الرسول حمزة والعباس وللحسن والحسين ولأمهات المؤمنين، وعن خديجة الكبرى ــ بهذا اللفظ ــ ثم يدعو للخليفة العباسي ولأمير مكة وسلطان مصر وولي عهده. وأثناء الخطبة تركز الرايتان عن يمينه وعن شماله في أول درجة من المنبر ويمسكها رجلان من المؤذنين، وفي جانبي باب المنبر حلقتان تلقى الرايتان فيهما وإذا فرغ الخطيب من الصلاة خرج والرايتان بين يديه والفرقعة أمامه على الصورة التي دخل عليها إيذانا بانصرافه والفراغ من الصلاة و يعاد المنبر إلى موضعه بجوار المقام(١).

يتضح لنا من ذلك أن الامامة في الحرم المكي كانت لأهل السنة على المذهب الشافعي ولم نر أي تعصب أو أي صراع مذهبي في مكة طيلة العصر الأيوبي بل ساد التسامح الديني والمذهبي ربوعها. وتعايش الناس في وئام وسلام.

أما في المدينة المنورة فقد اختلف الوضع بها عن مكة. إذ أن الامامة والخطابة والقضاء بها للشيعة و بالذات لسنان الحسيني وأهل بيته من الأشراف الحسينيين يتوارثها الأبناء عن الآباء.

أما أهل السنة فلم يكن لهم من الأمر سوى امام شافعي يصلى بالناس الصلوات الخمس فقط(٢) وفي العصر الفاطمي كان يخطب في الحرم المدني للخليفة الفاطمي و بعد اسقاط صلاح الدين الدولة الفاطمية اعيدت الخطبة للعباسيين.

---

(١) ابن جبير: الرحلة ص ٦٥ ــ ٦٦

(٢) السمهودي: وفاء الوفا جـ٢ ص ٦٨٣

ونظرا لانشغال السلطان صلاح الدين في جهاد الصليبيين والعمل على تقو يض وجودهم في بلاد الشام، فقد بقي الأمر بالمدينة في ايدي الأشراف الذين كانت لهم الهيمنة والغلبة. واصبح أهل السنة في حالة من الضعف والهوان حتى انهم لم يستطيعوا قراءة كتبهم أوسماع الأحاديث النبو ية إلا خفية. كما كان أئمة الشيعة يسبون الشيخين أبا بكر وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما على المنبر، و يؤذنون بـ«حي على خير العمل»(١).

ومما ساعد اشراف المدينة على التمادي في ذلك اشتراك أمرائهم مع صلاح الدين في حرو به ضد الصليبيين وكان يتبرك بهم و يستشيرهم في كثير من الأمور ولا يعرف ما يفعل اتباعه بأهل السنة في المدينة.

ونظرا لما كان يعانيه أهل السنة وأئمتهم من ذرية المجد ـــ و يبدو أنهم زعماء السنة في المدينة ـــ من ضعف وذل وهوان في المدينة مما اضطرهم إلى الرحيل عنها إلى البادية، ورغم ارسال الاشراف لهم يطلبون منهم العودة اليها على أن يكونوا آمنين مطمئنين، إلا أنهم رفضوا فاستولى الاشراف على ممتلكاتهم(٢).

ولم يكن أهل السنة يستطيعون عقد نكاح أو الفصل في أي قضية بين المتخاصمين في العصر الأ يوبي على المذهب السني إلا بعد الرجوع إلى علي بن سنان الحسيني الذي كان يتولى الخطابة والإفتاء والقضاء الذي كان يجب أن يصدر أوامره إلى امام السنة السراج أبي عبدالله في كتاب يقول له فيه اعقد نكاح فلانة على فلان. أو اصلح بين فلان وفلان وإذا خالف ذلك. كان يلحق به الأذى بتسليط الأشراف عليه، أو يلام بشدة(٣).

ولكي يجعل صلاح الدين الأ يوبي مكانة لأهل السنة في المدينة استمال الأشراف واغدق عليهم الأموال والهدايا. فسمحوا له بأن يعين جماعة من قِبله لادارة المسجد النبوي. فأرسل إليهم أر بعة وعشرين خادما خصيا يرأسهم شيخ الخدام بدرالدين الأسدى وأوقف على ذلك بلدتين هما نقادة وثلثا سنديس(٤).

وقد كان لشيخ المسجد النبوي مكانة عالية بحيث إذا قدم على الملوك وقفوا له احتراما واجلسوه إلى جوارهم تبركا به لمجاورته للرسول (صلى الله عليه وسلم)(٥).

ورغم ذلك فإنه لم يصبح لأهل السنة نفوذ قوي بل بقوا على ما كانوا عليه من ذل وهوان. ليس هذا فقط بل ادخل الشيعة من البدع في الصلاة التي لم يسبق لها مثيل. من ذلك أن الخطيب كان

(١) على بن موسى: رسائل في تاريخ المدينة ص ١٤١ ـــ ١٤٢
(٢) على بن موسى: رسائل في تاريخ المدينة ص ١٤٢ ـــ ١٤٣
(٣) على بن موسى: رسائل في تاريخ المدينة ص ١٤٨-١٤٩.
(٤) نقاده بالصعيد بمنطقة قنا وسنديس بلدة من أعمال القليو بية: ابن اياس: بدائع الزهور جـ١ ص ٧٢، ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار القسم الثاني ص ٣٣
(٥) ابن اياس: بدائع الزهور جـ١ ص ٧٢، ابن دقماق: الانتصار لواسطه عقد الأمصار القسم الثاني ص ٣٣، المقريزي: السلوك جـ١ قسم ١ ص ٥٧

يتقدم للخطبة يوم الجمعة بعد أن يؤذن المؤذنون ، فتتقدمه الرايتان السوداوان وتركزان في جانبي المنبر فيقف بينهما . وبعدما يفرغ من الخطبة الأولى يجلس جلسة طويلة يخالف بها جلسة الخطباء المعروفة بالسرعة و يقوم الخدام التابعون له باختراق الصفوف وتخطى الرقاب يجمعون ما يتبرع به الحاضرون والأعاجم لهذا الخطيب الذي لايهمه سوى جمع المال والذهب والثياب حتى ولو كان ذلك على حساب الدين . وكان منهم من يقدم له الثوب النفيس ، ومنهم من يخرج القطعة الثمينة من الحرير فيعطيها له ، ومنهم من يخلع عمامته و يلقيها إليه ، ومنهم من يخلع بردته و يقدمها له ، ومنهم من يدفع له قراضة الذهب . ومنهم من يقدم له دينارا أو دينارين ، أو ما يقدر على دفعه ومن النساء من تخلع خلخالها وتقدمه له ، أو تنزع خاتمها وتلقيه عليه . . الخ . وخلال ذلك يكون الخطيب جالسا على المنبر يراقب أولئك المستجدين ، وكلما جمعوا شيئا طمع في المزيد ، إلى أن كاد ينقضي وقت الصلاة ، و يفوت أوانها وضج بعض ذوي الدين ، وصاحوا في وجه الخطيب ، وهو جالس ينتظر دون خجل أو حياء حتى تجمع أمامه كوم كبير من أشياء مختلفة . وعندما شعر بالرضا مما تم جمعه . قام وأكمل الخطبة وصلى بالناس ، وانصرف أهل التقوى والصلاح باكين على الدين وأهله(١) .

وكانت تلك عادة الخطيب في كل موسم ، منتهزا فرصة قدوم الحجيج من كافة اقطار الأرض ليحصل على الأموال والهدايا غير مبال بالإساءة إلى الدين(٢) .

وإذا كان ذلك سلوك خطيبهم وإمامهم وفقيههم وقاضيهم فما بالك بمن هم دونه . و بقى الحال على ذلك حتى طهر الحرم منهم ومن امثالهم في العصر المملوكي(٣) .

طرق الحاج :

كان الحجيج في الغالب يفدون إلى الأماكن المقدسة بالحجاز عن طريق مصر ، خصوصا أولئك الذين كانوا يأتون إليها من الأندلس ، أو من دول المغرب العربي ، أو من دول افريقيا . كما كان يصل إلى الشام الحجيج من بلاد الترك والقوقاز ، و بخارى ، ومنطقة القرم ، وشمال روسيا ، وسيبيريا ، وجزر البحر المتوسط فيجتمعون مع من تجمع بها من الحجاج ، و يسافرون معهم إلى الحجاز (٤) .

كما كانت بعض تلك الوفود تذهب إلى العراق ، فتنضم إلى ركب الحجيج العراقي وتسير معه إلى الحجاز . كما كان هناك ركب يأتي من اليمن .

(١) ابن جبير: الرحلة ص ١٨٨
(٢) على بن موسى : رسائل في تاريخ المدينة ص ١٤٤
(٣) نفس المرجع والصفحة
وقد أنشد أحد الشعراء قائلا :
قل للروافض بالمدينة ما بكم — لقيادكم للذم كل سفيه
ما أصبح الحرم الشريف محرما — إلا لسبكم الصحابة فيه
(٤) احمد السباعي : تاريخ مكة جـ٢ ص ١٩٧

وسنتكلم عن الطرق التي كان يسلكها الحجيج حتى يصلوا إلى الأماكن المقدسة لنرى ما كانوا يتعرضون له في طريقهم إليها. وهل كانت تلك الطرق ثابتة على مر العصور أم كانت تتغير لظروف معينة بين الحين والآخر.

طرق الحاج المصرية:

كان ركب الحجيج المصري يتجمع في الفسطاط استعدادا للذهاب إلى الحجاز، و يقول المقريزي في خططه: «إن حجاج مصر والمغرب أقاموا زيادة على مائتي سنة لا يتوجهون إلى مكة إلا من صحراء عيذاب(١). فكانوا يقلعون في النيل من الفسطاط إلى قوص ــ مارين بالعديد من المدن والقرى على ضفتي النيل ــ التي كانت تمتاز بكثرة أسواقها ومرافقها وكانت ملتقى الحجاج والتجار من مختلف الأنحاء(٢).

وخلال تلك الرحلة التي كانت تستغرق ثمانية عشر يوما في النيل كان الحجاج والتجار يعاملون معاملة سيئة من قبل جباة الزكاة(٣).

وكان الحجاج يستريحون بعض الوقت في قوص انتظارا لنقلهم إلى ميناء عيذاب على البحر الأحمر بعد أن يتزودوا بما يحتاجون إليه. و يتجمعون في المبرز ــ قبلي قوص ــ وهناك يتم وزن امتعتهم وأثقالهم لتقدر الأجرة عليها حيث تحمل وأصحابها على ظهور الإبل ــ سفن الصحراء ــ حيث لا يمكن استخدام غيرها من وسائل النقل عبر الفيافي المقفرة التي تقل فيها المياه، وكان أصحاب الجاه والثراء يركبون الشقاديف ــ وهي أشباه المحامل ــ وأحسن أنواعها اليمانية لأنها كالأشاكيز السفرية مجلدة متسعة، يوصل منها الاثنان بالحبال الوثيقة، وتوضع على الإبل، ولها أذرع قد حفت بأركانها يكون عليها مظلة، فيكون الراكب فيها مع عديله في وقاية من لفح الشمس المحرقة خصوصا وقت الهاجرة، ويجلس في مكانه أو يتكيء دون أن يشعر بالتعب، و يتناول أحيانا مع عديله الطعام، أو يقرأ في مصحف أو كتاب أو يلعب الشطرنج مع عديله إذا أحبا اللعب للترويح عن أنفسهم من عناء السفر(٤).

أما أغلب المسافرين فكانوا يركبون فوق الأحمال، فيقاسون من ذلك كثيرا لشدة الحر الذي يشبه السموم(٥).

على أي حال بعد الانتهاء من الاجراءات يقلع الحجيج من المبرز إلى عيذاب عبر الصحارى المقفرة، فيصلونها في حوالي ثمانية وثلاثين يوما. إذ تقطع الرحلة من الفسطاط إلى عيذاب في حوالي

---

(١) الخطط جـ١ ص ٢٠٢

(٢) ابن جبير: الرحلة ص ٢٩ ــ ٣٧

(٣) نفس المرجع ص ٣٧

(٤) ابن جبير ص ٣٧ ــ ٣٩

(٥) ابن جبير الرحلة ص ٣٩

ستة وخمسين يوما، نستدل على ذلك من رحلة ابن جبير إذ سار من الفسطاط في السادس من المحرم سنة ٥٧٩ هـ/١١٨٤م فوصل عيذاب في الثاني من شهر ربيع الأول من نفس العام(١).

وكان ميناء عيذاب من أهم الموانىء المصرية على البحر الأحمر في العصر الأيوبي إذ كانت ترد إليه مراكب اليمن والهند وغيرهما وتغادره، بالاضافة إلى مراكب الحجاج الصادرة والواردة. وعيذاب في صحراء لانبات فيها، وكل ما فيها مجلوب إليها حتى الماء. أما أهلها فكانوا يستفيدون فوائد جمة مما يعود عليهم من الحجاج والتجار، إذ كان لهم على كل حمل يحملونه إليهم ضريبة إلى جانب المكوس المقررة كما كانوا يكارون الحجاج الجلاب تحملهم من عيذاب إلى جدة وبالعكس. وكان لكل رجل من أهل عيذاب جلبة أو أكثر حسب يسار ذلك الشخص(٢). بالاضافة إلى ما كان يعود عليهم من صيد اللؤلؤ المتوفر في بحر عيذاب والذي كان يخرج لاصطياده الغواصون في كل سنة في زوارقهم، فيصطادون ما يستطيعون اصطياده(٣).

وأهل عيذاب يعرفون بالبجاة(٤) أو البجه. وكان لهم سلطان منهم يسكن معهم في الجبال المتصلة بها. وكان أحيانا يسير إلى عيذاب ويجتمع بالوالي الأيوبي اظهارا للطاعة والولاء(٥). ويصف ابن جبير البجاة بقوله: «إن هذه الفرقة من السودان المذكورين فرقه أضل من الأنعام سبيلا، وأقل عقولا ولا دين لهم سوى كلمة التوحيد، التي ينطقون بها اظهارا للإسلام، ووراء ذلك من مذاهبهم الفاسدة، وسيرهم مالايرضى ولا يحل، ورجالهم ونساؤهم يتصرفون عراة إلا خرقا يسترون بها عوراتهم، وأكثرهم لايسترون، وبالجملة فهم أمه لا أخلاق لهم، ولا جناح على لاعنهم(٦).

أما المقريزي فقد قال عنهم بأنهم أقرب إلى الوحش في أخلاقهم من الإنس(٧) وبعد وصول الحجاج إلى عيذاب كانوا ينتظرون أحيانا أياما عديدة في عيذاب حتى يجدوا مركبا تنقلهم إلى جدة، وكانوا يقاسون خلال ذلك من شظف العيش وسوء الأحوال، والإصابة بالأمراض، لعدم توفر الغذاء الضروري لحياة الإنسان ووصف ابن جبير الحياة في عيذاب بقوله: «وحسبك من بلد كل شيء فيه مجلوب حتى الماء، والمعطش أشهى إلى النفس منه، فأقمنا بين هواء يذيب الأجسام وماء يشغل المعدة عن اشتهاء الطعام، فما اظلم من غنى عن هذه البلد بقوله: ماء زعاق وجو كله لهب،

---

(١) راجع الرحلة من قوص إلى عيذاب في ابن جبير: المرجع السابق ص ٣٩ــ ٤١

(٢) نفس المرجع ص ٤٢

(٣) نفس المرجع ص ٤٢ــ٤٣، المقريزي: الخطط جـ١ ص ٢٠٢ــ٢٠٣

(٤) يقول فتحي غيث عن البجاة: إن التكتل الأول لهذه القبائل في المنطقة الشرقية من نهر النيل التي تشمل وادي العطبرة وجانبا من وادي النيل الأزرق حتى حدود الحبشة عند كسلا. وكانت تتاخم حدود مصر من الشمال وتمتد إلى البحر الأحمر عند طوكر وسواكن «الإسلام والحبشة ص ٢٣»

(٥) ابن جبير: الرحلة ص ٤٣

(٦) الرحلة ص ٤٣ــ ٤٤

(٧) الخطط جـ١ ص ٢٠٣

فالحلول بها من أعظم المكاره التي حف بها السبيل إلى البيت العتيق.. وأعظم أجور الحجاج على ما يكابدونه ولا سيما في تلك البلدة الملعونة، ومما لهجه الناس بذكره قبائحها حتى يزعمون أن سليمان بن داود على نبينا وعليه السلام كان اتخذها سجنا للعفارتة»(١).

بعد تلك المعاناة التي كان يلقاها الحجاج في عيذاب يركبون الجلاب إلى جدة. وأحيانا كانوا يضطرون إلى المبيت في الجلاب بسبب ركود الريح. ثم يبحرون في تلك الجلاب التي لم تستخدم المسامير في صنعها بل تخاط بأمراس من القنبار ــ وهو قشر لوز النارجيل ــ ويخللونها بدسر من عيدان النخل، وإذا فرغوا من صنع الجلبة سقوها بالسمن أو بزيت الخروع أو بدهن القرش وهو أحسنها ليلين عودها، و يرطب، لكثرة شعاب البحر الأحمر المعترضة. وكان عود الجلاب والقنبار يجلبان من اليمن والهند(٢).

وكان الحجاج يلاقون الأهوال في البحر الأحمر من عيذاب إلى جدة بسبب كثرة عواصفه وهيجانه، وكان ربان الجلبة الذي يسمونه الرائس يستدل على الطريق ببعض النجوم، وكثيرا ما كانت تغرق تلك الجلاب في البحر، كما حدث سنة ٥٨٠هـ/١١٨٥م عندما غرقت أربع منها وهلك حجاجها البالغون الفاً وثلثمائة حاج(٣).

وعندما تقترب الجلاب من شاطىء جدة ــ كان أول ما يظهر الجبال المحيطة بها ــ إذ تكثر الشعاب المرجانية التي كان الربابنة على دراية جيدة بها. وكانت توجد بالقرب من الشاطىء جزيرة تسمى عائقة السفن كانت ترسو الجلاب بها و ينام الحجاج ليلة بها، ثم يقلعون في الصباح التالي، وكانت الجلاب تسير ببطء وحذر شديدين خوفا من ارتطامها بالشعاب حتى ترسو في مرسى أبحر على بعد يوم من جدة. وهذا المرسي من اعجب المراسي وضعا، ذلك أن خليجا من البحر يدخل إلى البر و يطوف به من كلتا حافتيه، فترسو الجلاب في قراره(٤).

وتقلع الجلاب منه إلى ميناء جدة بريح خفيفة لأن الرياح إذا اشتدت تحول دون دخول السفن للمرسى، لأن دخوله غاية في الصعوبة بسبب كثرة الشعاب والتفافها، ولكن رؤساء الجلاب والنواتيه يعرفونها معرفة دقيقة، فيدخلونها على مضايق، و يصف ابن جبير كيفية ادخال السفن للميناء بقوله: «و يصرفونها خلالها تصريف الفارس للجواد الرطب العنان، السلس القيادة، و يأتون في ذلك بعجب يضيق الوصف عنه(٥).

و يصل الحجاج إلى جدة بعد معاناة ثمانية أيام في البحر بسبب العواصف والرياح، والشعاب، أو بسبب قلة المعدات، وكثرة الركاب، بحيث كان من الصعب رفع الشراع أو خفضه، ومن شدة

(١) ابن جبير: المرجع السابق ص ٤٤
(٢) ابن جبير: الرحلة ص ٤٣
(٣) المقريزي: السلوك جـ١ قسم ١ ص ٧٨
(٤) ابن جبير: المرجع السابق ص ٤٥
(٥) ابن جبير ص ٤٦

اكتظاظ الجلاب بالحجاج كان من الصعب على الراكب أن يجد مكانا يستريح فيه. كما كان أصحابها يعاملونهم معاملة سيئة وقد وصف المقريزي ذلك بقوله: «ولأهل عيذاب في الحجاج أحكام الطواغيت، فإنهم يبالغون في شحن الجلبة بالناس حتى يبقى بعضهم فوق بعض حرصا على الاجرة، ولايبالون بما يصيب الناس في البحر، بل يقولون دائما علينا بالألواح وعلى الحجاج بالأرواح»(١).

وجدة قرية على ساحل البحر أكثر بيوتها أخصاص، وفيها فنادق مبنية بالطين أو الحجارة كان ينزل الحجاج فيها، وفي أعلاها بيوت من الأخصاص كالغرف وفيها سطوح يستريحون فيها في الليل من شدة الحر. كما كان بعض الحجاج ينزلون ضيوفا على قائد جدة. مثلما حدث مع ابن جبير الذي نزل ضيفا على القائد علي بن موفق صاحب جدة ــ الذي كان ينوب بها عن أمير مكة ــ حيث كان ينزلهم في الصروح الخوصية التي كان يبنيها في أعلى بيوته، وكانوا يخرجون منها إلى السطوح يبيتون عليها(٢).

وكان أهل جدة يستغلون الحجاج أبشع استغلال، وقد وصفهم ابن جبير بقوله: «وأكثر هذه الجهات الحجازية وسواها فرق وشيع لادين لهم وقد تفرقوا على مذاهب شتى، وهم يعتقدون في الحاج مالا يعتقد في أهل الذمة قد صيروهم من أعظم غلاتهم التي يستغلونها، ينتهبونهم انتهابا، و يسببون لاستجلاب ما بأيديهم استجلابا(٣).

وإلى جانب المكوس التي كان يدفعها الحاج، والتي ألغاها السلطان صلاح الدين كان يدفع غرامات متنوعة وان الله أرسله رزقا لأهل جدة. وكانت المساعدات التي يرسلها صلاح الدين لأمير مكة إذا ما تأخرت قام بتحصيلها منهم بمختلف أنواع الشدة والوحشية التي لا تتفق ومبادىء الإسلام، أو كما قال ابن جبير: «كأن حرم الله ميراث بيده محلل له اكتراؤه من الحاج»(٤) و يضيف ابن جبير قائلا: «وبما يصنع بالحاج مالا يرتضيه الله عز وجل فراكب هذا السبيل راكب خطر، ومعتسف غرر، والله قد أوجد الرخصة فيه على غير هذه الحال، فكيف و بيت الله في هذه الأيام بأيدي أقوام قد اتخذوه معيشة حرام وجعلوه سببا إلى استلاب الأموال واستحقاقها من غير حل ومصادرة الحجاج عليها، وضرب الذلة والمسكنة الدنية عليهم»(٥).

و بعدما كان يدفع الحجاج المكوس، أو يضمنون بعضهم أمام قائد جدة يسمح لهم بالسير إلى مكة، فيصلون القرين في ليلة واحدة، وهذا المنزل كان منزل الحاج ومحط رحالهم، وكانوا يحرمون منه، و يقضون فيه نهارهم، ثم يسيرون ليلتهم فيصبحون في الحرم، كما كان الصادرون من الحرم ينزلون به، و يسيرون إلى جدة. وكان بذلك الموضع بئر عذبة يتزود منها الحجاج بالماء لتلك الليلة فقط(٦).

(١) الخطط جـ١ ص ٢٠٣
(٢) ابن جبير: الرحلة ص ٤٧
(٣) ابن جبير ص ٤٨
(٤) نفس المرجع ص ٤٩
(٥) ابن جبير: الرحلة ص ٤٩
(٦) نفس المرجع: ص ٥١

وكان الحجاج يحرمون من القرين بالعمرة، ثم يهلون في طريقهم إلى الحرم وهم يلبون من كل مكان يدعون و يبتهلون إلى الله بالثناء، فتارة تراهم يكثرون من التلبية وأخرى يتضرعون إلى الله بأدعيتهم. ووصف ابن جبير تلك الليلة بقوله: «فيالها ليلة كانت في الحسن بيضة العقر، فهي عروس ليالي العمر، و بكر بنات الدهر»(١).

ثم يصل الركب إلى الحرم حيث الكعبة الشريفة، وقد وصفها ابن جبير بقوله: «عروسا مجلوة مزفوفة إلى جنة الرضوان، محفوفة بوفود الرحمن»(٢) فيطوفون طواف القدوم، ثم يصلون في مقام ابراهيم، و يتعلقون بأستار الكعبة عند الملتزم حيث تستجاب الدعوة، و يدخلون قبة زمزم و يشربون من مائها، و يسعون بين الصفا والمروة سبعة أشواط، ويحلقون و يتحللون، و ينزلون بدور مكة المخصصة للحجاج(٣).

طريق الحاج الشامي:

بعدما كان يتجمع حجاج الشام في دمشق، يستعدون للرحيل إلى الأراضي المقدسة في الحجاز، فيتجمعون في قرية الكسوة من ضواحي دمشق، ثم يتجه الراكب جنوبا في طريقه إلى شبه جزيرة العرب، فيصل مدينة بصرى، و يتوقف هناك أربعة أيام ليلحق به من تخلف بدمشق لقضاء بعض حاجياته، ثم يسيرون إلى بركة زيزه، و يقضون بها يوما يرحلون بعده إلى بركة اللجون، ثم إلى حصن الكرك الذي كان يسيطر عليه الصليبيون الذين طالما تعرضوا لقوافل الحجاج والتجار واستولوا عليها، وأسروا رجالها وكان يقيم ركب الحجاج خارجه بمنطقة تعرف بالثنية أربعة أيام استعدادا لدخول البرية ثم يسيرون إلى معان آخر حدود بلاد الشام الجنوبية، ومنها إلى عقبة الصوان ثم إلى الصحراء التي قال عنها ابن بطوطة «داخلها مفقود، وخارجها مولود» (٤).

و يسير الركب عبر تلك الصحراء القاحلة حتى يصلوا إلى تبوك أول مدن الحجاز الشمالية وكان من عادة حجاج الشام إذا وصلوا تبوك أن يجردوا سيوفهم و يضربوا نخيلها قائلين: «هكذا دخل رسول الله (صلى الله عليه وسلم)»(٥) وكان يقيم الحجاج بتبوك أربعة أيام للراحة، وري إبلهم، والتزود بالماء لعدة أيام قادمة. ثم يسيرون — تاركين تبوك — بجد واجتهاد، ليل نهار خوفا من تلك البرية الموحشة فيمرون بالوادي الأخضر، الذي كان كأنه وادي جهنم، وكان قد أصاب الحجاج به مشقة عظيمة في بعض السنين بسبب رياح السموم التي هبت عليه فجفت المياه حتى وصلت شربة الماء به الف دينار، ولم يستفد منها الشاري ولا البائع لأن كليهما قضى نحبه، وقد كتب ذلك على بعض صخر الوادي(٦).

ثم يسيرون إلى بركة المعظم التي تنسب إلى المعظم عيسى بن ايوب حيث كان يتجمع فيها ماء

---

(١) ابن جبير: ص ٥١ — ٥٢
(٢) نفس المرجع ص ٥٢
(٣) نفس المرجع والصفحة
(٤) ابن بطوطة: الرحلة طبعة بيروت ص ١١٠ أو طبعة القاهرة ص ٦٧
(٥) نفس المرجع ص ١١١ أو ص ٦٧ حسب طبعة القاهرة
(٦) نفس المرجع ص ١١١ — ١١٢ أو ص ٦٧ — ٦٨

المطر في بعض السنين، وتبقى جافة لا ماء فيها في البعض الآخر. ثم يصلون في اليوم الخامس من رحيلهم من تبوك إلى بئر الحجر ــ حجر ثمود ــ وهي منطقة كثيرة الماء ولكن لا أحد من الناس يردها رغم شدة عطشهم اقتداء بما فعله الرسول (صلى الله عليهوسلم)عندما مر بها في غزوة تبوك. إذ أسرع براحلته، وأمر، ألا يشرب منها أحد، لأن بتلك المنطقة ديار ثمود منحوتة في جبال من الصخر الأحمر ومنها يشرف الراكب على العلا التي تبعد عنها مسيرة نصف يوم.

والعلا قرية كبيرة، توجد بها البساتين والمياه، كان يقيم الحجاج بها أربعة أيام يتزودون منها بما يحتاجون إليه بقية الرحلة، و يغسلون ملابسهم و يتركون بها ما يزيد على حاجتهم من الزاد. وأهلها مشهورون بالأمانة، وإليها كان يصل التجار النصارى من الشام ولا يتعدونها(١).

و يرحل الركب من العلا فيصلون في اليوم التالي لرحيلهم وادي العطاس وهو واد شديد الحر تهب عليه السموم المهلكة، وكانت قد هبت على ركب الحجيج في بعض السنين فلم ينج منهم إلا القليل، ثم ينزلون منه إلى هدية و بها واد يحفرون فيه فيخرج ماء زعاق ــ مر ــ وفي اليوم الثالث يصل الركب إلى المدينة المنورة(٢).

وفور وصول الركب إلى المدينة يبادر الحجاج إلى دخول الحرم، فيقفون بباب السلام مسلمين على الرسول (صلى الله عليه وسلم) وعلى صاحبيه ابي بكر وعمر رضي الله عنهما، و يصلون بالروضة بين المقام والمنبر، ثم يستلمون القطعة الباقية من الجذع الذي حن إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهي ملصقة بعمود قائم بين القبر والمنبر عن يمين مستقبل القبلة، ثم يعودون إلى رحالهم، وهم في غاية الفرح والسرور بما من الله عليهم(٣).

بعد ذلك يقلع الركب قاصدا مكة فيمر بقباء، ومنها يسيرون إلى وادي العقيق على حافته مسجد ذي الحليفة الذي يبعد عن المدينة خمسة أميال، ومنه يحرم حجاج المدينة وحجاج الشام اقتداء برسول الله (صلى الله عليه وسلم) عندما أحرم منه قاصدا الحج. و يعتبر ذلك المسجد نهاية حرم المدينة(٤).

و بعد الإحرام يبدأ الحجيج في التلبية عبر السهول والجبال حتى يصلوا شعب علي (رضي الله عنه) و يواصلون حتى يصلوا بئر ذات العلم أو الروحاء التي يقال ان علي بن أبي طالب قاتل الجن بها. ومنها يسيرون إلى الصفراء وهو واد معمور فيه نخل وماء و بنيان وقصور للأشراف الحسينيين وغيرهم، و بها حصن كبير لهم. ويمرون بعد ذلك بالعديد من الحصون والقرى المتصلة. و يستريح الحجاج بها و يتزودون بالماء و يواصلون سيرهم حتى يصلوا بدر ــ التي هزم الرسول (صلى الله عليه

(١) ابن بطوطة: الرحلة ص ١١٣

(٢) نفس المرجع ص ١١٣ ــ ١١٤

(٣) نفس المرجع ص ١١٤

(٤) ابن جبير ص ١٦٧ ــ ابن بطوطة ص ٧٨

وسلم المشركين عليها ــ وهي قرية بها بساتين النخيل و بها حصن منيع وعين فوارة(١) .

ومن بدر يسير الركب عبر الصحراء المعروفة بقاع البزواء . وهي برية موحشة حتى يصل وادي رابغ حيث توجد به الغدران من مياه المطر، ثم يسيرون إلى عقبة السويق فيشربون السويق الذي يجلبونه معهم و يسقون منه الناس بعد أن يخلطوه بالسكر أما الأمراء فيملأون منه أحواضا يسقون الناس منه أسوة بالرسول (صلى الله عليه وسلم) عندما مر بتلك المنطقة ولم يكن مع اصحابه طعام فأخذ من رملها وأعطاهم إياه فشربوه سويقا(٢) . ثم يسيرون منها إلى خليص حيث البركة المعروفة باسمهــا وهــي أرض منبسطة بين الجبال بها عين فوارة وحدائق النخيل، وسكانها أشراف حسنيون ومنها يسيرون إلى عسفان وهي أرض منبسطة بها الآبار. ومنها يواصلون سيرهم حتى يصلوا بطن مرــ أو مر الظهران ــ وهو واد خصيب كثير النخل به عين فوارة تسقي أراضي تلك المنطقة وعليه تقع قرى كثيرة، وتجلب منه الفواكه إلى مكة ثم يواصلون سيرهم حتى يدخلوا مكة والحرم، فينضموا إلى الحجاج الذين سبقوهم إليها(٣) .

طريق الحاج اليمني:

كان حجاج اليمن يتجمعون في صنعاء استعدادا للرحيل إلى الأماكن المقدسة في الحجاز لأداء فريضة الحج . ومنها يسيرون إلى أثافت وكانت قرية بها عيون ومزارع يتزود الحاج منها بالماء، و يتوجهون منها إلى خيوان وهي قرية كثيرة الكروم و بها بركتان، كان الحجاج ينزلونها للتزود بالماء، وتبعد عن صنعاء أربعاً وعشرين فرسخا ــ حوالي اثنين وسبعين ميلا ــ ثم يسيرون منها إلى الأعمشية فيتزودون منها بالماء من عين صغيرة رغم انها كانت مهجورة لاسكان فيها .

ومنها يسيرون إلى صعدة وهي مدينة شمالي بلاد اليمن، وهي قصبة الناحية التي تسمى بهذا الاسم، وتبعد عن صنعاء بستة وثلاثين فرسخا ــ حوالي مائة وثمانية أميال ــ وكانت مدينة عامرة إذ على الرغم من وقوعها على طريق الحج إلا أن التجار كانوا يقصدونها من مختلف الأنحاء و بالذات من البصرة، ومنها كان يتزود الحجاج بقرب الماء التي كانت تصنع من الجلود الجيدة(٤) .

و يسيرون منها إلى عرفة حيث الماء قليل والبلدة خالية من السكان، فيسيرون إلى طلحة الملك ــ وهي شجرة عظيمة تشبه الغرب إلا أنها أعظم منه ــ وهي الحد الفاصل بين عمل مكة وعمل اليمن، وتقع طلحة الملك تحت عقبة المنضج التي تتبع قرية المهجرة العظيمة التي تكثر بها العيون التي كان يتزود الحاج منها بحاجتهم من المياه، وتبعد عن صنعاء ستين فرسخا ــ حوالي مائة وثمانين ميلا ــ .

---

(١) ابن جبير: ص ١٦٨ ، ابن بطوطة ص ٧٨

(٢) ابن جبير ص ١٦٨ ــ ١٧٠ ، ابن بطوطة ص ٧٨ ــ ٧٩

(٣) ابن جبير ص ١٧٠ ــ ١٧٤ ، ابن بطوطة ص ٧٩

(٤) ياقوت الحموي : معجم البلدان جـ٣ ص ٤٠٦ ، دائرة المعارف الإسلامية المجلد ١٤ العدد الأول ص ٢٠٣ ــ ٢٠٤

و بعد أن يتجاوز الركب طلحة الملك يدخل الأراضي الحجازية، فيمرون بقرية جرس، ومنها إلى قرية شروم راح، وهي قرية كبيرة فيها عيون وأشجار الكروم، فيتزودون بالماء، و يسيرون منها إلى الثجة التي كان بها بئر ماء يتزودون منه بالماء ثم يسيرون منها إلى كتنة، وهي قرية كبيرة فيها آبار، يردها الحاج للتزود بالماء، و يتوجهون منها إلى يبمبم وهي قرية خالية من السكان، فيأخذون حاجتهم من الماء و يسيرون إلى قرية بنات حرب(١) التي كان بها عين و بئر يتزود منها حجاج اليمن بالماء . ثم يواصلون سيرهم فيحلون في جسداء التي كانت بلدة بها بئر يرده الحاج للتزود بالماء، ومنها ينزلون إلى بيشةبعطانالتي كانت قرية كبيرة بها آبار الماء التي يتزود الحجاج منها بالماء، و يسيرون منها إلى تبالة وهي مدينة كبيرة فيها عيون، و يردها الحاج فيستقون و يسقون إبلهم و يتزودون بالماء، و يتوجهون منها إلى رنية التي كان بها نخيل وعيون ينزلونها و يتزودون بالماء، و يسيرون منها إلى تربة وهي قرية كبيرة بها آبار وعيون يأخذون منها حاجتهم من الماء و يسيرون إلى صفن التي كان بهـــا بئران، فينزلونها و يأخذون حاجتهم من الماء منهما . ثم يسيرون إلى الفتق للتزود بالماء، ومنها يسيرون إلى قرية قرن المنازل و يتزودون منها بالماء ثم يسيرون إلى الطائف من كبرى مدن الحجاز على جبل غزوان فيستريحون بها بعض الوقت ثم يسيرون منها إلى بئر ابن المرتفع ثم إلى يلملم أو الململم ــميقات أهل الطائف، وهي على بعد ليلتين من مكة. فيحرم الحاج منها، و يصلون في مسجد معاذ بن جبل بها، و يسيرون إلى مكة ملبين مهللين ،فيدخلونها بعد يومين(٢) .و ينضمون إلى من بها من الحاج .

طريق الحاج العراقي:

كان الحجاج العراقيون، والخراسانيون، والأ تراك وغيرهم من حجاج المشرق يتجمعون في بغداد عاصمة الخلافة العباسية استعدادا للذهاب إلى الأ راضي المقدسة لآداء فريضة الحج، وكان الخليفة يعين عليهم أميرا للحج بعد ما كان في العهد الأ ول يقوم بنفسه بذلك، أما في العهود المتأخرة فكان الخليفة يعهد بذلك التشريف إلى أمراء من البيت المالك إن لم يقم بذلك بنفسه .

بعد أن يتجمع الحجيج في بغداد يسيرون منها إلى صرصر إحدى المدن العراقية الجميلة في طريق الحج حيث كان يقيل بها الحجيج بعض الوقت ومنها إلى زريزان احدى المدن العراقية الجميلة أيضا والتي كانت تسقى من دجلة من ناحية الشرق ومن الفرات من ناحية الغرب، ثم يسير الركب مخترقا القرى الواقعة على الفرات حتى يصل إلى مدينة الحلة على الفرات، وكان على النهر جسر يتزاحم عليه الحجاج مما كان يؤدي إلى سقوط بعضهم في النهر فيغرق، كما حدث عند عودة الحجيج سنة

(١) حرب: بالفتح ثم السكون و باء موحدة: قرية بين بيم و بيشه على طريق حاج صنعاء «ياقوت: المرجع السابق جـ٥ ص ٤٤١

(٢) عن طريق الحاج اليمني راجع: «البشاري: أحسن التقاسيم ص ١١١ــ ١١٢، ياقوت: معجم البلدان جـ٢ ص ٢٣٦، جـ٣ ص ٤٠٦، جـ٥ ص ٤٤١، ابو الفدا: تقويم البلدان ص ٩٥، بن خرداذبه: المسالك والممالك ص ١٣٤ــ ١٣٦، ودائرة المعارف الاسلامية المجلد ١٤ العدد الأ ول ص ٢٠٣ــ ٢٠٤

٥٧٩ هـ/١١٨٤م(١).

ثم يواصل الركب سيره حتى يحل بالكوفة التي تعتبر من أقدم الأمصار الإسلامية وكان قد غلب عليها الخراب في العصر الأيوبي بسبب الاعتداءات المتكررة لقبيلة خفاجة عليها(٢).

و يسير الركب حتى يحل بالنجف، وهو بظهر الكوفة كأنه حد فاصل بينها و بين الصحراء، ثم يمر بالقادسية، وكانت قرية كبيرة فيها حدائق النخيل، ثم يصل إلى الرحبة وهي قرية بها عين ماء تنبع من أعلاها، كان يبيت الحاج بالقرب منها. ثم يجتاز الركب على العذيب وهو واد خصيب تكثر فيه العيون والعمارة، ثم ينزلون بمنارة القرون، وهي في بيداء من الأرض لا بناء حولها فيبيتون هناك. ثم يسيرون إلى موضع يعرف ببلورة به صهاريج الماء يستقى منها الحجيج و يسقون إبلهم، ثم يواصلون سيرهم حتى يصلوا إلى واقصة وهي في منخفض من الأرض بها صهاريج مملوءة بالماء، تبعد عن الكوفة ثلاثة أيام، وكان أهل الكوفة يخرجون للقاء الحاج بها، حاملين إليهم الخبز والدقيق والتمر، والفواكه، و يهنئونهم بسلامة العودة(٣).

ثم يواصل ركب الحجيج سيره عبر الصحراء، فيجتازون العقبة المعروفة بعقبة الشيطان، و يبيتون بالقرب من صهريج ماء قريب من تلك العقبة، ثم يسير الركب فيمر على الهيثمين. وعلى طول الطريق عبر الصحراء توجد صهاريج المياه التي كانت قد أمرت باقامتها السيدة زبيدة، زوج الخليفة العباسي هارون الرشيد، وقد خففت بذلك عن الحجاج الذين كانوا يجدون مشقة كبيرة في اختراق تلك الصحارى المجدبة حتى يصلوا إلى الحجاز.

ثم يواصل الركب سيره حتى يصل إلى زبالة. وهي قرية معمورة فيها قصر من قصور الأعراب، وصهاريج للمياه وآبار وهي من مناهل الطريق الشهيرة، فيستقون و يتزودون بالماء و يواصلون سيرهم حتى يحلوا بموضع يعرف بالتنانير به صهريج ماء كان يبيت الركب بالقرب منه.

و يتابع الركب سفره حتى يصل إلى موضع يعرف بالشقوق كان به صهريجان كبيران كانا مملوءين ماء صافيا، فكان الحجيج يبدلون الماء الذي معهم، و يستحمون و ينظفون ملابسهم، و يرتاحون به من عناء السفر، ثم يواصلون سيرهم حتى يصلوا إلى موضع يعرف ببركة المرجوم، ومنه يسيرون إلى الثعلبية حيث كان يوجد بها صهريج ضخم ينزل إليه الحجيج على ادراج كثيرة من ثلاث جهات. وكانوا يتزاحمون عليها حتى كان يلقى بعضهم حتفه. و يواصلون سيرهم حتى يصلوا إلى بزرود وهي منخفض منبسط من الأرض مياهه غير عذبة فكانوا يتركونه إلى الأجفر، وهو المكان المشهور بموضع جميل و بثينة العذريين.

ثم يواصل الركب سيره حتى يصل إلى فيد في منتصف الطريق بين مكة و بغداد وكان يكثر

(١) ابن جبير: الرحلة ص ١٨٦

(٢) نفس المرجع ص ١٩٠

(٣) ابن جبير: الرحلة ص ١٩١ — ١٩٢

الأعراب بتلك المنطقة، لذا كان أمير الحج يدخل تلك المنطقة وهو على استعداد لقتالهم إذا ما تعرضوا لركب الحجيج، وكيلا يطمعوا فيه. وكان الماء متوفرا بالصهاريج والآبار الموجودة بها، وكان أهل تلك المنطقة ينتعشون عندما يمر الركب بهم لأنهم كانوا يبيعون عليهم، كما كان الحجاج يتركون لهم بعض زادهم. و يواصل الركب مسيرته حتى يحل بوادي الكروش، فيبيتون فيه بالرغم من عدم وجود الماء به، ثم ينزلون بجبل المخرمة، و يسيرون منه إلى الموضع المعروف بسميرة ــ أو سميراء ــ وهو موضع معمور به ماء زعاق. وكان أهله يبيعون إلى الحجيج اللحم والسمن واللبن. ثم يتابع الركب سيره حتى يصل إلى الحاجر حيث يوجد به صهاريج المياه وإذا كانت فارغة كانوا يحفرون في الأرض فيحصلون على الماء بسهولة. ثم ينزلون منها على موضع يعرف بالقارورة في وسط نجد بها صهاريج مملوءة بماء المطر ثم يواصل الركب سيره حتى يصل إلى موضع يعرف بالنقرة و يتزودون بالماء و يسيرون إلى ماء يعرف بماء العسيلة حيث يقطع بذلك الركب نجداً إلى تهامة فيحلون بوادى العروس فيتزودون منه بالماء بعد أن يحفروا عليه في الأرض فينبع منها ماء عذب يروى الاعداد الهائلة من الحجاج.

و يتزودون منه بالماء لمدة ثلاثة أيام ثم يصلون بعدها إلى المدينة المنورة(١) فيزورون قبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) وصاحبيه (رضي الله عنهما) ثم يواصلون سيرهم إلى مكة في الطريق الذي بيناه في طريق الحج الشامي.

طريق الحاج والفتن في العصر الأيوبي:

عندما كانت الدولة العباسية قوية كان الحجاج يصلون إلى الحجاز بأمن وسلام، وكان لأمير الحج هيبة كبيرة، بسبب القوات التي كان يصحبها معه للمحافظة على الحجيج، فأنزل بذلك الرعب في نفوس الأعراب الذين لم يستطيعوا التعرض لهم.

ولكن الوضع تبدل عندما ضعفت الخلافة العباسية وسيطر عليها الملوك والأمراء فأثر ذلك على قافلة الحجيج، وكثرت اعتداءات الأعراب عليها.

ففي سنة ٥٧٣ هـ/١١٧٨م اعترض الأعراب قافلة الحج العراقي، وقتلوا أبا الفرج رئيس الرؤساء، وزير الخليفة المستضيء، كما قتلوا حاجبه أبا سعد بن المعوج(٢).

كما اصبح يتولى إمرة الحج أمراء ضعفاء لا كرامة لهم ولا شهامة، كما حدث سنة ٥٨٩ هـ/١١٩٣م عندما تأمر على الركب العراقي الأمير سنجر بن عبدالله الناصري الذي كان ذا ثراء، واقطاعات كثيرة، ورغم ذلك فإنه كان رجلا بخيلا. وقد اعترضه اعرابي في جماعة يسيرة من اتباعه في حين كان مع سنجر خمسمائة فارس. ولكنه جبن عن قتاله واستجاب لمطالب ذلك

(١) ابن جبير: الرحلة ص ١٨٩ ــ ٢٠٣
(٢) الأربلي: خلاصة الذهب المسبوك ص ٢٧٣ ــ ٢٧٤

الاعرابي بدفع خمسين الف دينار له مقابل عدم التعرض للركب. في حين كان في استطاعة سنجر قتاله والتغلب عليه، إلا أنه لم يفعل بل قام بجمع الأموال من الناس ودفعها له مما اغضب الخليفة الناصر العباسي الذي أخذ منه المبلغ وأعاده إلى أصحابه، وعزله عن إمرة الحج، وعين بدله مملوكه طاشتكين بن عبدالمقتفوى مجيرالدين صهر سنجر(١).

وقد بدأ الخلفاء يقترون في نفقات المحمل، مما كان يضطر بعض امراء الحج إلى ترك الركب والفرار، تاركين الحجيج تحت رحمة الأعراب، كما فعل مملوك الخليفة وأمير الحج مظفرالدين سنقر المعروف بوجه السبع عندما فارق الركب عند موضع يقال له المرحوم، وسار مع جماعة من اصحابه إلى بلاد الشام ومنها ساروا إلى مصر والتحقوا بخدمة السلطان العادل الذي أكرمهم واقطعهم الاقطاعات بمصر(٢). كذلك فعل الحلي كما بينا.

وفي سنة ٦٣١ هـ/١٢٣٤م اضطر الركب العراقي إلى العودة من الطريق دون الوصول إلى مكة واداء فريضة الحج لأن البدو الأجاودة تحدوهم، وقطعوا الطريق عليهم وردموا آبار الماء ولم يستطع العراقيون دفعهم بالقوة أو ارضاءهم بالأموال ولم تجد معهم الشدة ولا اللين، فاضطروا إلى العودة إلى العراق مكرهين ناجين بحياتهم(٣).

ومنذ ذلك الوقت أصبح ركب العراق يحج سنة و ينقطع اخرى بسبب الخوف من المغول الذين اقتربوا من العراق(٤).

ولم يقتصر الأمر على اعتداءات الأعراب على ركب الخلافة العباسية بل أصبح امراء مكة يعتدون على الركب داخل الأراضي المقدسة، ليس فقط في العصر الأيوبي بل قبله و بعده.

فقد حدث أن نهب أهل مكة الحج العراقي سنة ٥٣٩ هـ/١١٤٤م بسبب الخلاف بين أميرمكة هاشم بن فليتة وأميرالحج العراقي نظر الخادم وهم داخل المسجد الحرام يطوفون و يصلون(٥).

كما نهب أهل مكة الحجاج العراقيين سنة ٥٥٧ هـ/١١٦٢م وعاد جماعة منهم قبل اتمام حجهم(٦).

وفي سنة ٥٧١ هـ/١١٧٦م حصل القتال بين طاشتكين أميرالحج العراقي و بين مكثر أميرمكة لقيام الأخير ببناء حصن على جبل ابي قبيس، فاعتبر الخليفة المستضيء ذلك العمل من مكثر تحديا له. فقرر عزل مكثر عن الإمرة وهدم ذلك الحصن فأمد طاشتكين بقوة عسكرية كبيرة وبما يحتاجه من

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ٩ ص ٢٠٩، ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص ٦٦.
(٢) ابن الأثير: الكامل جـ٩ ص ٢٠٩، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان جـ ٨ ص ٤٦٠، ٤٧١.
(٣) ابن الأثير: الكامل جـ٩ ص ٢٢٩، الخزرجي: العسجد المسبوك ص ٢٢٩، ابن الديبع: قرة العيون ص ١٢٤.
(٤) ابن الأثير: نفس والمرجع والجزء والصفحة.
(٥) ابن فهد: اتحاف الورى في أخبار أم القرى جـ١ ص ٤٠٣.
(٦) نفس المرجع والجزء والصفحة.

السلاح والمجانيق وآلات القتال و بعدد من النفاطين(١).

وعندما علم الأمير مكثر بقدوم طاشتكين لعزله جمع ما استطاع جمعه من الأشراف والأعراب بسبب ضيق الوقت، واستعد للقتال. ولم يحج إلا القليل من أهل مكة ذلك العام. ومن المهازل التي حدثت في مناسك الحج إن بات الحجيج في عرفة بدلا من المزدلفة، ولم يرموا إلا جمرة العقبة، ولم ينزلوا للمبيت في منى إلاّ ليلة واحدة، ونزلوا الابطح، وتقاتل الفريقان عشية يوم النحر بالأ بطح وفي اليومين التاليين، واشتد الضيق على أهل مكة حتى تمكنت بعض القوات العراقية من دخول أطراف المدينة ونهب دورها الواقعة جهة المعلاة. وعندما شعر الأمير مكثر بضعف قواته، لجأ إلى حصنه في جبل ابي قبيس، فتبعته القوات العراقية وحاصرته، فاضطر إلى الفرار منه فتسلمته وهدمته(٢).

ودخل العراقيون مكة ونهبوها، واستولوا على أموال التجار، وأحرقوا العديد من دورها، وكانوا قد استخدموا قوارير النفط في الاستيلاء عليها، ولم يكن لأهل مكة دراية ولا معرفة بذلك، وفي ذلك يقول الفاسي: «ومن اعجب ما جرى أن انسانا زراقا(٣) ضرب دارا فيها بقارورة نفط وكانت لأ يتام مكة، فأحرق ما فيها، ثم اخذ قارورة اخرى، فأتاه حجر، فأصاب القارورة فكسرها، فاحترق هو بها، و بقى ثلا ثة أيام يتعذب بالحريق ومات(٤) وتم عزل مكثر عن الإمرة وعين أخوه داود بدله(٥).

وهكذا بلغ الاستهتار بالقيم الدينية وبمناسك الحج حتى إن الحجيج يبيتون في عرفة بدلا من مزدلفة ولا يرمون الجمرات ولا ينامون في منى وانما يسيرون لقتال إخوانهم من أجل مآرب شخصية وانتهكت الحرمات. كل ذلك بسبب الضعف الذي أصاب الخلافة العباسية، وكان في استطاعة الخليفة إرسال قواته لقتال مكثر بعد أداء الناس لفريضة الحج. لكن الوازع الديني كان قد ضعف ولم يبق هناك رادع يردع المنحرفين.

ولم يقتصر الصراع على العباسيين والأ يوبيين من جهة، وأشراف مكة من جهة أخرى أثناء الحج بل كان يحدث أحيانا بين أتباع العباسيين وأتباع الأ يوبيين. من ذلك ما حدث بين ابن المقدم: محمد بن عبدالملك بن محمد شمس الدين، أمير الحج الشامي وأحد القادة الأ يوبيين الكبار الذي اشترك مع السلطان صلاح الدين الأ يوبي في كل المعارك التي خاضها ضد الصليبيين والتي كان آخرها فتح بيت المقدس سنة ٥٨٣ هـ/١١٨٨م. و بعد الفتح استأذن السلطان صلاح الدين في

(١) الفاسي: العقد الثمين جـ٧ ص ٢٧٥. راجع أيضا ابن جبير: الرحلة ص ٧٦ ولكنه يذكر خطأ ان الذي كان قد بنى الحصن هوعيسى ابومكثر فهدمه عليه أمير الحج العراقي لمخالفة صدرت عنه وغادره خرابا

(٢) ابن الأ ثير: الكامل جـ٩ ص ١٣٧، الفاسي: شفاء الغرام جـ٢ ص ٢٣٠، العقد الثمين جـ٧ ص ٢٧٦

(٣) الزراق: هو رامي النفط Dozy Supp. Dict.Arabe و يضيف الدكتور محمد مصطفى زيادة ان الزراقة هي الأنبوبة التي يزرق بها النفط «السلوك: جـ١ قسم ٣ ص ٩٨ حاشية ٢».

(٤) العصامي: سمط النجوم العوالي جـ٤ ص ٢٠٥

(٥) ابن الجوزي: المنتظم جـ١٠/٢٦٠، ابن الأ ثير الكامل جـ٩ ص ١٣٧ــ١٣٨

أداء فريضة الحج على أن يحرم من القدس، وبذلك يجمع بين الجهاد وأداء فريضة الحج وزيارة الخليل عليه السلام، وزيارة قبر الرسول (صلى الله عليه وسلم)، فاذن له وتجمع في بيت المقدس أعداد كبيرة من المسلمين الذين قدموا من الشام ومصر والعراق لزيارة القدس بعد تحريرها والتوجه منها للحج. وتولى ابن المقدم الإمرة عليهم، وساروا حتى نزلوا عرفات ووقفوا بها وأدوا الواجب والسنة.

وبين طاشتكين بن عبدالمقتفوى مجيرالدين أمير الحج العراقي. إذ عندما اقتربت الشمس من الغروب يوم عرفة، استعد الحجاج للافاضة، وأراد ابن المقدم أن يكون في مقدمة الحجاج في النفرة إلى مزدلفة، وبدأ في ضرب الطبول استعدادا لذلك ورفع العلم الأيوبي، ولكن الأمير طاشتكين عمل على منعه وقال له: لايرفع هنا سوى علم الخليفة. فرد عليه ابن المقدم بأن السلطان صلاح الدين مملوك الخليفة ولا مانع من رفع علمه، وأرسل إليه يقول: «اني ليس لي معك تعلق، أنت أمير الحج العراقي، وأنا أمير الحج الشامي، وكل منا يفعل ما يراه ويختاره»(١) وضرب كوساته ورفع أعلامه، وأرسل إليه طاشتكين ينهاه عن ذلك، فلم يستجب لتهديداته وعندما رأى طاشتكين اصراره على الإفاضة قبله ركب في جماعة من أتباعه وجنوده، يتبعه أراذل الحجاج العراقيين، وتجار الحروب وسفاك الدماء، وقصدوا حجاج الشام، واعتدوا عليهم وقتلوا جماعة منهم، ونهبوا أموالهم وسبوا نساءهم، ولكنهن اعدن إلى أزواجهن. وتقاتل الفريقان في حين أخذ ابن المقدم ينهى قواته عن القتال، لأنه لايجوز القتال بين المسلمين وبالذات في ذلك الوقت والمكان. ولولا ذلك النهي والتحذير من ابن المقدم لقواته لنال الشاميون من العراقيين، وانتصفوا منهم. وقد اصيب ابن المقدم بجروح خطيرة، وعندما رأى طاشتكين ذلك أخذه إلى خيمته وأنزله عنده، وأشرف على تمريضه، ليستدرك الخطأ الذي ارتكبه في حقه، وساروا تلك الليلة من عرفه إلى منى. ولكن ابن المقدم لم يلبث أن توفى في الحادي عشر من ذي الحجة من ذلك العام بمنى متأثرا بجراحه. ودفن بمقبرة المعلاة بالقرب من قبر خديجة بنت خويلد زوج الرسول (رضي الله عنها) وبذلك رزق ابن المقدم الشهادة بعد جهاد الصليبيين، وفتح بيت المقدس(٢).

وعلى أثر مقتله أرسل الخليفة الناصر إلى السلطان صلاح الدين يعتذر له و يأسف لقتل ابن المقدم رغم أنه الباغي، و يقول أبوالمحاسن إن صلاح الدين لم يقبل عذره وقال: «لولا اشتغالي بالجهاد لكان لي وللخليفة شأن»(٣).

والملاحظ هنا أن الأمير مكثرا لم يتدخل لفض ذلك النزاع بين أميري الحج العراقي والشامي حتى لايغضب أحد الفريقين عليه، أو لأنه لم يكن يتوقع أن يتطور الأمر إلى ذلك الحد، وانهما سيلجآن إلى تحكيم العقل، وقد حاول ابن المقدم فعلا أن يحكم العقل، لكن بعد فوات الآوان،

---

(١) ابن الأثير: الكامل جـ٩ ص ١٨٨، ابن شاكر: فوات الوفيات جـ١ ص ٤١٢

(٢) ابو الفدا: المختصر جـ٣ ص ٧٣، ابن العبري: تتمة المختصر جـ٢ ص ١٤٩

(٣) النجوم الزاهرة جـ٦ ص ١٠٥

وكان في إمكانه ألا يركب رأسه من البداية ، و يصون بذلك دماء المسلمين وأعراضهم وحرمة ذلك المكان وذلك اليوم ولكن الشعور بالعظمة والجاه أنسياه ذلك. كما كان في مقدور طاشتكين أن يتركه ينفر قبله. ولم يكن سيخسر شيئا ، ولكن الغرور والعظمة حجبا الرؤية عن عينيه مما أدى إلى قتل جماعة من المسلمين في ذلك المكان المقدس وذلك اليوم العظيم وانتهكت أعراض المسلمين.

واستشرى الفساد والانحلال الديني حتى بين القائمين على أمر الدين. إذ قام الأمير مكثر بالقبض سنة ٥٨١ هـ/١١٨٦م على زعيم الشيعيين محمد بن اسماعيل الذي كان مسؤولا عن حجابة البيت ، ونهب منزله وعزله لهنات نسبت إليه «لا تليق بمن نيطت به سدانة البيت العتيق»(١).

ورغم أننا لم نستطع معرفة تلك الهنات إلا أنها تبدو اختلاسات أوسوء أخلاق قام بها محمد بن اسماعيل أدت بمكثر إلى عزله. ولكن الأمر لم يطل إذ لم يلبث أن أعاده إلى منصبه مقابل خمسمائة دينار مكية دفعها له تظاهر بأنه اقترضها ، و يبدو أنه فعل ذلك حتى لايطمع مكثر في أكثر مما دفع له. وتعجب ابن جبير من ذلك وقال: «فطال التعجب من ذلك والاعتبار، وتحققنا أن اظهار القبض عليه لم يكن غيرة ولا أنفة على حرمات الله المنتهكة على يديه مع كونها في خطة دونها الخلافة رفعة. والحال تشبه بعضها بعضا وإلى الله المشتكى من فساد ظهر حتى في أشرف بقاع الأرض وهوحسبنا ونعم الوكيل»(٢) ويمكننا أن نقول هنا لقد صدق القائل بأن الظالمين بعضهم أولياء بعض.

ليس هذا فقط بل كان بعض الأمراء الكبار يقومون بالفتن بدافع الشعور بالقوة كما حدث سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٨م عندما منع صدرجهان البخاري الماء والغذاء عن الحجاج العراقيين مما ادى إلى وفاة ستة آلاف منهم(٣).

كما اعتدى أهل مكة سنة ٦٠٧هـ/١٢١١م على الحجاج العراقيين بسبب مقتل عبد للشريف قتادة يدعى بلال. حتى عرف ذلك العام بعام بلال(٤). كما نهب الشريف قتادة الحاج العراقي سنة ٦٠٨هـ/١٢١٢ على أثر مقتل ابن عمه أبي هاشم عزيز ظنا من قتلته انه قتادة(٥).

كذلك نهب الحسن بن قتادة سنة ٦١٧هـ/١٢٢١م الحاج العراقي وقتل اقباش(٦) وكما كان الأعراب يعملون على قطع طريق الحاج العراقي عملوا على قطع طريق الحاج الشامي. فقد تجمعوا سنة ٦٢٠هـ/١٢٢٣م وعملوا على قطع الطريق عليهم وكانوا تحت إمرة أمير الحج شرف بن محمد الذي استخدم معهم سياسة الترهيب والترغيب ، وتم الاتفاق أخيرا على أن يقدم إليهم مبلغا من المال والهدايا على ألا يتعرضوا لهم. فوافقوا على ذلك. وأعطاهم جميع ما اتفق عليه من ماله الخاص لم يأخذ شيئا من الحاج ، فسمح لهم الأعراب بالمرور بسلام(٧).

(١) ابن جبير: الرحلة ص ١٢٧
(٢) نفس المرجع ص ١٢٩
(٣) ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص ٤٧
(٤) المقريزي: السلوك جـ١ قسم ١٧٤/١
(٥) راجع الفصل الأول من الباب الأول
(٦) راجع الفصل الأول من الباب الأول
(٧) راجع الفصل الأول من الباب الأول

ولم تقتصر الفتن على العراقيين والشاميين والأشراف بل شملت أيضا حكام اليمن الأ يوبيين، من ذلك الصراع الذي حدث بين الملك المسعود والحسن بن قتادة والفساد الذي كان يقوم به المسعود وأتباعه في الحرم(١).

ولم يقتصر في صراعه مع الأشراف بل امتد إلى الصراع مع أمير الحج العراقي(٢) بالاضافة إلى ذلك فقد كثرت اعتداءات الأعراب الشعبيين على الحاج حتى لم يجرؤ معظمهم على البقاء بمنى لليوم الثالث(٣).

المحمل:

هو عبارة عن أعواد من الخشب على شكل الهودج، ومربع الشكل، له سقف يأخذ في الارتفاع من الجوانب إلى الوسط حيث يوجد به قائم ينتهي بهلال وكان يسدل على ذلك الهيكل الخشبي كسوة إما من حرير، أو خز، أو غيره وكان يرصع أحيانا بالذهب والجوهر، وكان يوضع على ظهر جمل عند السفر. وكان أول من استحدث المحامل في طريق مكة الحجاج بن يوسف الثقفي(٤).
ونظرا لأن العراق كانت مقر الخلافة العباسية التي بلغت درجة عظيمة من التقدم والازدهار في عصرها الذهبي، لذلك فقد اهتم الخلفاء اهتماما بالغا بالمحمل، وكانوا ينفقون عليه بسخاء. وعندما حجت السيدة زبيدة زوج الخليفة هارون الرشيد، وضعت صهاريج المياه في طريق الحاج، لتوفير المياه لهم عبر الصحراء المقفرة(٥).

وقد اهتم أبوسعيد خربندا بالمحمل اهتماما بالغا، إذ كساه بالحرير ورصعه بالذهب واللؤلؤ والياقوت، وأنواع الجواهر الأخرى حتى بلغت قيمة الحلية مائتين وخمسين الف دينار، وجعل للمحمل خزا يسبل عليه إذا وضع على ظهر الجمل.

أمير الحج:

قال النبي (صلى الله عليه وسلم) «إذا خرجوا ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم» من ذلك نرى أنه لو خرج عدد قليل حتى لو كانوا ثلاثة فلابد أن يكون أحدهم أميرا عليهم حتى تنتهي المهمة التي خرجوا لها. فما بالك بذلك الحشد العظيم الذي يجتمع للذهاب إلى الأ راضي المقدسة لأداء فريضة الحج، وما يتعرضون له خلال الطريق من مصاعب، وفي الركب من العلماء، والفقهاء، والصالحين الأقوياء منهم والضعفاء، ومن النساء والصبيان والغلمان.. وما إلى ذلك. لذلك توجب على ولي الأمر أن يعين عليهم أميرا يعرف استقامة حاله، وحسن دينه وأفعاله، وأقواله، وأن يكون مشهورا

(١) راجع الفصل الأول من الباب الأول
(٢) راجع الفصل الأول من الباب الأول
(٣) راجع الفصل الأول من الباب الأول
(٤) ابن الجوزي: المنتظم جـ١٠ ص ٢٧٣
(٥) سبط بن الجوزي: مرآة الزمان جـ١٧ ص ٢٢٠

بالأمانة، لا أن يكون من الطامعين في تحصيل المكاسب المادية لذلك فإن منصب إمرة الحج من المناصب الجليلة القدر.

وكان أول من تولى إمرة الحج أبو بكر الصديق رضي الله عنه، عندما عهد إليه الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن يحج بالناس في السنة التاسعة للهجرة/٦٣٠م وكان أول من لقب بأمير الحج.

كما تولاها النبي (صلى الله عليه وسلم) بنفسه عندما حج بالمسلمين حجة الوداع في السنة العاشرة للهجرة/٦٣١م. وإن لم يلقب بلقب أمير الحج.

فإمرة الحج تعتبر ولاية سياسية وتدبيرا من اجل المراتب الدينية، وأعظم الوظائف لأنه يقود جموع المسلمين في أداء مناسكهم، و ينوب عن ولي الأمر في خدمة الحرمين الشريفين.

هذا وقد حج الخليفة عمر بن الخطاب بالناس، وكذلك عثمان بن عفان، ومعاو ية ابن أبي سفيان، وعبدالله بن الزبير، وعبدالملك بن مروان، والوليد بن عبدالملك كما حج بالناس بعض خلفاء بني العباس، وسلاطين مصر والشام واليمن، وكان الناس إذا ما أرادوا جاها وعزا سعوا لخدمة أمير الحج(١).

أما في العصر المتأخر فقد تقاعس الخلفاء عن إمامة الحجيج، كما تقاعسوا عن الصلاة بالمسلمين، وعهدوا بذلك التشريف إلى أفراد من حاشيتهم أو كبار قادتهم وكان يشترط في أمير الحج أن يكون ذا رأي وشجاعة وهيبة، وهداية، وكان من واجباته:

أ - أن يجمع الناس في حلهم وترحالهم، حتى لايتفرقوا، فيخشى عليهم من التأخير والضرر.

ب - ترتيبهم بتوزيعهم على مجموعة من القواد، وعلى كل واحد معرفة قائده ومكانه إذا سار أو حل، فلا يتنازعون، ولايضلون.

جـ - أن يرفق بهم أثناء السير، حتى لايعجز الضعيف، أو يضل المتأخر.

د - أن يسلك بهم أسهل الطرق، وأخصبها، وأن يتجنب القاحل منها أو الوعر.

هـ - أن يسير بهم إلى الماء إذا انقطع، وإلى المراعي إذا قلت.

و - أن يحرسهم عند حلهم، ويحوطهم بأتباعه إذا ساروا حتى لايختلط بهم مفسد، أو عابث، أو متلصص.

ز - أن يدفع عنهم قطاع الطرق، أو من يحاول منعهم عن المسير ليحول بينهم و بين الحج، بقتال إن استطاع، أو ببذل مال إن أجابه الحجيج إلى ذلك، وليس له أن يجبر أحدا على بذل الخفارة إن امتنع.

ح - أن يصلح بين المتشاجرين، و يتوسط بين المتنازعين، ولا يتعرض للحكم بينهم إجبارا، إلا

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية المجلد الثاني ص ٦٤٩

أن يفوض الحكم إليه ، وإن دخلوا بلدا جاز له ولحاكم البلد أن يحكم بينهم . فأيهما حكم فحكمه نافذ ، ولو كان التنازع بين الحجيج وأهل البلد يحكم بينهم حاكم البلد .

ط ــ أن يراعى الوقت حتى لايفوتهم الحج ، حتى لايلجئهم ضيقه إلى الحث في السير، وإذا وصل الميقات أمهلهم للإحرام ، وإقامة السنن ، وإن كان في متسع من الوقت سار بهم إلى مكة ليخرجوا مع أهلها إلى المواقف ، أما إذا كان الوقت ضيقاً سار بهم إلى عرفة حتى يدركوا الحج .

ى ــ أن يقوم المنحرف منهم ، و يؤدب الخائن ، و يقيم عليه الحد ، أما إذا دخل بلدا قبل إقامة الحد . فلوالي البلد إقامته(١) .

و بعد أن يصل ركب الحجيج إلى مكة كان يحق لمن قرر عدم العودة ألا يعود ، و يصبح حرا لا إمرة لأمير الحج عليه . أما من كان منهم على العود فهو تحت ولايته وملتزم أحكام طاعته . وإذا قضى الناس حجهم أمهلهم الأ يام المتفق عليها لانجاز علاقاتهم ولا يتسرع في الخروج كيلا يلحقهم ضرر، وإذا عاد بهم سار على طريق المدينة لزيارة المسجد النبوي وقبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) إن لم يكن قد أدوا الزيارة قبل أدائهم فريضة الحج(٢) .

ولم تكن مهمة أمير الحج مقصورة على قيادة الحجيج إلى مكة والعودة بهم ، بل كان يتصدرهم في القيام بشعائر الحج في مكة وعرفات وفي غيرها من الأماكن .

وكانت الإمرة تعود على الأمير بمنافع مادية إذ كان أمير الحج يؤول إليه مخلفات من يتوفى من الحجيج(٣) على أي حال بعد تعيين الأمير يستعد للسفر دون أن يكون هناك قانون معين يسير عليه ، اللهم التزامه بالواجبات المتعينة عليه .

الموظفون الملحقون بقائد المحمل :

كان يساعد أمير الحج في مهمته اتباعه ، وأعوانه ، وأصدقاؤه ، الذين كانوا يقدمون له المال ، والغلال ، والهدايا . وكان للأمير في نفوس الناس مكانة سامية ، وجاه عظيم حتى لقد كانوا يتقربون إليه بمراعاة خدمه وغلمانه(٤) .

كما كان يساعد الأمير كاتب يقوم بالرد على الرسائل التي ترد إليه وتبليغها إليه ، وتقديم الأوراق إليه ليوقع عليها ، و ينوب عن الأمير في الأمور التي لا يتولاها بنفسه ، أو تكون شاقة عليه . كتسهيل الطرق في المضيقات ، والطواف على الحاج ليلا أو نهارا إذا دعت الحاجة إلى ذلك ، أو تتبع

(١) راجع تلك الشروط في « ابراهيم رفعت باشا : مرآة الحرمين جـ٢ ص ٢٩٨ ــ ٣٠٠ »
(٢) ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين جـ٢ ص ٣٠٠
(٣) دائرة المعارف الإسلامية : المجلد الثاني ص ٦٥٠
(٤) ابراهيم رفعت : المرجع السابق والجزء والصفحة

اللصوص والمفسدين وقد كان الأمير يعين لمثل ذلك العمل من يصلح للقيام به من شجعان جنده المعروفين بالمروؤة والسياسة والشجاعة، والفروسية، والدين، والعقل(١). ومن الموظفين الملحقين بقائد المحمل: كاتب ديوان إمرة الحج الذي كان يعين بأمر الخليفة أو السلطان. وكانت مهمته تسجيل ما يرد لأمير الحج من الهدايا وغيرها(٢).

ومنهم أيضا: العسس الذين يطوفون ليلا مع الحجيج يتعرفون الأخبار ويمنعون ما عساه أن يقع من الشجار، و يشبههم الأستاذ ابراهيم رفعت برجال البوليس السري في مصر(٣) كما كان ملحقاً بالمحمل قاض للفصل في المنازعات بين الحاج وفقا للشريعة الإسلامية.

أما رواتب أمير الحج والإنفاق على الركب فعلى الرغم من قصور المراجع عن ذكرها إلا أنه يبدو أنها كانت تختلف من خليفة لآخر. إذ نرى ابن الأثير يقول: إن أمير حج العراق حسام الدين أبا فراس الحلي الكروي قد فارق الحج بين مكة والمدينة سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م وسار إلى مصر لكثرة الإنفاق على الركب أثناء الطريق، وقلة المعونة من الخليفة(٤).

ومع ذلك فإنه يبدو أن السلاطين كانوا يدفعون معونة كبيرة لأمير الحج. إذ كان يدفع له في دولة الجراكسة أحد عشر ألف دينار ينفق منها عشرة آلاف على الأمور الهامة، و يشتري بالألف الباقية إبلا، كما كان يعطي ميرة له ولجنده وخلعا لهم. و يعطى ثمانين فدانا زراعية، كما كانت له ضريبة على أمير مكة بلغت خمسة آلاف دينار ــ ولكن هذه الضريبة لم تكن موجودة في العصر الأيوبي بل كان الأيوبيون يقدمون المساعدات المادية والعينية لأشراف الحجاز ــ بالإضافة إلى مائتين وسبعين رأسا من الغنم، كما كان على أمير ينبع أن يقدم له مائتين وسبعين رأسا أيضا(٥).

وكانت إمرة الحج موردا عظيما من موارد الثروة لأميره الذي كان له سلطان مطلق في أن يأخذ من أموال الناس ما يشاء حقا و باطلا، بل وكانت له الكلمة على أمراء مكة حتى قرب نهاية الدولة المملوكية(٦).

أما المقريزي فذكر في خططه نقلا عن كتاب الذخائر والتحف(٧) انه كان ينفق على قافلة الحج التي كانت تسافر كل سنة من مصر مائة وعشرين ألف دينار منها ثمن حلوى وشموع وطيب ما قيمته عشرة آلاف دينار، ونفقة الوفد أربعين ألف دينار، وثمن الحمايات والصدقات، وأجرة الجمال، ورواتب العسكر وأمير الحج وخدمة القافلة وحفر الآبار وما إلى ذلك ستين ألف دينار. ثم زادت النفقة بعد ذلك حتى أصبحت مائتي ألف دينار(٨).

---

(١) ابراهيم رفعت والجزء والصفحة
(٢) ابراهيم رفعت: مرآة الحرمين جـ٢ ص ٣٠١
(٣) نفس المرجع والجزء ص ٣٠٢
(٤) الكامل في التاريخ جـ٩ ص ٣٦٤
(٥) ابراهيم رفعت: المرجع السابق ص ٣٠٣
(٦) نفس المرجع والجزء ص ٣٠٤
(٧) لم أعثر على هذا الكتاب ولم أعرف مؤلفه
(٨) الخطط جـ١ ص ٤٩٢

مناسك الحج في العصر الأيوبي:

إن مناسك الحج مأخوذة عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) حيث بين للمسلمين في حجة الوداع مناسكهم. ولكن حدث فيها بعض المخالفات على مر العصور، بسبب الجهل، أولأسباب الفتن أو الخوف من الأعراب. لذا يجدر بنا أن نلقي ضوءا عليها في العصر الأيوبي. خصوصا ما أورده الرحالة ابن جبير الذي أدى الفريضة بنفسه وكان معاصرا للأيوبيين.

فقد كان الحجيج بعد أن يتجمعوا في مكة، يصدرون في اليوم الثامن من ذي الحجة ــ يوم التروية إلى منى للمبيت بها حسب سنة الرسول (صلى الله عليه وسلم) استعدادا للمسير منها إلى عرفة في اليوم التالي، ولكن ذلك لم يكن يحدث كثيرا في العصر الأيوبي إذ كانوا يسيرون من مكة مباشرة إلى عرفات لخوفهم من اعتداءات الأعراب الشعبيين عليهم.

وقد وصف لنا ذلك ابن جبير الذي حج سنة ٥٧٩ هـ/١١٧٤ إذ قال: «إن الركب لم يبت في منى بعد وصوله إليها، بل واصل سيره إلى عرفات للخوف من إغارة أعراب بني شعبة عليهم».

وفي ذلك العام قدم الأمير عثمان الزنجيلي هاربا من سيف الإسلام طغتكين ورغم ظلمه لأهل اليمن إلا أنه قدم خدمة جليلة للحجاج عندما تقدم برجاله إلى المضيق الواقع بين جبلين بين مزدلفة وعرفات، ونصب قبة له به ليبسر على الحجاج العبور دون أن يعترضهم أحد، وطلب من فرسانه صعود الجبل الشمالي الذي يتجمع فيه البدو للإغارة على الحجاج، ليحولوا بينهم وبين تحقيق ذلك. وقد صعد أحد الفرسان على ظهر فرسه إلى قمة الجبل الذي كان في غاية الوعورة. ولم يستطع الشعبيون أن يفعلوا شيئا.

بعد ذلك يسير الحجاج من منى إلى وادي محسر الذي جرت العادة أن يهرولوا فيه ليتوجهوا منه إلى مزدلفة ــ أو المشعر الحرام ــ ومنها إلى عرفات في اليوم التاسع من ذي الحجة دون المرور بمكة أحيانا.

وكان يوجد في ذلك الوقت علمان يبينان حدود عرفات على بعد حوالي ميلين عن جبل الرحمة الذي كان يقف عليه وحوله الحجيج. والأرض الواقعة دون العلمين فهي حرم. أما التي أمامهما فهي حل. وبالقرب منهما مما يلي عرفات يوجد بطن عرنة الذي نهى الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن الوقوف فيه عندما قال: «عرفات كلها موقف، وارتفعوا عن بطن عرنة» ومن وقف فيه فحجه باطل. وقد كان بعض الجمالين في ذلك الوقت يعملون على تحاشي الزحام ويذهبون بالحجاج إليه وإلى أبعد منه أحيانا فيبطل حجهم.

وكان يوجد بالقرب من جبل الرحمة مسجد كان الناس يتزاحمون للصلاة فيه. كما كان يوجد بالقرب من العلمين في الجهة اليسرى مسجد قديم فسيح البناء ينسب إلى ابراهيم الخليل (عليه السلام) يخطب فيه الخطيب يوم وقفة عرفة ويجمع في الصلاة بين الظهر والعصر.

و بعد الصلاة يقف الناس خاشعين باكين متضرعين إلى الله أن يغفر لهم ذنوبهم . و يعلو التكبير من كل صوب وحدب .

وكان الحجيج ينقسمون إلى فئات : منهم الفقراء الذين يبقون في العراء تحت أشعة الشمس المحرقة طيلة النهار، ومنهم من هم أحسن حالا وهم الذين كانوا يكترون الجمال و يستظلون في ظلها أو ينصبون شبه الخيام أو بيوت الشعر فيستظلون بها من لفح الشمس .

أما الأمراء والأغنياء فكانوا يختلفون عن الفئتين السابقتين . إذ وصف لنا ابن جبير محلة الأمير طاشتكين أمير الحج العراقي بقوله : « كانت محلة هذا الأمير العراقي جميلة المنظر بهية العدة ، رائعة المضارب ، فأعظمها مرأى مضرب الأمير وذلك أنه أحدق به سرادق كالسور من كتان كأنه حديقة بستان أو زخرفة بنيان ، وفي داخله القباب المضروبة وهي كلها سواد في بياض ، مرقشة ملونة ، كأنها أزاهير الرياض وقد جللت صفحات ذلك السرادق من جوانبه الأربعة كلها بأشكال درقية(١) التروس من جلد ليس فيه خشب من ذلك السواد المنزل بالبياض يستشعر الناظر إليها مهابة يتخللها درقا لمطية(٢) قد جللتها مزخرفات الأغشية ، ولهذا السرادق الذي هو كالسور المضروب أبواب مرتفعة كأنها أبواب القصور المشيدة يدخل منها إلى دهاليز وتعاريج ، ثم يفضي منها إلى الفضاء الذي فيه القباب ، وكأن هذا الأمير ساكن في مدينة قد أحدق بها سورها ، تنتقل بانتقاله ، وتنزل بنزوله ، وهي من الأبهات الملوكية المعهودة التي لم يعهد مثلها عند ملوك المغرب . وداخل تلك الأبواب حجاب الأمير، وخدمه ، وحاشيته ، وهي أبواب مرتفعة يجيء الفارس برايته فيدخل عليها دون تنكيس ولا تطأطو، قد احكمت اقامة ذلك كله امراس وثيقة من الكتان تتصل بأوتاد مضروبة أدير ذلك كله بتدبير هندسي غريب . ولسائر الأمراء الواصلين صحبة هذا الأمير مضارب دون ذلك ، لكنها على تلك الصفة ، وقباب بديعة المنظر ، عجيبة الشكل قد قامت كأنها التيجان المنصوبة إلى ما يطول وصفه ، و يتسع القول فيه من عظيم احتفال هذه المحلة في الآلة والعدة ، وغيرذلك مما يدل على سعة الأحوال وعظيم الانخراق ــ التوسع ــ في المكاسب والأموال »(٣) .

ليس هذا فقط بل خلال سيرهم على ظهور الإبل كانوا يتمتعون براحة تامة حتى إنهم لايشعرون بعناء السفر، فقد كان لهم على ظهور الإبل غشاوات تنصب على محامل من الأعواد كالتوابيت المجوفة ، تملأ بالفرش الوثيرة ، يجلس فيها الرجال والنساء والأطفال ــ كالأمهدة للأطفال ــ يجلس في كل ناحية شخص ليوازن الواحد منهما الآخر وتوضع فوقها القباب لتظليلهم ، وتسير الإبل بهم وهم نيام أو جلوس لايشعرون بشيء . وإذا وصلوا إلى محلة للراحة ضرب لهم السرادق ، فيدخلون راكبين وتنصب لهم كراسي ينزلون عليها فينتقلون من ظل قبة المحمل إلى قبة السرادق حتى لا

(١) الدرق : الترس من جلد ليس فيه خشب « المنجد ص ٢١٣ »

(٢) اللمطية : ولمطة ارض قبيلة بربرية بالمغرب ينسب إليها الدرق لأنهم ينقعون الجلود في الحليب سنة فيعملونها . فينبو عنها السيف القاطع «محيط المحيط ص ١٩١٧

(٣) ابن جبير: الرحلة ص ١٥٨ ــ ١٥٩

يلفحهم الهواء الحار أو يصابون بضربة شمس . أما من هم أقل من هؤلاء ترفا فيركبون المحارات وهي شبيهة بالشقاديف التي وصفناها في طريق عيذاب ولكنها أضيق منها .

أما الفقراء وضعفاء الحال . فكانوا يقاسون الأمرين من حر الشمس أو شدة البرد ، ومن شدة التعب . أو كما قال ابن جبير «فقد حصل على نصب السفر الذي هو قطعة من العذاب»(١) .

بعد هذا الوصف لأحوال الحجيج في ذلك الوقت نعود إلى المناسك إذ بعد غروب الشمس يبدأ الحجيج في النفرة من عرفة إلى مزدلفة ، ولكنهم أحيانا كانوا يبيتون في عرفة ليلتهم ولا ينفرون بسبب الفتن ، كما لا يبيتون في مزدلفة لنفس السبب(٢) و يواصلون سيرهم إلى منى ولا يرمون الجمرات وأحيانا يرمون الجمرة الكبرى و يسيرون منها إلى مكة لقتال أهلها كما حدث سنة ٦٠٧هـ/١٢١١م كما سبق أن بيّنا . وفي ذلك مخالفة لمناسك الحج .

أما في الحج العادي الذي لايعكره شيء . فكان الحجيج يصلون مزدلفة قبيل العشاء فيجمعون بين صلاتي المغرب والعشاء . أما المشعر الحرام فيكون منارا من كافة نواحيه كأنه في ليلة زفاف «يخيل للناظر إليه أن كواكب السماء كلها نزلت به»(٣) .

وخلال الإقامة بمزدلفة كان الحجيج يلتقطون الحصى لرمي الجمرات وهذا مستحب وليس شرطا إذ من الحجيج من يلتقطها من منى من حول مسجد الخيف و يبيت الحجيج بمزدلفة حتى الفجر فيصلون الصبح و يسيرون إلى منى حيث يرمون جمرة العقبة بسبع حصيات عند طلوع الشمس ، و بعد ذلك يذبح الحاج أضحيته ويحلق ثم يتحلل من كل شيء فيما عدا النساء ، و يضيف ابن جبير إلى ذلك الطيب(٤) وهذا خطأ .

و يقول البتانوني إن من المألوف النحر عند حجر من الصوان في منحدر جبل ثبير(٥) ولكن هذا العمل من أعمال الجهال في الأيام الأولى وليس هو من سنن الحج أو مناسكه إذ لم يفعل ذلك الرسول (صلى الله عليه وسلم) أو أحد من الأئمة أو علماء المسلمين . و يفعلون ذلك ظنا منهم أنها الصخرة التي ذبح ابراهيم (عليه السلام) عليها كبش الفدية عن إسماعيل ولكن ذلك غير صحيح إذ لم يحدد موضع تلك الصخرة ولم يحددها النبي (صلى الله عليه وسلم) وفي اليوم الثاني من أيام الاقامة بمنى يرمي الحاج الجمرات الثلاث بسبع حصيات لكل منها عند الزوال ، مبتدئين بالجمرة الصغرى فالوسطى فجمرة العقبة ، وفي نفس اليوم يخطب الخطيب بمسجد الخيف ويجمع بين صلاتي الظهر والعصر، وليس شرطا أن يكون الخطيب من أهل الحجاز أو المقيمين بها بل من الممكن أن يأتي من أي بلد إسلامي . وقد كان الخطيب عام ٥٧٩هـ/١١٨٤م هو تاج الدين أرسله الخليفة العباسي مع الركب العراقي(٦) وفي اليوم الثالث يرمي الحاج سبع حصيات للجمرات الثلاث أيضا

---

(١) نفس المرجع ص ١٦٠
(٢) ابن الجوزي : المنتظم جـ١٠ ص ٢٦٠
(٣) ابن جبير: الرحلة ص ١٦٠
(٤) نفس المرجع ص ١٦١
(٥) الرحلة ص ١٩٦
(٦) ابن جبير ص ١٦١

على النحو الذي يفعله في اليوم الثاني. فيكمل بذلك تسعة وأربعين حصاة. وكانت السنة إقامة ثلاثة أيام بمنى بعد النحر لرمي سبعين حصاة ولكن ((ومن تعجل في يومين فلا إثم عليه))(١) ولكن الحجيج يعودون مسرعين إلى مكة بعد يومين خوفا من اعتداء الأعراب الشعبيين عليهم. ثم يبدأ الحجيج في العودة إلى بلادهم ومنهم من يتجه للمدينة للزيارة.

المنشآت الدينية: التجديد في الحرمين:

اهتم الخلفاء العباسيون بالحرمين الشريفين. فكانوا يرسلون الكسوة للكعبة كما كانوا يرممون القديم منها. إلا أنهم بدأوا يتقاعسون عن ذلك في عصورهم المتأخرة. مما جعل بعض السلاطين والوزراء يقومون بما كان يقوم به الخلفاء.

فقد قام الوزير جمال الدين محمد بن علي بن منصور المعروف بالجواد وزير الموصل بمآثر عظيمة في مكة والمدينة بحيث لم يقم بمثل ما قام به لا خليفة ولا وزير ولا سلطان قبله. وبذل في ذلك أموالا طائلة. فبنى باع السبيل في مكة، كما عمل صهاريج للماء بها، وعمل جباباً في الطرق لتتجمع مياه الأمطار فيها، كما أجرى الماء إلى عرفات وجدد أبواب الحرم المكي، وباب الكعبة وغشاه بالفضة المذهبة وأخذ الباب القديم وجعله تابوتا له ليدفن فيه. وأوصى قبيل وفاته أن يحج به ميتا لأنه لم يحج في حياته. وعمل بوصيته وحج به وحمل للمدينة حيث دفن في روضة عملت له بجوار روضة الرسول(صلى الله عليه وسلم)(٢).

ومن الغريب في العصر الأيوبي أن التجديد، أو الترميم والإصلاح، أو النفقة على الحرم المكي كان ممنوعا بأمر أميرها. لذا لايستطيع من يريد أن يقوم بأي تجديد أو ترميم من فاعلي الخير من الأثرياء بذلك، ولو سمح بذلك لأنفق محبو الخير من الأغنياء عليه من أموالهم بلا حدود. وكما قال ابن جبير: «لجعل الراغبون في نفقات البر من أهل الجدة ــ الثراء ــ حيطانه عسجدا، وترابه عنبرا، لكنهم لايجدون السبيل إلى ذلك»(٣).

وإذا أراد أحد الأغنياء أن يقوم بتجديد أثر من آثاره أو إقامة رسم من رسومه فكان لابد له من أن يحصل على موافقة الخليفة على ذلك. وإن كان مما ينقش فيه أو يرسم عليه، فكان لابد أن يعمل طراز بذلك باسم الخليفة. وألا يذكر فيه اسم القائم به. وكأن القائم به الخليفة. فيوافق على ذلك(٤).

وحتى لو وافق الخليفة فإن موافقته لا تكفي إذ كان لابد من موافقة شريف مكة أيضا. ولكن لابد أن يقدم له من يريد أن يفعل ذلك قدرا لابأس به من الأموال ربما يساوي ما سينفقه على ذلك العمل. فتصبح الكلفة كبيرة على فاعل الخير أو يحجم عن القيام به أو يلجأ إلى الحيلة(٥).

---

(١) القرآن الكريم: سورة البقرة. الآية ٢٠٣

(٢) ابن جبير: المرجع السابق ص ١٠٤ ــ ١٠٥ ابن خلكان وفيات الأعيان جـ٥ ص ١٤٤ ــ ١٤٦

(٣) ابن جبير: الرحلة ص ١٠٦

(٤) نفس المرجع والصفحة

(٥) نفس المرجع والصفحة

ومن أمثلة هذا التحايل ما فعله أحد دهاة العجم فقد قدم للحج في فترة إمرة الأمير مكثر، فرأى تنور بئر زمزم وقبته على شكل غير مرض . فذهب للأمير مكثر واجتمع به وقال له : «أريد أن أتأنق في بناء تنور زمزم وطيه وتجديد قبته ، وابلغ في ذلك الغاية الممكنة ، وانفق فيه من صميم مالي ، ولك عليّ في ذلك شرط ، ابلغ بالتزامه لك غرض المقصود ، وهو أن تجعل ثقة من قبلك يقيد مبلغ النفقة في ذلك . فإذا استوفى البناء التمام، وانتهت النفقة منتهاها ، وتحصلت محصاة، بذلت لك مثلها جزاء على اباحتك لي ذلك»(١) .

ففرح الأمير مكثر بذلك طمعا فيما سيعود عليه ، من آلاف الدنانير لأن ذلك العمل سيتكلف آلاف الدنانير، وسيأخذ مثلها ، فوافق . وأتاه بمحاسب يقيد عليه كل صغيرة وكبيرة . وشرع ذلك الرجل في تنفيذ المشروع ، وتأنق في ذلك قدر استطاعته ، وفعل فعل من يسعى إلى مرضاة الله تعالى ، والمحاسب يقيد كل ما ينفقه ، والأمير مكثر يطلع على ذلك أولا بأول ، و ينتظر بفارغ الصبر إنجاز العمل ليقبض ما يساوي تلك النفقات الهائلة .

وعندما أوشكت الأعمال على نهايتها ، ولم يبق سوى أن يذهب ذلك الداهية إلى الأمير الجشع ، و يقدم له صرة تساوي ما أنفقه ، مع توقعه أن يقدم له هدية سنية أيضا لتفضله بالموافقة على قيامه بذلك العمل . إذ بذلك الرجل يركب في الليلة التي كان من المفروض أن يذهب فيها للأمير بعيدا ويختفي ولم يعثر له على أثر. فكاد يجن جنون ذلك الأمير الأ بله الذي أخذ يقلب يديه ، و يلطم صدغيه ندما على أنه لم يضعه تحت الحيطة .

ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد بل كثيرا ما كان يلجأ أمراء مكة إلى نهب أموال الحرم ، ولم ينج من عبثهم حتى الطوق الفضي الذي يلم شعث الحجر الأسود كما سبق أن بيّنا .

ومع ذلك فقد أنشأ الخليفة المستنصر العباسي بيمارستانا في الجانب الشمالي من المسجد الحرام سنة ٦٢٨ هـ/١٢٣١م على نفقته الخاصة لعلاج أهل مكة والمجاورين بالحرم وتقديم العلاج اللازم لهم ، و وقف على ذلك أوقافا جليلة(٢) .

و بعد تملك المنصور نورالدين عمر بن رسول لليمن كان يهتم بمكة اهتماما كبيرا من ذلك إرساله قناديل الذهب والفضة للكعبة سنة ٦٣٢ هـ/١٢٣٥م وتعميره مدرسة في الجانب الغربي من المسجد الحرام سنة ٦٤١ هـ/١٢٤٣م(٣) .

أما بالنسبة للمدينة المنورة فقد قام الجواد بها بخدمات جليلة أهمها بناء سور حولها ليحول دون

---

(١) ابن جبير: الرحلة ص ١٠٦

(٢) الفاسي : العقد الثمين جـ١/١٢٣

(٣) الفاسي : المرجع السابق جـ٦ ص ٣٣٩ــ ٣٤١و٣٤٧ــ ٣٤٩ ، الخزرجي العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٥٥ ، العسجد المسبوك ص ٢٢٩ ، ابن الديبع : قرة العيون ص ١٣٠

نهب الأعراب لها، كما قام ببناء الحجرة الشريفة وترخيم جدارها(١).

وفي حوالي سنة ٥٧٠ هـ/١١٧٥م تهدم جزء من الحجرة الشريفة. فأرسل أمير المدينة إلى الخليفة العباسي يستشيره في ترميمها، فاستشار الخليفة الفقهاء فأفتوه بأن ينزل إليها رجل فاضل من القومة على المسجد، فاختاروا الشيخ بدر الضعيف الذي كان شيخا فاضلا، يقوم الليل و يصوم النهار، وهو من فتيان بني العباس. فدلى في الحجرة فوجد جدارها الغربي قد سقط، فصنع له لبنا من تراب المسجد ورممه وأعاده على الهيئة التي كان عليها. كما وجد عمودا من الخشب قد كسر بسبب انهيار الحائط. فحمل إلى بغداد مع شيء من تراب الحائط. وكان يوم وصولهما إلى بغداد يوما مشهودا إذ احتشد الناس لرؤيته(٢).

وقد كان للمدينة المنورة في العصر الأيوبي متول لعمارتها هو الشمس بن الزمن، كان يقوم بترميم وإصلاح ما يتهدم في الحرم، وإصلاح المصارف أو عمل مصارف جديدة للمياه لأنها كانت تتجمع حول المسجد كالمستنقعات والغدران وكانت تنبعث منها روائح كريهة وتسبب الأمراض، ناهيك عن أن المصلين الذين يحضرون للصلاة في المسجد كانوا يلاقون عناء شديدا في عبورها مما يلحق بهم الأوساخ لذلك قام ابن الزمن بحفر سرب لتلك البلاليع التي بالقرب من أبواب المسجد، وأجراها في السرب الذي تجرى فيه أوساخ العين، ولم تعد المياه تتجمع أمام المسجد، وأزيلت البرك والمستنقعات(٣).

وفي سنة ٥٧٦ هـ/١١٨١م قام الخليفة الناصر لدين الله العباسي ببناء قبة في صحن الحرم المدني لتكون خزانة لحفظ حواصل الحرم ومعداته وذخائره، ووضع فيها المصحف العثماني، وعدة صناديق كبيرة اشتملت على الأشياء الهامة كالهدايا والتحف والقناديل الفضية والمذهبة وغيرها. وعندما احترق الحرم سلم المصحف والذخائر الموجودة بها(٤).

واستمر اهتمام الخلفاء بالحرم المدني إذ كانوا يرسلون إليه الأمراء بعد أن يمدوهم بالأموال لتجديد ما تهدم منه. فقد كان الناصر لدين الله يرسل ما قيمته ألف دينار من الذهب الامامي الخالص لعمارة الحرم المدني كما كان يرسل عددا من البنائين والنقاشين وأرباب الحرف المختلفة بالحديد والرصاص والحبال والآلات لإصلاح أي خلل يحدث بالحرم، وترميمه، واجراء تجديدات فيه على نفقة الخليفة الخاصة. ولايزال اهتمام الخلفاء به حتى «انه ليس به موضع اصبع إلا وهو عامر»(٥).

---

(١) العباسي: عمدة الأخبار جـ٥ ص ١٢٤

(٢) السمهودي: وفاء الوفا جـ٢ ص ٥٦٩ — ٥٧٠

(٣) السمهودي: وفاء الوفا جـ٢ ص ٧٣٨ — ٧٣٩

(٤) العباسي: عمدة الأخبار جـ٥ ص ١٢٥

(٥) السمهودي: المرجع السابق والجزء ص ٦٤٦

وانتقل الاهتمام بالمسجد النبوي بعد وفاة الناصر لسلاطين مصر الذين اهتموا بعمارته اهتماما بالغا(١). كما أنشأ أبو جعفر المنتصر بالله مارستانا بالمدينة سنة ٦٢٧ هـ/١٢٣٠م لمعالجة المرضى وتطبيبهم على نفقته الخاصة(٢).

الأربطة والدور الموقوفة:

الرباط هو زاوية إسلامية محصنة، ولكن أدق تعريف للرباط ما ورد في القرآن الكريم «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل»(٣). والرباط في الأصل هو مكان يجتمع فيه الفرسان استعدادا للقيام بحملة من الحملات(٤).

ولكن مع مرور الزمن تغيرت صيغة الربط العسكرية بسبب عدم تهديد الكفار لحدود البلاد الإسلامية في المشرق الإسلامي. وتطور التصوف وتعددت فرق المتصوفة وطرقهم منذ القرن السادس الهجري، وتحولت إلى أماكن ينزلها الصالحون مددا محددة. وبذلك فإن تعريف الرباط في مصطلح الفقراء هو الانقطاع للجهاد وحماية الثغور، اما عند الصوفية فهي تدل على المكان الذي ينقطع فيه المرء لعبادة الله(٥). وهذا الاستعمال هو الذي كان معروفا به في الحجاز في العصر الأيوبي.

وتقول دائرة المعارف الإسلامية إنه لم يكن بمكة حتى عصر ابن بطوطة سوى رباطين(٦)، أما في الحقيقة فقد كان بها العديد من الربط كما وجدت الربط أيضا في المدينة التي اغفلت ذكرها وكانت تلك الربط مأوى الفقراء والمنقطعين وطلاب العلم والمجاورين للحرمين الشريفين من كافة الأجناس. والملاحظ على تلك الربط أن بعضها كان موقوفا على كافة المسلمين من كافة الأجناس والمذاهب وبعضها كان موقوفا على الزجال والآخر على النساء، وبعضها كان وقفا على طائفة الصوفية، أو على أحد المذاهب الإسلامية، والبعض خاص بجنس معين من الناس وبعضها خاص بالغرباء والمجاورين.

وكان واقف الرباط يقف عليه أحيانا بعض الدور أو الضياع أو الأماكن للإنفاق عليه، كما كان يوقف به بعض الكتب ليتلقى المجاورون فيها بعض العلوم لأنها كانت تشبه المدرسة وتقوم مقامها أحيانا. ومن أهم الأربطة بالحجاز في العصر الأيوبي:

رباط المراغي:

يقع بجوار رباط السدرة الذي أنشىء سنة ٤٠٠ هـ وكان يعرف بالقيلاني ومما يؤسف له أننا لم نتمكن من معرفة واقفه أو على من وقفه، و يبدو أنه أحد الصالحين من مراغه. فنسب إليه. أما تاريخ وقفه فهو سنة ٥٧٥ هـ/١١٨٠م(٧).

---

(١) نفس المرجع والجزء ص ٦٤٧
(٢) نفس المرجع والجزء ص ٦٩٥
(٣) القرآن الكريم: سورة الأنفال آية ٦٠
(٤) دائرة المعارف ص ٢١
(٥) نفس المرجع والجزء ص ٢٢ــ٢٣
(٦) نفس المرجع والجزء والصفحة ٢٣
(٧) الفاسي: العقد الثمين جـ١ ص ١١٨

رباط الخاتون:

و يعرف أيضا برباط ابن محمود، وكان يقع بالقرب من رباط القزويني على باب السدة خارج المسجد الحرام، و يبدو أن إحدى الخواتين ممن يفعلن الخير هي التي وقفته، وأوكلت إلى ابن محمود هذا بإقامته سنة ٥٧٧ هـ/١١٨٢ م(١).

رباط ابوسماحة:

أنشأه أبوسماحة نيابة عن الأمير قيماز بن عبدالله أبي الفتح قلج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان الذي أوقفه بجميع حدوده أسفله وأعلاه وجميع ما يشتمل عليه، والدار التابعة له المعروفة بالقفطي على المجاورين والمقيمين والمنقطعين بمكة من أصحاب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان ابن ثابت، وقفا مؤبدا محبسا لا يباع ولا يورث بأي حال من الأحوال سنة ٥٧٨ هـ/١١٨٣ م(٢).

رباط أم الخليفة الناصر العباسي:

وهو الرباط المعروف بالعطيفية، اوقفته أم الخليفة الناصر بمكة سنة ٥٧٩ هـ/١١٨٤ م(٣) و يبدو أنه كان موقوفا على فقراء المسلمين والمجاورين.

رباط الزنجيلي:

وقفه الأمير فخرالدين عثمان بن علي الزنجيلي والي عدن من قبل الأيوبيين سنة ٥٧٩ هـ/١١٨٤ م وكان مقابلا لمدرسته الواقعة عند باب العمرة(٤) و يبدو أنه لم يضع شروطا لوقفه بل جعله لكل الفقراء والمجاورين والمنقطعين.

دارزبيدة:

وقفتها طاب الزمان الحبشية عتيقة الخليفة المستضيء العباسي في شعبان سنة ٥٨٠ هـ/١١٨٥ م على عشرة من الفقهاء الشافعية(٥).

رباط ابن السوداء:

وقف ابن السوداء هذا الرباط لسكناه سنة ٥٩٠ هـ/١١٩٤ م عند الدريبة بمكة(٦).

رباط الأخلاطي:

وكان مقسوما إلى قسمين: قسم وقفه على النساء الحنفيات، والآخر على رجال خلاط، و يبدو أن واقفه رجل من مدينة خلاط فنسب إلى بلدته، وقفه سنة ٥٩٠ هـ/٥٩١ هـ، ١١٩٤/١١٩٥ م(٧).

رباط أبورقيبة:

و ينسب إلى عبدالله بن محمد الأرسوفي و يقال له رباط العفيف وكان قد اتخذه لسكناه، وقفه

(١) نفس المرجع والجزء ص ١٢٠
(٢) الفاسي: جـ٧ ص ٨٣ — ٨٤
(٣) الفاسي: العقدالثمين جـ١ ص ١١٩
(٤) بامخرمة تاريخ ثغرعدن جـ٢ ص ١٣١
(٥) الفاسي: المرجع السابق جـ٨ ص ٢٦١
(٦) الفاسي العقد الثمين جـ١ ص ١٢٣
(٧) الفاسي جـ١ ص ١٢١

عنه وعن موكله القاضي الفاضل سنة ٥٩١ هـ/١١٩٥ م بالخرامية بمكة(١).

رباط الفقاعية:

وقف سنة ٥٩٢ هـ/١١٩٦ م بالقرب من رباط صالحة عند باب الزيادة المنفرد(٢) ومما يؤسف له أننا لم نتوصل لمعرفة واقفه ولا على من وقفه.

رباط ربيع:

وقفه ربيع بن عبدالله محمد الماردينى عن الملك الأفضل ابن السلطان صلاح الدين على بن يوسف بن أيوب صاحب دمشق ـ بأجياد في ذي الحجة سنة ٥٩٤ هـ/١١٩٨م، وقد وقفه على الغرباء من فقراء المسلمين، كما وقف فيه الملك الأفضل مجموعة من الكتب من بينها المجمل في اللغة لابن فارس والاستيعاب لابن عبد البر(٣).

رباط ابن غنايم:

وقفه الملك العادل محمد بن ابي على ملك الجبال والغور والهند سنة ٦٠٠ هـ/١٢٠٤م(٤) و يبدو أنه وقفه على فقراء المسلمين وخاصة أهل الهند.

رباط الموفق:

ينسب إلى القاضي الموفق علي بن عبدالوهاب بن محمد ابن أبي الفرج الاسكندري بأسفل مكة «وقفه وحبسه وتصدق به على فقراء العرب المتعبدين ذوي الحاجات المجردين، وليس للمتأهلين فيه حظ ولا نصيب» وجعل عليه وقفا بمكة في سنة ٦٠٤ هـ/١٢٠٨م(٥).

رباط بنت التاج:

كان رباطا خرابا بأجياد جددته تاج النساء بنت رستم بن أبي الرجاء محمد الأصبهانية. اخت إمام المقام زاهر بن رستم وكانت مقدمة الصوفية بمكة. و يبدو أن تعميره تم قبل عام ٦١٠ هـ/١٢١٤م(٦) لأنها كانت قد توفيت في ذلك العام.

رباط الخوزي:

ينسب إلى أبي حفص عمر بن مكي بن أبي على الملقب بالسراج الفقيه الشافعي أما واقفه فهو: الأمير قرامز بن محمود بن قرامز الأقدري الفارسي، وقفه سنة ٦٢٧ هـ/١٢٢١م على الصوفية الغرباء المتجردين وكان فيه سكنى الخوزي(٧).

(١) نفس المرجع والجزء ص ١٢٢
(٢) الفاسي: العقد الثمين جـ١ ص ١١٩
(٣) نفس المرجع جـ٦ ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦
(٤) الفاسي: العقد الثمين جـ١ ص ١٢٣
(٥) نفس المرجع: جـ٦ ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥
(٦) نفس المرجع: جـ٨ ص ١٩١ ـ ١٩٢
(٧) الفاسي شفاء الغرام جـ١ ص ٣٣٢، والعقد الثمين جـ١ ص ١١٩، جـ٦ ص ٣٦٢

دار المؤذنين:

وقفها الأمير قرامز المقدم ذكره على شروط وقف الرباط السابق وفي نفس التاريخ بسوق الليل بمكة(١).

رباط القنجيري:

وقفه احمد بن ابراهيم بن عبدالملك بن مطرف أبوالعباس، أبوجعفر التميمي المري بالمروة على يسار الذاهب إليها على جميع الفقراء من أهل الفضل والخير والدين، العرب والعجم، المتأهلين وغير المتأهلين على ما يليق بكل واحد منهم في المنازل في هذا الرباط ووقف عليه حماما بأجياد، وذلك في العشر الأوسط من شوال سنة ٦٢٠ هـ/١٢٢٣م(٢).

رباط البانياسي:

وقفه الأمير الأسفهسلار فخرالدين إياز بن عبدالله قرب الصفا على يسار الذاهب إليها من المسجد الحرام وقفه على الفقراء المعروفين بالدين والخير والصلاح في شهر ربيع الأول سنة ٦٢٥ هـ/١٢٢٨م(٣).

رباط الشرابي:

وقفه الأمير شرف الدين اقبال بن عبدالله المستنصري العباسي عند باب بني شيبة بمكة سنة ٦٤١ هـ/١٢٤٣م «وجعل له أوقافا لنفقته منها مياه تعرف بالشرابيات بوادي مر» ووادي نخلة، كما وقف به كتبا نفيسة في مختلف فنون العلم وجعل به طائفة من الصوفية(٤).

رباط غزي:

وقفه علي بن محمد المصري على الرجال المجاورين الفقراء والمساكين من مختلف أجناس المسلمين سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م(٥).

الربط والدور الموقوفة بالمدينة:

رباط الجواد:

وقفه وزير بني زنكي جمال الدين محمد بن أبي المنصور الأصفهاني على فقراء العجم. وجعل له تربة فيه، نقله على نفقته أسد الدين شيركوه إليها بعد وفاته. ودفن بها(٦).

دار خدام الحرم:

كانت توجد إلى جانب تربة أسد الدين شيركوه قبلي رباط الجواد. كانت موقوفة على خدام

(١) الفاسي: العقد الثمين جـ١ ص ١٢١

(٢) نفس المرجع جـ٣ ص ٥ــ٨

(٣) نفس المرجع والجزء ص ٣٣٨ــ ٣٣٩، جـ١ ص ١٢٠

(٤) المقريزي: السلوك جـ١ قسم ٢ ص ٣١٥، الفاسي: العقد الثمين جـ٣ ص ٣٢٤ــ ٣٢٥

(٥) الفاسي: العقد الثمين جـ٦ ص ٢٦٠

(٦) السمهودي: وفاء الوفا جـ٢ ص ٦٨٩

الحرم الشريف يسكنها مشايخهم(١) و بالرغم من عدم معرفة واقفها ولا تاريخ وقفها إلا أنه يبدو أنها كانت في السبعينات من القرن السادس الهجري لأن صلاح الدين كان قد رتب أولئك الخدام بالحرم المكي في ذلك الوقت.

رباط القاضي الفاضل:

وقفه القاضي الفاضل محيى الدين عبدالرحيم البيساني على الرجال. و يبدو أنه وقفه في نفس العام الذي وقف فيه رباطا بمكة أي سنة ٥٩١ هـ/١١٩٥م، و بنى فيه بيوت الصوافي بجوار المسجد الحرام بالقرب من زقاق المناصع(٢).

دار العزاب:

بنيت محل دار الرقيق التي كانت بيتا لحفصة بنت عمر زوج الرسول (صلى الله عليه وسلم) وقفها ناظر شيخ الخدام على العزاب فقط واشترط ألا يسكنها متزوج(٣).

رباط المدرسة الجوبانية:

بني مكان دار عبدالله بن مكمل غربي المسجد المدني، وكانت دارا يتشاءم الناس منها لأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) حسب ما يروى قال لأصحابها اتركوها فهي ذميمة، ورغم عدم ذكر المصادر لواقفه وتاريخ وقفها إلا أنه وقف في العصر الأيوبي لأن ابن زبالة المعاصر للأيوبيين قد ذكر أنه وقف أيامه(٤).

رباط الظاهرية:

و يقع مكان دار حباب مولى عتبة بن غزوان بالقرب من دار أحد رؤساء مؤذني المسجد و بجوار المارستان الذي أنشأه المنتصر بالله، وللأسف لم نستدل على واقفه أو تاريخ وقفه إلا أننا نرجح أن يكون في العصر الأيوبي لذكر ابن زبالة له(٥).

رباط مراغة:

بني مكان دار فرج الخصي التي كانت من دور إبراهيم بن هشام الواقعة في قبلة الجنائز. و يبدو أن وقفه كان في العصر الأيوبي لذكر ابن زبالة المعاصر للأيوبيين له(٦).

رباط المغاربة:

يقع بالقرب من زاوية الدار التي يسكنها مشايخ الخدام.. من دار عثمان وزاوية رباط مراغة في مقابلة دار أبي بكر(٧).

رباط الصادر والوارد:

يقع بالقرب من دار المغيرة بن شعبة، وذكره أيضا ابن زبالة(٨).

---

(١) نفس المرجع والجزء والصفحة
(٢) السمهودي: وفاء الوفا جـ٢ ص ٦٩٣ — ٦٩٤، وص ٧٣٠
(٣) نفس المرجع والجزء ص ٧١٩ — ٧٢٠
(٤) نفس المرجع والجزء ص ٧٢٤ — ٧٢٥
(٥) نفس المرجع والجزء ص ٧٢٧
(٦) السمهودي: وفاء الوفا جـ٢ ص ٧٣٣
(٧) نفس المرجع والجزء ص ٧٣٧ — ٧٣٨
(٨) نفس المرجع والجزء ص ٧٣٨

ونلاحظ على ربط المدينة المنورة عدم معرفة واقفيها في كثير من الأحيان ولا سنوات وقفها، وأن السمهودي الذي ذكرها في كتابه (وفاء الوفا) نقلها عن ابن زبالة الذي كان يعاصر الأيوبيين مما يجعلنا نستنتج أن الربط والدور الموقوفه بالمدينة قد وقفت في العصر الأيوبي أو على الأقل كانت موجودة في ذلك العصر.

مدارس الحجاز:

سنتناول في هذا البحث أهم المدارس بالحجاز في العصر الأيوبي وقد كان أهم مدرستين في الحجاز في العصر الأيوبي وفي مختلف العصور الوسيطة مدرستي الحرم المكي والحرم المدني، حيث كانتا ملتقى رجال العلم والطلبة من مختلف أنحاء العالم الإسلامي يفدون إليهما لأخذ العلوم عن فقهائهما وعلمائهما ومنهم من يبقى مجاورا بهما و يصبح شيخا يتلقى الطلبة العلوم عليه بالإضافة إلى الربط التي كانت ملتقى العلماء المجاورين بهما والطلبة أما أهم المدارس التي انشئت في الحجاز في العصر الأيوبي فهي:

مدرسة الزنجيلي:

وقفها الأمير عثمان الزنجيلي صاحب الرباط بمكة أيضا على الحنفيين فقط سنة ٥٧٩ هـ/١١٨٤م عند باب العمرة ووقف عليها الأوقاف في اليمن منها دور ودكاكين وعقارات في عدن(١).

مدرسة طاب الزمان الحبشية:

وقفتها طاب الزمان الحبشية عتيقة الخليفة المستضيء بالله العباسي على عشرة من الفقهاء الشافعيين في شعبان سنة ٥٨٠ هـ/١١٨٥م مكان دار زبيدة(٢).

مدرسة الارسوفي:

وقفها العفيف، عبدالله بن محمد بالقرب من باب العمرة. أما تاريخ وقفها فيبدو أنه في نفس التاريخ الذي وقف فيه رباطا بمكة وهو سنة ٥٩١ هـ/١١٩٥م(٣).

مدرسة الشرابي:

وقفها الخليفة المستنصر بالله العباسي، ولكن الذي قام ببنائها هو الأمير شرف الدين اقبال الشرابي نيابة عن الخليفة وكانت على يمين الداخل إلى الحرم من باب السلام، ووقف فيها كتبا كثيرة وذلك في سنة ٦٣١ هـ/١٢٣٤م(٤) وقد عرفت باسم بانيها وليس باسم واقفها.

---

(١) الخزرجي: العسجد المسبوك ص ١٨٧، ابن الديبع: قرة العيون ص ١٠٢

(٢) الفاسي: المرجع السابق والجزء والصفحة

(٣) نفس المرجع والجزء ص ١١٨

(٤) النهروالي: أخبار مكة جـ٣ ص ١٧٧ — ١٧٨

مدرسة أبي علي بن أبي زكرى:

وقفها أبو علي بن أبي زكرى على مختلف المذاهب الإسلامية في الموضع المعروف بأبي الطاهر المعمري المؤذن، و بالقرب من المدرسة المجاهدية سنة ٦٣٥ هـ/١٢٣٨ م(١).

مدرسة ابن الحداد المهدوي:

وقفها ابن الحداد المهدوي ــ و يبدو أنه مغربي ــ بالقرب من باب الشبيكة أسفل مكة على المالكيين سنة ٦٣٨ هـ/١٢٤١ م وتعرف بمدرسة الأدارسة. وكان قد درس بها إمام المالكيين بالحرم أبو البركات القسطلاني(٢).

مدرسة المنصور عمر بن رسول:

وقفها في مكة المنصور نورالدين عمر بن علي بن رسول ملك اليمن على الفقهاء الشافعيين سنة ٦٤١ هـ/١٢٤٣ م(٣). و يبدو أنها كانت مدرسة عظيمة وقف عليها الأوقاف الجليلة في اليمن، وقال عنها الخزرجي «بحيث يغبطه عليها سائر الملوك».

وقد رتب فيها مدرسا ومعيدا وطلابا. وإماما ومؤذنا ومعلما وايتاما يتعلمون القرآن، و وقف على الجميع أوقافا للإنفاق عليهم وتسد متطلباتهم(٤).

وقد درس بهذه المدرسة إمام المالكيين بالحرم المكي أبو البركات القسطلاني الحديث(٥) لأنها كانت مدرسة شافعية المذهب والفقه فيها شافعي.

وقد كانت تلك المدارس تدرس العلوم الدينية، كما كانت لكل مذهب مدارسه التي يتلقى الطلبة فيها الفقه على علماء المذهب الذين يكونون أحيانا قضاة أو فقهاء. والحديث، وكان في الإمكان أن يدرسه الفقهاء من المذاهب المختلفة. كما رأينا الفقيه القسطلاني المالكي المذهب يدرس الحديث في مدرسة المنصور نورالدين عمر الشافعية، كما كان هناك المحدثون الذين يقومون بتدريس الحديث.

كيف كان التلاميذ يتعلمون القراءة والكتابة؟ بالرغم من أن المصادر لم تشر إلى ذلك. إلا أنه يبدو أنهم كانوا يتعلمونها في المساجد لأن المدارس التي ذكرناها كانت متخصصة، ولا نستبعد قيام طلبة تلك المدارس بتعليم الأطفال القراءة والكتابة.

ونظرا لبساطة الحياة في ذلك الوقت فإنهم لم يحتاجوا إلى العلوم الأخرى التي انتشرت في بغداد

---

(١) الفاسي: العقد الثمين جـ١ ص ١١٨

(٢) نفس المرجع والجزء والصفحة، جـ٢ ص ٢٣٠

(٣) نفس المرجع والجزء والصفحة

(٤) العسجد المسبوك ص ٢٤٢، بامخرمة: تاريخ ثغر عدن جـ٢ ص ١٧٩، ابن الديبع: قرة العيون ص ١٣٠

(٥) الفاسي: المرجع السابق جـ٢ ص ٢٣٠

والقاهرة ودمشق، وغيرها من مدن العالم الإسلامي الأخرى، كالطب والطبيعة والكيمياء والهندسة وغيرها لأن الحياة في الحجاز واليمن كانت أقرب إلى حياة البداوة.



الفصل الثاني
الأحوال الدينية في اليمن

المذاهب الدينية:

ساد المذهب السني اليمن طيلة العصر الأموي و بداية العصر العباسي. وقد قال ابن سمرة «وكان الغالب في اليمن مذهب مالك ومذهب أبي حنيفة»(١)

أما المذهب الشافعي فقد انتشر في اليمن بعد ذلك على يدي إمام أئمة الشافعية القاسم بن محمد بن عبدالله الجمحي القرشي المتوفى سنة ٤٣٧ هـ/١٠٤٦م وقد انتشر عنه المذهب الشافعي في مخلاف الجند وصنعاء وعدن وكان له مدرسة سهفنة فأخذ عنه شافعية المعافر ولحج وابين وأهل الجند والسحول وأحاظة وعنة ووادي ظبا(٢).

وقد ساعد تطرف موقع اليمن، وصعوبة تضاريسه أصحاب المذهب الشيعي على نشر مذاهبهم فيه. وكان الشيعة باليمن كثيرا ما يلجأون إلى المناطق الجبلية والحصون العالية والنائية يعتصمون بها، و ينشرون فيها مذاهبهم ودعوتهم في الخفاء و بعيدا عن المخاطر(٣) حتى لقد أصبحت المناطق الجبلية لبلاد اليمن شيعية المذهب في حين بقيت المناطق الأخرى سنية(٤).

وقد كان للزيارات التي قام بها علي بن أبي طالب لليمن في عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) أثر كبير في انتشار المذاهب الشيعية فيه لأنها كانت قد تركت أثرا كبيرا في نفوس أهل اليمن مما أدى إلى كثرة أنصاره به حتى ان قبائل همدان ابلت معه بلاء حسنا يوم صفين مما دعاه إلى القول لهم «يامعشر همدان انتم درعي ورمحي»(٥).

لهذا وجد زعماء الشيعة في اليمن المناخ والمكان المناسبين لنشر دعواتهم وتتفق الفرق الشيعية فيما بينها على أحقية علي بن أبي طالب في الخلافة بعد الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأحقية أولاده الحسن والحسين وعلي زين العابدين من بعده. ولكن الزيديين يرون أن الإمامة من بعده لا بنه زيد(٦) بهذا يختلفون مع الإمامية الذين يرون أن أخاه محمد الباقر بن علي زين العابدين هو الأحق

(١) طبقات فقهاء اليمن ص ٧٤، ٧٩
(٢) نفس المرجع ص ٨٧ ــ ٨٨
(٣) د. عبدالعال: تاريخ اليمن السياسي ص ١٢
(٤) حسن ابراهيم حسن وطه شرف: عبيد الله المهدي ص ٣٠٧
(٥) د. حسين الهمداني وحسن سليمان محمود: الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن ص ١٣
(٦) الشهرستاني: الملل والنحل جـ١ ص ٢٨

بالإمامة بعد أبيه ومن بعده لا بنه جعفر الصادق. ثم ينقسم الإماميون بعد موت جعفر إذ منهم من يرى أن ابنه اسماعيل أحق بها وهؤلاء هم الإسماعيلية و يرى أنصار هذه الفرقة أن الإمامة انتقلت إليه بعهد من أبيه. ورغم موته في حياة أبيه إلا أن الإمامة تبقى في نسله لذلك انتقلت الإمامة من جعفر الصادق إلى محمد المكتوم بواسطة أبيه اسماعيل. لهذا يعتبر محمد أول الأئمة المكتومين(١) وتعتبر طائفة الاسماعيلية أكثر الفرق الشيعية تطرفا(٢).

وهناك فرقة أخرى ترى أحقية أخيه موسى الكاظم وذريته من بعده حتى الإمام الثاني عشر، وهؤلاء يعرفون بالا ثنا عشرية (٣) وهم الذين يطلقون على أنفسهم اسم الجعفريين نسبة إلى جعفر الصادق لأنهم يأخذون بفقهه و يتبعون آراءه في العقائد والأحكام الفقهية، لذا يعتبرونه إمامهم في الأصول والفروع .

وعلى أية حال فقد بقيت اليمن سنية حتى بدأت المذاهب الشيعية تنتشر فيها في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري عندما بدأ الضعف يدب في اوصال دولة بني زياد الحاكمة وقد ساعد ذلك الضعف والانحلال الذي أصاب بني زياد الشيعة على نشر مذاهبهم في اليمن وإلى إقامة دو يلات لهم بها وقد أدى ذلك إلى تفتيت وحدة اليمن السياسية والدينية.

و بدأت الدعوة الإسماعيلية تنتشر في اليمن في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري وقد وصف ابن سمرة اليمن في ذلك الوقت بقوله: «ثم لحق اليمن كله في آخر المائة الثالثة وأكثر المائة الرابعة فتنتان عظيمتان: فتنة القرامطة. وقد عمت الشام والعراق والحجاز. وإن اختلف تأثيرها في البلدان فملك هذا المخلاف اليمني علي بن الفضل لعنه الله. وأظهر فيه ما هو منسوب إليه ومشهور عنه على منبر جامع الجند»(٤).

وكان أول قيام الدعوة الإسماعيلية في اليمن على يدي علي بن الفضل الجدني الخنفري الجيشاني ــ نسبة إلى عرب جيشان من ذي جدن ــ كان ينتسب أول أمره إلى الطائفة الا ثنا عشرية. فكان قد خرج للحج، وزار قبر النبي (صلى الله عليه وسلم) ثم سار منها إلى الكوفة لزيارة قبر الحسين بن علي بن أبي طالب، و بكى عنده بكاء مرا. وأخذ يعدد مناقبه، و يذكر فضله، وكان عند القبر ميمون القداح وابنه عبيد الله صاحب الدعوة الفاطمية الباطنية.

وكان ميمون القداح أحد أحبار اليهود. وعندما رأى نجم الإسلام يصعد والأمة الإسلامية تقوى، عمل على هدم هذا الدين بالانتماء إليه فتظاهر بالانتماء إلى إسماعيل بن جعفر الصادق والدعوة لأهل البيت(٥).

(١) محمد ابوزهرة: المذاهب الإسلامية ص ٨٩ ــ ٩٠
(٢) ابن مالك الحمادي: كشف أسرار الباطنية ص ٢١، ٣٧، ٤٦ وما بعدها
(٣) د. جمال الدين الشيال: مصر الإسلامية جـ١/١٨٨
(٤) طبقات فقهاء اليمن ص ٧٥
(٥) الحمادي: كشف أسرار الباطنية ص ١٧ ــ ١٨

وعندما شاهداه على تلك الحالة فرحا، وعرفا بأنه ممن يميل إليهما وسيدخل في دعوتهما فعملا على استمالته والاستفادة منه في نشر الدعوة. فاجتمع به ميمون القداح. وأفهمه أنه لابد من الدعوة لأهل البيت وإعلاء كلمتهم وأن أفضل منطقة لنشر الدعوة هي اليمن. على أن يدعى لابنه عبيد الله الذي تلقب بالمهدي فوافقه ابن الفضل على ذلك، وبين له إمكانية نشر الدعوة في اليمن. عندئذ قرر القداح إرساله إلى اليمن(١) هو وأبو القاسم الحسن بن فرج بن حوشب بن زادان الكوفي المشهور بمنصور اليمن الذي كان إثنا عشرياً أيضا ولكن القداح عندما رأى فيه الذكاء والفطنة عمل على استمالته وأدخله في مذهبه، وأصبح أحد دعاته(٢) وقام ميمون القداح وولده عبيد الله المهدي بإرسالهما إلى اليمن سنة ٢٦٧ هـ/٨٨٠م لنشر الدعوة الإسماعيلية بها بعد تأكدهما من ولائهما له(٣).

ويرى البعض أن الذي أرسلهما إلى اليمن الإمام المستور الحسين بن أحمد بن عبدالله بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق آخر الأئمة المستورين(٤).

ولكننا نرجح الرأي الأول القائل بأن ميمون القداح وولده عبيد الله هما اللذان أرسلاهما لليمن لأن الحمادي أحد فقهاء اليمن في القرن الخامس الهجري يذكر ذلك. وهو الذي تظاهر بالدخول في مذهبهم للإطلاع على حقيقة دعوتهم. ونرجح أن يكون أعلم الناس بالحقيقة.

ومهما يكن الأمر فقد سار الداعيان إلى اليمن بعد أن مرا بمكة وأديا فريضة الحج ونزلا بساحل غلافقة في المحرم من سنة ٢٦٨ هـ/٨٨١م وهناك اتفقا على أن يسير كل منهما إلى ناحية من نواحي اليمن. على أن يحاولا الاتصال ببعضهما ليطلع كل منهما الآخر على ما توصل إليه.

فسار منصور اليمن مع قافلة للتجار قاصدا عدن لاعه غرب صنعاء مارا بالجند في حين أخذ يتنقل علي بن الفضل في المناطق الجبلية حتى استقر به الحال ببلاد يافع(٥).

ونظرا لما امتاز به الداعيان من الذكاء والحنكة فتظاهرا بأنهما سنيان، وأظهرا من الزهد والورع والتقشف والأخلاق الحميدة الشيء الكثير، كما كانا على دراية وإلمام كبير بأمور الدين المختلفة مما ساعد على انضمام عدد كبير من الناس إليهما محبة لهما ولعلمهما الجليل وأخذ الأتباع يتكاثرون من حولهما مما دفعهما إلى بناء حصنين لهما ولأتباعهما. أحدهما على جبل عير محرم بالقرب من جبل مسور بناه منصور اليمن، والآخر بمنطقة يافع الجبلية بناه ابن الفضل(٦) واتخذا من هذين الحصنين معاقل لهما لنشر مذهبهما وقد ساعدهما على ذلك ضعف الدويلات السنية التي كانت باليمن في ذلك الوقت كدولة بني زياد، وبني يعفر في صنعاء(٧) وطبيعة البلاد الجبلية.

---

(١) الحمادي: كشف أسرار الباطنية ص ٢١ — ٢٢
(٢) نفس المرجع ص ٢٢، الجندي: السلوك جـ١/٦٣
(٣) الحمادي: نفس المرجع والصفحة
(٤) حسن ابراهيم وطه شرف: عبيد الله المهدي ص ١١٢
(٥) اتعاظ الحنفا ص ٣٠
(٦) نشوان بن سعيد الحميري: الحور العين ص ٩٧
(٧) الحمادي: كشف أسرار الباطنية ص ٢٨

وقد وفر ذلك كله المناخ المناسب لانتشار المذهب الإسماعيلي وعرف الداعيان كيف يستفيدان من ذلك الوضع المترهل، وعملا على تنظيم اتباعهما تنظيما جيدا لتبدأ المرحلة الجديدة بالاستيلاء على بعض الحصون والمعاقل اليمنية بالقوة(١) وقد قام منصور اليمن بالاستيلاء على جبل مسور القريب منه، واتخذ من حصن به يسمى حصن فايز معقلا له بدلا من عير محرم، وأخذ في زيادة تحصينه. وأعلن منه مذهبه(٢) وقام بعد ذلك بالاستيلاء على مخاليف مغرب اليمن، فاستولى على بلاد عيان و بني شاور، وحملان، وذخار، وشبام وجبلها كوكبان وغيرها(٣) عندئذ أقبل عليه أهالي تلك المناطق داخلين في دعوته طوعا وكرها (٤).

وقد ظل منصور اليمن متمسكا بالدعوة الإسماعيلية، أمينا عليها، ومواليا للفاطميين حتى وفاته(٥).

وفي نفس الوقت تمكن علي بن الفضل من الاستيلاء على عدة مناطق في اليمن فاستولى سنة ٢٩٤هـ/٩٠٧م على مدينة المذبخرة بجبل ريمة وقتل عددا كبيرا من أهالي تلك المناطق، وكانت المذبخرة من أحسن مدن اليمن في ذلك الوقت، كما قتل صاحبها السلطان جعفر بن ابراهيم المناخي الحميري(٦).

و بعد استيلائه على المذبخرة اتخذها مقرا لملكه الجديد بدلا من حصنه بجبل يافع، وأخذ ينشر الدعوة الإسماعيلية منها، كما استولى على مخلاف جعفر والجند.

وكان علي بن الفضل يعمل على هدم الإسلام بتحليله محرمات الشرع الإسلامي واستهانته به، كما جعل من نفسه نبيا لبني يعرب، مساو يا نفسه في ذلك مع النبي محمد(٧)(صلى الله عليه

---

(١) حسين الهمداني وحسن سليمان: الصليحيون والحركة الفاطمية ص ٣٤

(٢) د.عبدالعال: تاريخ اليمن السياسي ص ١٦

(٣) نفس المرجع ص ١٦ ــ ١٧

(٤) الهمداني وحسن سليمان: المرجع السابق ص: ٣٥

(٥) عبدالعال: المرجع السابق ص ١٧

(٦) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن ص ٧٦ ــ ٧٧، العرشي: بلوغ المرام ص ٢٠

(٧) وقال على منبر جامع الجند:

خذي الدف ياهذه والعبي ... وغني هزاريك ثم اطربي
تولى نبي بني هاشم ... وهذا نبي بني يعرب
لكل نبي مضى شرعة ... وهذي شرائع هذا النبي
فقد حط عنا فروض الصلاة ... وحط الصيام ولم يتعب
وحط الذنوب على قاتل ... ولو كان من قبل قاتل نبي
أحل البنات مع الأمهات ... ومن فضله زاد حل الصبي
إذا الناس صلوا فلا تنهضي ... وإن صاموا فكلي واشربي
ولا تطلبي السعي عند الصفا ... ولا زورة القبر في يثرب
ولا تمنعي نفسك المغرسين ... من الأقربين ومن أجنبي
فكيف تحلي لهذا الغريب ... وصرت محرمة للأب
أليس الغراس لمن ربه ... وسقاه في الزمن المجدب
وما الخمر إلا كماء السماء ... حلالا فقدست من مذهب

وسلم)، ثم قام ورفيقه من سور اليمن بالهجوم على صنعاء سنة ٢٩٣هـ/٩٠٦م فاستولى عليها وفر منها صاحبها أسعد بن يعفر الحوالي إلى الجوف(١) وخضعت بذلك صنعاء له. ولكن أسعد بن يعفر استمر ينازعه عليها حتى تغلب عليه وطرده منها سنة ٢٩٩هـ/٩١٢م واستقرت له الأمور بها(٢).

وأثناء ذلك عزم عبيد الله المهدي على المسير إلى اليمن ليتولى أمورها ولكنه تراجع عن ذلك عندما بلغه أن ابن الفضل يسعى للاستقلال، وخلع طاعة الفاطميين(٣)، رغم بقائه مواليا للمذهب الإسماعيلي ولم يعلن تبعيته للعباسيين(٤).

وحاول منصور اليمن إقناعه بالعدول عن فكرة الاستقلال وإبقاء ولائه للفاطميين إلا أنه لم يستجب له «وحار به سنة ٢٩٩هـ/٩١٢م وتغلب عليه فانصاع ابن الفضل له، ودخل في طاعته. وأرسل ولده رهينة له(٥).

وأدى ذلك الصراع بين دعاة الإسماعيلية في اليمن إلى إضعاف الحركة وتفرق أتباعها(٦) خصوصا بعد وفاة الداعيين، إذ توفى منصور اليمن سنة ٣٠٢هـ/٩١٥م، وتبعه علي بن الفضل سنة ٣٠٣هـ/٩١٦م(٧).

واستغل أسعد بن يعفر تلك الفرصة وهاجم القلاع والحصون التي كانت تابعة لابن الفضل واستولى عليها، وقتل العديد من أتباعه سنة ٣٠٣هـ/٩١٦م(٨).

وقد وقع منصور اليمن في خطأ كبير عندما أوصى من بعده لابنه أبي الحسين ولتابعه عبدالله بن عباس الشاوري إذ حاول كلاهما الاستئثار بالأمر لنفسه، وإبعاد صاحبه. وقد نجح الشاوري في الحصول على موافقة عبيد الله المهدي ــ الذي كان قذ سار إلى بلاد المغرب ــ لتولي الدعوة(٩).

ولكن أبا الحسين لم يستسلم للأمر بل أخذ يتحين الفرص لاستعادة نفوذه ونجح في قتل الشاوري فآلت أمور الدعوة إليه. ولكنه لم يكتف بذلك إذ عمل على ترك المذهب الإسماعيلي والعودة إلى السنة. وتتبع أنصار الدعوة وأباد معظمهم قتلا وتشريدا، وخطب للخليفة العباسي.

---

(١) الحمادي: كشف أسرار الباطنية ص ٣٦، ابن سمرة: المرجع السابق ص ٧٥ ــ ٧٦ الجندي السلوك جـ١ ص ٦٤، العرشي: المرجع السابق ص ٢٣ نشوان الحميري: الحور العين ص ٩٩

(٢) ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن ص ٧٧

(٣) الحمادي: كشف أسرار الباطنية ص ٣٣، المقريزي: اتعاظ الحنفا ص ٦٩

(٤) الهمداني وحسن سليمان: المرجع السابق ص ٤٥

(٥) الحمادي: المرجع السابق ص ٣٦، ابن عبدالمجيد: بهجة الزمن ص ٤٠

(٦) حسن ابراهيم حسن وطه شرف عبيد الله المهدي ص ٢٣٦

(٧) الحمادي: المرجع السابق ص ٣٧، عمارة اليمني: تاريخ عمارة ص ١٥٢، الجندي السلوك جـ١ ص ٦٨، بامخرمة: تاريخ ثغر عدن جـ٢ ص ١٥٦

(٨) الحمادي: كشف أسرار الباطنية ص ٣٨

(٩) نفس المرجع ص ٣٩

ولكنه لم يلبث أن قتل على يدي ابراهيم بن عبدالحميد السباعي الذي سار على نفس سياسته في اضطهادالإسماعيلية والخطبة للعباسيين(١).

وقد أدت تلك الفتن والاضطهادات بأنصار المذهب الإسماعيلي إلى العودة إلى التكتم والسرية. وقام بأمر الدعوة يوسف بن موسى بن أبي الطفيل الذي استمر ومن خلفه على اتصال بالفاطميين في المغرب ومصر(٢).

و بقي أمر الدعوة على تلك الحالة حتى تولى أمرها سليمان بن عبدالله الزواجي الذي كثر اتباع المذهب أيامه، كما نجح في استمالة على بن محمد الصليحي إلى مذهبه، وهو الذي تولى أمور الدعوة بعد وفاته(٣).

وقد امتد نفوذ الاسماعيلية في ذلك الوقت إلى الحجاز وتمكن أبوسعيد الجنابي القرمطي سنة ٣١٧هـ/٩٢٩م من الاستيلاء على مكة وقتل عدد كبير من الحجاج يقدر بثلاثة آلاف حاج وقلع الحجر الأسود من الكعبة وأخذه معه إلى الحسا(٤).

أما الفتنة الثانية فهي انتشار المذهب الزيدي في اليمن في نفس الفترة التي انتشر فيها المذهب الإسماعيلي تقريبا(٥).

و ينسب المذهب الزيدي إلى الإمام زيد بن على بن الحسين بن علي بن أبي طالب الذي ولد في حدود سنة ٨٠هـ/٧٠١م. وكان يرى أنه أحق بالخلافة من الأمويين مما دفعه إلى إعلان الثورة عليهم في عهد هشام بن عبدالملك سنة ١٢٢هـ/٧٤٠م، ولكن جيوش هشام التي كانت بقيادة يوسف بن عمر الثقفي والي العراق تمكنت من التغلب عليه وقتله وصلبه (٦).

وكانت آراء الإمام زيد مخالفة لآراء الفرق الشيعية الأخرى لأنه يرى أن الإمامة ليست وراثية مطلقة لأنها قد تكون في بيت معين من حيث الأفضلية لا من ناحية الأصل. فاشتراط بيت معين إنما هو شرط أفضلية لايمنع أن تكون الخلافة في غيره على ألا تتعارض مع مصلحة المسلمين، ومع ذلك فإنه لم ينكر أفضلية الإمام علي على الشيخين أبي بكر وعمر بن الخطاب ولكنه قال ان

---

(١) حسن ابراهيم وطه شرف: عبيد الله المهدي ص ٢٣٩

(٢) الحمادي: المرجع السابق ص ٤١، ابن عبدالمجيد: بهجة الزمن ص ٥٠

(٣) حسن ابراهيم وطه شرف: المرجع السابق ص ٢٤٠

(٤) وفي ذلك قال:

فلو كان هذا البيت لله ربنا ... لصب علينا النار من فوقنا صبا
لأنا حججنا حجة جاهلية ... مجللة لم يبق شرقا ولا غربا
وإن تركنا بين زمزم والصفا ... جنائز لم نبغ سوى ربها ربا

«الحمادي كشف أسرار الباطنية ص ٣٣ ابن سمرة: طبقات فقهاء اليمن ص ٧٨، ابن الأثير الكامل جـ٦/٢٠٣»

(٥) محمد ابوزهرة: الامام زيد ص ٢٢

(٦) نفس المرجع والصفحة

خلافتهما حق ، وطاعتهما واجبة لأن في ذلك مصلحة للمسلمين ، لذا فإنه يرفض سبهما أو الطعن فيهما وقد حفظا الإسلام(١).

أما شروط الإمام عنده فهو أن يكون فاطميا . أي من ذرية علي من فاطمة ، ذكرا ، حرا ، بالغا ، عاقلا ، سليم الحواس والأطراف ، ورعا تقيا عالما مجتهدا ، عادلا ، شجاعا ، مجاهدا ، داعيا لنفسه(٢) وقد اختلف معه في ذلك الشيعة الإمامية الذين لايرون الخروج للجهاد شرطا للإمامة لأنهم أباحوا أن يستتر الإمام ولا يدعو لنفسه(٣) كما يرى الإمام زيد أن الإمام ليس معصوما (٤).

وهذه الآراء تجعل الزيديين أقرب الفرق الشيعية إلى أهل السنة والجماعة وإن كانوا قد غلبوا على أمرهم أمام شيع أخرى (٥).

و بعد مقتل الإمام زيد اعتنق مذهبه العديد من آل البيت ، أما بالنسبة إلى انتشاره في اليمن فذلك راجع إلى سوء سياسة الإسماعيليين بها خصوصا أهالى المناطق الجبلية في شمالي اليمن ، و بالذات في منطقة صعدة وقبائلها الذين أخذوا يتطلعون إلى من يخلصهم من ظلم ابن الفضل و يرشدهم و يعلمهم تعاليم الدين الصحيحة .

و كان قد ظهر في ذلك الوقت أحد الزعماء الذين اعتنقوا ذلك المبدأ من آل أبي طالب وهو الإمام يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم بن اسماعيل بن ابراهيم بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب الذي يلقبه ابن سمرة بالشريف الهادي إلى الحق(٦) .

وكان الإمام يحيى قد تلقى علومه على أبيه وأعمامه وجده ، وتنقل في طلب العلم بين الحجاز والعراق ، وهو الذي أطلق ابن سمرة على حركته الفتنة الثانية بالرغم من وصفه له بالإمام الهادي إلى الحق ، و يصف ذريته بالأ وصاف الحسنة(٧). وكان في ذلك الوقت مقيما في الحجاز ، وعندما علم به أهل صعدة أرسلوا إليه يدعونه للقدوم إليهم فاستجاب إليهم ، وسار إلى اليمن سنة ٢٨٠ هـ/٨٩٣م لذا فإنه يعتبر أول من وطىء أرض اليمن من الأئمة الزيديين(٨) .

ولكن أهل اليمن لم يؤازروه أو يطيعوه فعاد إلى الحجاز و بعد مغادرته البلاد نشبت الفتن والخلافات بين أهالي تلك المناطق مما جعلهم يسعون إليه معلنين له فروض الولاء والطاعة المطلقة ،

---

(١) محمد ابوزهرة الامام زيد ص ٢٢ ص ١٨٤ ــ ١٩١
(٢) حسن ابراهيم حسن : اليمن البلاد السعيدة ص ١٤٣
(٣) محمد ابوزهرة : الميراث عند الجعفرية ص ١٩
(٤) محمد ابوزهرة : الامام زيد ص ١٩١
(٥) دائرة المعارف الإسلامية مجلد ١١ ص ١٤ ، محمد ابو زهرة : المذاهب الإسلامية ص ٧٢ ، ادوار بروى : تاريخ الحضارات العام مجلد ٢٠٧/٣
(٦) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن ص ٧٩ ، نشوان الحميري : الحور العين ص ١٩٦
(٧) طبقات فقهاء اليمن ص ٧٩
(٨) محمد عبدالله ماضي : دولة اليمن الزيدية ص ٢٣

فعاد معهم إلى صعدة سنة ٢٨٤ هـ/٨٩٧م(١). واتخذ من صعدة مركزا للدعوة الزيدية فأعاد تنظيم أتباعه، واقر الأمن في صعدة، ثم عمل على التوسع على حساب المناطق المجاورة. و بالذات في المناطق الجبلية الشمالية. فاستولى على المناطق المحيطة بصعدة وعلى نجران و برط وأقام أول دولة زيدية في اليمن. و بذلك يعتبر المؤسس الحقيقي للدولة الزيدية في اليمن والتي حكمت اليمن فترة طو يلة دامت حتى القرن العشرين الميلادي واتخذ من صعدة عاصمة له(٢).

وقد تمكن الإمام يحيى بعد ذلك من بسط سيطرته على معظم المناطق الجبلية شمال صنعاء وعين ولا ته بها(٣) ثم شن هجوما شديدا على صنعاء التي كان يحكمها بنو يعفر سنة ٢٨٨هـ/٩٠١م واستولى عليها، ولكنهم استطاعوا طرده منها. فشن هجوما آخر في نفس العام مكنه من الاستيلاء عليها، ولكنهم تمكنوا من طرده منها مرة أخرى في العام التالي(٤).

وهكذا احتدم الصراع في اليمن بين الشيعة بشقيها الإسماعيلي والزيدي و بين السنة. ومع ذلك فإن الشيعة لم يتحدوا لمواجهة السنة وإن كانوا متفقين مبدئيا على القضاء عليها في اليمن. بل على العكس من ذلك نرى الزيديين يتحالفون مع السنة لصد عدوان على صنعاء عندما استنجد أسعد بن يعفر بالإمام يحيى بن الحسين، فسار الإمام على رأس قواته لنجدة بني يعفر وتمكنت القوتان من هزيمة ابن الفضل وطرده من صنعاء(٥) وعاد الإمام إلى صعدة و بقي بها حتى وفاته سنة ٢٩٨ هـ/٩١١ بعد أن أرسى قواعد الدولة الزيدية في مناطق اليمن الجبلية(٦).

ليس هذا فقط بل بدأ الصراع بين الشيعة أنفسهم ــ أي بين الإسماعيليين والزيديين ــ إذ بعد وفاة يحيى بن الحسين تولى الإمامة ولده أحمد الناصر بعد أن تنازل له أخوه محمد المرتضى(٧) فخاض حرو با طاحنة ضد الإسماعيليين الذين قوى نفوذهم في اليمن في ذلك الوقت(٨) وقد تتابع ابناء الناصر في الإمامة من بعده وعملوا جاهدين على تثبيت أركان الدولة الزيدية في اليمن.

و يصف ابن سمرة الفتنة الثانية حسب تعبيره بقوله: وهذه الفتنة أهون من الأ ولى. وكان أهل اليمن صنفين: إما مفتون به، أو خائف متمسك بنوع من الشريعة، إما حنفي وهو الغالب وإما مالكي(٩).

---

(١) محمد عبدالله ماضي: ص ٢٤ ــ ٢٥
(٢) الجرافي المقتطف: ص ١٠٤، ماضي: المرجع السابق ص ٢٥
(٣) ماضي: المرجع السابق ص ٢٩
(٤) نفس المرجع ص ٢٥، سرور: النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب ص ٦٢
(٥) ماضي: دولة اليمن الزيدية ص ٣٠
(٦) نفس المرجع: ص ٣٠ ــ ٣١
(٧) العرشي بلوغ المرام ص ٣٣، الجرافي: المقتطف ص ١٠٧
(٨) ماضي: المرجع السابق ص ٣١ ــ ٣٢
(٩) طبقات فقهاء اليمن ص ٧٩ ــ ٨٠

والملاحظ على انتشار المذاهب الشيعية في اليمن أنها كانت على حساب المذاهب السنية لأن القائمين على أمر المذاهب الشيعية كانوا في بداية أمرهم جادين في نشر مذاهبهم في اليمن، وقد ساعدهم في ذلك الظروف الطبيعية لليمن إلى جانب ما أصاب بني زياد و بني يعفر وغيرهم من القائمين على أمر السنة من الضعف والتفكك، ناهيك عن الضعف الذي كان قد أصاب الدولة العباسية التي لم تستطع أن تمد يد العون لتلك الدول في حين كانت الدولة الفاطمية الاسماعيلية الشيعية قد بدأت في توطيد أركانها في المغرب وكانت تسعى لضم مصر. و بعد أن تم لها ذلك عملت على مد يد العون لاتباعها في اليمن.

ولكن نظرا للخلافات المذهبية بين الاسماعيلية والزيدية في اليمن والصراع الذي حدث بينهما، والانحرافات التي قام بها علي بن الفضل وصراعه مع منصور اليمن. وخروج الحسن بن منصور اليمن على المذهب الإسماعيلي واعتناقه المذهب السني. وتشريده وقتله والتعاون الذي تم بين السنيين والزيديين في اليمن ضد الإسماعيليين. كل ذلك أدى إلى ضعف المذاهب الشيعية التي لم تستطع القضاء على السنة في اليمن، بل على العكس من ذلك كانت كلما ضعفت المذاهب الشيعية قويت المذاهب السنية. هذا وقد أدى الصراع المتشابك بين اتباع المذاهب الثلاثة: الإسماعيلي، والزيدي، والسني، إلى تفتيت وحدة اليمن السياسية، والدينية، وانتشار الفوضى وعدم الاستقرار(١).

ومع ذلك فإن المذهب الزيدي قد أخذ يرسخ وجوده في المناطق الجبلية من شمال اليمن و بالذات في منطقة صعدة. على عكس المذهب الإسماعيلي الذي أخذ يضعف بعد وفاة علي بن الفضل حتى قام علي بن محمد الصليحي بتأسيس الدولة الصليحية سنة ٤٣٩ هـ/١٠٤٧م. وقد عادت الدعوة خلال تلك الفترة إلى السرية والكتمان(٢).

أما المذهب السني فقد قوي على حساب المذهب الإسماعيلي في تلك الفترة، إلا أن الضعف والتفكك لم يلبث أن دب في أوصال الدولة الزيادية السنية وأصبح يتولى أمرها حكام ضعفاء مما أدى إلى سقوطها سنة ٤٠٩ هـ/١٠١٨م(٣) وإلى استقلال ولاتها بما تحت أيديهم، وقيام الصراع فيما بينهم حتى تمكن نجاح أحد أتباع بني زياد من التغلب على منافسيه وتأسيس دولة بني نجاح سنة ٤١٢ هـ/١٠٢٢م واتخذ من زبيد عاصمة له(٤).

وأخذ بنو نجاح على عاتقهم رفع لواء السنة في اليمن، والدفاع عنها وسط محاولات الشيعة القضاء عليها، وأصبحوا في نظر فقهاء السنة الذين أيدوهم حماة للمذهب السني في اليمن رغم

---

(١) عبدالعال: تاريخ اليمن السياسي ص ٢٤

(٢) حسين الهمداني وحسن سليمان: الصليحيون ص ٤٩ ــ ٦١

(٣) عبدالعال: تاريخ اليمن السياسي ص ٢٥ ــ ٢٦

(٤) عمارة اليمني ص ١١ ــ ١٢

كونهم أحباشا ليسوا عربا(١).

وكان نتيجة للانحلال الذي ساد في أواخر دولة بني زياد في اليمن أن استعاد الإسماعيليون نشاطهم وعملوا على نشر دعوتهم والانتقال بها من دور الكتمان إلى الدور العلني. وقد استأذن الداعي الصليحي في ذلك الخليفة الفاطمي في مصر ـ لأنه كان يعتبر نفسه تابعا له ـ في ذلك فأذن له(٢). فقام بالاستيلاء على مناطق متفرقة من اليمن حتى امتدت دولته من عدن إلى صنعاء(٣).

ونتيجة لاستيلاء الصليحي على صنعاء دب الخلاف بينه و بين الإمام الزيدي أبي الفتح الناصر الديلمي لأن خطر الصليحي أصبح قاب قوسين من ممتلكاته أو أدنى و يهدد وجوده. لذلك سعى إلى حث نجاح على قتاله، واسترداد صنعاء منه مما أدى إلى سوء العلاقة بينه و بين الصليحي، ووقعت الحرب بينهما. وانتهت بمقتل الإمام سنة ٤٤٧ هـ/١٠٥٦م(٤).

ثم لم تلبث العلاقات أن ساءت بين الصليحي ونجاح فدبر الصليحي مؤامرة انتهت بمقتل نجاح سنة ٤٥٢ هـ/١٠٦٠م مما أدى إلى ضعف دولة بني نجاح وقيام الصليحي بالاستيلاء على ممتلكاته بعد ذلك ـ سنة ٤٥٥ هـ/١٠٦٣م ففر بنو نجاح إلى جزيرة دهلك بالبحر الأحمر(٥).

ولكن الصراع استمر بين بني نجاح والصليحيين إذ تربص سعيد وجياش ابنا نجاح لعلي الصليحي وهو في طريقه للحج سنة ٤٥٩ هـ/١٠٦٧م وتمكنا من قتله وأسر زوجه الحرة واستعادة ملكهما(٦).

وقد تواصل الصراع بينهما بعدما تولى المكرم الصليحي وحارب بني نجاح وانتصر عليهم، وخلص أمه من الأسر. واستولى على ممتلكات بني نجاح مرة أخرى ففروا ثانية إلى دهلك(٧) ومع ذلك لم ييأس بنو نجاح بل واصلوا الصراع ضد الصليحيين حتى تمكنوا سنة ٤٧٩ هـ/١٠٨٧م من استعادة ملكهم(٨).

وعندما تولت أمر الدعوة السيدة الحرة أروى بنت أحمد تمكنت من القضاء على سعيد بن نجاح سنة ٤٨١ هـ/١٠٨٩م واستولت على ممتلكاته. ولكن أخاه جياشاً تمكن من إعادة تنظيم اتباعه واستعادة ملكه(٩).

(١) عبدالعال: المرجع السابق ص ٢٧
(٢) الحمادي كشف أسرار الباطنية ص ٤٣
(٣) العبدلي: هدية الزمن ص ٥٣
(٤) الواسعي: تاريخ اليمن ص ٢٧
(٥) الخزرجي: العسجد المسبوك ص، ١١٣، العرشي: بلوغ المرام ص ١٥
(٦) عمارة: تاريخ اليمن ص ٢٢، العرشي: المرجع السابق ص ١٦
(٧) الخزرجي: المرجع السابق ص ١١٣، العرشي المرجع السابق والصفحة
(٨) الخزرجي: المرجع السابق والصفحة، العرشي المرجع السابق والصفحة
(٩) ابن عبدالمجيد: بهجة الزمن ص ٦٣، الجرافي المقتطف ص ٦٣

وبعد وفاة جياش خلفه ابنه فاتك الذي نازعه أخواه ابراهيم وعبدالواحد وحار باه. إلا أنه بقي في الحكم حتى وفاته سنة ٥٠٣ هـ/١١١٠م فخلفه ابنه منصور الذي كان طفلا فطمع فيه عماه، وتمكن عبدالواحد من الاستيلاء على مقاليد الحكم، وهنا رأى منصور الطفل ضرورة الاستنجاد باعدائه الصليحيين ضد عمه بعد أن تعهد للسيدة الحرة بدفع ربع خراج بلاده إن قضت على عمه وأعادت له ملكه فأمدته بجيش بقيادة المفضل بن أبي البركات، فاستعاد زبيد سنة ٥٠٤ هـ/١١١١م(١) وحاول المفضل القضاء على بني نجاح وإخضاع دولتهم للصليحيين. ولكنه فشل. وبقي منصور في الحكم حتى مات مسموما سنة ٥١٧ هـ/١١٢٢م(٢) فتولى بعده ابنه فاتك الذي توفى سنة ٥٣١ هـ/١١٣٧م فخلفه ابن عمه فاتك بن محمد الذي كان ضعيف الشخصية فتولى سرور الفاتكي ادارة شؤون البلاد(٣).

ونتيجة لذلك الصراع الطويل بين الدولة الصليحية الإسماعيلية والدولة النجاحية السنية فقد أدى إلى ضعف الدولتين.

فبالنسبة للدولة الصليحية فقد استولى منها حاتم بن الغشم المغلسي على صنعاء وأعمالها سنة ٤٩٢ هـ/١٠٩٩م ولم تستطع الملكة أروى استردادها كما كان الزريعيون قد استقلوا بحكم عدن سنة ٤٦٧ هـ/١٠٧٥م واقتطعت أجزاء أخرى منها(٤) ومع ذلك فقد بقيت موالية للفاطميين — في مصر — الذين كانوا على اتصال بمركز الدعوة فيها.

وحاولت الملكة الحرة عندما ساءت الأحوال في دولتها طلب المساعدة من الخليفة الفاطمي الآمر بالله الذي أرسل إليها الأمير الموفق على بن نجيب الدولة سنة ٥١٣ هـ/١١٢٠م ليعاونها في ادارة شؤون دولتها واستعادة نشاط الدعوة الإسماعيلية وتقلد إمرة الجيش الصليحي ولكنه فشل في القضاء على منافسه دولة بني نجاح السنية(٥).

وعلى اثر الاضطرابات الداخلية التي انتهت بمقتل الخليفة الفاطمي الآمر بالله سنة ٥٢٤ هـ/١١٣٠م واختفاء ابنه الطيب استقلت الدولة الصليحية عن السيطرة الفاطمية، وأصبحت الدعوة للإمام المستور الطيب بن الآمر ورفضت الملكة الصليحية الدعوة للخليفة الحافظ لأنها اعتبرته مغتصبا للخلافة.

وبعد سقوط الدولة الصليحية سنة ٥٣٢ هـ/١١٣٨م انتقلت الدعوة الطيبية إلى بني حاتم في صنعاء وذلك على العكس من الزريعيين الذين تمسكوا بالتبعية للفاطميين في مصر، وهكذا انقسمت الدعوة الإسماعيلية في اليمن(٦).

---

(١) الخزرجي: العسجد المسبوك ص ١٣٨
(٢) عمارة: تاريخ اليمن ص ١١٤
(٣) ابن عبدالمجيد: بهجة الزمن ص ٦٥
(٤) حسين الهمداني وحسن سليمان: الصليحيون ص ١٦٢ — ١٦٥
(٥) عبدالعال: تاريخ اليمن السياسي ص ٣٢
(٦) نفس المرجع ص ٣٣

وعلى اثر سقوط الدولة الصليحية فقد تخلصت دولة بني نجاح من منافستها والصراع الطويل معها. ولكن لم تلبث أن قامت دولة جديدة أكثر خطرا من سابقاتها هي دولة بني مهدي الخارجية سنة ٥٣١ هـ/١١٣٧م التي أخذ حكامها يسعون للسيطرة على اليمن فهاجم علي بن مهدي زبيد، ولكن أهلها تصدوا له، فحاصرهم وضيق عليهم الحصار مما دفعهم إلى الاستنجاد بالامام الزيدي احمد بن سليمان الذي اشترط عليهم الخضوع له مقابل مساعدته لهم وقتل قائدهم فاتك بن محمد، فقتلوا القائد. وهب الإمام لنجدتهم ولكن أهل زبيد رأوا أنه لافائدة من مساعدته بل أصبح هو وجنوده عالة عليهم لأنه كان عليهم أن يقدموا المؤن لهم، وشعر الإمام بضيقهم فعاد إلى بلاده(١) خصوصا وقد قامت فتنة ضده تزعمتها قبيلة جنب التي انتهزت فرصة غيابه(٢).

عندئذ ضعفت مقاومة أهل زبيد وتمكن علي بن مهدي من الاستيلاء عليها سنة ٥٥٤ هـ/١١٥٩م واسقاط دولة بني نجاح(٣). وبعد وفاة علي خلفه أخوه عبدالنبي الذي كان سيء السيرة أكثر من أخيه، ورغم أنهما يتبعان المذهب الحنفي إلا أنهما كانا خارجيين ارتكبا من الفظائر والبدع مالا حصر لها(٤).

أما الزيديون فكانوا يسيطرون على مناطق اليمن الشمالي. وكان إمامهم قبيل الفتح الأيوبي لليمن هو أحمد بن سليمان الذي انتشرت في عهده المطرفية الهدوية التي تنسب إلى مطرف بن شهاب من أهالي اليمن(٥). وقد وصف يحيى بن الحسين هذه الفرقة بقوله: «وفي أيام الإمام احمد بن سليمان استفرعت بدعة المطرفية ومذهبهم الرديء»(٦).

وأصحاب هذا المذهب معتزلة، حيث كانت قد خرجت كتب المعتزلة من العراق لليمن في أوائل عهد الإمام احمد بن سليمان على يدي القاضي جعفر بن عبدالسلام عندما سافر إلى تلك البلاد، ومنذ ذلك الوقت انتشر مذهب المعتزلة وكتبهم في اليمن، وأخذ المطرفية بمذهب المعتزلة وبايعوا أبا القاسم البلخي. وقد تبعه سائر أتباع الزيدية المخترعة واشتهر في اليمن بعدما كان غير معروف فيها بين أئمة أهل البيت، وإنما كان علماؤهم على معرفة ودراية حسنة بكتاب الله وسنة رسوله. وهو الذي كان عليه السلف الصالح(٧).

هذا وقد جرت عدة مناظرات بين القاضي جعفر وبين تلميذ العمراني الشافعي المعروف بسيف السنة(٨) في مدينة اب، فاستظهر سيف السنة على القاضي جعفر(٩).

---

(١) الخزرجي: العسجد ص ٥٥، يحيى بن الحسين انباء الزمن ص ٥٢، العرشي: بلوغ المرام ص ١٧

(٢) الكبسي: اللطائف السنية ص ٢٥ ب ــ ٢٦ أ

(٣) الخزرجي: المرجع السابق والصفحة، ابن الديبع: قرة العيون ص ٨١

(٤) راجع الفصل الثاني من الباب الأول

(٥) الجرافي: المقتطف ص ١١٨

(٦) انباء الزمن ص ٥٣

(٧) انباء الزمن ص ٥٣

(٨) كان العمراني وتلميذه سيف السنة على مذهب الحنابلة. ثم اعتنقا مذهب الشافعي عندما جاء الأيوبيون إلى اليمن، ومن أهل اليمن من بقى على مذهب الحنابلة ومنهم من اعتنق مذهب الشافعي «نفس المرجع والصفحة»

(٩) نفس المرجع والصفحة

ولما عاد القاضي جعفر من اليمن كتب رسالة سماها الدامغة للحنابلة فأجابه العمراني بكتاب الانتصار في مجلد فيه مما ألزم به القاضي من الجبر وقال انه لايقول به أحد منهم . وألزم القاضي جعفر بإلزامات كثيرة وقابل كل حجة يحتج بها بحجة تناقضها (١).

أما الإمام الزيدي احمد بن سليمان فقد توفي سنة ٥٦٦ هـ/١١٧١م وقام بالأمر من بعده ولده يحيى بصفته أميرا وليس إماما(٢) .

وبعد سيطرة الأيوبيين على اليمن لم يقض فيها على الصراع المذهبي كما كان متوقعا، بل استمر وإن كان قد خفت حدته مؤقتا في بادىء الأمر بسبب سيطرة الأيوبيين على معظم اليمن، وقضائهم على الدويلات التي كانت قائمة بها . وإن لم يكن قضاء مبرما إذ بقيت بها بعض بقايا الزريعيين وبني حاتم من الشيعة الإسماعيلية .

وفي بداية العصر الأيوبي بدأ شبه تقارب بين الحركات الشيعية في اليمن لمحاولة الوقوف في وجه الأيوبيين السنيين لمناهضة السنة بها . ولكن ذلك التقارب لم يدم طويلا إذ لم يكد يحدث بين الفرق الشيعية حتى انقلب إلى عداء سافر وإلى محالفة أعدائهم ضد بعضهم .

وبينما دب الضعف بين الإسماعيليين في اليمن على اثر استيلاء الأيوبيين على دويلاتهم، واستيلائهم على الدولة الفاطمية في مصر، وهي الدولة الأم للحركات الشيعية في اليمن نرى الزيديين على العكس من ذلك إذ بدأ نفوذهم يقوى في شمال اليمن وناوءوا الأيوبيين وحاربوهم، ورغم الحملات الحربية التي قام بها الأيوبيون ضدهم طيلة فترة حكمهم لليمن إلا أنهم لم يستطيعوا القضاء عليهم وعلى مذهبهم، بل سقطت الدولة الأيوبية في اليمن وبقى الزيديون يتصدون لمحاولات خلفائهم الرسوليين الشافعيين، ووقفوا في وجه التحدي رغم الحروب الطاحنة التي شنت ضدهم طيلة العصرين الأيوبي والرسولي . ورغم النكسات التي كانت تواجههم بين الحين والآخر، إلا أنهم كانوا يخرجون في كثير من الأحيان من تلك المحن أقوياء ويعاودون محاولاتهم بسط نفوذهم ونفوذ مذهبهم في اليمن . والملاحظ على الحركة الزيدية في اليمن أنها ضعفت بعض الشيء بعد وفاة الإمام احمد بن سليمان، بسبب السيطرة الأيوبية على معظم اليمن وعدم قيام إمام بعده يوحدهم ويشد أزرهم حتى سنة ٥٨٣ هـ/١١٨٨م عندما ظهرت دعوة المنصور بالله عبدالله بن حمزة الأولى للاحتساب في منطقة الجوف حيث يكثر اتباع المذهب الزيدي(٣). والاحتساب هو المرحلة السابقة على الإمامة . وقد يصبح الرجل محتسبا ولكنه لايصل إلى مرتبة الإمامة(٤).

وبعد اعلان عبدالله بن حمزة محتسبا بدأت الخلافات بين الزيديين إذ كتب ابن حمزة إلى الأمير

(١) يحيى بن الحسين : انباء الزمن ص ٥٣
(٢) نفس المرجع والصفحة
(٣) الشرفي اللآلىء المضيئة جـ٢ ص ٢١٦، الكبسي : اللطائف ص ٢٨ ب، زبارة أئمة اليمن جـ١ ص ١٦١
(٤) العرشي : بلوغ المرام ص ٤٢٠

شمس الدين يحيى بن احمد بن سليمان وإلى أخيه بدرالدين محمد يدعوهما إلى الدخول في طاعته . و بعد أن أطاعه معظم أهل الجوف سار إلى صعدة ومعه مائة فارس . وعدد كبيرمن المشاة فتصدى له الأمير شمس الدين وأخوه عند حقل صعدة في جموع غفيرة من خولان و بني جماعة وغيرهم وخشى عبدالله بن حمزة الفتنة وأراد أن يتنازل عن دعوته للأميريحيى على أن يقيم بصعدة طالبا للعلم . ولكن الأشراف الحمزيين . ومن بينهم محمد بن الناصر، وابراهيم بن يحيى لم يقبلوا ذلك . وأجبروه على العودة معهم إلى الجوف(١) .

وقد عمل السلطان علي بن حاتم على مناهضة عبدالله بن حمزة فهدد بخراب صبره من بلاد مينك بالجوف المعروفة ببلاد عفار، وأخد أموال أهلها وكانت للأشراف الحمزيين . فاستنجدوا بعبدالله الذي اعتذرعن ذلك خوفا من السلطان علي بن حاتم ، فلم يقبلوا عذره . فسارعلى رأس قواته إليها ، واستولى على حصن جرع . وأقام عبدالله بن حمزة في ذلك الحصن بعد أن أذن له أهله بذلك سنتين وثلاثة أشهر يحارب فيها علي بن حاتم(٢) .

وكان الفريقان الشيعيان الاسماعيلي والزيدي يتقاتلان في الوقت الذي كان يتهددهمافيه الخطر السني الذي كان يمثله السلطان طغتكين بن أيوب الذي وصل إلى صنعاء على رأس قواته واستولى في طريقه على العديد من الحصون والقلاع التابعة لها(٣) كما سارفي نفس الوقت إلى الدملوة للقضاء على بقايا الزريعيين الإسماعيليين، ونجح في ذلك بوساطة بشر بن حاتم . الذي أبرم مع طغتكين صلحا نيابة عن أخيه علي بن حاتم(٤) .

وقد قرر طغتكين القضاء على الفرق الشيعية في اليمن الواحدة تلو الأخرى منتهزا الخلافات القائمة بينها ، والتي لم تفطن إلى ذلك الخطر الذي يتهددها وتوحد جهودها للوقوف في وجهه ومقاومته ، ولكن الخلافات المذهبية والأطماع الشخصية أعمت القائمين على أمرها عن حقيقة الوضع ، واستمروا في خلافاتهم . ناهيك عن أن بعض الحركات كانت في ذلك الوقت في دور الاحتضار .

لذلك نرى طغتكين بعد أن قضى على بقايا الزريعيين وصالح بني حاتم يسيرعلى رأس قواته لقتال الزيديين في شمالي البلاد واستولى على العديد من حصونهم وقلاعهم ، وقتل محمد بن حمزة ، أخا عبدالله ، ودانت له معظم اليمن(٥) .

و بعد أن فرغ طغتكين من الزيديين سار لقتال على بن حاتم الاسماعيلي وضيق عليه الحصار ولكنه مل من طول مدته التي دامت حوالي ار بع سنوات فصالحه و بعد الصلح شيد طغتكين قصرا له

(١) يحيى بن الحسن انباء الزمن ص ٥٥
(٢) نفس المرجع الشرفي : المرجع السابق والجزء ص ٢١٧ ، زيارة : المرجع السابق والجزء ص ١٦٢
(٣) يحيى بن الحسن : انباء الزمن ص ٥٥
(٤) نفس المرجع ص ٥٥ــ٥٦
(٥) الشرفي : اللالىء المضيئة جـ٢ ص ٢١٨ ب

بصنعاء أخذ حجارته من مشاهد همدان الإسماعيلية. حيث كانت لهم قبور وشواهد عليها كانوا قد عمروها أحسن عمارة فخربت جميعها، وبنى بها القصر(١).

وبعد ذلك سار إلى صعدة ودخلها سنة ٥٨٦ هـ/١١٩٠م واستولى عليها بذلك دانت إليه معظم نواحي اليمن «وزالت آخر دولة العبيدية من بني حاتم والصليحية من الإسماعيلية عن اليمن»(٢).

ومع ذلك فقد تمكن الأمير احمد بن سليمان الزيدي من دخول صعدة وإعادتها لسلطانه(٣).

والملاحظ على الحركة الشيعية في عهد السلطان طغتكين انها ضعفت ضعفا شديدا. إذ تمكن من القضاء على ما تبقى من نفوذ للإسماعيلية. أما الزيدية فأصبح أتباعها دون إمام يوحدهم حتى كانت سنة ٥٩٣ هـ/١١٩٧م عندما دعا عبدالله بن حمزة لنفسه بالإمامة بتحريض من السلطان على ابن حاتم الهمداني الذي كان قد ضعف سلطانه وقبع في حصن ذمرمر، وكان قد أرسل إلى عبدالله ابن حمزة أخاه بشر بن حاتم في ثلاثين فارسا لمساعدته على الدعوة للإمامة، وكان ابن حمزة في ذلك الوقت مقيما في هجرة معين من أعمال صعدة. فاستجاب لذلك ودعا لنفسه بالإمامة. وعمل على نشر الدعوة في مختلف الأنحاء. فبايعه علماء الهدوية المطرفية، والمخترعة. وكانت تلك الدعوة الكبرى للإمامة(٤). وفي تلك الآونة كان قد تولى حكم اليمن المعز بن طغتكين الذي أخذ يتخبط في سياسته ومعتقداته(٥) مما أدى إلى قوة الإمام الزيدي عبدالله بن حمزة وأخذ يناوئه. وقد وقف إلى جانبه السلطان علي بن حاتم الذي كانت العلاقات بينه وبين المعز سيئة، وسمح للإمام بالإقامة في حصن ثلا التابع له، كما انضم إليه الأعراب بسبب سوء سيرة المعز وأيدوا دعوته(٦) وبعد أن شعر الإمام بقوته سار إلى صعدة فدخلها وبايعه الناس في مسجدها الجامع يوم الجمعة الثالث عشر من ربيع الأول سنة ٥٩٤ هـ/١١٩٨م وأرسل من قبله الولاة إلى البلاد التي أجابته لدعوته(٧).

وكان من بين من انضم إلى الإمام بالإضافة إلى السلطان علي بن حاتم وولده عمر مشايخ بني الضريوة، والأمير المنتصر بالله محمد بن المفضل، والأمير فليته صاحبا جبل حضور، والأشراف أولاد

---

(١) يحيى بن الحسن: المرجع السابق ص ٥٧

(٢) وفي ذلك قال الرجيف:

وتملكوا سهل البلاد وحزنها — وعدوا بألوية عليهم تعقد

وبنو عبيد بالنوال تمدهم — وهم دعاة للمعز واعبد

يحيى بن الحسين: انباء الزمن ص ٥٧

(٣) ادريس عماد الدين: نزهة الأفكار ص ١١

(٤) يحيى بن الحسين: المرجع السابق ص ٥٧ــ٥٨ زيارة أئمة اليمن جـ١ ص ١١٣

(٥) راجع الفصل الثاني من الباب الأول

(٦) الشرقي: اللآلىء المضيئة جـ٢ ص ١٣٣ ب، المحلي الشهيد: الحدائق الوردية جـ١ ص ٣٥٤ــ ٣٥٥

(٧) الشرقي: المرجع السابق والجزء والصفحة، الصعدي: مآثر الأبرار ص ٩ ب، زيارة أئمة اليمن جـ١ ص ١١٤

يحيى بن الحسين من ناحية المغرب(١) كما انضم إليه العديد من أمراء المعز بن طغتكين وجنوده الذين كانوا يخشون بطشه وانتقامه(٢).

ولكن المعز لم يقف أمام ذلك موقف المتفرج بل عمل على قتال الإمام ومن انضم إليه، وكان يواجه الإمام خلال ذلك مصاعب كثيرة من بينها عودة بعض من كان ينضم إليه إلى تأييد المعز ومعاداة الإمام، كما فعل الأمير يحي بن احمد بن سليمان الذي نقض بيعته للإمام وانضم للمعز وكذلك علي بن حاتم وأخوه بشر بن حاتم الذي دعا إلى طاعة المعز، وكتب إلى الإمام وسبه وسماه مسيلمة الكذاب فحار به الإمام وأسره ومات في أسره(٣) وكما حدث من عودة بعض أمراء المعز إليه ومحار بتهم للإمام(٤).

أما بالنسبة للحركة الزيدية فالملاحظ على أئمتها أنهم كانوا يمتنعون عن سب الشيخين أبي بكر، وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وإن كانوا يؤذنون بـ«حي على خير العمل» في المناطق التابعة لهم أو التي يستولون عليها، فقد كان الأمير عماد الدين يحيى بن حمزة قد أقام في حصن حب ثمانية أيام بعدما استولى عليه، وكان المؤذن يقول في الآذان بـ«حي على خير العمل» فعجبت من ذلك عجوز من أهل الحصن وسألت بعض أصحاب عماد الدين قائلة: «أخبروني ما هو حي على خير العمل. فما سمعت مؤذنا يذكره مدة عمري»(٥) ومع ذلك فقد كانوا يحرمون الخمر، الذي كان يتعاطاه الأمراء الأ يو بيون في اليمن(٦).

أما في زمن الإمام المنصور عبدالله بن حمزة فقد ساءت العلاقات بينه و بين المطرفية، وجرت بينهما سنة ٦٠٣هـ/١٢٠٧م مراسلات كثيرة انتهت بأن حكم الإمام بكفرهم، وسبيهم، واستباحة أموالهم، وتوعدهم إن لم يرجعوا عن مذهبهم بأن ينتقم منهم انتقاما شديدا، و يقضي عليهم بالسيف، وقد كانت مدارسهم منتشرة في ذلك الوقت في: قاعة ووقش، وسناع، وكان عالمهم في ذلك الوقت هو علي بن الحسن البحتري ونتيجة لذلك التهديد تراجع البعض عن مذهبه(٧) حتى كانت سنة ٦١٠هـ/١٢١٤م عندما خرج المشرفي محمد بن منصور بن مفضل بن الحجاج مدافعا عن المطرفية من الهدوية، ومنكرا على الإمام عبدالله بن حمزة تكفيرهم وحربهم، وسار إلى مسور ومنها إلى مدع، وحارب أهل المصنعة وعزان، وغيرهما من المناطق التابعة للإمام، وانضم إليه كثير من أهالي حمير وسكان تلك النواحي مما اضطر الإمام إلى إرسال أخيه يحيى بن حمزة في جمع غفير لقتال المشرفي، فوقف أهالي تلك النواحي مع المشرفي ولم يستطع يحيى بن حمزة أن ينال منهم مما اضطره إلى الذهاب إلى بني الصليحي وهم قوم من حمير غربي مدع فقتلهم وسباهم لانضمامهم للمشرفي وعدم اعترافهم بإمامة عبدالله بن حمزة عليهم. وأن إمامهم هو المشرفي، مما جعل الإمام

(١) يحيى بن الحسين: انباء الزمن ص ٥٨
(٢) راجع الفصل الثاني من الباب الأول
(٣) راجع الفصل الثاني من الباب الأول
(٤) راجع الفصل الثاني من الباب الأول
(٥) يحيى بن الحسين: انباء الزمن ص ٦٣
(٦) نفس المرجع والصفحة
(٧) نفس المرجع ص ٦٣

يكفرهم و يستحل حرماتهم، وجعل حكمهم حكم الكفار المحاربين، وقد ذكر الإمام ذلك في كتاب صغير كتبه إجابة على عدة مسائل من بينها مسألة المطرفية وانتهاك حرماتهم وسبيهم لأن أكثرهم عوام لايعرفون إلا جملة الإسلام، وأجاب بأنهم كفار طبايعية(١).

وكان مذهب المطرفية قد انتشر في أنحاء عديدة من اليمن من بينها صنعاء ومناطقها. وعندما استولى عليها الإمام عبدالله بن حمزة سنة ٦١٠هـ/١٢١٤م أمر واليه عبدالله بن مرجب الحرازي بخراب مساجد المطرفية بها، فخرب مسجد عزان سباع المعروف بمسجد الضرار كما أمر بخراب هجرة وقش، فهرب أهلها إلى بلاد خولان وانس، وخربها وخرب مساجدها، وحمل أخشابها وأبوابها إلى قاهرة ظفار(٢).

و بسبب الظلم الذي لحق بالمطرفية أرسل أحد زعمائهم المدعو ابن النساخ رسالة إلى الخليفة الناصر بالله العباسي يستنجد به(٣).

وقد بقي الامام عبدالله بن حمزة إماما للزيدية في اليمن حتى وفاته سنة ٦١٤هـ/١٢١٨م في حصن كوكبان عن عمر يناهز الثانية والخمسين وقد دامت إمامته سبعة عشرة سنة وتسعة أشهر وعشرين يوما قضاها في صراع مع الأيوبيين لتثبيت الدعوة الزيدية في اليمن، وهو أول من فرض الضرائب من الأئمة، وكان بينه و بين سلاطين بني حاتم مصاهرة على الرغم من اختلافه معهم في المذهب(٤) وإلى جانب اضطهاده لفرقة المطرفية فقد جرت بينه و بين أبي القبائل من فقهاء الشافعية في ذي جبلة مراسلات طويلة، حتى إن أبا القبائل ألف كتاب الخارقة في مجلد يفند فيها آراء الامام عبدالله بن حمزة الذي رد عليه بكتاب الشافي في مجلدين، وألزمه فيهما بالتزامات كثيرة لم يلتزم هو بها(٥).

و بعد وفاة الإمام عبدالله بن حمزة قام بعده الإمام المعتضد بالله يحيى بن المحسن بن محفوظ بن محمد بن يحيى من ذرية الهادي بصعدة، وكان أهلا للإمامة، وقال بإمامته كثير من علماء الزيدية، ولكن محمد بن عبدالله بن حمزة رفض الاعتراف بإمامته و بو يع محتسبا في كنن، وكان له أتباع كثيرون مما جعله في مركز أقوى من مركز ابن محفوظ الذي فشلت إمامته(٦).

و بعد وفاة محمد خلفه ابنه الأمير عز الدين الذي واصل سياسة أبيه وأجداده في عدائه للأيوبيين والعمل على نشر الزيدية في اليمن ولكنه مرض ومات سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦م ودفن في ظفار في الحجرة المنصورية تحت مشهد أبيه(٧).

وفي تلك الأثناء ظهرت حركة مرغم الصوفي الذي دعا إلى امام حق(٨).

(١) يحيى بن الحسين: انباء الزمن ص ٦٦ـ٦٧
(٢) نفس المرجع ص ٦٨
(٣) راجع الفصل الثاني من الباب الأول
(٤) يحيى بن الحسين: أنباء الزمن ص ٦٨
(٥) نفس المرجع ص ٦٩
(٦) نفس المرجع ص ٦٩ـ٧٠
(٧) نفس المرجع ص ٧١
(٨) راجع الفصل الثاني من الباب الأول

نلاحظ من ذلك تعدد المذاهب السنية والشيعية في اليمن، وقيام الصراع فيما بينها طوال العصر الأيوبي وإن كان يتخلل ذلك فترات من السلم أحيانا، ولم يقتصر الصراع على السنة والشيعة بل كان يحدث أحيانا بين طوائف الشيعة مع بعضها البعض كما بيّنا.

إلى جانب ذلك فقد وجد باليمن بعض أهل الذمة من اليهود، ولكنه لم يكن لهم أي دور في ذلك الصراع بين الفرق الإسلامية، وكانوا يتركزون في منطقة صنعاء بالقرب من بستان السلطان سيف الإسلام طغتكين وقد وضح ذلك يحيى بن الحسين بقوله «وكان يحد البستان قبليا بيوت أهل الذمة من اليهود»(١).

العمرة والحج عند سرو اليمن:

كان جل سكان اليمن سواء السنيون منهم أو الشيعة يؤدون فريضة الحج و يعتمرون كبقية المسلمين فيما عدا فئة منهم تدعى سرو اليمن، وهم قبائل يمنية عديدة يسكنون جبال السراة كقبيلة بجيلة. فاشتق اسمهم من اسم بلادهم، كانوا يأتون إلى مكة مرتين في العام حسب العادة.

المرة الأولى: كانوا يأتون في شهر رجب لأداء العمرة الرجبية التي كان يعتبرها السرو ــ كما كان يعتبرها أهل مكة ــ تعادل حجة. فكانوا يحضرون إلى مكة قبل موعد العمرة بعشرة أيام، حيث كانوا يجلبون معهم أنواعاً مختلفة من المواد الغذائية تسمى ميرة مكة: كالقمح، والبقول، والسمن، والعسل، والزيت، واللوز، وغيرها.

وكانوا بذلك يضربون عصفورين بحجر إذ يؤدون العمرة، ثم يساعدون أهل مكة والمجاورين بالمواد الغذائية. فيكون ثوابهم مضاعفا، كما يبيعون منتجاتهم وكانوا يأتون إلى مكة في قوافل تضم آلاف الرجال، وكذا آلاف الإبل الموسقة بالمواد الغذائية، و يسود الرخاء مكة وترخص الأسعار، وتنتعش الحياة فيها، و يدخر الناس ما يحتاجونه حتى موعد حضورهم القادم، و يقول ابن جبير واصفا ما يجلبونه معهم. «لولا هذه الميرة لكان أهل مكة في شظف من العيش»(٢)

والعجيب في أمر أولئك السرو أنهم لايتقاضون ثمن بضائعهم نقودا بل كانوا يقايضونها بالخرق، والعباءات والشمل، والأقنعة، والملاحف التي يعدها أهل مكة استعدادا لقدومهم، و يقال إنه في العام الذي لايحضرون فيه الميرة إلى مكة. يصيب بلادهم القحط، وتموت مواشيهم وأغنامهم، وعلى عكس ذلك إذا حضروا تخصب بلادهم و يبارك الله لهم في مواشيهم ودوابهم(٣) وكأن الله يغضب عليهم إذا لم يحضروا لمكة. و بالعكس إذا حضروا يرضى عنهم و يضع لهم البركة في كل شيء، وكان إذا حان وقت ذهابهم إلى مكة، وغفلوا عن ذلك أو تغافلوا كانت نساؤهم تحثهم.

---

(١) يحيى بن الحسين: ابناء الزمن ص ٦٦

(٢) ابن جبير: الرحلة ص ٩٨

(٣) نفس المرجع ص ٩٨ ــ ٩٩

أما عن عباداتهم فإنهم كانوا لايطبقون الشرع كما يجب . بالرغم من كونهم أعراباً فصحاء أقوياء ، وليس ذلك عن قصد منهم ولكن عن جهل به لأنهم قوم صادقو النية فمثلا تراهم عندما يطوفون حول الكعبة في منتهى القسوة والعنف . إذ يتزاحمون تزاحما شديدا ، وقد وصفهم ابن جبير بقوله : «فهم إذا طافوا بالكعبة المقدسة يتطارحون عليها تطارح البنين على الأم المشفقة لائذين بجوارها متعلقين بأستارها»[1] . وكانت أستار الكعبة تتمزق من الأماكن التي يضعون أيديهم عليها ، لأنهم كانوا يتعلقون بها . ورغم ذلك فكانوا شديدي الورع والتضرع إلى الله وكثرة الدعاء و يقول ابن جبير في ذلك «وفي أثناء ذلك تصدع ألسنتهم بأدعية تتصدع لها القلوب» وتتفجر لها الأعين الجوامد فتصوب»[2] .

وكان الناس الذين يطوفون معهم يستمعون إلى تلك الأدعية فيرددونها ويحفظونها . ومع ذلك فكان من الصعب على غيرهم أثناء طوافهم أن يطوف معهم أو أن يصل إلى الحجر الأسود[3] .

أما صلاتهم فكانوا يؤدونها بطريقة غريبة إذ كانوا يستقبلون الكعبة و يسجدون دون ركوع . وكان منهم من يسجد سجدة واحدة ، ومنهم من يسجد أربع سجدات ، و يرفعون رؤوسهم عن الأرض قليلا ، وتبقى أيديهم مبسوطة عليها وكانوا خلال ذلك يلتفتون يمنة و يسرة كالخائفين ، ثم يسلمون أو يقومون دون تسليم ولا يجلسون لقراءة التشهد لأنهم ربما لا يعرفونها «كما كانوا يتكلمون فيما بينهم أحيانا خلال الصلاة . إذ يرفع الواحد منهم رأسه أثناء السجود ملتفتا إلى صاحبه صائحا به ليوصيه» .

وعلى الرغم من كثرة ماكانوا يجلبون إلى مكة إلا أنهم كانوا يلبسون أزراً قذرة ، «أو جلوداً يسترون بها عوراتهم»[4] لماذا يفعلون ذلك : لجهلهم بتعاليم الدين الإسلامي التي تعتبر النظافة من الإيمان ، وأنهم كانوا يعيشون عيشة بدائية أقرب إلى عيشة الإنسان في العصور الحجرية القديمة .

ومع ذلك فإنهم كانوا أهل بأس ونجدة. فقد كانوا يحملون القسى العربية الكبيرة أثناء أسفارهم ولا يجرؤ قطاع الطرق على التعرض لهم بل كانوا يهابونهم ، ويخلون لهم الطرقات إذا علموا بقدومهم ، لذا كان يصحبهم الحجاج والمعتمرون من أهالي المناطق التي يمرون بها ليكونوا في حمايتهم فيصلون معهم في أمن وسلام[5] .

هذا بالنسبة إلى العمرة الرجبية التي كانت تتم في مستهل رجب أما المرة الثانية فكانوا يأتون لأداء فريضة الحج إذ كانوا يتوافدون في ذي القعدة بأعداد كبيرة ، مصطحبين معهم كالعادة ميرة أهل مكة والحجاج وكانوا بعد وصولهم يتوجهون إلى المدينة المنورة لزيارة قبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) وكانوا يتزاحمون عند الحجرة الشريفة زحاما شديدا كما كانوا يتزاحمون في مكة عند الطواف

(١) ابن جبير: الرحلة ص ١٠٠
(٢) ابن جبير: الرحلة ص ١٠٠
(٣) نفس المرجع والصفحة
(٤) نفس المرجع والصفحة
(٥) ابن جبير: الرحلة ص ١٠٠

أو عند فتح الكعبة لهم بحيث كان يتعذر على غيرهم الوصول إلى الحجرة للسلام على الرسول (صلى الله عليه وسلم) وعلى صاحبيه أبي بكر وعمر بن الخطاب طالما هم هناك(١). وأثناء تواجدهم في المدينة كانت تتوافد جماعات أخرى منهم إلى مكة وكانوا يبقون بها ثم يتوجهون إلى الزيارة بعد أداء فريضة الحج وذلك لقصر المدة.

وقد كانوا يقطعون المسافة بين مكة والمدينة في سرعة فائقة، وكان من يسير معهم يحمد صحبتهم(٢).

تزاحم المعتمرين والحجاج من سرو اليمن عند فتح الكعبة:

كان باب الكعبة يفتح للمعتمرين والحجاج من سرو اليمن في السابع والعشرين من ذي القعدة. حيث كانوا يتزاحمون زحاما شديداً بحيث لايستطيع أحد غيرهم دخول الكعبة لأنهم كانوا يتراصون، ومن يراهم يظن أنهم مر بوطون بسلاسل في كل سلسلة بين ثلا ثين إلى أر بعين شخصا أو أكثر، فيصعدون السلم وهم مترابطون وإذا أفلت أحدهم وسقط أدى إلى سقوط كل المجموعة «فيشاهد الناظر لذلك مرأى يؤدي إلى الضحك»(٣).

و بعد صعود السلم كان يمتلىء بهم الباب ولا يستطيعون التقدم أو التأخر وإذا دخلت إحدى الجماعات فكانت لاتمكث بالداخل طو يلا بل تسارع إلى الخروج، فيؤدي ذلك إلى اصطدامهم بالداخلين، فيقع الداخلون إذا داهمهم الخارجون و بالعكس يقع الخارجون إذا داهمهم الداخلون داخل الكعبة مما كان يتسبب لهم بأضرار جسيمة، فكان منهم من يكسر، ومنهم من يجرح، وربما منهم من يموت إذا سقط بين الأ رجل كل ذلك لعدم وجود النظام «والأعجب من ذلك كان يرى من يصعد فوق الرؤوس والأعناق»(٤).

من حج من سلاطين اليمن في العصر الأ يو بي:

السلطان سيف الإسلام طغتكين بن أيوب كان في سنة ٥٨١ هـ/١١٨٥م محاصرا لحصن حب.. وعندما أدركه الحج دون أن يتمكن من فتح الحصن، أوكل أمر حصاره إلى قائده الهمام أبي ز با، وتوجه إلى مكة، فأدى فريضة الحج وعاد إلى ذلك الحصن وضيق عليه الحصار وتمكن من فتحه في جمادى الآخرة سنة ٥٨٢ هـ/١١٨٦م. وقتل جميع سكانه «ولم يسلم منهم إلا من يعرف أودخل في زي جنده الذين له أو طرح نفسه بين القتلى. فتزلزلت لذلك اليوم جميع اليمن شاما ويمنا»(٥) وكان الأجدر بذلك السلطان الذي أدى فريضة الحج أن يكون رؤوفا يعرف الله لا أن يقتل جميع السكان.

(١) نفس المرجع ص ١٢٧
(٢) نفس المرجع السابق والصفحة
(٣) ابن جبير: الرحلة ص ١٢٧
(٤) نفس المرجع ص ١٢٧ — ١٢٨
(٥) ابن حاتم: السمط ص ٩ب. راجع أيضا ابن الديبع: قرة العيون ص ١٠٤ — ١٠٥

السلطان المسعود:

صلاح الدين أبوالمظفر يوسف بن الكامل الأيوبي، ملك اليمن وحج في سنة ٦١٩هـ/١٢٢٢م، وقاتل أمير مكة الحسن بن قتادة وهزمه. وقدم أعلام أبيه على أعلام الخليفة، وارتكب من المنكرات في ذلك العام مالا يجوز له عمله منتهكا بذلك حرمة الحرم الشريف إذ كان يرمي حمام الحرم بالبندق من فوق قبة زمزم مستخفا بحرمة الكعبة. وكان يسكر بداره بالقرب من المسعى، وكان غلمانه يضربون الساعين بسيوفهم كيلا يعملوا ضجة فيزعجوه(١).

الملك المنصور:

نورالدين عمر بن علي بن رسول الذي ملك اليمن بعد المسعود حج سنة ٦٣١هـ/١٢٣٤م على النجب، وكان كثير الصدقات في الحرم كما كان يرسل قناديل الذهب والفضة للكعبة كما حج سنة ٦٣٩هـ/١٢٤١م وابطل المكوس والجبايات بمكة وكتب ذلك في مربعة علقها تجاه الحجر الأسود(٢).

مساجد اليمن في العصر الأيوبي:

وجد باليمن العديد من المساجد في مختلف المدن والقرى «منها ما كان مبنيا قبل العصر الأيوبي ومنها ما استحدث وكانت المساجد تؤدي غرضين في آن واحد:

الغرض الأول: أداء الفرائض الدينية بها.

الغرض الثاني: تعليم الأطفال القراءة والكتابة أو العلوم الدينية المختلفة.

وسنهتم في هذا البحث بالمساجد التي انشئت في العصر الأيوبي أو التي تم زيادة أو إصلاح أو ترميم فيها والتي كان لها شهرة في ذلك الوقت وأهمها:

مسجد القريظيين:

أنشأه القريظيون في بداية العصر الأيوبي بقرية أوبة العليا، وقد كان لهم خطابة القرية، والجامع موقوف عليهم، وهم المتولون النظر في أموره، يتوارثون ذلك واستمروا على تلك الحال حتى العصر المملوكي، وكانوا قد وقفوا عليه بعض الممتلكات التي من ريعها كانوا يرممونه و يصلحون الأرض التابعة له(٣).

مسجد الزنجيلي:

اقامه عثمان بن على الزنجيلي بعدن خلال ولايته بها ـــ وكان ذلك في بداية العصر الأيوبي ـــ ووقف عليه خان البز للصرف عليه وما زاد عن حاجته كان يرسل للانفاق على الحرم المكي(٤).

(١) المقريزي الذهب المسبوك ص ٧٧ ــ ٧٩

(٢) المقريزي: المرجع السابق ص ٧٩ ــ ٨٠

(٣) بامخرمة: تاريخ ثغر عدن جـ٢/٢٢٠

(٤) الخزرجي: العسجد المسبوك ص ١٨٧، ابن الديبع: قرة العيون ص ١٠٢

جامع زبيد:

ورد في كتابات على بابه أن الذي قام بعمارته الأمير المبارك بن منقذ الذي كان واليا على زبيد من قبل الأيوبيين ـ ٥٧٣ هـ/١١٧٨م، ويبدو انه بنى مقدمته فقط لأن الذي بنى المؤخرة والجناحين والمنارة السلطان سيف الإسلام طغتكين(١) فيما بعد.

مسجد شاشة:

وهو مسجد يقع على بعد ثلاثة أميال جنوبي زبيد قتل بالقرب منه الملك المعز بن سيف الإسلام طغتكين(٢).

مساجد المعظمي:

قام أبو الدر جوهر بن عبدالله المعظمي مولى الداعي المعظم محمد بن سبأ بن أبي السعود، بعد وفاة سيده محمد وابنه المكرم، وخلال وصايته على ابنائه ببناء عدة مساجد في عدة أماكن من منطقة الدملوة التي كان واليا عليها منها: جامع عمق، جامع معبرة(٣)، وجامع الخناخن(٤) وأوقف على الجميع أوقافاً حسنة(٥).

مساجد المعز بن طغتكين:

قام السلطان المعز بن طغتكين خلال سلطنته على اليمن ببناء عدة مساجد منها. مسجد المعزية بتعز، وهو الذي بنى المنبر الذي فيه أيضا، كما بنى الجامع الذي بخنفر من أرض أبين، كما بنى الصفين والجناحين والمؤخر من مسجد الجند(٦).

مسجد ورد سار:

بناه الأمير علم الدين ورد سار. أحد أمراء الأيوبيين باليمن ـ بجبل ضرب، وبنى له مقبرة فيه، وقبة، ودفن به بعد وفاته(٧) كما جدد الأمير وردسار سنة ٦٠٦ هـ/١٢٠٩م جامع صنعاء ورممه وبنى به منارتين والمطاهير والبركة(٨).

مسجد أبو الفداء:

بناه الفقيه والمحدث العراقي ابو الفداء إسماعيل بن عبدالملك بن مسعود الدينوري البغدادي

---

(١) الخزرجي: المرجع السابق والصفحة، وابن الديبع المرجع السابق ص ١٠٣، ١٠٩

(٢) الخزرجي: العسجد المسبوك ص ٢٠٦، ابن الديبع: قرة العيون ص ١١٢

(٣) معبرة: قرية من بلاد الأشعوب «بامخرمة: تاريخ ثغر عدن جـ٢ ص ٤٣»

(٤) الخناخن: بخائين معجمتين الأولى مفتوحة بعدها نون مفتوحة ثم ألف والثانية مكسورة بعدها نون: من اليمن «نفس المرجع والجزء والصفحة»

(٥) نفس المرجع والجزء والصفحة

(٦) الخزرجي: العسجد ص ٢١٠

(٧) الخزرجي: العسجد ص ٢١١

(٨) الخزرجي: العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٤٢ ـ ٤٤

بمدينة عدن التي استوطنها بعد قدومه من العراق وذلك حوالي سنة ٦٠٠ هـ/١٢٠٤م([١])م

تجديد المسعود جامع الجند:

كان السلطان المسعود بن الكامل محمد قد خرب جامع الجند، و بينما كان في تلك المنطقة في أحد الأيام إذ سقطت عليه أمطار غزيرة و برد شديد، فنذر ان توقفت الأمطار وانكشف الحال ليعمرن مسجد الجند، فلم تلبث أن توقفت الأمطار وظهرت الشمس وزال البرد. فوفى بنذره، فأرسل إلى الشيخ ظهرالدين على بن عمرو بمال. وأمره بأن يعمر مسجد الجند عمارة جيدة بما يليق بالملوك، وأن يزخرفه و يذهبه كما جرت العادة في عمائر الملوك وأمره أن يبني علي بابه خلوة ليسكن بها إذا جاء إلى اليمن، ولكنه لم يسكنها لأنه توفى بعد ذلك سنة ٦٢٦ هـ/١٢٢٩م([٢]).

المسجد الأعلى:

أنشأ هذا المسجد الفقيه فضل بن أسعد بن حمير بن جني بن أبي سالم المليكي شرقي قرية الملحمة، و بالرغم من أننا لانعرف متى تم انشاؤه إلا أن صاحبه توفى سنة ٦٣٠ هـ/١٢٣٣م([٣]).

مسجد أبي قفل:

أنشأه أبومحمد عبدالله بن أحمد بن محمد الزيادي العمدي الحضري المعروف بأبي قفل شرقي مسجد ابان الذي كان إماما به. وكان مسجدا لطيفا أقام به حتى وفاته سنة ٦٣١ هـ/١٢٣٤م([٤]).

مسجد البيلقاني:

ينسب إلى أحمد بن الزكي بن الحسن بن طاهر شمس الدين البيلقاني الفقيه الشافعي، أنشأه بالقرب من القطيع وأوقف عليه ثمانية دكاكين جنب بعضها بسوق القصب، على أن تكون ثلث اجرة الدكاكين لعمارتها، وعمارة المسجد، أما الثلثان الباقيان فرواتب لموظفي المسجد كالإمام، والمؤذن والقائمين على أمره ولا نعرف متى تم بناؤه إلا أن صاحبه توفي في أوائل العصر المملوكي([٥]).

هذا وقد أنشأ الرسوليون العديد من المساجد باليمن([٦]).

أهم المدارس في اليمن في العصر الأيوبي:

لم يهتم الأيوبيون كثيرا بفتح المدارس في اليمن في فترة حكمهم لها، و يبدو أن السبب في ذلك انشغالهم بالعمليات الحربية ضد الزيديين، والمنشقين عليهم واكتفوا بتلقى طلبة العلم علومهم

---

(١) بامخرمة: تاريخ ثغرعدن جـ١ ص ٢١ـــ ٢٢

(٢) الخزرجي: العسجد المسبوك ص ٢٢٢ـــ ٢٢٣

(٣) الخزرجي: العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٥٠ـــ ٥١

(٤) بامخرمة: تاريخ ثغرعدن جـ٢ ص ١٠٨ـــ ١٠٩

(٥) نفس المرجع والجزء ص ٨٠ـــ ٨٢

(٦) الخزرجي: العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٤٢ وما بعدها و بامخرمة: تاريخ ثغرعدن جـ٢ ص ٧٧ وما بعدها

في المساجد، وفي المنازل من ذلك أن الفقيه أسعد بن محمد كان يدرس في منزله الذي يسمى أروس حتى وفاته سنة ٥٧٦هـ/١١٨١م(١) كما كان الفقيه محمد بن أبي الفلاح يدرس في منزله الذي يسمى عمق والذي مات بعد ٥٧٠هـ/١١٧٥م(٢) أو في بعض المدارس التي أنشأها السلاطين الأيوبيون أو بعض أتباعهم أو عامة الشعب. وهذا بعكس ما قام به الرسوليون بعد استقلالهم بحكم اليمن عن الأيوبيين.

من أهم المدارس التي تم اقامتها في اليمن في ذلك العصر.

المدرسة السيفية:

بناها الملك المعز بن طغتكين مكان دار سنقر الأتابك بتعز. ونقل إليها والده من قبره بحصن تعز(٣) وكانت أول مدرسة بناها سلاطين الأيوبيين في اليمن(٤).

المدرسة المجيرية:

أنشأها مجيرالدين كافور التقي، أحد خدام السلطان سيف الإسلام طغتكين بتعز، حيث كان رجلا تقيا صالحا محبا للعلم والعلماء ودفن بتلك المدرسة بعد وفاته. وكان الناس يقومون بزيارتها والتبرك بها والدعاء عند ضريحه(٥).

مدارس سنقر الأتابك:

أنشأ الأمير سنقر الأتابك مدرستين بزبيد هما: العاصمية وجعلها لأصحاب المذهب الشافعي، والرحمانية وجعلها للحنفية وبنى مدرسة ثالثة بذي هزيم من نواحي تعز دفن بها بعد وفاته سنة ٦٠٨هـ/١٢١٢(٦)م

تجديد مدرسة الميلين:

قام السلطان المسعود بن الكامل محمد بتجديد مدرسة الميلين بزبيد ولم يكن له من المآثر باليمن إلا هذا العمل(٧).

مدرسة الركبي:

أنشأها أبوعبدالله محمد بن احمد بن سليمان بن يطال بقريته ذي يعمد من أعمال الدملوه، وكان يدرس بنفسه بها، و يعول المنقطعين من الطلبة، وقبيل وفاته أوقف بها كتبه، كما اوقف عليها بعض أراضيه، وخلفه أبناؤه في التدريس بها من بعده ومنهم ابنه سليمان(٨).

---

(١) الجعدي: طبقات فقهاء اليمن ص ٢٢٦

(٢) نفس المرجع والصفحة

(٣) ابن الديبع قرة العيون ص ١١٠

(٤) يحيى بن الحسين: انباء الزمن ص ٥٨

(٥) الخزرجي: العقود اللؤلؤية جـ١ ص ٧٤

(٦) ابن الديبع: المرجع السابق ص ١١٤

(٧) يحيى بن الحسين: انباء الزمن ص ٧١

(٨) بامخرمة: تاريخ ثغر عدن جـ٢ ص ٢٠٠ ــ ٢٠١، السيوطي: بغية الوعاة ص ١١٨

مدارس المنصور:

أنشأ السلطان المنصور نورالدين عمر بن علي بن رسول عدة مدارس باليمن والحجاز. منها باليمن: المدرسة الوزيرية المنسوبة إلى مدرسها الوزيري والأخرى الغرابية نسبة إلى مؤذنها الذي كان يسمى غراب. و بنى مدرسة بعدن قسمها إلى قسمين أحدهما للشافعيين والآخر للحنفية، و بنى مدرستين بزبيد إحداهما للشافعيين والأخرى للحنفية و بنى مدرسة ثالثة لتدريس الحديث وفي حد المنسكية من نواحي سهام بنى مدرسة تعرف بالمنصورية ورتب في جميع تلك المدارس مدرسا ومعيدا وطلبة يتلقون العلم بها وإماما ومؤذنا ومعلما وأيتاما يتعلمون القرآن. و وقف على الجميع أوقافا تسد حاجاتهم(١)

الإجازات التي يحصل عليها الطلبة:

كان طالب العلم بعد أن يتلقى علومه على أحد الفقهاء أو المحدثين أو النحو يين أو غيرهم يمنحه إجازة،من ذلك الإجازة التي منحها ابن أبي الصيف للركبي والإجازة التي منحها الفقيه على بن قاسم للعامري ونصها «قرأ على الفقيه الأجل العلم الأ وحد ضياء الدين أبوالحسن علي بن أحمد بن داود بن سليمان العامري جميع كتاب المهذب في الفقه بجميع أدلته من نصوص الكتاب والسنة وفحوى الخطاب، ولحين الخطاب، ودليل الخطاب والاجتماع والقياس، والبقاء على حكم الأصل عند عدم هذه الأدلة قراءة صار بها أهلا أن تغتنم فوائده، وتلازم الإفادة في إفادته»(٢).



---

(١) الخزرجي: العسجد المسبوك ص ٢٤٢، بامخرمة المرجع السابق جـ٢ ص ١٧٨ ــ ١٧٩

(٢) بامخرمة: المرجع السابق والجزء ص ٢٠١ص ١٣٤

الباب الرابع

الحياة الاجتماعية في الحجاز واليمن

الفصل الأول : في الحجاز .

الفصل الثاني : في اليمن .

الفصل الأول
الحياة الاجتماعية في الحجاز

التركيب الاجتماعي لسكان الحجاز:

كانت غالبية سكان الحجاز في العصر الأ يوبي تتكون من العرب المسلمين، الذين يعتنقون المذاهب السنية المختلفة، إلى جانب الأشراف الذين يعتنقون بعض المذاهب الشيعية كالحسنيين في مكة و ينبع و بعض المناطق الأخرى والحسينيين في المدينة، والجعفريين في جدة وودان والفرع وغيرها(١) بالإضافة إلى بعض المجاورين المسلمين الذين جاءوا لمجاورة الحرمين الشريفين من مختلف أنحاء العالم الإسلامي. أما أهل الذمة فلم يكن لهم وجود بالحجاز في ذلك الوقت.

طبقات الشعب:

انقسم المجتمع الحجازي في العصر الأ يوبي إلى عدة طبقات هي:

الطبقة الأ ولى:

وكانت تضم أمراء الحرمين الشريفين من الأشراف الذين أبقاهم الأ يوبيون في الإمرة بعد خضوع الحجاز لهم سواء في مكة أو المدينة واكتفوا منهم بالخطبة لهم بعد الخليفة العباسي.

أما الطائف فلم تخضع للأ يوبيين و بقيت تحت حكم أهلها من بني ثقيف.

الطبقة الثانية:

وكانت تتكون من الأشراف الذين كانوا حاشية الأمير وأفراد عائلته الذين كان يعتمد عليهم في ادارة شؤون إمارته.

الطبقة الثالثة:

واشتملت على القضاة وكان منصب القضاء بمكة من أجل المناصب(٢) والعلماء والفقهاء. وكانوا ينقسمون إلى فئتين: فئة تمثل أهل السنة بمذاهبهم المختلفة حيث كان لكل فئة قضاتهم وفقهاؤهم وعلماؤهم وخطباؤهم وأئمتهم وقراؤهم في الحرم المكي إلى جانب قضاة وفقهاء وخطباء وأئمة وقراء الشيعة الحسينيين. وكانت الرئاسة للشافعيين.

أما في المدينة فكانت الرئاسة لآل سنان الحسينيين، في حين كان لأهل السنة قاض واحد يقوم

(١) ابن جبير: الرحلة ص ٤٨

(٢) القلقشندي صبح الأعشى جـ١٢ ص ٢٤١

بجميع المهمات بعد الرجوع إلى القاضي الحسيني لأن أهل السنة كانوا مهضومي الحقوق(١).

الطبقة الرابعة:

وتألفت من وَلاة الأ يوبيين وقادتهم. وهم الذين كان يعينهم السلاطين الأ يوبيون حكاما على مكة أثناء اختلافهم مع الأشراف إذ كانوا يرسلون فرقة من الجيش بقيادة أحد الأمراء الذين كانوا يعينون والياً على مكة للمحافظة على السيادة الأ يوبية بها. أو من ولاة بني رسول الذين نافسوا الأ يوبيين على حكم الحجاز بعد استقلالهم بحكم اليمن(٢).

أما المدينة فلم يرسل الأ يوبيون ولاة إليها بل ابقوا حكامها الحسينيين وأرسلوا بعض الخدم لخدمة الحرم المدني(٣).

الطبقة الخامسة:

وكانت تضم بقية فئات الشعب التجار ومنهم الذين كانوا من الأ ثرياء لما كان يعود عليهم من الأ رباح لاشتغالهم بالتجارة بين الشرق والغرب، والفلاحين الذين كانوا يؤلفون فئة فقيرة نظرا لطبيعة الحجاز الصحراوية القليلة الأمطار اللهم في بعض المناطق المتفرقة زائدة، والصناع الذين كانوا يؤلفون فئة قليلة من السكان لازدراء الناس لتلك الحرفة، والرعاة حيث كان يعمل العديد من سكان الحجاز بالرعي لأنها من الحرف المفضلة لديهم ولأنها توفر للأعرابي الحرية التي لايتمتع بها الفلاح (٤) وقد كان سكان البادية يتألفون من مجموعة من الزمر(٥) التي يرأسها شيخ القبيلة الذي تكون كلمته مسموعة فيهم، وكان يتبع تلك الزمر فريق من الخدم الذين إما أن يكونوا قد جاءوا من الخارج طلبا للرزق أو من زمر أخرى لم يرتاحوا فيها، أو من زمر منحلة(٦) وكان أكثر أهل جدة والمناطق المجاورة لها أشرافا علويين حسنيين وحسينيين وجعفريين وكانوا في شظف من العيش يعملون في كراء الجمال أوبيع اللبن والماء أوبعض الثمار التي كانوا يجمعونها أو الحطب الذي كانوا يحتطبونه وكانت تشاركهم نساؤهم في ذلك(٧).

الطبقة السادسة:

العبيد وكانوا فئتين: الأ ولى وتضم أتباع الأمير وأعوانه وخواصه الذين يسهرون على راحته وخدمته وحمايته، وتنفيذ أوامره ولكل أمير مجموعة من العبيد تكثر أوتقل حسب مركزه.

والثانية: وتضم الذين يقومون بالخدمة في المنازل أو الحقول أو الذين يخدمون التجار.

---

(١) راجع الفصل الأ ول من الباب الأ ول

(٢) راجع الفصل الأ ول من الباب الأ ول

(٣) راجع الفصل الأ ول من الباب الأ ول

(٤) لوبون: حضارة العرب ص ٣٤٥

(٥) الزمر: الفوج أو الجماعة «محيط المحيط ص ١١١، المنجد ص ٣٠٥»

(٦) نفس المرجع ص ٣٥٠

(٧) ياقوت: معجم البلدان جـ٥ ص ٤٨

وكان أولئك الخدم أكثر ما يعملون في الزراعة إذ كانوا يتقاضون مقابل ذلك ربع الغلة في الغالب، وكانوا يعدون من الأسر التي يتبعونها و يأكلون من طعامها. وليس من القليل أن يتزوج أحد الخدم من بناتها «وغالبا ما كان يشترط على الخادم أن يكون أجره طعامه ولباسه لسنين طويلة. وسواء تزوج الخادم إحدى بنات سيده أو اقتصد بعض المال ليتزوج و يشتري بعض الأنعام و يزرع لحسابه الخاص فلا تكون الخدمة عند أولئك الناس الذين هم على الفطرة سوى مرحلة لبلوغ ما هو أعلى منها(١).

الطبقة السابعة:

الإماء والجواري اللائي كن يجلبن إلى أسواق الحجاز والعالم الإسلامي من أسواق النخاسة من مختلف الأنحاء، فكان منهن الحبشيات والروميات والشركسيات أو العربيات المولودات في المدينة والطائف واليمامة ومصر(٢) وكان أمراء الحجاز يشترون الجواري، يدل على ذلك اشتراك جارية مع الحسن بن قتادة في قتل أبيه(٣) كما كان بعض أمراء أشراف مكة من أبناء الإماء كالأمير أبي سعد على ابن قتادة الذي كانت أمه حبشية(٤).

المرأة في الحجاز في العصر الأيوبي:

تمتعت المرأة العربية بقسط كبير من الحرية فقد كانت النساء يتدخلن في ادارة شؤون الدولة، كالخيزران زوج الخليفة المهدي، وزبيدة زوج هارون الرشيد(٥) وغيرهما كما شاركت المرأة الرجل في الحروب ضد الأعداء حيث كانت الفتيات العربيات يذهبن إلى القتال على صهوات الجياد و يقدن الجيوش، كما كانت أم المقتدر ترأس بنفسها المحكمة العليا، وتجلس للمظالم، وتستقبل الأعيان والوجهاء والسفراء الأجانب، كما كانت النساء تناظر الرجال في نواحي الثقافة والفكر و يشتركن في نظم القصائد(٦).

لكن مما يؤسف له أن المراجع التي بين أيدينا لم توضح لنا دور المرأة في المجتمع الحجازي في العصر الأيوبي، و يبدو أنها كانت قد فقدت الكثير من الحرية التي تمتعت بها في العصرين الأموي والعباسي ولم يكن لها أي شأن في الشؤون السياسية التي أصبحت قاصرة على الرجال.

العادات الاجتماعية: الزواج:

كان ولي أمر الفتى يتقدم بخطبة الفتاة التي يقع عليها الاختيار من أبيها أو ولي أمرها، و بعد

(١) لوبون: المرجع السابق ص ٣٥٠

(٢) حسن ابراهيم: تاريخ الإسلام جـ٢ ص ٤١٨ — ٤١٩

(٣) راجع الفصل الأول من الباب الأول

(٤) الطبري: اتحاف فضلاء الزمن جـ١ ص ٣٧

(٥) حسن ابراهيم: المرجع السابق والجزء ص ٤١٦ — ٤١٧

(٦) سيد أمير علي: مختصر تاريخ العرب ص ٣٨ — ٣٨١

الموافقة تجرى حفلات الزواج التي كانت في صدر الإسلام غاية في البساطة، يدل على ذلك زواج السيدة فاطمة الزهراء بنت الرسول (صلى الله عليه وسلم) من علي بن أبي طالب فقد كان صداقها خمسمائة درهم، وكان التجهيز بسيطا إذ كان سريرا مشروطا، ووسادة من ادم حشوها ليف وتورا من ادم وقربة ومنخلا ومنشفة وقدحا(١)

وتطورت حفلات الزواج بعد ذلك وأصبح يتكلف الملايين خصوصا زواج الخلفاء والسلاطين يدل على زواج قطر الندى بنت خمارويه من الخليفة المعتضد بالله(٢) وزواج بوران بنت الحسن بن سهل من الخليفة المأمون(٣) وزواج زبيدة من هارون الرشيد، وغير ذلك. كما كان ينفق على حفلات الزواج الأموال الطائلة حتى ليقال ان زواج قطر الندى أفقر الدولة الطولونية.

أما في الحجاز فقد بقيت حفلات الزواج بسيطة طوال العصر الإسلامي وبقي المهر معقولا حتى بين الأمراء وكان للزواج عندهم يومان يوم الملاك وهو يوم عقد النكاح، وفيه يجتمع أهل الفتاة في ساحة منزلهم ويقدم عليهم أهل الفتى. وإذا اجتمعوا خطبهم ولي أمر الفتى خطبة رقيقة طالبا يد فلانة لابنه فلان فيرد على ذلك ولي أمر الفتاة بالموافقة ثم تنحر الجزر وتمد الموائد وتقوم النساء بغناء الأهازيج الشعبية في مجالسهن، وتسمى تلك الوليمة بالنقيعة وما زالت تلك العادة متبعة حتى اليوم.

واليوم الثاني هو يوم البناء، وفيه يتبارون بالاحتفال فيلعب الفتيان بالرماح، ويتسابقون على صهوات جيادهم، ويبسطون الأنماط في الدار، ويشدونها على الجدران، وتجلس النساء على النمارق. وتجلس الفتاة وتلبس الحلي، ثم تسير في حشد من أترابها ويغنينها النساء مشيدات بمآثر ابناء قومها. وإذا انقضى ذلك الحفل اخذت النساء في الانصراف وودعن الفتاة بقولهن باليمن والبركة وعلى خير طائر(٤)، وما زالت هذه الاحتفالات تجرى في الحجاز على هذا النمط إلى يومنا هذا.

ومن العادات الاجتماعية بمكة الاحتفال بمطلع أول كل شهر هجري إذ كان الأمير بعد رؤية الهلال يبكر عند طلوع الشمس مع بنيه وقادته. والقراء يقرأون أمامه، كما يتقدمه رجاله المعروفون بالحرابة يسيرون أمامه وحواليه، ممسكين بحرابهم في أيديهم، وهو يبدي من الورع والسكينة والوقار حتى يصل إلى الحرم فيصلي ركعتين، ويطوف حول الكعبة، وكان المؤذن الزمزمي ومعه صبي من أبنائه كلما أنهى الأمير شوطا يكثران من الدعاء له ويهنئانه بحلول الشهر بكلام مسجوع ويختتمان ذلك بثلاثة أو أربعة أبيات من الشعر في مدحه ومدح أسلافه، وذكر سابقة النبوة، وهكذا حتى نهاية الطواف وبعد ذلك يتوجه الأمير إلى الملتزم فيصلي ركعتين، وكذلك يفعل خلف مقام ابراهيم

(١) حسن ابراهيم تاريخ الإسلام جـ١ ص ٥٤٨
(٢) تاج الدين ابوطالب علي بن انجب المعروف بابن الساعي — نساء الخلفاء ص ١٠٤
(٣) نفس المرجع ص ٦٧ وما بعدها
(٤) حسن ابراهيم: المرجع السابق والجزء والصفحة

عليه السلام ثم ينصرف عائدا إلى منازله، ولا يظهر في الحرم حتى حلول شهر آخر(١).

وخلال ذلك كانت توقد الشموع والمشاعل في الحرم وتوقد ثرياته، والمشاعل في صوامعه الأربع وعلى سطحه.

وكان المؤذن يقيم ليلة رؤية الهلال مكبرا ومهللا ومسبحا، وأكثر الأئمة يحيون تلك الليلة وأكثر الناس يصلون و يطوفون و يهللون و يكبرون(٢).

وكان هناك عادة حسنة عند الناس إذ كانوا يبادرون عند حلول كل شهر بمصافحة بعضهم و يهنيء كل واحد منهم الآخر بحلول الشهر متناسين أحقادهم وخلافاتهم(٣).

كما كان لبعض الأشهر الهجرية عند أهل الحجاز أهمية خاصة كشهر رجب الذي يعتبر موسما كبيرا وعيدا من أكبر أعياد مكة وتوارثوا ذلك عن أسلافهم. و يقال إنهم توارثوا ذلك عن الجاهلية إذ كانوا يسمونه منصل الأسنة(٤). وهو من الأشهر الحرم.

كما كان يتم فيه العمرة الرجبية التي كانت تعادل عند أهل مكة وقفة عرفة. وكان يفد إلى مكة أعداد كبيرة من المناطق المجاورة أو من البلاد الإسلامية. وكانوا يستعدون للاحتفال بتلك العمرة قبل حلول الشهر، وكان أهل مكة ومن يحضر إليها للعمرة يخرجون إلى التنعيم، وطبقات أهل مكة راكبين في الهوادج المشدودة على الإبل ــ المكسوة بأنواع الحرير أو الكتان الرقيق حسب ثراء صاحب الهودج ــ من مختلف أنحاء مكة وقد زينت الإبل بمختلف أنواع الزينة من قلائد الحرير وغيرها. وكانت أستار الهوادج تصل أحيانا إلى الأرض. من ذلك الهودج الذي شاهده ابن جبير للأميرة جمانة بنت فليتة عمة الأمير مكثر. إذ قال ان ذيول ستائر هودجها كانت تجر على الأرض، وكذلك كانت ستائر هوادج نساء الأمير والقادة «كانت تلوح على ظهور الإبل كالقباب المضروبة» فيخيل للناظر إليها أنها محلة قد ضربت أبنيتها من كل لون رائق»(٥).

وقد كانوا يلقون بحرابهم في الهواء و يلقفونها في الوقت الذي تكون فيه أسنتها مصوبة إلى رؤوسهم وسط زحام شديد من الناس، وربما ألقى بعضهم بسيفه في الهواء ولقفه من مقبضه كأنه لم يخرج من يده.

وخلال ذلك يسير الأمير يحف به قواده و يتقدمه ابناؤه والرايات تخفق أمامه والطبول والدبادب تضرب بين يديه، وهو يظهر من السكينة والوقار.

و بعد وصولهم الميقات وقضاء الغرض يقفلون عائدين والعساكر بين يدي الأمير يلعبون ويمرحون، كما كان يشترك الأعراب في ذلك الاحتفال إذ كانوا يركبون نجبا صهباء اللون ذات جمال بديع

(١) ابن جبير: الرحلة ص ٦٦ ــ ٦٧
(٢) نفس المرجع ص ١١٨ ــ ١١٩
(٣) نفس المرجع ص ٩١
(٤) نفس المرجع ص ٩٥
(٥) ابن جبير: الرحلة ص ٩٥ ــ ٩٦

يسابقون بها الخيل رافعين أصواتهم بالدعاء للأمير. و بعد وصول الركب إلى الحرم يطوف الأمير حول الكعبة بعد أن يصلي خلف الملتزم والمقام. ثم يسعى بين الصفا والمروة راكبا، يحف به قواده وجنده، و بعد الفراغ من السعي يتوجه الأمير إلى منزله في حين يبقى الناس يطوفون و يسعون(١).

و بعد انتهاء الاحتفال بأمر الأمير تضرب الطبول والدبادب والبوقات(٢) إلا أن العمرة كانت تتواصل طيلة شهر رجب، و بالذات في أوله ووسطه والسابع والعشرين منه.

أما عمرة الأكمة التي كانت تتم في السابع والعشرين منه فقد سميت بذلك لأن الناس كانوا يحرمون من أكمة عند مسجد عائشة بالقرب من مسجد علي بن أبي طالب. والأصل في هذه العمرة أن عبدالله بن الزبير عندما فرغ من بناء الكعبة خرج ومعه أهل مكة للعمرة فأحرموا من تلك الأكمة في اليوم السابع والعشرين من رجب، و بقيت تلك العمرة سُنة عند أهل مكة في ذلك اليوم(٣).

وكان الأمير رغم أنه شيعي حسني يصلي وراء الإمام الشافعي كما فعل الأمير مكثر سنة ٥٧٩ هـ/١١٨٤م(٤).

كما جرت العادة في شهر رجب أن تسير قافلة من مكة إلى المدينة لزيارة قبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) وقبري صاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

ومن العادات الاجتماعية في مكة أيضا تخصيص يوم التاسع والعشرين من رجب من كل عام لطواف النساء اللائي كن يتجهزن لذلك اليوم و يستعددن استعدادا عظيما بحيث لا تبقى امرأة في مكة دون خروج إلى الحرم، وكان الشيبيون يفتحون لهن الكعبة، فيتزاحمن عند بابها تزاحما شديدا، وكن يقعن على بعضهن من شدة الزحام، فترى بينهن الصائحة والمهللة والمكبرة ويمكن تشبيه ذلك اليوم بيوم سرو اليمن أو بيوم الأعاجم، والسبب في ذلك أنه لم تتح لهن الفرصة في غير ذلك اليوم للوصول إلى الكعبة أو الحجر الأسود(٥).

وجرت العادة أن تغسل الكعبة في اليوم التالي لما قد يكون قد أصابها من النجاسة بسبب دخول بعض الأطفال الصغار مع أمهاتهم، ولكن كانت هناك عادة سيئة ــ يقوم بها بعض الرجال والنساء على السواء ــ خلال عملية الغسيل إذ كانوا يقومون بغسل وجوههم وأيديهم بالماء المنساب الذي قصد به إزالة النجاسة، تبركا به، وربما احضروا معهم بعض الأواني ليجمعوا فيها الماء(٦) متناسين الغرض الذي من أجله تغسل الكعبة.

أما في حالة إصابة البلاد بالجدب والقحط فقد جرت العادة أن يؤدي أهل مكة أو المدينة صلاة الاستسقاء تجاه الكعبة بعد أن يحثهم قاضي مكة على ذلك، و يطلب منهم صيام ثلاثة أيام، وفي

(١) نفس المرجع ص ٩٦ ــ ٩٧
(٢) ابن جبير: الرحلة ص ٩٦
(٣) نفس المرجع ص ١٠٢
(٤) نفس المرجع ص ١٠١
(٥) نفس المرجع والصفحة
(٦) ابن جبير: الرحلة ص ١٠٣

اليوم الرابع كانوا يخرجون المصحف العثماني، فيجتمع الناس كاشفين رؤوسهم متضرعين إلى الله بالمصحف الكريم والمقام العظيم وكانوا يتابعون الصلاة ثلاثة أيام متوالية كما حدث سنة ٥٧٩ هـ/١١٨٤م(١)، ولا ينفصلون عن مقامهم ذلك إلا ورحمة الله قد تداركتهم(٢).

أما في المدينة فكان يتم الاستسقاء على يومين: اليوم الأول لأهل المدينة والثاني للمجاورين بها كما حدث سنة ٦٣٧هـ/١٢٤٠م حيث استسقى أهل المدينة فلم يسقوا، فقام المجاور الشيخ أبو العباس أحمد بن على القسطلاني الفقيه المالكي الملقب زاهد مصر بعمل طعام كثير للفقراء والمساكين واستسقى مع المجاورين فسقوا(٣).

ومن العادات التي كانت تحدث في مكة أيضا أنه في حالة سقوط المطر على الكعبة يقف الناس بعد أن يتجردوا من ثيابهم تحت الميزاب للاستحمام بالماء النازل منه وكانوا يتلقون ذلك الماء برؤوسهم وأفواههم وأيديهم وكانوا يتزاحمون عليه زحاماً شديداً وكل واحد يعمل على أن يسقط الماء على جسمه، وخلال ذلك يبكون و يكثرون من الدعاء إلى الله، والنساء يقفن خارج الحجر ينظرن وعيونهن تدمع متمنيات أن يقفن ذلك الموقف، وكان بعض الحجاج يبلون ثيابهم بذلك الماء و يذهبون اليهن يعصرونها في أيديهن فيتلقفنه شربا ويمسحن به وجوههن وأجسامهن(٤).

ومن البدع بمكة أنه كان يوجد عند باب بني شيبة مجموعة من الحجارة الكبيرة الطوال تشبه المصاطب صفت أمام الأبواب الثلاثة المنسوبة لبني شيبة يدعون أنها الأصنام التي كان يعبدها القرشيون ومن بينها هبل كتب على وجوهها «تطؤها الأقدام وتمتهنها بأنعلها العوام ولم تغن عن انفسها فضلا ولا عن عابديها شيئا، فسبحان المنفرد بالوحدانية لاإله سواه»(٥) وقد شاهدها ابن جبير عندما ذهب للحج، ولكن تلك الأصنام لا تمت لأصنام الجاهلية بأية صلة وإنما عملها البعض وشبهها بأحجار قريش لأن تلك الأصنام كان الرسول والمسلمون قد حطموها وأحرقوها يوم فتح مكة.

وجرت العادة عند الحجاج الذين يأتون مكة أن يتوجهوا إلى غار ثور الذي أوى إليه الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأبوبكر (رضي الله عنه) عند هجرتهما إلى يثرب لمشاهدته و يوجد بالغار شق يعتقد الناس أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) وصاحبه قد دخلا الغار منه، وكان الناس يحاولون الدخول من ذلك الشق اقتداء بهما، ولا يدخلون من الباب. وكان البعض لايستطيع الدخول منه بل يقاسون من ذلك شدة عظيمة عند محاولتهم الدخول وكان عوام الناس ينعتون من لم يستطع

(١) نفس المرجع ص ١٢٣ — ١٢٤
(٢) نفس المرجع ص ٧٢
(٣) اليافعي: مرآة الجنان جـ٤ ص ٩٤، الحنبلي: شذرات الذهب جـ٥ ص ١٧٩
(٤) ابن جبير: الرحلة ص ٨٥ — ٨٦
(٥) نفس المرجع ص ٨٠

الدخول بأنه ابن زنا لذلك فإن من يحدث له ذلك يقف موقفا مخجلا بالرغم مما يعانيه في سبيل ذلك من مشقة(١) . وليس لذلك الأمر أي أساس من الحقيقة وإنما يعود ذلك إلى جهل أولئك الناس .

الاستشفاء بتراب المدينة وثمرها :

من العادات الاجتماعية استشفاء الناس بتراب المدينة وثمرها لقول الرسول (صلى الله عليه وسلم) «غبار المدينة شفاء من الجذام وإن عجوة المدينة شفاء من السقم»(٢) كما كانوا يتبركون بتربة حمزة وهي تربة حمراء بالقرب من مسجده وحول مقابر الشهداء(٣) .

عادة فتح الكعبة للأعاجم :

كما كان هناك عادة تفتح فيها الكعبة لسرو اليمن أو للنساء كانت هناك عادة أن تفتح الكعبة أياما للأعاجم العراقيين والخراسانيين وغيرهم من الذين كانوا يأتون للحج مع أمير الركب العراقي .

وكانوا يتزاحمون أثناء ذلك زحاماً شديداً ، وصفهم ابن جبير كشاهد عيان بقوله «فظهر من تزاحمهم وتطارحهم على الباب الكريم و وصول بعضهم على بعض وسباحة بعضهم على رؤوس بعض كأنهم في غدير من الماء أمر لم ير أهول منه ، يؤدي إلى تهلف المهج وكسر الأعضاء وهم خلال ذلك لايبالون ولا يتوقفون ، بل يلقون بأنفسهم على ذلك البيت الكريم من فرط الطرب والارتياح ، القاء الفراش بنفسه على المصباح(٤) .

ولم يقتصر الأمر عند ذلك الحد بل كان يموت البعض من الزحام(٥) وليس ذلك فقط بل كانت تشترك نساؤهم معهم في ذلك «فيخرجن وقد نضجت جلودهن طبخا في ذلك المعترك الذي حمى بأنفاس الشوق وطيشه»(٦) .

وكان سدنة البيت يخشون منهم على أستار الكعبة لذا كانوا عندما يعلمون بقدومهم يقومون بتشميرها أكثر من مترين من جوانبها الأربعة كما يرفعون القبة الخشبية . و يضعون بدلها قبة حديد خوفا من تكسيرها «لو لم تكن حديدا لأكلوها أكلا»(٧) .

بدعة العروة الوثقى :

لقد كان في الحرم المكي جزعة(٨) يطلقون عليها اسم العروة الوثقى كان الناس يتبركون بها

---

(١) نفس المرجع ص ٨٣ـ ٨٥ ، ١٢٤ ـ ١٢٥

(٢) العباسي : عمدة الأخبار ص ٤٤٦ ـ ٤٤٨

(٣) ابن جبير : الرحلة ص ١٥٤

(٤) ابن جبير : الرحلة ص ١٤١ ، ولقد مات في الكعبة من الزحام سنة ٥٨١ هـ/١١٨٦م أربعة وثلاثون حاجا منهم «الفاسي : العقد الثمين جـ١ ص ١٨٩»

(٥) ابن جبير المرجع السابق ص ١٤١

(٦) نفس المرجع ص ١٤٢

(٧) نفس المرجع ص ١٢٨ ـ ١٢٩

(٨) الجزعة : الخرزة «محيط المحيط ص ٢٤٩»

ويحملون بعضهم على أكتاف البعض منهم حتى كان الرجال يحملون النساء على أعناقهم للمس تلك الجزعة، وكانت بعض النساء يقعن فتنكشف عوراتهن، و بقيت تلك الجزعة بالحرم حتى سنة ٧٠١ هـ/١٣٠٢م عندما جاور الصاحب زين الدين أحمد بن محمد المعروف بابن حنا المصري. ورأى ذلك المنظرفاستعظمه وأمر بقلعها فقلعت(١).

بدعة الجزعة بالحرم المدني:

كانت توجد في الحرم المدني جزعة في المحراب القبلي المواجه للمصلى ــ كان يحصل بسببها فتن كبيرة وتشويش على المصلين وعلى من يكون بالروضة النبوية من المجاورين وغيرهم لأنه كان يجتمع عندها الرجال والنساء لاعتقادهم أنها خرزة فاطمة الزهراء. وكانت مرتفعة لايستطيع الواقف لمسها ليتبرك بها، لذا يرقى الرجل على كتف صاحبه والمرأة على كتف صاحبتها أو على ظهرها للوصول إليها وربما وقعت المرأة وصاحبتها خلال ذلك فتنكشف عوراتهما مما يتنافى مع الإسلام وحرمته، لذا عندما جاور ابن حنا المصري سابق الذكر أمر بقلعها فقلعت(٢) كما سبق وقلعت العروة الوثقى.

بدعة الخشبة:

ومن البدع في الحرم المدني بدعة الخشبة الموجودة على يمين المصلى النبوي والملاصقة لجدار المسجد القبلي، و يعتقد العامة أنها الجذع الذي حن للنبي (صلى الله عليه وسلم) لذلك كان يتزاحم الناس عليها و يتبركون بها. و يرى السمهودي أن تلك الخشبة لا علاقة لها بالجذع الذي حن إليه (صلى الله عليه وسلم) بل هي من جملة البدع التي يجب إزالتها كيلا يفتتن بها الناس. و بقيت في ذلك المكان حتى أزالها الشيخ العزبن جماعة(٣).

تقاليد شهر رمضان:

كان يقع الاختلاف في العصر الأ يوبي بين أهل السنة والشيعة حول حلول شهر رمضان، فقد حدث سنة ٥٧٩ هـ/١١٨٤م عدم رؤية هلال رمضان ليلة الأحد، و بناء عليه اعتبر أئمة المذاهب السنية أن بداية رمضان هويوم الا ثنين، و يكون ذلك اليوم الأ ول من رمضان.

أما أهل مكة الشيعة فقرروا الصيام يوم الأحد بحجة أنهم يشكون في رؤية الهلال، وحسب مذهبهم يعتبر صيام يوم الشك فرضا(٤). وأقر الأمير مكثر الصيام، وأمر بالأذان بالصوم، وضربت دبادبه ليلة الأحد. وتم الاحتفال في المسجد الحرام بحلول شهر رمضان. وقد جددت الحصر وزيد عدد الشمع والمشاعل وما إلى ذلك. وتلألأ الحرم بالأنوار وتفرقت الأئمة عدة فرق لإقامة صلاة التراو يح وانضم أهل السنة إلى الشيعة لبدء الصيام يوم الأحد واتخذ الشافعيون والحنفيون والحنابلة، والزيديون أئمة لهم. أما المالكيون فاجتمعوا على ثلاثة قراء يتناو بون القراءة. وقد غص المسجد

---

(١) السمهودي: وفاء الوفا جـ١ ص ٣٧٣

(٢) نفس المرجع والجزء ص ٣٧٢ ــ ٣٧٣

(٣) نفس المرجع جـ٢ ص ٣٩٤ ــ ٣٩٥

(٤) ابن جبير: الرحلة ص ١٠٨

حتى لم يبق فيه مكان ولا زاو ية إلا وفيه قارىء يصلي وخلفه جماعة، حتى ارتج المسجد لكثرة أصوات القراء من نواحيه.

أما الغرباء فمنهم من اقتصر على الطواف والصلاة في الحجر ولم يحضر التراو يح «ورأى في ذلك أعظم ما يغتنم وأشرف عمل يلتزم. وما بكل مكان يوجد الركن الكريم والملتزم»(١).

وكان الإمام الشافعي يصلي بالناس عشرين ركعة تراو يح في عشر تسليمات و بين كل تسليمتين يطوف بأتباعه سبعة أشواط، أما بقية الأئمة فلم يزيدوا عن التراو يح شيئا(٢).

أما التسحير فكان يتولاه المؤذن الزمزمي إذ كان يقيم في الصومعة الموجودة في الركن الشرقي من المسجد لقربها من دار الأمير. فيقوم وقت السحور داعيا ومذكرا وحاثا للناس على الاستيقاظ لتناول الطعام. وكان يشاركه في عمله أخوان صغيران يجاو بانه و يردان عليه. ونصبت في أعلى الصومعة خشبة طو يلة في رأسها عود كالذراع، وفي طرفه بكرتان صغيرتان يرفع عليهما قنديلان كبيران من الزجاج لايزالان مشتعلين مدة التسحير، وإذا طلع الفجر أنزل المؤذن القنديلين من أعلى الخشبة وشرع في الأذان، و يبادر بقية المؤذنين في الأذان من كل ناحية. وكانت دور مكة مرتفعة ومن لم يسمع التسحير كان يصعد أعلى داره و يطالع القنديلين فإذا لم يرهما عرف أن الفجر طلع، فيمسك عن الطعام والشراب(٣).

الأعياد:

للمسلمين عيدان هما عيد الفطر، وعيد الأضحى وكان أهل الحجاز في العصر الأ يو بي يحتفلون بهما كبقية الشعوب الإسلامية.

ففي عيد الفطر كان الناس بعد صلاة الفجر يلبسون ثياب العيد و يتوجهون لصلاة العيد بالمسجد الحرام لأن السنة جرت بالصلاة فيه، ولم يتخذوا مصلى يخرجون إليه كبقية المدن الأخرى وذلك لشرف بقعة الحرم وفضل بركتها، وفضل صلاة الإمام خلف المقام، وكان الشيبيون أول من يذهبون إلى المسجد لفتح الكعبة وكان زعيمهم يقيم في القبة و بقية الشيبيين داخل الكعبة في انتظار وصول الأمير الذي ما ان يشعروا بقرب وصوله حتى ينزلوا لاستقباله بالقرب من باب النبي (صلى الله عليه وسلم).

و يتوجه الأمير بعد ذلك للطواف حول الكعبة سبعا في الوقت الذي يكون فيه الحرم قد عج بالناس الذين حضروا لأداء الصلاة والمؤذن الزمزمي في قبته رافعا صوته بالدعاء للأمير والثناء عليه متناو با ذلك مع صبي ــ قد يكون ابنه أو أخاه ــ و بعد فراغه من الطواف يتوجه إلى مصطبة قبة زمزم

(١) ابن جبير: الرحلة ص ١٠٨ ــ ١٠٩
(٢) نفس المرجع ص ١٠٩
(٣) نفس المرجع ص ١٠٩ ــ ١١٠

في مقابلة ركن الحجر الأسود فيجلس بها، وأولاده عن يمينه و يساره، ووزيره وأمراؤه، وحاشيته وقوفا على رأسه، وخلال ذلك يعود الشيبيون إلى مكانهم في البيت ويحضر بعض الشعراء و ينشدون أشعارهم في مدح الأمير الواحد تلو الآخر(١).

وعندما يحين موعد الصلاة يقبل القاضي الشافعي يتهادى بين رايتيه السوداو ين. وأمامه الفرقعة، فيتقدم إلى المقام الإبراهيمي، و يقف الناس و يؤذن المؤذن لصلاة العيد، و بعد الفراغ من الصلاة يصعد إلى المنبر ويخطب في الناس خطبة العيد(٢).

و بعد الفراغ من الخطبة يبادر الناس إلى مصافحة بعضهم، و يسلمون على بعضهم متناسين خلافتهم، فرحين بالعيد، ثم يتوجهون بعد ذلك إلى الحرم فوجا تلو الآخر، و بعد الفراغ من ذلك يذهبون إلى مقبرة المعلاة للزيارة والترحم على الموتى(٣).

وخلال أيام العيد كانت الشموع والقناديل والمصابيح توقد في الحرم وفي كافة أنحاء البلاد، وأصوات المسلمين تصدح بالتهليل والتكبير(٤).

أما في المدينة المنورة فلم تجر العادة بأن يصلي المسلمون العيد في المسجد النبوي كما جرت العادة في الحرم المكي وإنما كان لها مصلى في غر بيها تؤدى صلوات الأعياد فيه(٥)، وكما رأينا القاضي الشافعي يصلي بالناس العيد كان الذي يصلي بهم في المدينة القاضي الحسيني من آل سنان(٦) لأن أهل السنة لم يكن لهم نفوذ في المدينة في العصر الأ يوبي.

أما في عيد الأضحى فكان يتوافد المسلمون من كافة أرجاء العالم الإسلامي على مكة لأداء فريضة الحج، و يقوم القاضي بالخطبة بالناس في المسجد الحرام في السابع من ذي الحجة بعد صلاة الظهر يشرح لهم مناسك الحج ثم يأخذون في أداء شعائره من الوقوف بعرفة ورجم الجمرات والمبيت بمنى والتضحية وطواف الإفاضة(٧).

وقد كان من يتخلف من المسلمين في مدنهم وقراهم — في الحجاز وغيره — يحتفلون بالعيد احتفالا عظيما إذ بعد صلاة العيد يذبحون أضحياتهم و يفرقون ثلثيها على الأقارب والفقراء، و يقوم الناس بزيارة بعضهم البعض فيبدأ الأقارب ببعضهم وصلا للرحم ثم بالأصدقاء والجيران لتهنئتهم بالعيد، والأطفال يمرحون و يلعبون ابتهاجا بالعيد، وتتلألأ المدن والقرى بالأنوار.

وكان يزيد الأعياد بهجة إرسال بعض أسرى الصليبيين الذين يتجرأون على الإسلام لينحروا في

(١) ابن جبير: الرحلة ص ١١٩
(٢) ابن جبير: الرحلة ص ١١٩ — ١٢٠
(٣) نفس المرجع والصفحة
(٤) حسن ابراهيم: تاريخ الإسلام جـ٢ ص ٤٢١
(٥) الاصطخري: الأقاليم ص ١٠
(٦) ابن جبير: المرجع السابق ص ١٦٠ — ١٦١، العباسي: عمدة الطالب ص ١٣١
(٧) حسن ابراهيم: المرجع السابق والجزء والصفحة

منى أو يقتلوا في المدينة(١) .

تقاليد الاحتفال بالإجازات وبختم القرآن:

الإجازات التي كان يحصل عليها الطلاب بعد دراستهم كانت عبارة عن شهادة من قبل المعلم أو الفقيه بأن ذلك الطالب قد درس عليه كتاب كذا أو جزءاً من كتاب , أو أنه سمع منه ذلك الكتاب أو جزءا منه ، وهذا يعني أنه أصبح ملما بذلك الموضوع وكان الطالب يستطيع أن يتلقى علومه على أكثر من معلم في وقت واحد أو في أوقات مختلفة ، كما كان الطالب يتنقل من قطر إلى آخر أو من مدينة إلى أخرى ليتلقى علومه على الأساتذة والفقهاء المشهورين بتلك الأقطار أو تلك المدن و بعد أن يلم بمجموعة من العلوم أو المعارف سواء في الفقه أو الحديث أو النحو أو غيرها يصبح أحيانا معيدا أو يصبح معلما أو فقيها و بناء على ذلك يتولى المناصب المختلفة كالقضاء والخطابة والكتابة والوعظ والإفتاء ... الخ .

و بالنسبة للحجاز فقد كان الحرم المكي والحرم المدني أعظم مدرستين في الحجاز في العصر الأ يوبي وإن كان الحرم المكي أكثر إلماما بالعلماء والطلبة بسبب حرية المذهب وذلك بخلاف الحرم المدني الذي كان قاصرا على الشيعة الحسينيين ، وكان أهل السنة في ظلم شديد وقد وصف ابن جبير حلقات العلم في الحرم المكي بقوله «والحرم محدق بحلقات المدرسين وأهل العلم»(٢) .

كما جرت العادة في مكة أن يختم بعض صبيانها أو فقهائها القرآن في العشر الآواخر من رمضان وكان يجري في الحرم بتلك المناسبة احتفالات كبرى ، وكانت الختمة الأ ولى تتم في اليوم الحادي والعشرين من الشهر.

و وصف لنا ابن جبير تلك الحفلات إذ قال : إن المختتم الأ ول كان أحد أبناء مكة الأ ثرياء لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره وقد أعد أبوه لتلك المناسبة بعض الزينات منها ثريا مصنوعة من الشمع ضمت أنواع الفواكه اليابسة والطرية وأنار الحرم كله بالشموع والمصابيح والمشاعل ، وعندما حضر الإمام الطفل صلى التراو يح وختم القرآن في وقت غص فيه المسجد بالحاضرين من أبناء الشعب والأعيان الرجال منهم والنساء وهو في محرابه لايكاد يراه أحد من شدة الأنوار.

وقد وصف ابن جبير ذلك الطفل بقوله : «ثم برز من محرابه رافلا في أفخر ثيابه بهيبة إمامية وسكينة غلامية ، مكحل العينين مخضوب الكفين إلى الزندين ، فلم يستطع الخلوص إلى منبره من كثرة الزحام فأخذ أحد سدنة تلك الناحية ذراعه حتى ألقاه على ذروة منبره ، فاستوى مبتسما ، وأشار على الحاضرين مسلما وقعد بين يديه قراء ، فابتدروا القراءة على لسان واحد ، فلما اكملوا عشرا من القرآن ، قام الخطيب فصدع بخطبة تحرك لها أكثر النفوس من جهة الترجيع لا من جهة التذكير والتخشيع و بين يديه في درجات المنبر نفر يمسكون أنوار الشمع في أيديهم ، و يرفعون أصواتهم

(١) راجع الفصل الأ ول من الباب الأ ول (٢) الرحلة ص ٦٠

بـ« يارب يارب » عند كل فصل من فصول الخطبة يكررون ذلك ، والقراء يبتدرون القراءة في أثناء ذلك فيسكت الخطيب إلى أن يفرغوا ثم يعود لخطبته ، وتمادى فيها متصرفا في فنون التذكير ثم اختتم بتوديع الشهر المبارك وترديد السلام عليه ، ثم دعا للخليفة ولكل من جرت العادة بالدعاء له من الأمراء ، ثم نزل وانفض ذلك الجمع العظيم ، وقد استطرف ذلك الخطيب واستنبل »(١) .

و بعد انتهاء الاحتفال خص والد الطفل القاضي والفقهاء وغيرهم بالطعام والحلوى(٢) أما في الخامس والعشرين من نفس الشهر فكان المحتفل ابن الامام الحنفي الذي كان في عمر الطفل الأول تقريبا وقد أعد أبوه لذلك عدته من الشموع وغيرها . وختم ، وارتقى المنبر وابتدأ خطبته بسكينة مع الحياء وكانت أخشع من سابقتها والموعظة أبلغ والتذكرة أنفع ، وكان القراء بين يديه كالعادة و بعد انتهاء الاحتفال سار لمنزله لتقديم الطعام والحلوى للقاضي والفقهاء والأعيان كالعادة(٣) .

أما في السابع والعشرين منه فكان المختتم الإمام الشافعي حيث ازدان الحرم بالشموع والمصابيح والقناديل وأحاط بشرفات الحرم الصبيان بأيديهم خرق مشبعة سليطا أوقدوها و وضعوها في رؤوس الشرفات وقد اكتظ المسجد بالحاضرين ، وتقدم القاضي وصلى بالناس صلاة العشاء وختم وخطب الناس خطبة بليغة و وصف ابن جبير حالة الناس بقوله ونفوسهم قد استطارت خشوعا وأعينهم قد سالت دموعا والأنفس شعرت بفضل تلك الليلة المباركة(٤) .

وفي ليلة التاسع والعشرين منه كان المختتم كافة أئمة التراويح . ملتزمين الخطبة بعد الاختتام وكان المشار إليه منهم الإمام المالكي الذي لم يعد بذلك الاحتفال سوى بعض الشموع والمصابيح ، وتقدم أحد الأئمة المالكيين وأعاد خطبة ابن الامام الحنفي فجاء أكثر تخشيعا وتذكيرا و بتلك الخطبة انتهت احتفالات ذلك الشهر(٥) .

الملابس :

كان أهل الحجاز في العصر الأيوبي كما في غيره من العصور يلبسون ثيابا بيضاء تصنع في الغالب من الكتان أو القطن في فصل الصيف ، أما في فصل الشتاء فكانوا يلبسون الثياب الصوفية التي كانت تحيكها النساء في المنازل . وقد كانت فئات الشعب المختلفة تلبس تلك الثياب البيضاء(٦) .

وكان اتخاذهم للملابس البيضاء لقول الرسول (صلى الله عليه وسلم) : «خلق الله الجنة بيضاء وخير ثيابكم البيض تلبسونها في حياتكم وتكفنون بها موتاكم » وقد روى ابن جبير أن الأمير مكثرا

---

(١) ابن جبير الرحلة ص ١١٣ — ١١٤
(٢) ابن جبير ص ١١٤
(٣) نفس المرجع ص ١١٤ — ١١٥
(٤) نفس المرجع ص ١١٥ — ١١٧
(٥) نفس المرجع ص ١١٧ — ١١٨
(٦) ابن جبير: الرحلة ص ٦٦ ، ابن بطوطة : الرحلة ص ٩١

خرج في بداية شهر جمادى الأولى من سنة ٥٧٩ هـ/١١٨٤ م للطواف كالعادة عند بداية شهر هجري لابسا ثوبا أبيض متقلدا سيفه متعمما بكرزية صوف بيضاء رقيقة(١). كما كان أمراء مكة يلبسون الخلع التي يهديها إليهم السلاطين والخلفاء كالخلعة التي أهداها سيف الإسلام طغتكين بن أيوب إلى الأمير مكثر سنة ٥٧٩ هـ/١١٨٤ م والتي كانت عبارة عن حلة ذهب كانت تجر على الأرض فيسحب أذيالها، وعمامة شرب رقيق سحابية اللون كانت ملفوفة كالكرة على رأسه «كأنها سحابة مركومة» وكانت مصفحة بالذهب وتحت الحلة خلعتان من الدبيقي المرسوم البديع الصنعة(٢).

وكان العرب يكرهون لبس الملابس الملونة بل كانوا يعيبون على لابسيها لأنهم يعتبرون لابسيها يتشبهون بالنساء والإماء وكان أقصى مايجيزونه للرجل لبسه داخل بيته أو في حلقات الشراب.

و يقول آدم متز: «في الشوارع فلم يكن اتخاذها يعتبر من شأن الظرفاء وكان يحسن بسروات الناس لبس الثياب البيض»(٣) كما لايجوز لأهل الظرف والأدب لبس الثياب الدنسة مع الثياب المغسولة «ولا المغسولة مع الجديدة، و يرى أن أحسن الثياب ما تشاكل وانطبق وتقارب واتفق»(٤).

و يضيف إلى ذلك أن البياض لبس الرجال وإن كانت تلبسه النساء المهجورات، أما غيرهن فيجتنبنه و يعملن منه سراو يل، ولا يلبس الرجال الملون إلا إذا كان لونه طبيعيا لأن الألوان غير الطبيعية من لبس النساء النبطيات والإماء والمقتنيات(٥). كما قسم طوائف العمال الثلاث الكبرى وميزها بلباسها، فقال إن الكتاب يلبسون الدراريع وهي ثياب مشقوقة من الصدر، وكان العلماء يلبسون الطيلسان(٦) وكان القواد يلبسون الأقبية الفارسية القصيرة(٧).

أما القضاة في الحجاز فكانوا يلبسون ثيابا سوداء وعمامة سوداء من طيلسان أسود(٨) وذلك تشبها بالعباسيين الذين كان شعارهم السواد والحجاز كانت تابعة لهم من الناحية الاسمية.

وكان القضاة والعلماء يلبسون العمائم من الشاشات الكبيرة، ثم منهم من يرسل بين كتفيه ذؤابة تلحق قربوس سرجه إذا ركب ومنهم من يجعل عوض الذؤابة طيلسان، و يلبس فوق ثيابه دلقا

---

(١) ابن جبير: المرجع السابق والصفحة، والكرزية: غطاء للرأس: نفس المرجع والصفحة. هامش ٢

(٢) نفس المرجع ص ١١٢، والدبيقي نوع من الثياب ينسب إلى دبيق بمصر: ابن اياس جـ١ ص ٣١، د. حلمي سالم: اقتصاد مصر الداخلي ص ٩٦

(٣) الحضارة الإسلامية جـ٢ ص ٢٢١ — ٢٢٢

(٤) نفس المرجع ص ٢٢٢

(٥) نفس المرجع والجزء والصفحة

(٦) الطيلسان: أشبه بالطرحة تغطي العمامة والرأس وكان البعض يبالغ في طوله إلى حد كبير «حلمي سالم: اقتصاد مصر الداخلي ١٢٤ — ١٢٥»

(٧) نفس المرجع ص ٢٢٣

(٨) ابن جبير: الرحلة ص ١٢، ابن بطوطة الرحلة ص ٩٩ أي انه لم يتغير في العصر المملوكي

متسع الأكمام طويلها مفتوحا فوق كتفيه بغير تفريج سابلا على قدميه(١).

وكان يتميز كل من قاضي القضاة الشافعي والحنفي بلبس طرحة تستر عمامته وتنسدل على ظهره، وكانت قبل ذلك قاصرة على الشافعي. أما من دون هؤلاء من القضاة فتكون عمامته أصغر و يلبس بدل الدلق فرجية مفرجة من دون هؤلاء من القضاة فتكون عمامته أصغر و يلبس بدل الدلق فرجية مفرجة من قدامه من أعلاها إلى أسفلها مزررة بالأزرار، وليس منهم من يلبس الحرير(٢).

أما في الشتاء فكان ملبوس القضاة والعلماء الفوقاني(٣) الصوف الأبيض الملطي ولا يلبسون الملون إلا في بيوتهم، وربما بعضهم من الصوف في الطرقات و يلبسون الخفاف من الأديم الطائفي(٤).

أما طائفة الصوفية فكانوا يضاهون العلماء في لبس الدلق إلا أنه لايكون سابلا ولا طويل الكم و يرخون ذؤابة لطيفة على الأذن اليسرى لا تكاد تصل إلى الكتف(٥).

و بالنسبة للأغنياء فكانوا يلبسون قميصين ورداء فوق السراويلات كما كانوا يلبسون النعال النظيفة، وعمامة، أما الجوارب فكان يلبسها الرجال والنساء على السواء، وكانت تصنع من الابرسيم أو من الحرير أو الصوف أو الجلد، وكانت تسمى عندهم موزاج(٦) و يقول الدكتور حسن ابراهيم حسن ان العامة كانوا يلبسون النعال أو الأحذية في حين كان الأعيان يلبسون كليهما في وقت واحد إلا أنهم كانوا يخلعون الحذاء الخارجي المسمى الجرموق عند دخولهم المساجد أو القصور(٧).

و يقول سيد أمير على إن الأعراب كانوا يلبسون على رؤوسهم الكوفية المخططة باللونين الأحمر والأصفر والعقال(٨).

أما الأعراب فكانوا يلبسون ثيابا بيضاء، و يلبسون الكوفية والعقال على الرأس، كما يلبسون الخرق والعباءات والشمل(٩).

(١) القلقشندي: صبح الأعشى جـ٤ ص ٤١ — والقربوس هو حنو السرج البستاني محيط المحيط جـ٢ ص ٦٨٤، والدلق دويبة كالسمور معرب دلة بالفارسية، والدلق درب من الثياب معربة «البستاني: محيط المحيط جـ١ ص ٨٤»

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى جـ٤ ص ٤١

(٣) الثياب القوقانية: هي الثياب الخارجية العلوية التي تلبس فوق الثياب الداخلية «حلمي سالم: اقتصاد مصر الداخلي ص ١١٠ هامش ٣»

(٤) القلقشندي: الجزء السابق ص ٤٢

(٥) نفس المرجع والجزء ص ٤٣

(٦) حسن ابراهيم حسن: تاريخ الإسلام جـ٢ ص ٤١٥

(٧) نفس المرجع والجزء والصفحة

(٨) مختصر تاريخ العرب ص ١٩١

(٩) ابن جبير: الرحلة ص ٩٨

أما لباس المرأة فيتكون من ملاءة فضفاضة وقميص مشقوق عند الرقبة وعليه رداء قصير ضيق يلبس عادة في البرد، وإذا خرجت المرأة العربية من بيتها فكانت ترتدي ملاءة طويلة تغطي جسمها، وتقي ملابسها من التراب، وتلف رأسها بمنديل يلف فوق الرقبة(١) وما زال هذا اللباس مستخدما في الحجاز إلى اليوم.

وكانت نساء الطبقة الراقية والثرية يغطين رؤوسهن بالبرنس المحلى بالذهب والجواهر، كما كانت نساء تلك الطبقة يعلقن الحجاب بزنار البرنس للزينة أما نساء الطبقة المتوسطة فكن يزين رؤوسهن بحلي مسطح من الذهب وبعصابة كثيرا ما كانت محلاة باللؤلؤ والزمرد، كما يلبسن الخلاخل في أرجلهن والأساور في معاصمهن وزنودهن، كما عرفن أدوات الزينة والتجميل، ويبدو أنهن أخذنه عن النساء الفارسيات(٢) وفي ذلك يقول الدكتور حسن ابراهيم وكان طابع الحسن الصناعي مما يتحلى به الأعرابيات(٣).

الطعام:

غلب الفقر على سكان الحجاز في العصر الأيوبي حتى ان كثيرا من سكانه الاشراف الذين كان منهم الطبقة الحاكمة كانوا يعانون من الفقر، إذ كان الأشراف الحسنيون والحسينيون والجعفريون وغيرهم منتشرين في أرجاء الحجاز ويعتمدون في عيشهم على الرعي أو كرى الجمال أو بيع الماء واللبن أو الحطب أو بعض الثمار، أو بعض الحرف الأخرى، لذلك لا تعجب إذا عرفنا أنهم كانوا يتناولون وجبة واحدة في اليوم لا تشتمل على الكثير من أصناف الطعام. إذ كان طعام الاعرابي في النهار بعض التمر وقليل من الذرة أو الشعير أو البر(٤) ويصف سيد أمير علي طعام العرب بقوله: إنهم يبدأون نهارهم بتناول طعام مؤلف من الحليب الممزوج بالعسل أو من الحليب والسكر حتى إذا ما أشرقت الشمس تناولوا الظهيرة، في الوقت الذي يقدم فيه الغذاء في غرفة الاستقبال أما العشاء فكانوا يتناولونه بعد صلاة المغرب على مائدة تغطى بالقماش الأبيض فتقدم أولا كؤوس الحليب الممزوج بالعسل وغيره من أنواع الشراب ثم صحاف الشواء(٥) ويبدو أن هذا الوصف كان خاصا بالأثرياء في المدن العربية.

ومن أنواع الطعام التي اشتهر بها الحجاز الهريسة والحريرة والثريد والضيافة والأندية والفالوذج(٦) كما كانوا يصنعون طعاما من التمر والأقط يسمونه حيس(٧) كما كانوا يأخذون

---

(١) حسن ابراهيم: تاريخ الإسلام جـ٢ ص ٤١٥

(٢) أمير علي: مختصر تاريخ العرب ص ٣٨٠

(٣) المرجع السابق والجزء والصفحة

(٤) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص ٣٤٥

(٥) مختصر تاريخ العرب ص ١٩١، والظهيرة: هي طعام الإفطار

(٦) الهمداني: مختصر البلدان ص ١٦، والفالوذج: يشبه البالوظة المستخدمة اليوم

(٧) ياقوت: معجم البلدان جـ٢ ص ٣٣٢، والاقط: الجبنة المتخذ من اللبن الحامض «محيط المحيط ص ٣١»

السمن من اللبن وكان غاية في الجودة ووصفه ابن جبير بقوله «فإنه لا تكاد تميزه من العسل طيبة ولذاذة»(١).

كما كان لديهم العسل الجيد المعروف بالمسعودي الذي قال عنه ابن جبير «إنه أطيب من الماذي المضروب به المثل»(٢).

أما الحلوى: فكان يصنع منها أنواع متعددة من العسل والسكر المعقود بأشكال مختلفة كانوا يضيفون إليها أنواع الفواكه الرطبة منها واليابسة(٣) وكان يقام منها أسمطة أي ولائم في رجب وشعبان ورمضان بين الصفا والمروة وقال عنها ابن جبير إنه «لم يشاهد أحدا أكمل منها لا بمصر ولا بسواها قد صورت فيها تصاوير إنسانية وفاكهية، وجليت في منصات كأنها العرائس، ونضدت بسائر أنواعها المنضدة الملونة فتلوح كأنها الأزاهر حسنا، فتقيد الأبصار وتستنزل الدرهم والدينار»(٤).

ومن الأمور العجيبة أن نساء مكة كن يخرجن إلى الهده بأعلى مر الظهران التي كانت مدرة أهل مكة ــ يجلبن منها المدر، وهوطين أبيض ليأكلنه. وكان يدق أحيانا و يضاف إليه الأذخر فيغسل به أهل مكة أيديهم (٥).

وجرت عادة أهل مكة اختتام القرآن في أواخر شهر رمضان وكان المختتم أو والده إن كان صبيا يعد طعاما وحلوى، يدعو إليها القاضي والأعيان ممن يحضرون الحفل في منزله أو يرسل الطعام إلى منازلهم(٦).

وكانت العادة أن يوضع الطعام مرة واحدة ليأكل الإنسان ما يشتهي منه(٧) هذا وكانت عادة العربي أن يغسل يديه قبل الأكل و بعده(٨) ومن الآداب المرعية عند العرب أن يخدم المضيف أضيافه وأن يظهر لهم السرور والبشاشة. وعلى الضيف أن يأكل من طعام مضيفه وألا يعتذر بالشبع، وألا يفرط في الطعام(٩).



(١) ابن جبير: الرحلة ص ٨٧
(٢) نفس المرجع والصفحة
(٣) نفس المرجع ص ٨٨
(٤) ابن جبير: الرحلة ص ٨٨
(٥) ياقوت: معجم البلدان جـ٥ ص ٣٩٦
(٦) ابن جبير: المرجع السابق ص ١١٤ ــ ١١٥
(٧) ادم متز: الحضارة الإسلامية جـ٢ ص ٢٣١
(٨) الأبشيهي: المستطرف في كل فن مستطرف جـ٣ ص ١٧٦
(٩) نفس المرجع والجزء ص ١٧٦ ــ ١٧٧

الفصل الثاني
الحياة الاجتماعية في اليمن
في العصر الأيوبي

التركيب الاجتماعي لسكان اليمن :

اختلف التركيب الاجتماعي لسكان اليمن في العصر الأ يوبي عنه في الحجاز إذ كان على النحو التالي :

١ ــ السلطان وحاشيته :

وكانوا من الأ يوبيين الذين كان لهم السيطرة على معظم نواحي اليمن ، وكانوا يمثلون الطبقة الحاكمة الذين كان يقع على عاتقهم إدارة شؤون البلاد ، وتصريف أمورها .

٢ ــ القضاة والفقهاء :

وكانوا يتمتعون بمركز كبير في اليمن في العصر الأ يوبي .

٣ ــ الأشراف :

وكانوا من الزيديين تابعين إلى إمام منهم ، يصرف شؤونهم ومستقل ببعض نواحي اليمن عن السلطة الأ يوبية ، وكانوا في صراع مستمر مع الأ يوبيين دام طوال فترة حكمهم لليمن و بعدها .

٤ ــ ولاة البلاد و ينقسمون إلى قسمين :

القسم الأ ول : تابع للأ يوبيين ، و يعينهم سلاطينهم .

القسم الثاني : تابع للأشراف و يعينهم الإمام لإدارة البلاد التابعة له .

٥ ــ الجند :

وكانوا ينقسمون إلى فئتين :

الفئة الأ ولى : أتباع السلطان الأ يوبي وقادته وكانوا في الغالب من الغز الأ يوبيين .

الفئة الثانية : أتباع الإمام وكانوا من الأشراف أو من عرب اليمن .

٦ ــ الشعب :

وكان ينقسم إلى فئات وطوائف حسب مذاهبهم وأديانهم أو حسب غناهم وفقرهم .

فمنهم السنيون الذين كانوا في الغالب شافعيين ، ومنهم الشيعة الزيديون وقليل من الإسماعيلية من بني حاتم . كما وجد في اليمن بعض أهل الذمة من اليهود(١) وكانوا فئة قليلة لم يكن لها أي تأثير في الحياة الاجتماعية في اليمن .

(١) راجع الفصل الثاني من الباب الثالث

أما الطبقات الشعبية فكانت تنقسم إلى:

طبقة الأغنياء: وكانت تتمثل في التجار، وبعض كبار ملاك الأراضي.

أما بقية طبقات المجتمع فكانت من الفلاحين الفقراء والصناع، وكان الحكام الأيوبيون قد انهكوهم بالضرائب، وكما خربت بلادهم كثرة الحروب.

كما وجد باليمن الرعاة الذين كانوا يقومون برعي الأغنام والماشية، وكانوا يعيشون عيشة التنقل والترحال بحثاً عن الماء والكلأ وكانوا من الأعراب الذين يعيشون عيشة بدائية.

٧ـ العبيد:

وكانوا يشترون من أسواق النخاسة ويستخدمون في المنازل أوفي خدمة أسيادهم في تجاراتهم أو صناعاتهم أوفي الزراعة.

أما الجواري اللائي كن يجلبن من مختلف الأنحاء ويبعن في أسواق اليمن يحضرهن التجار ويبخرونهن ويعطرونهن ويزينونهن، بعد ذلك كان يأخذ المنادى بيد الجارية وينادي عليها في السوق، فيحضر المشترون الذين يقومون بتقليبها من رأسها إلى أخمص قدميها حتى عورتها وبعد الاتفاق على الشراء تبقى عند المشترى عشرة أيام، فإذا اكتشف بها عيباً خلال تلك المدة رفع دعوى عند القاضي بذلك ضد البائع طالبا إعادتها إلى صاحبها(١).

المرأة:

لقد فقدت المرأة العربية في العصر الأيوبي الكثير من الحرية التي كانت تتمتع بها في العصر الأموي والعباسي. وكانت المرأة في اليمن مع ذلك تتمتع بحرية كبيرة قبيل الحكم الأيوبي حتى لقد وصلت إلى الحكم فقد اعتلت عرش السلطنة بها الملكة الحرة أروى بنت أحمد الصليحية(٢).

وقد وصف لنا الواسعي اليمني المرأة اليمنية، وهذا الوصف لايكاد يختلف كثيراً عما كان عليه في العصر الأيوبي أو العصور التالية له. فقال: إنها محتجبة، ولوداخل بيتها على من لايجوز له شرعا النظر إليها وحتى أقارب زوجها من الرجال فيما عدا والد الزوج فالنظر بينهما حلال(٣).

ومع ذلك فقد وجدت بعض مناطق في اليمن انعدمت الأخلاق في نسائها مما أدى إلى انتشار الزنا بينهم، من ذلك ما كان يحدث في قريتي دلان وذموران القريبتين من ذمار، وكانتا مشهورتين بجمال نسائهن وانتشار الزنا بينهن حتى كان يقصدهما الرجال من المناطق البعيدة لذلك الغرض(٤).

---

(١) بامخرمة: تاريخ ثغر عدن جـ١ ص ٦٦ـ٦٧

(٢) راجع الفصل الثاني من الباب الأول

(٣) تاريخ اليمن ص ٣٠٢

(٤) ياقوت الحموي: معجم البلدان جـ٢ ص ٢٤٤

كما كان الحال في مرباط أكثر انحلالاً إذ وجدت عندهم عادة السمر التي قال عنها ياقوت الحموي واصفاً أهلها «فيهم صلاح مع شراسة في خلقهم وزعارة وتعصب وفيهم قلة غيرة كأنهم اكتسبوها بالعادة لأن نساءهم كن يخرجن كل ليلة و يسامرن الرجال الذين لاحرفة بينهم، و يلاعبنهم، ويجالسنهم حتى ينقضي أغلب الليل، فيدخل الرجل على زوجته وعلى أمه وأخته وعمته، وهي تلاعب رجلا آخر وتحادثه، فيعرض عنها، و يذهب إلى امرأة غيره فيجالسها كما فُعل بزوجته»(١) وقد اجتمع ياقوت مع رجل عاقل أديب من أهل مرباط في كيسن وأنكر عليه تلك العادة السيئة التي حرمها الله فرد عليه «الذي بلغك من ذلك صحيح و بالله أقسم انه لقبيح ـــ ولكن عليه نشأنا وله مذ خلقنا ألفنا ولو استطعنا أن نزيله لأزلناه، ولو قدرنا لغيرناه، ولكن لاسبيل إلى ذلك مع مر السنين عليه واستمرار العادة به»(٢).

العادات الاجتماعية: الزواج:

كان الرجل يدفع المهر وقد يؤجل نصفه كما كان يجهز العروس بما تحتاجه، وعليه أن يقيم وليمة تسمى عند أهل اليمن «حق النار» وكان المهر حسب الزوجة ونسبها وشرفها ـــ أي حسب وضعها الطبقي ـــ وحسب جمالها كما كان على الزوج أن يدفع للزوجة حق الافتضاض ليلة دخوله بها. و يسمى ذلك في اليمن «حق الصباح» وهو حسب مقدرة الزوج.

وفي اليـــوم الثالـــث للزواج على الزوج أن يدفع لأم زوجته قدراً من المال أو بعض الملابس الحريرية وغيرها حسب مقدرة الزوج ومروءته و يسمى عندهم «حق الثالث» لأن المهر كان خاصاً بالزوجة تشتري به حليا، كما كان على الزوج إحضار لوازم البيت، وملابس الزوجة، وإذا طلقت المرأة فلا تأخذ من ذلك شيئا كما يأخذ الزوج ملابسها الجديدة(٣).

أما عادات تجهيز العروس، فكانت تقام الولائم والعزائم ثلاثة أيام، اليوم الأول يسمى يوم الحمام، إذ كان أهل الزوجة يعزمون أقارب الزوج من النساء للذهاب مع العروس إلى الحمام، و يبقين معها ذلك اليوم للأكل والشرب واليوم الثاني يوم النقش حيث تحضر قريبات الزوج عند العروس، وتنقش يدي العروس ورجليها بنقش أسود يسمى الخطط كان يبقى أياما لايزول بالغسل وكان ينقش مع العروس أخص نساء أقارب الزوج وأقارب الزوجة، و بعد الظهر تحضر النساء إلى بيت العروس و يبقين إلى المغرب، وكانت تحضر النشادة التي تنشد الأشعار في مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) ومدح الزوج وأهله وأهلها وتهنئتهم بذلك الزواج المبارك، واليوم الثالث هو يوم الحفلة، و يسمى يوم الدخلة، وكان العريس والعروس يدعوان إليها من يشاءان من الأقارب والأصدقاء. وكان العريس يحضر إلى بيت العروس مع أحد أقاربه أو أصدقائه للعشاء و يرجع إلى بيته(٤).

(١) نفس المرجع جـ٥ ص ٩٧
(٢) نفس المرجع والجزء والصفحة
(٣) الواسعي: تاريخ اليمن ص ٣٠٤ ـــ ٣٠٥
(٤) الواسعي: تاريخ اليمن ص ٣٠٥ ـــ ٣٠٦

وفي صباح ليلة الدخلة يقيم الزوج وليمة في بيته يشترط فيها أن يحضرها من أهل الزوجة ضعف من حضر مع الزوج عند أهل الزوجة، وعلى الزوج أن يذهب صباح اليوم الثالث للزواج للسلام على أم زوجته ــ التي تسمى في اليمن عمة ــ وعلى أبيها ــ الذي يسمى عماً.

وفي اليوم السابع للزواج يدعو الزوج أهل زوجته إلى بيته فيحضرون من الصباح الباكر حيث لايكون لهم أي عمل سوى الأكل والشرب حتى المساء وبعد ظهر ذلك اليوم تحضر النساء من الجيران وغيرهم و يبقين مع العروس إلى المغرب(١).

وفي اليوم العشرين يدعو أهل الزوجة أهل الزوج وأقاربه وأصدقاءه بحيث يكونون ضعف من حضر في بيت الزوج في اليوم السابع وذلك من المدة أن تخرج من بيت زوجها ولو إلى بيت أهلها(٢).

عادة النساء في الولادة:

كانت المرأة في اليمن إذا وضعت مولوداً فالويل كل الويل للزوج خصوصا إذا كان فقيراً، إذ كان عليه بعد الوضع مباشرة أن يجد مكانا فسيحا يفرشه بأحسن الفراش و يزينه بأن يضع على الجدران قماشا مزركشا أما الأطراف فتزركش بأشكال تخالف الوسط وعلى دائرة شريط، وهذا القماش مبطن بقماش، مخالف للوجه يسمى في اليمن «السيدار» ويملأ الجدار والسقف بالزينة من الزجاج أو البللور أو الصيني ــ سواء كان المولود ذكراً أو أنثى حياً أو ميتا ــ والعادة أن تحضر النساء إلى بيتها من اليوم السابع للوضع حتى اليوم الأربعين، من الظهر إلى المغرب، وطيلة فترة وجودهن عندما تقدم إليهن القهوة حتى كانت الواحدة منهن تشرب في المتوسط ثلاثين فنجانا وكانت تصنع تلك القهوة من قشر البن المشهور باليمن ويخلطنه أحيانا بالزنجبيل أو الهيل والسكر.

كما كانت تحضر النشّادة في معظم الأيام ذلك المجلس تنشد المدائح النبوية وتقول المواعظ في ذم الدنيا الشاغلة عن عمل الآخرة(٣) ــ وكانت النشادة تحضر في مجالس الأفراح أو الأحزان.

وكانت صاحبة البيت تحضر ماء الورد ليصب على الجالسات كما كان المجلس يبخر بالعود الطيب. كما كانت المرأة خلال الأربعين يوما للوضع تأكل في الإفطار البر المفتوت بالسمن والعسل الذي يسمى عند أهل اليمن «المعصوب» أما في الغداء والعشاء فتأكل الفراخ الصغار المسماة عندهم «الشقران».

وقد كان الزوج يعاني على أثر الوضع معاناة شديدة خصوصا إذا كان رجلا فقيراً، لذلك نراهم يقولون في أمثالهم: «عرسان ولا ولد واحد» (٤)

---

(١) الواسعي: تاريخ اليمن ص ٣٠٦

(٢) الواسعي: نفس المرجع ص٣٠٦ ــ ٣٠٧

(٣) الواسعي: تاريخ اليمن ص٣٠٧ ــ ٣٠٨

(٤) الواسعي: ص ٣٠٨ ــ ٣٠٩

حالة نساء اليمن في المياتم:

في حالة حدوث فاجعة في أسرة من أسر اليمن كانت النساء يبكين فقط دون صراخ أو نواح أو عو يل، ولا يخرجن مع الجنازة(١).

عادة بدعة السحر:

انتشر السحر في العصر الأ يوبي في بعض نواحي اليمن، وعلى وجه الخصوص في «حود حور» وهو جبل بين حضرموت وعمان. ومن أراد أن يتعلم السحر كان يذهب إلى كهف في ذلك الجبل على بابه رجل أعور لايمكنه مما يريد إلا إذا كفر بمحمد (صلى الله عليه وسلم) فإذا حدث ذلك سمح له بدخول الغار الذي كان يقيم به جماعة من السحرة،وعلى باب الغار كان يوجد كرسي يجلس عليه شيخ، فيسأله ذلك الشيخ أي طريقة تحب من السحر؟ لأنه لايعلمه إلا طريقة واحدة لايسمح له بتعلم غيرها.

وقد ذكر عملية تعلم السحر عثمان البلطي النحوى إذ قال: «إنه كان يلي حصن منيف ديمان — من أعمال الدملوه على جبل يسمى قورشق يقال له حود حور فيه كهف على بابه دكة، ومن أراد تعلم السحر أحضر ماعزاً أسود خالص السواد وليس فيه شعرة بيضاء، يذبحه و يقسمه إلى سبعة أجزاء يدخلها إلى النار ثم يأخذ الكرش فيشقها و يطلي جسمه بما فيها و يلبس جلد الماعز مقلوبا و يدخل الغار ليلاً — و يشترط أن يكون يتيم الأ بو ين — ولا يرى أحداً به، فينام، وإذا أصبح ووجد نفسه نظيفا مغسولا مما كان عليه، دل ذلك على القبول، وإذا بقي على حاله دل ذلك على عدم القبول، وإذا تم القبول يخرج من الغار على ألا يكلم أحداً ثلاثة أيام و يبقى صامتا ساكناً تلك المدة و بعدها يصبح ساحراً(٢).

الملابس:

اختلفت الملابس في اليمن حسب طبقات المجتمع فقد كان لباس السلطان ومعظم جنده وقواده عبارة عن أقبية إسلامية ضيقة الأكمام مزندة على الأ يدي وفي أوساطهم مناطق مشدودة، وعلى رؤوسهم تخافيف لانس، و يلبسون في أرجلهم الدلاكسات، وهي اخفاف من القماش الحرير الأطلس والعنابي وغيرذلك(٣).

وكان بعض سلاطين اليمن في العصر الأ يوبي يتشبهون بالخلفاء أحيانا و يلبسون ملابسهم من ذلك ما فعله السلطان المعز بن طغتكين عندما ادعى الخلافة في اليمن، فكان يلبس القمصان ذات الأكمام الطويلة الواسعة التي تسمى الثمانية والعشارية لأن طول الكم كان يبلغ ثمانية أذرع أو عشرة بحيث كان الملك وهوجالس ويحضر عنده من يريد تقبيل يده(٤). كما كان السلطان

(١) الواسعي: تاريخ اليمن ص ٣٠٩
(٢) ياقوت الحموي: معجم البلدان جـ٢ ص ٣١٦ — ٣١٧
(٣) القلقشندي: صبح الأعشى جـ٥ ص ٣٤
(٤) الخزرجي: العسجد المسبوك ص ٢٠٥

يلبس جبة أكمامها مسبلة على يديه(١).

أما لباس العامة فكان يختلف في المدن عنه في القرى ففي المدن كان اللباس العربي من القطن(٢) والحرير هو السائد مع طول الأكمام وكبر العمائم وكان يصل طول الكم ذراعاً ونصف ذراع وعرضه ذراع.

أما الفلاحون في القرى والبدو في البادية فكانوا يلبسون المآزر السوداء من غير قمصان وتسمى في اليمن «الفنيلة» كما كانوا يضعون على رؤوسهم قطعاً من الثياب السوداء تلف على الرؤوس دون طاقية.

كما كان أهل المدن ــ خصوصا القضاة والفقهاء والعلماء ــ يلبسون الجوخ، وكانوا يفصلونه كجبة أهل الشام الواسعة الأكمام، وتبطن ببطانة من القماش، أما الأطراف فتصنع من الحرير(٣).

أما لباس المرأة فكان عبارة عن سراويل طويلة تلاصق الأرض وعليه ثوب طويل يستر جميع جسدها ماعدا الكفين وباطن القدمين. وكانت أكمامه ضيقة ويسمى هذا الثوب في اليمن «زنه» وهو يشبه الجلابية في مصر، كما كانت المرأة ترتدي قميصاً أكمامه طويلة كأكمام الرجل، وكان هذا القميص نادراً ما تلبسه المرأة، إذ كانت تلبس منه قميصا أسود في حالة فقد عزيز عليها، وكانت تلبس منه أطلس حرير ملون، أوحرير شاهي مصري في أوقات الأفراح، وكان يحاط أحيانا حول الرقبة والجيب بالحرير والذهب بشكل مخصوص كما كانت المرأة في المدن تضع على رأسها مجموعة مصرات «مناديل» من القماش الملون، وفوقها منديل كبير أبيض يسمى «فرادى» حوالي ذراعين وأطرافه مزينة بالأحمر أو بالأسود، وجميع أطرافه بالعذب «الطرر» ويوضع فوق ذلك ثوب من الذهب الخالص منقوش بشكل هندسي ويسمى هذا الثوب في اليمن «سماطة» والقماش «زربقت» كان يعمل بالهند، ثم تربط هذه المناديل بحزام «زنار» يسمى في اليمن «تزجه» وهو من الحرير والذهب بشكل هندسي بديع وطوله يتراوح بين ذراعين ونصف وثلاثة أذرع وعرضه بعرض الكف ويعمل في صنعاء وفوق كل ذلك يوضع ثوب رقيق من الحرير الملون من صنع الهند يسمى «الطرحة» طوله ذراعان ونصف وعرضه ذراع وربع.

وفي الأعياد والأفراح كانت المرأة تضع فوق هذا ثوباً آخر أطول من الأول وأعرض يوضع مثنياً فوق الرأس ويسمى ذلك في اليمن «قناعا» ويسمى ما على الرأس كله عصبة(٤).

---

(١) نفس المرجع ص ٢٠٦

(٢) كانت الملابس القطنية البيضاء تصنع في سحول إحدى قرى العين وتسمى سحولية «ياقوت معجم البلدان جـ٣ ص ١٩٥» كما كانت تصنع الثياب المعافرية في معافر من مخاليف اليمن «نفس المرجع ص ٥ ص ١٥٣»

(٣) الواسعي: تاريخ اليمن ص ٣٠١

(٤) الواسعي: تاريخ اليمن ص ٣٠١

و يقول الواسعي عادة وضع تلك العصبة على رأس المرأة عادة سيئة لأن الرجل لايستطيع أن يرى رأس زوجته مكشوفا إلا فيما ندر حتى في حالة خلوه بها لأنها لابد أن تضع على رأسها ولو منديلاً واحداً على الأقل. و يقول «وكان كشف رأسها لزوجها من الخطأ»(١).

وكانت تلبس في جيدها عقود الكهرب الثمينة الحرة الخالصة ذات الحبات الكبار بحيث كان يبلغ حجم الحبة حجم التفاحة المتوسطة، وكانت تلبس المرأة من العقود من عقدين إلى خمسة عقود، وكان يتخلل تلك العقود عقد أو أكثر من الذهب الخالص يسمى «سكه» وقد يتخلل هذه العقود حبات من الفضة الخالصة ذات الأشكال الهندسية المختلفة المطلية بماء الذهب أو بحبات من اللؤلؤ أو المرجان، وكانت بعض النساء يضعن الأحجار النفيسة فوق جباههن يصلنه بشعر رؤوسهن، و يسمى ذلك «قشيطة»(٢).

الطعام:

كان أهل اليمن غاية في التأنق والرفاهية في مأكلهم وكانوا يعِدون ألوان الطعام المختلفة خصوصا في المدن وكان الناس يطحنون الغلال في منازلهم، كما كانوا يعملون الخبز في البيوت ومعظم الأسر كانت تخبز يوميا خبزاً طرياً. و بعض البيوت تخبز مرتين أو ثلاثاً في اليوم حسب الوجبات.

ومن الأكلات الرئيسية في اليمن أكلة الحلبة المطحونة طحنا ناعما، وكان كل شخص يستخدم منها في طعامه حوالي ثلاثة دراهم توضع في حوالي ربع رطل من الماء مدة تتراوح بين الساعة إلى الثلاث ساعات، ثم يسكب الماء عنها، وتبقى الحلبة في أسفل الإناء لتضرب بالملعقة مدة عشر دقائق حتى تصبح بيضاء اللون ثم يوضع عليها مقدارها ماء والغرض من وضع الماء عليها وضربها بالملعقة ازالة مرارتها ولتصبح منفعتها خالصة ثم يصنعون عليها مجموعة من الخضار المطحون كالنعناع والكزبرة، والكرات والبسباس «الشطة» بقدر حاجة الشخص و يضيفون إليها الكمون والملح، وإن لم توجد الخضار الطرية وضعوا اليابسة التي تسحق بالماء وإذا كان من يريد الأكل شخصاً واحداً فقط ولوجبة واحدة فكان يجب عليه أن يضع معها حبتين من الفول وقليلاً من عود الحلبة ـــ المسمى في غير اليمن عرق حلاوى وإذا أراد أن يعمل حلبة حامضة سكب على بعضها بعض الخل من إناء آخر. وهذه كانت تؤكل قبل الطعام بغمس الفجل بالحلبة ـــ وذلك لفتح الشهية للأكل.

أما القسم المتبقي منها فيؤكل في آخر الأكل بالخبز بشرط أن يوضع فوق المرق المطبوخ باللحم، وأحيانا كان يضع البعض فوق ذلك اللحم المدقق والبيض المقلي بالسمن وقليلاً من الشعرية، ولابد أن تكون مسخنة على النار وتؤكل بخبز القمح، والحلبة بهذه الصفة مشهورة بالهضم مما يساعد على صحة الجسم وإعطائه القوة وفتح السدود وطرد الأوجاع وما إلى ذلك و يقول عنها الواسعي «ومن

(١) نفس المرجع ص ٣٠١

(٢) الواسعي: تاريخ اليمن ص ٣٠٣ ـــ ٣٠٤

أكلها وعرفها لايقدر أن يتركها»[1].

ومن أكلات أهل اليمن المعصوب والشقران خصوصا للمرأة التي في حالة الوضع كما بيّنا.

والشراب المفضل لأهل اليمن هو القهوة المعمولة من قشر البن والذي به حلاوة طبيعية حتى إنه في كثيرمن الأحيان لايحتاج إلى السكر[2].

أما أهل عدن فكان أشهر مأكولاتهم السمك وفي ذلك يقول بامخرمة «كان مأكولهم الخبز وأدمهم السمك»[3] كما وجد باليمن الخمور لكثرة الكروم بها خاصة في أثافة[4] وكان يتعاطاها ملوكهم وأمراؤهم وغيرهم من عامة الشعب، ولكن الملك العادل أبا بكر بن أيوب حرمها في بلاده ومن بينها اليمن[5].

أما أئمة الزيدية فقد كانوا يحرمونها أيضا[6] كما كان الزيديون يكرمون كل من مر بهم و يضيفونه مدة مقامه عندهم حتى يفارقهم. وكانوا إذا ذبحوا له شاة أو غيرها قدموا له كل لحمها ورأسها وأكارعها وكبدها وقلبها وكرشها فيأكل ويحمل معه قدر استطاعته.



---

(١) الواسعي: تاريخ اليمن ص ٢٩٩ — ٣٠١
(٢) نفس المرجع ص ٣٠٨
(٣) تاريخ ثغر عدن جـ١ ص ٥٥
(٤) ياقوت: معجم البلدان جـ١ ص ٨٦
(٥) البدر العيني: السيف المهند ص ١٩٩
(٦) يحيى بن الحسين: انباء الزمن ص ٧٠

الخاتمة

نخلص من هذا البحث إلى أن الحجاز واليمن قد خضعتا للحكم الأ يوبي بعد إقامة دولتهم في مصر. وقد خضعت الحجاز لهم دون قتال، وكان خضوعا اسميا تمثل في الخطبة للخليفة العباسي وللسلطان الأ يوبي من بعده، و بقي حكامها الأشراف يحكمون في مكة والمدينة. ففي مكة والمنطقة التابعة لها كان يحكم الأشراف الحسنيون الذين كثر تدخل الخلفاء العباسيين في شؤونهم يولون من يشاؤون و يعزلون من يشاؤون كما حدث مع الأخو ين داود ومكثر.

وظل حكامها الهاشميون في الحكم حتى قضى عليهم قتادة الذي أسس أسرة جديدة هي أسرة بني قتادة، وفشلت محاولات الهاشميين في استرداد ملكهم.

أما في المدينة فكان يحكم الأشراف الحسينيون ولم يكن للأ يوبيين عليهم سوى سيادة اسمية تمثلت في الخطبة لهم بعد الخليفة العباسي. ومع ذلك فكثيرا ما ساءت العلاقات بينهم و بين ابناء عمومتهم في مكة مما كان يؤدي إلى وقوع القتال بينهم، ولكن الصراع لم يسفر عن تغلب أيّ منهم على الآخر.

كما حاول قتادة السيطرة على الطائف، و بعد استيلائه عليها دبر أهلها حيلة تمكنوا بواسطتها من طرده منها.

كما ساءت العلاقات بين حكام مكة والعباسيين خصوصا في عهد قتادة وابنه الحسن، الذي قتل أتباعه أمير الحج العراقي أقباش. وكثيرا ما اعتديا على ركب الحجيج العراقي ونهباه. ولم يستطع الخلفاء عمل شيء لهم لأنهم كانوا يمرون بحالة من الضعف لم تمكنهم من الحفاظ على عروشهم، واكتفوا من حكام مكة بالاعتذار.

ولم يلبث الصراع أن نشب في مكة بين الأ يوبيين و بين الأشراف والرسوليين الذين استقلوا بحكم اليمن، وعملوا على السيطرة على مكة، واستمر الصراع بينهما طوال العصر الأ يوبي إذ اخذت مكة تخضع سنة للأ يوبيين وأخرى للأشراف والرسوليين، واكتفى الرسوليون بمحاولة السيطرة على مكة ولم يحاولوا بسط نفوذهم على المدينة التي بقيت تابعة للأ يوبيين الذين كانوا يقدمون المساعدات لأمرائها، و يكنون لهم كل احترام وتقدير، و يتبركون بهم، و يستشيرونهم في كثير من الأمور الهامة، و يشركونهم معهم في التصدي للخطر الصليبي مما أدى إلى قوة الشيعة فيها على حساب السنة، ولم يجرؤ أحد من أهل السنة على التظلم أو الشكوى من ذلك الوضع لصلاح الدين لمكانة أمرائهم عنده.

أما بالنسبة إلى اليمن فقد لعبت طبيعتها الجغرافية الجبلية الوعرة و بعدها عن مركز الخلافة دوراً كبيرا في عدم وحدتها ، وإقامة عدة دو يلات مستقلة بها ، كدولة بني زريع ، و بني حاتم ، والدولة الصليحية ، ودولة بني مهدي . وأدى ذلك إلى الصراع الدامي في اليمن وإلى الانقسامات المذهبية .

و بعد إقامة الأ يو بيين دولتهم في مصر عملوا على فتح اليمن ، فأرسل صلاح الدين أخاه «توران شاه» على رأس بعض قواته ، وتمكن من الاستيلاء على معظمها ، وقضى على معظم الدو يلات القائمة بها ، ووحدها في دولة واحدة ، واتخذ تعز عاصمة له . ثم عاد إلى الشام تاركاً نوابه بها ، فكانوا يرسلون إيراداتها إليه ، و بعد وفاته اضطر بت أحوال اليمن وحدث الصراع بين ولاتها ــحيث حاول كل منهم الاستقلال بولايته والاستيلاء على ممتلكات غيره ــ فاضطر صلاح الدين إلى إرسال حملة جديدة إليها بقيادة أخيه سيف الإسلام طغتكين الذي تمكن من القضاء على الفوضى وأضاف إلى الحكم الأ يو بي مناطق جديدة في اليمن لم تكن قد خضعت لهم من قبل .

ولكن أمور اليمن لم تلبث أن بدأت تضطرب على أثر وفاة «طغتكين» وتولية ابنه المعز الذي كان قد تشيع وادعى أنه قرشي أموي ، كما ادعى الخلافة وتلقب بالإمام الهادي . وكان سيء السيرة مما أدى إلى خروج أتباعه عليه وانضمامهم إلى الإمام الزيدي «عبدالله بن حمزة» الذي كان يسيطر على جبال اليمن الشمالية وأخذ نفوذه يقوى ، ووقعت الحرب بينه و بين المعز انتصر فيها المعز وضعف الإمام مؤقتا . ولكن أتباع المعز لم يلبثوا أن تخلصوا منه وقتلوه لسوء أخلاقه وسوء سياسته .

وساءت الأحوال بعد مقتله في اليمن لأنه تولى الحكم أخوه الأصغر الناصر الذي كان قاصرا فتولى أتابكيته الأمير سيف الدين سنقر الذي حاول جاهداً القضاء على الاضطرابات في اليمن ، فحارب الإمام وانتصر عليه . ولكنه لم يلبث أن توفى فخلفه في الأ تابكية الأمير جبريل الذي كان سيء السيرة فساءت أحوال اليمن في عهده ، وتقلص نفوذ الأ يو بيين بها ، وتمكن من اغتصاب العرش بعد وفاة الناصر ، ولكنه مات مقتولا على يدي جنوده ، وخلت اليمن من سلطان يحكمها وتولت مقاليد الأمور أم الناصر التي أخذت تبحث عن رجل أيو بي تتزوجه وتوليه اليمن ، وعثرت أخيرا على «سليمان شاه» الذي تزوجها وتولى أمور البلاد ، وكان سيء السيرة والأخلاق ، أساء إلى زوجته وإلى أتباعه الأ يو بيين ، مما أطمع الإمام عبدالله بن حمزة فيه ، وعمل على الاستيلاء على اليمن . فخشي الأ يو بيون على ضياع اليمن وأرسل السلطان العادل حفيده المسعود بن الكامل على رأس حملة إلى اليمن وقبض على سليمان وأرسله إلى مصر ، وحارب الإمام وانتصر عليه . ولم يلبث الإمام أن توفي فضعف الزيديون في اليمن . وعاد المسعود إلى مصر ، ولم تلبث أحوال اليمن أن اضطر بت مرة أخرى بعد فتنة «مرغم الصوفي» فسار المسعود في حملة ثانية إليها قبض خلالها على بني رسول ، وأرسلهم مقيدين إلى مصر فيما عدا نورالدين الذي جعله نائبه بها ، وعاد إلى الشام وتوفى في طريقه إليها ودفن بمكة . وانتهى الحكم الأ يو بي باليمن ، وقام على انقاضه حكم بني رسول .

أما عن الأحوال الاقتصادية في الحجاز واليمن، فتنقسم إلى:

الزراعة — الصناعة — التجارة

فبالنسبة إلى الزراعة: نلاحظ أن تضاريس الحجاز واليمن متشابهة تقريبا إلا أن المناخ مختلف إذ تكثر الأمطار الموسمية في اليمن، وتكاد تنعدم في الحجاز مما أدى إلى تقدم الزراعة في اليمن في حين ضعفت في الحجاز وتركزت حول العيون والآبار. لذلك تعتمد مكة في تموينها على المساعدات التي كانت تأتيها من مصر أو على الميرة التي كان يأتي بها سرو اليمن.

كما أن المحاصيل الزراعية في كل من الحجاز واليمن متشابهة تقريبا إذ يزرع فيهما الحبوب — كالقمح والذرة والشعير، وبهما كذلك التمور والفواكه والخضروات، والزهور حتى ان حيواناتها وطيورها وأسماكها تكاد تكون متشابهة.

وبالنسبة للصناعة فقد كانت متأخرة في الحجاز عنها في اليمن، لأن ملوك اليمن شجعوها وعملوا على جلب الصناع المهرة من مختلف الأنحاء، وهناك بعض الصناعات المتشابهة كصناعة السيوف والذهب والحديد والرماح، وتفوقت اليمن على الحجاز في صناعة الملابس ودباغة الجلود والخناجر والأقداح والخمور والمربى والقطران

أما بالنسبة إلى التجارة، فالملاحظ أن الحجاز واليمن يقعان على البحر الأحمر وتزيد اليمن عن الحجاز في وقوعها على بحر العرب «المحيط الهندي» مما أدى إلى كثرة موانئها، وجلبت إليها التجارة من مختلف الأنحاء حتى كانت حلقة الوصل بين الشرق والغرب. وكانت الدولتان تحصلان المكوس والعشور، وتستخدمان مختلف السبل في تحصيلها. ونظرا للنشاط التجاري الذي ساد بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، وازدهار تجارة التوابل والأحجار الكريمة وغيرها، فقد لعبت الموانىء الحجازية واليمنية دوراً هاما في ذلك. كما وجدت بها الأسواق، ووجدت بها الموانىء العالمية كجدة وعدن وغيرهما.

وبالنسبة للأحوال الدينية في الحجاز واليمن فقد كان هناك تشابه بينهما إذ انتشر فيهما المذهب الشيعي الزيدي، والمذهب السني الشافعي، وإن وجد في مكة اتباع للمذاهب السنية الأربعة، كما وجد باليمن إلى جانب المذهب الزيدي الشيعي، المذهب الإسماعيلي، وطائفة المطرفية، وسرو اليمن.

وبالنسبة إلى الحجاز فقد كان مركز العالم الإسلامي الديني يأتيه الحجاج والمعتمرون من مختلف الأنحاء، فوجدت طرق مختلفة توصل إليها سواء من مصر أو الشام أو العراق أو اليمن، وكان الحجيج يتعرضون إلى كثير من المخاطر خلالها بسبب انتشار قطاع الطرق في تلك الطرقات الذين طالما اعتدوا على الحجاج، وقطعوا الطرق عليهم.

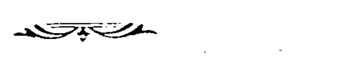
ونظرا لأهمية الحرم المكي بالنسبة للمسلمين فكان من المفروض أن يكون في ابهة وعظمة و بناء حسن ، ولكن الأشراف والخلفاء كانوا يحولون دون التجديد او بالإضافة فيه مما كان يدفع فاعلي الخير إلى التحايل لانجاز التجديدات .

كما وجدت عدة منشآت دينية في الحجاز أهمها الربط ، والمدارس ، التي كانت تمنح إجازات لطلبتها ، كما احتفل أهل الحجاز باختتام القرآن في الأ يام الأخيرة من رمضان. أما في اليمن فكانت المنشآت الدينية عبارة عن مدارس ومساجد تمنح طلبتها إجازات علمية أيضا .

و بالنسبة للأحوال الاجتماعية في الحجاز واليمن فقد كان التركيب الاجتماعي في البلدين متشابها تقريبا ، إذ كان على رأس السلم الاجتماعي في الحجاز الأمراء الأشراف وفي اليمن السلاطين الأ يوبيون. وكان يلي الأمراء في الحجاز حاشية الأمير وأتباعه ، وفي اليمن الولاة الأ يوبيون ثم الفقهاء والقضاة والعلماء سواء كانوا من أهل السنة أو الشيعة ، و يليهم التجار ، والمزارعون والصناع والعمال. وكانت باليمن فئة أخرى هي أهل الذمة من اليهود . كما كان في نهاية السلم الاجتماعي طبقة العبيد .

أما بالنسبة إلى وضع المرأة في الحجاز واليمن فكان متشابها تقريبا ، إذ فقدت المرأة الحرية التي كانت تتمتع بها في العصور السابقة .

أما بالنسبة للعادات الاجتماعية ، فقد وجدت عادات في الحجاز شبيهة بما في اليمن كعادات الزواج والطلاق وإن كانت في اليمن يغلب عليها طابع التبذير بالذات في الزواج والولادة ، كما وجدت عادات و بدع خاصة بأهل الحجاز ، كبدعة العروة الوثقى في الحرم المكي ، و بدعة الجزعة والخشبة بالحرم المدني ، كما وجدت في اليمن عادة السمر والسحر. و بالنسبة إلى الملابس والطعام فتكاد تكون متشابهة بينهما تقريبا ، اللهم في بعض الأكلات التي تختلف في الحجاز عن اليمن كعادة أكل النسناس .



الملاحق

الملحق الأول:

١ـ رسالة بقلم القاضي الفاضل مرسلة من السلطان الملك الناصر صلاح الدين إلى أخيه الملك العادل أبي بكر بشأن انتصار الأسطول المصري بقيادة أميره حسنام الدين لؤلؤ على اسطول الصليبيين الذي جرؤ فعبر مياه البحر الأحمر قاصدا مهاجمة مدينتي مكة والمدينة، وذلك في شوال سنة ٥٧٨ هـ.

وصل كتابه المؤرخ بخامس ذي القعدة المسفر عن المسفر من الأخبار المتبسم عن المبتسم من الآثار، وهي نعمة تضمنت نعما، ونصرة جعلت الحرم حرما وكفاية ما كان الله ليؤخر معجـــزة نبيـــــه (صلى الله عليه وسلم) بتأخيرها، وعجيبة من عجائب البحر التي يحدث عن تسييرها وتسخيرها، وما كان الحاجب لؤلؤ فيها إلا سهما أصاب، وحمد مسدده، وسيفا قطع وشكر مجرده، ورسولا عليه البلاغ وإن لم يجهل ما أثرته يده، وقد غبطناه بأجر جهاده، ونجح اجتهاده، ركب السبيلين: برا و بحرا، وامتطى السابقين: مركبا وظهرا وخطا فأوسع الخطو، وغزا فانجح الغزو، وحبذا العنان الذي في هذه الغزوة اطلق، والمال الذي في هذه الكرة «انفق».

وهؤلاء الأسارى فقد ظهروا على عورة الإسلام وكشفوها. وتطرقوا بلاد القبلة وتطوفوها، ولو جرى في ذلك سبب ــ والعياذ بالله ــ لضاقت الأعذار إلى الله والخلق، وانطلقت الألسن بالمذمة في الغرب والشرق، ولابد من تطهير الأرض من أرجاسهم، والهواء من أنفاسهم، بحيث لايعود منهم مخبر يدل الكفار على عورات المسلمين، وإن هذا العدد القليل قد نال ذلك المنال الجليل، وهذا مقام إن روعي فيه حراسة الظاهر، والوفاء للكافر، حدث الفتق الذي لايمكن في كل الأوقات سده ورتقه، ولدغ المؤمن مرتين، والأولى تكفي لمن له في النظر تفقه»(١).

٢ـ قطعة من خطاب ثان بقلم الفاضل مرسل من صلاح الدين إلى أخيه العادل(٢) بشأن الانتصار سالف الذكر، وفيه يأمره بالإسراع بقتل أسرى الفرنج حتى لايبقى منهم أحد يخبر بطريق ذلك البحر(٣)

---

(١) ابو شامة: الروضتين، جـ٢، ص ٣٦

(٢) كان صلاح الدين في الشام والعادل في مصر

(٣) يقصد به البحر الأحمر

« ونحن نهنيء المجلس السامي بظفره ولم لايكمله و ينصره؟ ولم لايعجله و يشكره؟ وليس في قتل هؤلاء الكفار مراجعة، ولا للشرع في ابقائهم فسحة، ولا في استبقاء واحد منهم مصلحة، ولا في التغاضي عنهم عند الله عذر مقبول، ولا حكم الله في أمثالهم عند أهل العلم بمشكل ولا مجهول، فليمض العزم في قتلهم ليتناهى أمثالهم عن فعلهم، وقد كانت عظيمة ما طرق الإسلام بمثلها وقد أتى الله بعدها بلطيفة أجراها على يد من رآه من أهلها »(١).

٣ــ قطعة من خطاب ثالث بقلم الفاضل مرسل من صلاح الدين إلى العادل في مصر يكرر فيه ضرورة القضاء على أسرى الفرنج في الموقعة السابقة الذين جرؤوا على اجتياز بحر الحجاز.

« قد تكرر القول في معنى أسارى بحر الحجاز، فلا تذر على الأرض من الكافرين ديارا، ولا توردهم بعد ماء البحر إلا نارا، فاقلهم إذا بقي جنى الأمر الأصعب، ومتى لم تعجل الراحة منهم، وعدت العاقبة بالأشق الأتعب »(٢).

٤ــ قطعة من خطاب آخر مرسل من صلاح الدين إلى الخليفة في بغداد بشأن الغزوة الفرنجية سالفة الذكر في البحر الأحمر.

« وسارت المراكب الإسلامية طالبة شوكة المراكب الحربية المتعرضة للمراكب الحجازية واليمنية، وكانت مراكب العدو قد اوغلت في البحر ودلها على عورات الساحلين من العرب من أشبه ركابها في الكفر، فوصلت إلى عيذاب فلم تنل منها مرادا، غير أن ما وجدته في طريقها أو في فرضة عيذاب نالت منه وشعثت وافسدت فيه وعثت، وتمادت في الساحل الحجازي إلى رابغ إلى سواحل الحوراء وهناك وقع عليها أصحابنا وراءهم خيول العربان التي وجدوها وأخذوا الكفار من شعاب وجبال اعتصموا بها وقصدوها، وكفى المسلمون أشد فساد في أرضهم، واقطع قاطع لغرضهم، وانسبطت آمالهم بقبضهم، وعمت على الكفار هذه الطريق التي لو كشف لهم غطاؤها قدما، ولو أحاطوا بها علما إشتملت نكايتهم واشتدت جنايتهم وعز على قدماء ملوك مصر ان يصرعوا هذه الأقران و يطفئوا هذه النيران و يركبوا غوارب اللجج، و يرخصوا غوالي المهج، و يقتنصوا هذا الطائر من جوه الذي لايدرك لوحه و يدركوا هذا العدو الذي لايدرك إلا أن تستنجد عليه ملائكة الله وروحه »(٣).

٥ــ قطعة من خطاب آخر مرسل من صلاح الدين إلى الخليفة ببغداد، بشأن غزوة الفرنج سالفة الذكر في البحر الأحمر، و بهذا الخطاب تفصيلات جديدة هامة: « وكان الفرنج قد ركبوا من الأمر نكرا وافتضوا من البحر بكرا، وعمروا مراكب حربية شحنوها بالمقاتلة والأسلحة والأزواد. وضربوا بها سواحل اليمن والحجاز وأثخنوا وأوغلوا في البلاد، واشتدت مخافة أهل تلك الجوانب، بل أهل القبلة لما أومض إليهم من خلل العواقب، وما ظن المسلمون إلا أنها

(١) ابوشامة: الروضتين، جـ٢، ص ٣٦

(٢) ابوشامة: الروضتين جـ٢ ص ٣٦ــ٣٧

(٣) نفس المرجع والجزء ص ٣٧

الساعة وقد نشر مطوى أشراطها، والدنيا وقد طوى منشور بساطها، وانتظر غضب الله لفناء بيته المحرم، ومقام خليله الأكرم، وتراث أنبيائه الأقدم، وضريح نبيه الأعظم (صلى الله عليه وسلم) ورجوا أن تشحذ البصائر آية كآية هذا البيت إذ قصده أصحاب الفيل، ووكلوا إلى الله الأمر، وكان حسبهم ونعم الوكيل.

وكان للفرنج مقصدان: أحدهما قلعة أيلة التي هي على فوهة بحر الحجاز ومداخله، والآخر الخوض في هذا البحر الذي تجاوره بلادهم من ساحله وانقسموا فريقين، وسلكوا طريقين: فأما الفريق الذي قصد قلعة أيلة فإنه قدر أن يمنع أهلها من مورد الماء الذي به قوام الحياة، ويقاتلهم بنار العطش المشبوب الشباه، وأما الفريق القاصد سواحل الحجاز واليمن، فقدر أن يمنع طريق الحاج عن حجه ويحول بينه وبين فجة، ويأخذ تجار اليمن وأكارم عدن، ويلم بسواحل الحجاز فيستبيح —والعياذ بالله— المحارم، ويهيج جزيرة العرب بعظيمة دونها العظائم.

وكان الأخ سيف الدين بمصر قد عمر مراكب وفرقها على الفرقتين، وأمرها بأن تطوي وراءهم الشقتين: فأما السائرة إلى قلعة إيلة فإنها انقضت على مرابطي الماء انقضاض الجوارح على بنات الماء، وقذفتها قذف شهب السماء مسترقي سمع الظلماء، فأخذت مراكب العدو برمتها، وقتلت أكثر مقاتلتها إلّا من تعلق بهضبة وما كاد، أو دخل في شعب، وما عاد، فإن العربان اقتفوا آثارهم، والتزموا احضارهم، فلم ينج منهم إلا من ينهى عن المعاودة، ومن قد علم أن أمر الساعة واحدة.

وأما السائرة إلى بحر الحجاز فتمادت في الساحل الحجازي إلى رابغ وسواحل الحوراء، فأخذت تجارا، وأخافت رفاقا، ودلها على غوارب البلاد من الأعراب من هو أشد كفرا ونفاقا، وهناك وقع عليها أصحابنا، وأخذت المراكب بأسرها، وفر فرنجها بعد إسلام المراكب، وسلكوا في الجبال مهاوي المهالك ومعاطن المعاطب، وركب أصحابنا وراءهم خيل العرب يشلونهم شلا، ويقنصونهم أسرا وقتلا، وما زالوا يتبعونهم خمسة أيام خيلا ورجلا نهارا وليلا حتى لم يتركوا عنهم خبرا ولم يبقوا لهم أثرا (وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا) وقيد منهم مائة وسبعون أسيرا(١).

الملحق الثاني:

خطاب بقلم القاضي الفاضل مرسل من السلطان صلاح الدين إلى صاحب مكة، جوابا عن كتاب ورد منه عليه في معنى وصول غلال بعث بها إلى مكة.

«وصل كتابك، أيها الشريف معربا عن المشايعة الشائعة ابناؤها والمخالصة الخالصة أسرارها الوافرة أنصباؤها، وحسان الخلال، التي اقتسم طرفي الحمد اعادتها وابداؤها، ومكرمات الآل التي تساوى في اقتناء المجد ابناؤها وآباؤها، وفضائل الأفضال التي لاتخف على غير أهل العباء صلوات الله عليهم أعباؤها ونشر كتابك من محاسنك ما انطوى، ووردنا منه منهلا أروى وارده وارتوى، ووقفنا منه على أثر فضل اشتمل على عين الكرم واحتوى، ووقفنا وإياه من الحمد مالا نخلفه نحن

(١) ابوشامة: الروضتين، جـ٢ ص ٣٧

ولا هو مكانا سوى، وأصرنا كتابه إلى مستقر كاتبه من قلب الود وصدره، وكيف لايكون ذلك وقد اشمخرت لبيته الأنساب، وخرت الأنصاب، وسجدت الرقاب وردت له بعد ما توارث بالحجاب، وشهد بفضل توقيعهم الحرب و بفضل ليلهم المحراب.

فأما ما أشار إليهمن الشكر على ما سير من الغلات التي كان الوعد بها علينا نذرا، وروحنا بإرسالها قلبا، وشرحنا بتسييرها صدرا، وإنها حلت ربقة الجدب وفكتها، وجلت هبوة القحط وكفتها، وهونت مصاعب المساغب، وخلفت سواحب السحائب وأطفأت ــ ولله الحمد ــ بوار النوائب، فقد سررنا بحسنتنا جعلنا الله ممن تسره الحسنة، وقد نبهنا من سنتنا لأن نستقبل بالحمد الولي السنة، وقد قوى النية وقومها، واستزاد لهم بلسان الشكر الفصيح وتناول لهم بباع التلطف الفسيح، والقح لهم سحائب محلة منها محل ملحقها من الريح، واقتضى ما يعرضه أن خرج الأمر بأن يضاعف المحمول في كل عام، ولا يخص به خاص دون عام، وأمرنا أن يوفر جلب الجلاب وتوفر ظهور الركاب ليجمع للحرم الشريف بين بر البر والبحر، و بين حمل البطن والظهر، فتظل السنة ودودا ولودا، و يشاهد المحل الشريف، وقد نأى عنه المحل شريدا، وتحط القلوع عما يحط عنه أمثالها من السحائب، وتستريح الأنفس اللواغب، فأما ما ألقاه إلى رسوله، فقد اسمع ما أسنده إليه، وأعيد بما يعيده عليه، وقد تكاثرت بولاء الشريف الأشهاد، فغنى عن الاستشهاد، واغنته الحظوة بجميل رأينا عما نأى أخذه لشفعة العطاء، بل لشفاعة الاجتهاد إن شاء الله تعالى(1).

الملحق الثالث:

كتاب من المختص والي البر بحماة إلى الملك المنصور ــ صاحب حماة ــ يخبر فيه بقتل الملك المعز اسماعيل بن سيف الإسلام ظهيرالدين طغتكين بن أيوب.

«في خامس صفر من هذه السنة ــ ٥٩٩ ــ ورد إلى الملك المنصور ــ صاحب حماة ــ كتاب من المختص والي البر بحماة، وكان حج سنة ثمان وتسعين وخمسمائة يخبر فيه بقتل الملك المعز إسماعيل بن سيف الإسلام ظهيرالدين طغتكين بن أيوب. وسطر الكتاب يتيما في رابع عشر المحرم منه.

وأما أخبار اليمن: فإن ابن سيف الإسلام قتله جماعة من الأكراد وتشوشت البلاد، وكل استقل بما تحت يده، والبلاد سايبة تريد رجلا يحفظها، وسرية ابن سيف الإسلام عصت في قلعة منيعة هي أحصن القلاع وأمنعها، وعندها من الأموال مالا يحصى عدده. وذكر عنها انها قالت: ما نسلم هذا الحصن وهذه الأموال إلا لرجل من ولد السلطان».

هذا ما ذكره المختص في كتابه، ونحن ــ ابن واصل ــ نذكر ما بلغنا من أحوال الملك المعز:

«كنا قد ذكرنا تملكه بعد أبيه لبلاد اليمن، ثم انه بعد ذلك جرت له باليمن حروب منها: انه خرج عليه الشريف عبدالله الحسيني وضرب معه مصافا فانكسر الشريف، ثم خرج عليه من مماليك

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٧ ص ١٠٩ ــ ١١٠

أبيهنحو ثمانمائة مملوك وحاربوه واعتصموا بصنعاء، فكسرهم وأخذها منهم. ثم ادعى بعد ذلك الخلافة، وانتسب إلى بني أمية، وجعل شعاره الخضرة وقطع خطبة بني العباس، وخطب لنفسه بالخلافة على منابر اليمن، وخطب بنفسه على المنبر يوم الجمعة.

وقد ذكر أن عقيدته كانت فاسدة، وانه ادعى الربوبية، وأمر كاتبه أن يكتب من مقر الألوهية، ثم نُهي عن ذلك، فانتهى خوفا من القتل.

وبلغ عمه الملك العادل دعواه النسب إلى بني أمية فأنكره وساءه فعله وجحد أن يكون لبني أيوب نسب يتصل ببني أمية.

وخافته مماليك أبيه لهوجه وسفهه، ففارقوه وتحزبوا عليه وحاربوه ووافقهم على ذلك جماعة من أمراء الأكراد ومنهم شمس الدين بن الدقيق وباخل وغيرهم، فاتفقوا كلهم على قتله وضربوا معه مصافا في السنة الماضية، وهي سنة ثمان وتسعين وخمسمائة، فكسروه وقتلوه ونصبوا رأسه على رمح وداروا به بلاد اليمن ونهبوا زبيد تسعة أيام»(١).

الملحق الرابع:

كتاب عن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب مصر والشام، إلى أخيه سيف الإسلام صاحب اليمن يستقدمه إليه، معاونا له على قتال الفرنج «أصدرنا هذه المكاتبة إلى المجلس....

... والحمدلله الذي ألهمنا بنعمته الحديث، ونصر بسيف الإسلام الذي هو سيفه وسيف الإسلام الذي هو أخونا الطيّب على الخبيث، فمدح السيف ينقسم على حديه، ومنح الكريم يتعدى إلى يديه، والآن فالمجلس –اسماه الله– يعلم أن الفرنج لايسلون عما فتحنا، ولا يصبرون على ما جرحنا، فإنهم –خذلهم الله– أمم لاتحصى، وجيوش لا تستقصى، ووراءهم من ملوك البحر من يأخذ كل سفينة غصبا، ويطمع في كل مدينة كسبا، ويد الله فوق أيديهم، والله محيط بأقربيهم وابعديهم، «وسيجعل الله بعد عسر يسرا» (لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا).

وما هم إلا كلاب قد تعاوت، وشياطين قد تغاوت. وإن لم يقذفوا من كل جانب دحورا، ويتبعوا بكل شهاب ثاقب مدحورا، استأسدوا واستكلبوا وتألبوا وجلبوا واجلبوا، وحاربوا وخربوا، وكانوا لباطلهم الداحض، أنصر منا لحقنا الناهض، وفي ضلالهم الفاضح، أبصر منا لهدانا الواضح، ولله درجرير حيث يقول:

إن الكريمة ينصر الكرم ابنها   وابن اللئيمة للئام نصور!

فالبدار إلى النجدة البدار!، والمسارعة إلى الجنة فإنها لن تنال إلا بإيقاد نار الحرب على أهل النار، والهمة الهمة! فإن البحار لا تلقى إلا بالبحار، والملوك الكبار لايقف في وجوهها إلا الملوك الكبار.

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٣، ص ١٣٥ – ١٣٧

وما هي إلا نهضة تورث العلا ... ليومك ما حنت روازم نيب!

ونحن في هذه السنة ــ إن شاء الله تعالى ــ ننزل على انطاكية، و ينزل ولدنا الملك المظفر ــ أظفره الله ــ على طرابلس و يستر الركاب العدال ــ أعلاه الله ــ بمصر فإنها مذكورة عند العدو ــ خذله الله ــ بأنها تطرق، وإن الطلب على الشام ومصر تفوق، ولا غنى عن أن يكون المجلس السيفي ــ أسماه الله ــ بحرا في بلاد الساحل يزخر سلاحا، ويجرد سيفا يكون على ما فتحناه قفلا، ولما لم يفتح بعد مفتاحا، فإنه ليس لأحد ما للأخ من سمعة لها في كل مسمع سمعه، وفي كل روع روعه، وفي كل محضر محضر، وفي كل مسجد منبر، وفي كل مشهد مخبر، فما يدعى العظيم إلا للعظيم، ولا يرجى لموقف الصبر إلا الكريم، والأقدار ماضية، وبمشيئة الله جارية، فإن يشأ الله ينصر على العدو المضعف، بالعدد الأضعف، و يوصل إلى الجوهر الأعلى، و بالعرض الأدنى، فإنا لانرتاب بأن الله ما فتح علينا هذه الفتوح ليغلقها، ولا جمع علينا هذه الأمة ليفرقها، وان العدو وإن خرج من داره بطرا، ودخل إلى دارنا كان فيها جزرا، وما بقى إن شاء الله تعالى إلا أموال تساق إلى ناهبها، ورقاب تقاد إلى ضاربها، وأسلحة تحمل إلى كاسبها، وإنما تؤثر أن لا تنطوي صحائف الحمد خالية من اسمه، ومواقف الرشد خاوية من عزمه، ونؤثر أن يساهم آل أيوب في ميراثهم منه مواقع الصبر، ومطالع النصر، فوالله إنا على أن نعطيه عطايا الآخرة الفاخرة، أشد منا حرصا على أن نعطيه عطايا الدنيا القاصرة، وإنا لايسرنا أن ينقضي عمره في قتال غير الكافر، ونزال غير الكفء المناظر، ولا شك أن سيفه لو اتصل بلسان ناطق وقم، لقال: ما دمت هناك فلست ثم، وما هو محمول على خطة يخافها، ولا متكلف قضية يحكمنا يعافها، والذي بيده لا نستكثره، بل نستقصره عن حقه ونستصغره وما ناولناه لفتح أرضه السلاح، ولا أعرناه لملك مركزه النجاح، إلا على سخاء من النفس به و بأمثاله، على علم منا أنه لايقعد عنا إذا قامت (الحرب) بنفسه وماله، فلا تكن به ظنا أحسن منه فعلا، ولا نرضى وقد جعلنا الله أهلا ان لا نراه لنصرنا، وليستشر أهل الرشاد فإنهم (لايألونه) فإنهم يتغالون به لمصالحهم أغراضا، ومن بيته يظعن وإلى بيته يقفل، وهو يجيبنا جواب مثله لمثلنا، و ينوي في هذه الزيارة جمع شمل الإسلام قبل نية جمع شملنا، ولا تقعد به في الله نهضة قائم، ولا تخذله عزمة عازم، ولا يستفت فيها فوت طالب ولا تأخذه في الله لومة لائم، فإنما هي سفرة قاصدة وزجرة واحدة، فإذا هو قد بيض الصحيفة والوجه والذكر والسمعة، ودان الله أحسن دين ولاحرج عليه إن فاء إلى أرضه بالرجعة، وليتدبر ما كتبناه، وليتفهم ما أردناه، وليقدم الاستخارة فإنها سراج الاستنارة، وليغضب لله ولرسوله ولدينه ولأخيه فإنها مكان الاستغضاب والاستثارة. وليحضر حتى يشاهد أولاد أخيه يستشعرون لفرقته عما، وقد عاشوا ماعاشوا لايعرفون أن لهم مع عمهم عما، والله سبحانه يلهمه توفيقا، و يسلك به إليه طريقا، و ينجدنا به سيفا لرقبة الكفر ممزقا ودمه مريقا، ويجعله في مضار الطاعات سابقا لامسبوقا إن شاء الله تعالى(١).



(١) القلقشندي: صبح الأعشى جـ٧ ص ٣٣٨/٣٣٤

قائمة المصادر والمراجع

أولا: المخطوطة:

١ــ إدريس، عماد الدين بن الحسن القرشي (٨٧٢هـ/١٤٦٧م) «نزهة الأفكار وروضة الأخبار في ذكر من قام باليمن الميمون من الملوك الكبار والدعاة الأخيار» مخطوط مصور بمكتبة الجامع الكبير بصنعاء عن النسخة الأصلية بحراز.

٢ــ ابن أيبك الدواداري، أبو بكر بن عبدالله صاحب صرخد «من أعيان القرن الثامن الهجري».
كنز الدرر وجامع الغرر «مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٥٧٨ تاريخ».

٣ــ ابن البزوري، أبوبكر محفوظ بن معتوق.
ذيل المنتظم لابن الجوزي «مخطوط بمكتبة الحرم المكي رقم ١٥ تاريخ».

٤ــ الجندي، أبو عبدالله بهاء الدين يوسف بن يعقوب «٧٣٢هـ/١٣٣١م».
السلوك في طبقات العلماء والملوك «مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٩٩٦ تاريخ».

٥ــ ابن حاتم، بدرالدين محمد «ت حوالي ٦٩٤هـ/١٢٩٤م».
السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك من العز اليمن «مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٤١١ تاريخ».

٦ــ الحنبلي، أحمد بن ابراهيم بن نصرالله (ت ٨٧٦هـ/١٤٧١م). «شفاء القلوب في مناقب بني أيوب» ميكروفيلم بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية رقم ٣.

٧ــ الخزرجي، أبوالحسن علي بن الحسن (ت ٨١٢هـ/١٤٧١م) «تاريخ الكفاية والأعلام» مخطوط بمكتبة الحرم المكي رقم ٢٧ تاريخ.

٨ــ الخزرجي، طراز الزمن في طبقات أعيان اليمن «مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٢٦٥٧ تاريخ».

٩ــ الخزرجي، المسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك «مخطوط بمكتبة البلدية بالإسكندرية رقم ١٢٦٥ ب».

١٠ــ ابن أبي الدم، شهاب الدين (ت ٦٤٢هـ/١٢٤٤م) «التاريخ المظفري» مخطوط بمكتبة البلدية بالاسكندرية رقم ١٣٣٦ ب.

١١ــ الدمشقي، بدرالدين محمد بن أبي بكر قاضي شهبة (ت ٨٤٧هـ/١٤٦٩م «الدر الثمين

في سيرة نور الدين» مخطوط بمكتبة البلدية بالاسكندرية رقم ١٣٢٦ ب.
١٢ــ ابن الديبع، أبوعبدالله عبدالرحمن بن علي (ت ٩٤٤هـ/١٥٣٧م) «بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد» مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١١م تاريخ.
١٣ــ ابن الديبع، «قرة العيون في أخبار اليمن الميمون» مخطوط بمكتبة البلدية بالاسكندرية رقم ١٨١٩ تاريخ.
١٤ــ الذهبي، الحافظ شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان بن قيماز (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م).
«تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام» مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣٩٦ تاريخ.
١٥ــ الذهبي «سير أعلام النبلاء» مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٢١٩٥ تاريخ.
١٦ــ ابن رسول، الملك الأشرف أبو العباس إسماعيل (ت٨٠٣هـ/١٤٠٠م) «فاكهة الزمن ومفاكهة الآداب والفتن في أخبار من ملك اليمن» مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٤٠٩ تاريخ تيمور.
١٧ــ ابن رسول، الملك الأفضل عباس بن علي بن داود (ت ٧٧٨هـ/١٣٧٦م) «العطايا السنية والمواهب الهنية في المناقب اليمنية» مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣٥١ تاريخ.
١٨ــ ابن رسول، الملك الأفضل عباس بن علي بن داود «نزهة العيون في تاريخ طوائف القرون» مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣٥١ تاريخ.
١٩ــ الشرفي، أحمد بن محمد بن صلاح (ت ١٠٥٥هـ/١٦٤٥م) «زهرة المعقول» مخطوط بمكتبة الحرم المكي رقم ١٤٨ تاريخ.
٢٠ــ الشرفي، «اللآلىء المضيئة في أخبار أئمة الزيدية، ومقتصد العترة الزكية ومن عارضهم من سائر البرية» مخطوط بمكتبة الجامع الكبير بصنعاء.
٢١ــ الصباغ، محمد بن أحمد المكي (كان حيا سنة ٧٧٦هـ) «تحصيل المرام في أخبار البيت الحرام والمشاعر العظام ومكة والحرم وولاتها الفخام» مخطوط بمكتبة الحرم المكي رقم ١١ تاريخ.
٢٢ــ الطبري، محمد بن علي بن فضل بن عبدالله بن احمد بن يحيى بن مكرم بن المجد محمد الملقب بالجمال الحسيني الشافعي المكي. «إتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بني الحسن» مخطوط بمكتبة الحرم المكي رقم ١٢٦ تاريخ.
٢٣ــ عبدالله غازي، الشيخ، «إفادة الأنام في تاريخ ولاة الحرم» مخطوط بمكتبة الحرم المكي رقم ١٤٥ تاريخ.
٢٤ــ العصامي، عبدالملك بن حسين بن عبدالملك الشافعي (ت ١١١١هـ/١٦٩٩م)، «سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي» مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٣ تاريخ.

٢٥ــ العمري، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى بن فضل الله (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م) «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٨٤٩ تاريخ تيمور.
٢٦ــ العيني، بدرالدين محمد بن احمد (٨٥٥هـ/١٤٥١م) «عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان» مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤ تاريخ.
٢٧ــ ابن الفرات، ناصرالدين محمد بن عبدالرحيم بن علي (ت٨٠٧هـ/١٤٠٤م)«تاريخ الدول والملوك» مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم ٣١٩٧.
٢٨ــ ابن فهد، الحافظ نجم الدين عمر تقي الدين محمد الهاشمي (ت أواخر القرن الثامن الهجري) «اتحاف الورى بأخبار أم القرى» مخطوط بمكتبة الحرم المكي رقم ٢ تاريخ.
٢٩ــ الكبسي، محمد بن إسماعيل (ت ١٣٠٨هـ/١٨٩٠م) «اللطائف السنية في أخبار المملكة اليمنية» مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٤١٦٣ تاريخ.
٣٠ــ مجهول، «رسالة في النسب الشريف العلوي وتاريخ الخلفاء الراشدين وما عداهم من الملوك والسلاطين» مخطوط بمكتبة الحرم المكي رقم ٤٥ تاريخ.
٣١ــ أبوالمحاسن، جمال الدين يوسف بن تغري بردى (ت ٧٨٤هـ/١٤٩٦م) «المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي» مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١١١٣ تاريخ.
٣٢ــ المحلي الشهيد، حسام الدين أبوعبدالله حميد بن أحمد (ت ٦٥٢ هـ/١٢٥٤م) «الحدائق الوردية في مناقب الأئمة الزيدية» مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٦٧ تاريخ.
٣٣ــ بامخرمة، أبو محمد الطيب بن عبدالله بن أحمد بن علي (ت ٩٤٧هـ/١٥٤٠م) «قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر» مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم ١٦٧ تاريخ.
٣٤ــ النويري، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب (ت ٧٣٢هـ/١٣٣٢م) «نهاية الأرب في فنون الأدب» مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم ١٦٧ تاريخ.
٣٥ــ يحيى بن الحسين، بن القاسم بن محمد (ت ١١٠٥هـ/١٦٩٣م) «أنباء الزمن في تاريخ اليمن» مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٣٤٧ تاريخ.

ثانيا: المطبوعة:

٣٦ــ الأبشيهي «المستطرف في كل فن مستظرف».
٣٧ــ ابن الأثير، أبوالحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيباني الملقب عزالدين (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٣م) الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل (القاهرة، ١٩٦٣م).
٣٨ــ ابن الأثير، «أسد الغابة».

٣٩ــ ابن الأثير «الكامل في التاريخ» مكتبة الاستقامة بالقاهرة.
٤٠ــ الأربلي، عبدالرحمن سنبط قنيتو (ت ٧١٧هـ/١٣١٦م) «خلاصة الذهب المسبوك مختصرة من سيرة الملوك» مكتبة المثنى بغداد، ١٩٦٤.
٤١ــ الاصطخري، أبواسحق إبراهيم بن محمد الفارسي. «الأقاليم، مكتبة المثنى، بغداد».
٤٢ــ الأفغاني، سعيد «أسواق العرب في الجاهلية والإسلام» (الطبعة الثانية، دمشق ١٩٦٠م).
٤٣ــ الأنصاري، شمس الدين ابوعبدالله محمد الصوفي الدمشقي، شيخ الربوة «نخبة الدهر في عجائب البر والبحر» طبعة ثانية بطر بورغ ١٢٨١هـ/١٨٦٥م ولايبزج ١٩٢٣م.
٤٤ــ ابن إياس، محمد بن احمد الحنفي المصري (ت ٩٣٠هـ/١٥٢٣م) «تاريخ مصر، المشهور ببدائع الزهور في وقائع الدهور» الطبعة الأولى، بولاق ١٣١١هـ.
٤٥ــ البتنوني، محمد لبيب «الرحلة في الأندلس» القاهرة شركة مصر. غير معروف سنة الطبع.
٤٦ــ البرادعي، الشريف احمد بن محمد صالح الحسيني «المدينة المنورة عبر التاريخ» الطبعة الأولى بيروت ١٣٩١هـ/١٩٧٢م.
٤٧ــ البستاني، بطرس «محيط المحيط» بيروت سنة ١٩٧٠.
٤٨ــ ابن بطوطة، أبوعبدالله محمد بن إبراهيم اللواتي الملقب بشمس الدين «رحلة ابن بطوطة» تحقيق كرم البستاني، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٦٤.
٤٩ــ بروى، ادوار، بإشراف موريس كروزيه، «تاريخ الحضارات العام، العصور الوسطى» نقله إلى العربية يوسف داغر وفريد داغر، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٦٥.
٥٠ــ بروكلمان، كارل «تاريخ الشعوب الإسلامية» نقله إلى العربية نبيه أمين، ومنير البعلبكي، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٥٣م.
٥١ــ ابن البيطار، ضياءالدين أبو محمد عبدالله بن أحمد الأندلسي المالقي (ت ٦٤٦هـ/١٢٤٨م) «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية» «مختصر مفردات الطبيب».
٥٢ــ ترسيس، د عدنان، «اليمن وحضارة العرب» بيروت.
٥٣ــ الجاسر، حمد «بلاد ينبع» مكة.
٥٤ــ ابن جبير، أبوالحسن محمد أحمد الكناني الأندلسي، الشاطبي البلنسي، (ت٦١٤هـ/١٢١٧م) رحلة ابن جبير المعروفة بـ«تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار» بيروت ١٩٦٨م
٥٥ــ الجرافي، القاضي عبدالله بن عبدالكريم، «المقتطف في تاريخ اليمن» القاهرة ١٩٥١.
٥٦ــ الجعدي، القاضي عمر بن علي بن سمرة (كان حيا سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م) «طبقات فقهاء اليمن» القاهرة، ١٩٥٧م

٥٧ــ ابن الجزري، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي (ت ٥٩٧ هـ/١٢٠١م) «الأذكياء» طبعة الميمنة، القاهرة ١٣٠٦ هـ.
٥٨ــ ابن الجوزي «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم» الطبعة الأولى، حيدر أباد، الدكن، الهند ١٣٥٨ هـ.
٥٩ــ حبشي، د. حسن «نورالدين والصليبيون» القاهرة، ١٩٤٨م
٦٠ــ الحجاري، عبدالله بن إبراهيم وآخرون. «النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة» القاهرة ١٩٧٠م
٦١ــ الحجري، القاضي أحمد «جغرافية بلاد اليمن» القاهرة.
٦٢ــ الحريري، سيد علي «الأخبار السنية في الحروب الصليبية» الطبعة الثانية ١٣٢٩ هـ
٦٣ــ حسن، د.حسن ابراهيم (ت ١٩٦٨م). «تاريخ الإسلام السياسي» الطبعة الخامسة. القاهرة، ١٩٦٠م
٦٤ــ حسن، د.حسن ابراهيم وطه شرف.«عبيدالله المهدي، إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية في بلاد المغرب» القاهرة، ١٩٤٧م
٦٥ــ الحمادي، محمد بن مالك بن أبي الفضائل اليماني (ت حوالي منتصف القرن الخامس الهجري) «كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة» القاهرة، ١٩٣٩م
٦٦ــ الحميري، نشوان بن سعيد (ت ٥٧٣ هـ/١١٧٨م) «الحور العين» القاهرة، ١٩٤٨م
٦٧ــ الحنبلي، أبوالفرج عبدالحي بن العماد (ت١٠٨٩ هـ/١٦٧٨م) «شذرات الذهب في أخبار من ذهب» بيروت، والقاهرة ١٣٥١ هـ
٦٨ــ ابن خرداذبه، أبوالقاسم عبدالله بن عبدالله (ت حوالي ٣٠٠ هـ) «المسالك والممالك» بريل ١٨٨٩ هـ مكتبة المثنى بغداد.
٦٩ــ الخزرجي، أبوالحسن علي بن الحسن (٨١٢ هـ/١٤٠٩م) «العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية» القاهرة، ١٣٢٩ هـ/١٩١١م
٧٠ــ ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ/٥ــ ١٤٠٦م) «العبر وديوان المبتدأ والخبر» بولاق، ١٢٨٤ هـ.
٧١ــ ابن خلكان، أبوالعباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت ٦٨١ هـ) «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» الطبعة الأولى، بيروت ١٩٧١م
٧٢ــ «دائرة المعارف الإسلامية» القاهرة، ١٩٣٣م
٧٣ــ دحلان، الزيني «خلاصة الكلام في بيان أمراء البيت الحرام»
٧٤ــ ابن دقمان، ابراهيم بن محمد المصري (ت ٧٠٩هـ/١٣٠٦ــ ١٣٠٧م) «الانتصار لواسطة عقد الأمصار» القاهرة.
٧٥ــ الدمياطي: محمود مصطفى «معجم النباتات الوارد من تاريخ العروس للزبيدي»

القاهرة ١٩٦٥.
٧٦ـ الذهبي، الحافظ أبو عبدالله محمد بن احمد (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٨ ـ ١٣٤٩م)، «العبر في خبر من غبر» تحقيق فؤاد سيد، الكويت ١٩٦٦م.
٧٧ـ الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر «مختار الصحاح» دار المعارف المصرية ١٩٧٣م
٧٨ـ ابن رجب «ذيل طبقات الحنابلة».
٧٩ـ زامباور، «معجم الأنساب والأُسرات الحاكمة في تاريخ الإسلام» تعريب د. زكى محمد حسن، القاهرة ١٩٥٢م
٨٠ـ زيارة، محمد بن محمد بن يحيى الحسيني الصنعاني. «أئمة اليمن» تعز ١٩٥٢.
٨١ـ الزركلي، خيرالدين «الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين» الطبعة الثانية.
٨٢ـ زيادة، الدكتور محمد مصطفى «حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة» القاهرة، ١٩٦١م
٨٣ـ أبوزهرة، محمد «الإمام زيد»
٨٤ـ أبو زهرة، «المذاهب الإسلامية» مجموعة الألف كتاب رقم ١٧٧.
٨٥ـ أبو زهرة، «الميراث عند الجعفرية» القاهرة، ١٩٥٥.
٨٦ـ زيدان، جورجي «تاريخ التمدين الاسلامي» القاهرة ١٩٠٢ـ ١٩٠٦م
٨٧ـ ابن الساعي، تاج الدين أبوطالب على بن أنجب (٦٧٤هـ/١٢٧٥م) «الجامع المختصر في عنوان التواريخ، وعيون السير» تحقيق د. مصطفى جواد، بغداد ١٩٣٧م
٨٨ـ «نساء الخلفاء المسمى جهات الأئمة الخلفاء من الحرائر والإماء» تحقيق د. مصطفى جواد، دار المعارف بمصر.
٨٩ـ سالم: الدكتور حلمي محمد «اقتصاد مصر الداخلي وانظمته في العهد المماليكي» الطبعة الأولى ـ الإسكندرية ١٩٧٧م
٩٠ـ السباعي، أحمد «تاريخ مكة» دراسة في السياسة والعلم والاجتماع والعمران الطبعة الثانية، مكة ١٣٨٠هـ.
٩١ـ سبط بن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي «مرآة الزمان في تاريخ الأعيان» حيدر آباد، الدكن، الهند، ١٩٥١.
٩٢ـ السبكي، تاج الدين أبونصر عبدالوهاب بن تقي الدين. «طبقات الشافعية الكبرى» الطبعة الأولى المطبعة الحسينية المصرية، الزاهر المنيرة.
٩٣ـ سرور، د. محمد جمال الدين «النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب» القاهرة ١٩٦٤م
٩٤ـ سعداوي، د. نظير حسان «التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين» القاهرة، ١٩٥٧م

٩٥ـ السمهودي، نورالدين على بن أحمد المصري (ت ٩١١هـ) «وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى» تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، القاهرة، ١٩٥٥م

٩٦ـ السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر (ت٩١١هـ) «بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة» القاهرة.

٩٧ـ «تاريخ الخلفاء» دار الثقافة، بيروت، ونسخة أخرى، القاهرة ١٩٦٩م.

٩٨ـ «حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة» الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٦٩م.

٩٩ـ أبوشامة، شهاب الدين أبومحمد عبدالرحمن بن اسماعيل المقدسي (ت٦٨١هـ) «ذيل الروضتين في أخبار الدولتين» القاهرة، ١٩٤٧م

١٠٠ـ أبوشامة، «الروضتين في أخبار الدولتين» القاهرة، ١٢٨٧هـ

١٠١ـ ابن شاهنشاه، محمد بن تقي الدين عمر الأيوبي صاحب حماة (ت ٦١٧هـ/١٢٢٠م) «مضمار الحقائق وسر الخلائق» تحقيق د. حسن حبشي، القاهرة ١٩٦٨م

١٠٢ـ ابن الشحنة، محب الدين محمد بن كمال الدين محمد الحلبي (ت ٨١٥هـ/١٤١٢م) «روض المناظر في أخبار الأوائل والأواخر» مطبوع على هامش الجزء التاسع من كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير، القاهرة ١٢٩٠هـ

١٠٣ـ

ابن شداد، القاضي بهاء الدين «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» سيرة صلاح الدين تحقيق د. جمال الدين الشيال، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٦٤م.

١٠٤ـ شرف الدين، احمد حسين، «اليمن عبر التاريخ» القاهرة، ١٩٦٣م

١٠٥ـ شلبي، د. أبوزيد، «تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي» الطبعة الثالثة القاهرة، ١٩٦٤م

١٠٦ـ الشهابي، الأميرحيدرأحمد، «الغرر الحسان في تواريخ الزمان» القاهرة، ١٩٠٠م

١٠٧ـ الشهرستاني، أبوالفتح محمد بن عبدالكريم (ت ٥٤٨هـ) «الملل والنحل» الطبعة الأولى، القاهرة ١٣٦٨هـ/١٩٤٨م

١٠٨ـ الشيال، الدكتور جمال الدين «تاريخ مصر الإسلامية» الطبعة الأولى، الإسكندرية، ١٩٦٧م

١٠٩ـ ابن الطقطقا، محمد بن على بن طباطبا، «الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية» بيروت، ١٩٦٦م

١١٠ـ عاشور، د.سعيد عبدالفتاح «الحركة الصليبية حركة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى» الطبعة الثانية، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧١.

١١١ـ عاشور، «قبرص والحروب الصليبية».

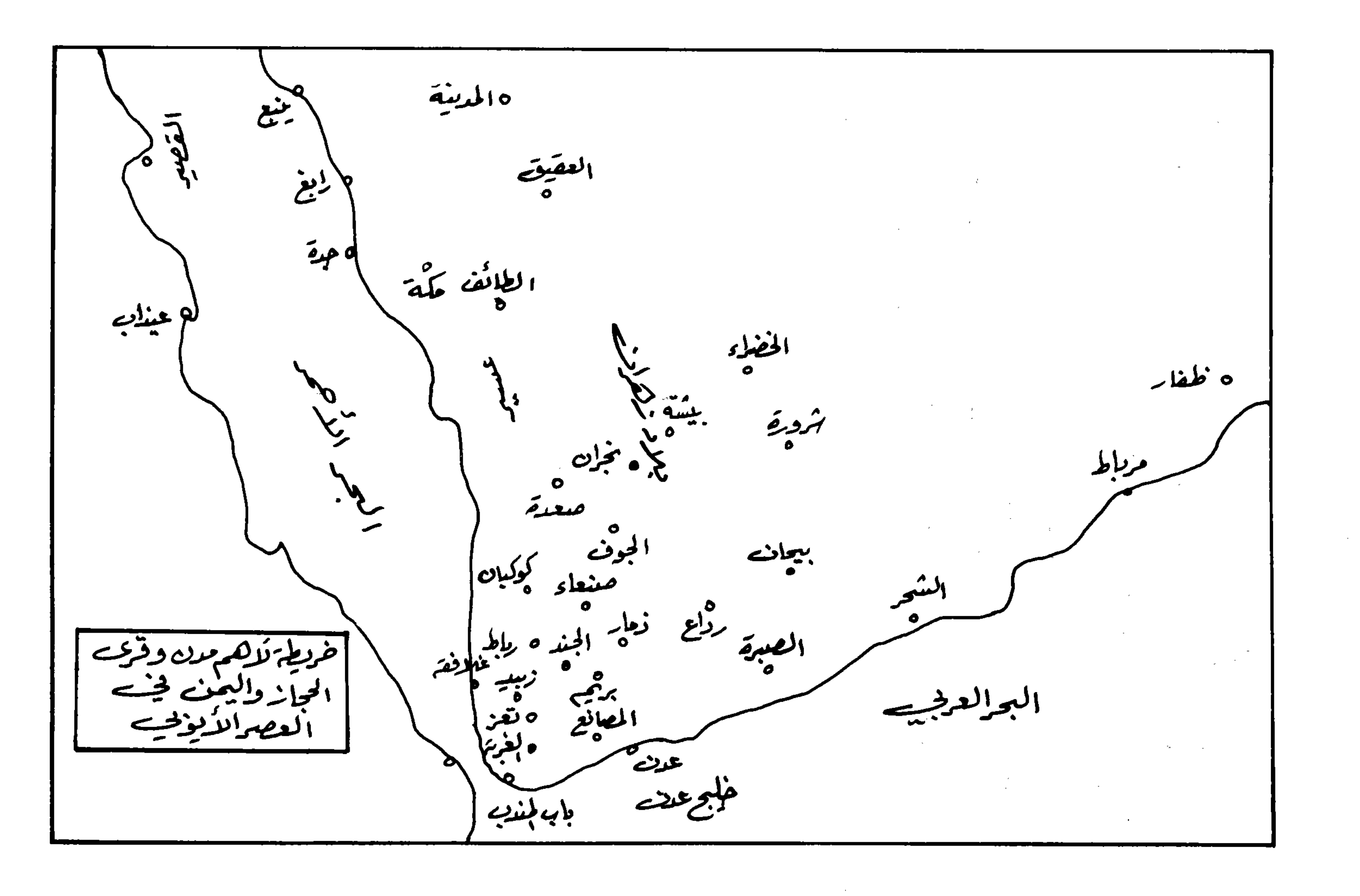
١١٢ـ العاملي، السيدة زينب بنت علي بن حسين بن عبيدالله بن يوسف فواز، «الدر المنثور في

طبقات ربات الخدور» بولاق ١٣١٢ هـ
١١٣ــ العبادي، د. أحمد مختار «قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام» بيروت ١٩٦٩م
١١٤ــ العباسي، الشيخ أحمد بن عبدالحميد، من أهالي القرن العاشر الهجري «عمدة الأخبار في مدينة المختار» الطبعة الخامسة، مكة ١٣٥٩ هـ.
١١٥ــ ابن عبدالبر، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» تحقيق البجاوى، طبع القاهرة.
١١٦ــ ابن عبدالحق، صيفي الدين عبد المؤمن البغدادي (ت ٧٣٩ هـ) «مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع» الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٥٤م
١١٧ــ ابن العديم، عمر بن احمد بن هبة الله (ت ٦٦٠ هـ/١٢٦٢م) «زبدة الطلب في تاريخ حلب» تحقيق د. سامي الدهان، دمشق ١٩٥٤م
١١٨ــ العرشي، حسين بن احمد الزيدي (ت ١٣٢٩ هـ/١٩١١م) «بلوغ المرام في شرح مسك الختام فيمن تولى ملك اليمن من ملك وامام» القاهرة، ١٩٣٩م
١١٩ــ العريني، د. سيد الباز «مصر في عصر الأيوبيين» القاهرة، ١٩٦٠م
١٢٠ــ علي، سيد أمير. «مختصر تاريخ العرب والشعوب الإسلامية».
١٢١ــ علي، د. محمد عبد العال احمد «دولة بني أيوب في اليمن» الاسكندرية ١٩٦٨.
١٢٢ــ عمارة اليمني، أبوالحسن نجم الدين الحكمي (ت٥٦٩ هـ/١١٧٤م) «النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية» باريس ١٨٩٧ــ ١٩٠٢م
١٢٣ــ العمري، شهاب الدين أبوالعباس احمد بن يحيى بن فضل الله (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م «التعريف بالمصطلح الشريف» القاهرة، ١٣١٢ هـ.
١٢٤ــ العيني، بدرالدين محمود بن أحمد بن محمود (ت ٨٥٥ هـ) «السيف المهند في سيرة الملك المؤيد» شيخ المحمودي القاهرة، ٦٦ــ ١٩٦٧م
١٢٥ــ غيث، المهندس فتحي. «الإسلام والحبشة عبر التاريخ» مكتبة النهضة، القاهرة.
١٢٦ــ الفاسي، أبوالطيب تقي الدين محمد بن أحمد الحسني المكي (٨٣٢هـ) «شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام» الطبعة الأولى، مكة ١٩٦٥م
١٢٧ــ «العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين» تحقيق فؤاد سيد، الطبعة الأولى القاهرة ١٣٧٩ هـ
١٢٨ــ أبو الفدا، الملك الأفضل نورالدين على بن عمر بن شاهنشاه عمادالدين اسماعيل. «تقويم البلدان» باريس ١٨٤٠م.
١٢٩ــ أبوالفدا، «المختصر في أخبار البشر» الطبعة الأولى القسطنطينية ١٢٨٦ هـ
١٣٠ــ ابن الفوطي، كمال الدين أبو الفضل عبدالرزاق البغدادي (٧٢٣هـ/١٣٣١م) «الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة» نشره د. مصطفى جواد ١٣٥١ هـ
١٣١ــ القلقشندي، أبوالعباس احمد ت ٨٢١هـ/١٤١٨م «صبح الأعشى في صناعة الإنشا» القاهرة.

١٣٢ــ القلقشندي، نهاية الارب في معرفة أنساب العرب» تحقيق ابراهيم الابياري، القاهرة ١٩٥٩م.
١٣٣ــ الكتبي، محمد بن شاكر بن احمد (ت ٦٧٤هـ/١٣٦٣م) «فوات الوفيات» بولاق ١٢٩٩هـ
١٣٤ــ ابن كثير، عمادالدين ابو الفدا اسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م) «البداية والنهاية في التاريخ» القاهرة، ١٩٣٢م
١٣٥ــ لوبون، د. جوستاف «حضارة العرب» نقله إلى العربية زعيتر، الطبعة الرابعة القاهرة، ١٩٦٤م
١٣٦ــ ماضي، د محمد عبد الله «دولة اليمن الزيدية» بحث بالمجلة التاريخية المصرية، المجلد الثالث العدد الأول مايو ١٩٥٠م
١٣٧ــ متز، آدم. الحضارة الإسلامية.
١٣٨ــ ابن المجاور، جمال الدين أبوالفتح يوسف بن يعقوب الدمشقي (ت ٦٩٠هـ) صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز، و يسمى تاريخ المستبصر «نشر أوسكار لوفجرين، ليدن ٥١ــ ١٩٥٤م
١٣٩ــ أبوالمحاسن، جمال الدين يوسف بن تغري بردي (ت ٧٨٤هـ)
١٤٠ــ منتخبات من حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، كاليفورنيا ١٩٣٠ــ ١٩٣٦، أبوالمحاسن، «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة»، ١٩٢٩ــ ١٩٤٩.
١٤١ــ المحامي، محمود كامل «اليمن شماله وجنوبه»

١٤٢ــ محمود، د.حسن سليمان «تاريخ اليمن السياسي» القاهرة.
١٤٣ــ محمود د.حسن سليمان «الملكة أروى سيدة ملوك اليمن» القاهرة.
١٤٤ــ بامخرمة، أبومحمد عبدالله الطيب بن عبدالله بن احمد (ت ٩٤٧هـ/١٥٤٠م) «تاريخ ثغر عدن» الطبعة الأولى، مطبعة بريل، ليدن ١٩٣٦م
١٤٥ــ مدكور، محمد سلام «القضاء في الإسلام» دار النهضة العربية ١٩٦٤م
١٤٦ــ مشرفة، محمد عطية «القضاء في الإسلام» الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٣٩م
١٤٧ــ المقدسي، شمس الدين أبوعبدالله محمد بن أحمد (٣٨٨هـ/٩٩٧م) «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» ليدن ١٩٠٦م
١٤٨ــ المقريزي، تقي الدين أبوالعباس احمد بن علي (٨٤٥هـ) «اغاثة الأمة بكشف الغمة» الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٥٧.
١٤٩ــ المقريزي، «الخطط المعروفة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» مؤسسة الحلبي، القاهرة.
١٥٠ــ المقريزي، «الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك» تحقيق د. جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٥م
١٥١ــ المقريزي، «السلوك لمعرفة دول الملوك» القاهرة، ٥٦ــ١٩٥٧م
١٥٢ــ ابن منظور، أبوالفضل جمال الدين محمد بن كرم (ت ٧١١هـ) لسان العرب بيروت ١٩٦٨.
١٥٣ــ ابن موسى، علي، «رسائل في تاريخ المدينة» الطبعة الأولى، الرياض ١٣٧٢هـ
١٥٤ــ النهروالي، قطب الدين المكي الحنفي «أخبار مكة المشرفة» الطبعة الأولى، بيروت ١٩٦٤م
١٥٥ــ هاو، سونيا.ى. في طلب التوابل «سلسلة الألف كتاب ٩٨» ترجمة محمد عزت رفعت القاهرة، ١٩٥٧م
١٥٦ــ الهمداني، أبومحمد الحسن بن احمد بن يعقوب بن يوسف بن داود (ت ٣٣٤هـ). «صفة جزيرة العرب» مطبعة السعادة بمصر ١٥٣م
١٥٧ــ الهمداني، د.حسين، ود.حسن سليمان محمود «الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن» القاهرة، ١٩٥٥م
١٥٨ــ الواسعي، عبدالواسع بن يحيى اليماني «تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في تاريخ اليمن» القاهرة ١٣٤٦هـ
١٥٩ــ ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت٦٩٧هـ/١٢٩٧م) «مفرج الكروب في أخبار بني أيوب» الطبعة الأولى، الاسكندرية ١٩٦٠م
١٦٠ــ ابن الوردي، زين الدين عمر (ت ١٣٤٩/٧٤٩) «تتمة المختصر في أخبار البشر» الطبعة

الأ ولى، بيروت ١٩٧٠.
١٦١ـــ اليافعي، ابو محمد عبدالله بن اسعد بن علي اليمني المكي (ت ٧٦٨هـ) «مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان» الطبعة الثانية، بيروت ١٩٧٠م
١٦٢ـــ ياقوت الحموى، شهاب الدين أبو عبدالله الرومي البغدادي (ت ٦٢٦/١٢٢٩م) «معجم البلدان» بيروت ٥٥ــ ١٩٥٧م
١٦٣ـــ اليسوعي، الأب لويس معلوف، «المنجد» بيروت ١٩٦٥.
١٦٤ـــ اليماني، تاج الدين عبدالباقي بن عبدالمجيد (ت ٧٤٣هـ/١٣٤٢م) «تاريخ اليمن المسمى بهجة الزمن في تاريخ اليمن» القاهرة ١٩٦٥.
١٦٥ـــ ابو اليمن، قاضي القضاه مجيرالدين الحنبلي (ت ٩٢٨هـ) «الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل» القاهرة، ١٢٨٣هـ



خريطة لأهم مدن وقرى
الحجاز واليمن في
العصر الأيوبي
المدينة
ينبع
القصير
العقيق
رابغ
جدة
الطائف
مكة
عيذاب
البحر الأحمر
بلاد زهران
الخضراء
بيشة
شروة
ظفار
نجران
مرباط
صعدة
الجوف
بيحان
كوكبان
صنعاء
الشحر
ذمار
رداع
رباط
الجند
غلافقة
زبيد
تعز
المصانع
عدن
خليج عدن
باب المندب
البحر العربي

ثالثاً : المراجع الأجنبية :

1) Arnold: Sir Thomas W. The Caliphate (Oxford, 1924).

2) Cambridge Mediaeval History (Cambridge, 1957).

3) Dozy (R.P.A.). Supplement aux dictionnaires Arabes.

4) Encyclopaedia of Islam (Leyden, 1927).

5) Grousset (R). Histoire, des Croisades et du Royaume France de - Jerusalem (Paris, 1934).

6) Hill (J. C.). Arab Agriculture in the Middle Age (London, 1975).

7) Hogarth (G). A History of Arabia (Oxford, 1929).

8) Kammerer (Albert). La Mer Rouge (Le Cairo, 1929).

9) Kay (H. C.). Yamman, It's Early Mediaeval History (London, 1892).

10) King (E. J.). The Knights Hospitalleres in the Holy Land. (London, 1931).

11) Lane Poole (S). Muhammadan Dynasties (Paris, 1925).

12) Lane Poole (S). Saladin and The Fall of the Kingdom of Jerusalem. (London, 1898).

13) Mayer (L. A.). "Saracenic Heraldry". London: At the Clarendon Press, MCM XXXIII.

14) Runciman (S). A History of the Crusades. (Cambridge, 1957).

15) Setton (Kenneth M.). A Hsitory of the Crusades. (Pennsylvania, 1958).

16) Wiet (Gaston). Historie de la Nation Egyptienne (L'Egypte Arabe). (Paris, 1926).

فهرست

إصدارات: تهامة للنشر والمكتبات

سلسلة: الكتاب العربي السعودي

صَدرمنها:

● الجبل الذي صار سهلا	(نفد)	الأستاذ أحمد قنديل
● من ذكريات مسافر		الأستاذ محمد عمر توفيق
● عهد الصبا في البادية	(قصة مترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
● التنمية قضية	(نفد)	الدكتور محمود محمد سفر
● قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا	(نفد)	الدكتور سليمان بن محمد الغنام
● الظمأ	(مجموعة قصصية)	الأستاذ عبدالله عبدالرحمن الجفري
● الدوامة	(قصة طويلة)	الدكتور عصام خوقير
● غداً أنسى	(قصة طويلة) (نفد)	الدكتورة أمل محمد شطا
● موضوعات اقتصادية معاصرة		الدكتور علي بن طلال الجهني
● أزمة الطاقة إلى أين؟		الدكتور عبدالعزيز حسين الصويغ
● نحو تربية إسلامية		الأستاذ أحمد محمد جمال
● إلى ابنتي شيرين		الأستاذ حمزة شحاتة
● رفات عقل		الأستاذ حمزة شحاتة
● شرح قصيدة البردة		الدكتور محمود حسن زيني
● عواطف إنسانية	(ديوان شعر) (نفد)	الدكتورة مريم البغدادي
● تاريخ عمارة المسجد الحرام	(الطبعة الرابعة)	الشيخ حسين عبدالله باسلامة
● وقفة		الدكتور عبدالله حسين باسلامة
● خالتي كدرجان	(مجموعة قصصية) (نفد)	الأستاذ أحمد السباعي
● أفكار بلا زمن		الأستاذ عبدالله الحصين
● كتاب في علم إدارة الأفراد	(الطبعة الثانية)	الأستاذ عبدالوهاب عبدالواسع
● الإبحار في ليل الشجن	(ديوان شعر)	الأستاذ محمد الفهد العيسى
● طه حسين والشيخان		الأستاذ محمد عمر توفيق
● التنمية وجها لوجه		الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
● الحضارة تحد	(نفد)	الدكتور محمود محمد سفر
● عبير الذكريات	(ديوان شعر)	الأستاذ طاهر زمخشري
● لحظة ضعف	(قصة طويلة)	الأستاذ فؤاد صادق مفتي
● الرجولة عماد الخلق الفاضل		الأستاذ حمزة شحاتة
● ثمرات قلم		الأستاذ محمد حسين زيدان
● بائع التبغ	(مجموعة قصصية مترجمة)	الأستاذ حمزة بوقري
● أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة	(تراجم)	الأستاذ محمد علي مغربي
● النجم الفريد	(مجموعة قصصية مترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
● مكانك تحمدي		الأستاذ أحمد محمد جمال
● قال وقلت		الأستاذ أحمد السباعي
● نبض		الأستاذ عبدالله عبدالرحمن جفري
● نبت الأرض		الدكتورة فاتنة أمين شاكر

السعد وعد	(مسرحية)	الدكتور عصام خوقير
قصص من سومرست موم	(مجموعة قصصية مترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
عن هذا وذاك	(الطبعة الثالثة)	الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
الأصداف	(ديوان شعر)	الأستاذ أحمد قنديل
الأمثال الشعبية في مدن الحجاز	(الطبعة الثانية)	الأستاذ أحمد السباعي
أفكار تربوية		الدكتور ابراهيم عباس نتو
فلسفة المجانين		الأستاذ سعد البواردي
خدعتني بحبها	(مجموعة قصصية)	الأستاذ عبدالله بوقس
نقر العصافير	(ديوان شعر)	الأستاذ أحمد قنديل
التاريخ العربي وبدايته	(الطبعة الثالثة)	الأستاذ أمين مدني
المجاز بين اليمامة والحجاز	(الطبعة الثانية)	الأستاذ عبدالله بن خميس
تاريخ الكعبة المعظمة	(الطبعة الثانية)	الشيخ حسين عبدالله باسلامة
خواطر جريئة		الأستاذ حسن بن عبدالله آل الشيخ
السنيورة	(قصة طويلة)	الدكتور عصام خوقير
رسائل إلى ابن بطوطة	(ديوان شعر)	الأستاذ عبدالله عبدالوهاب العباسي
جسور إلى القمة	(تراجم)	الأستاذ عزيز ضياء
تأملات في دروب الحق والباطل		الشيخ عبدالله عبدالغني خياط
الحمى	(ديوان شعر) (الطبعة الثانية)	الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
قضايا ومشكلات لغوية		الأستاذ أحمد عبدالغفور عطار
ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة		الأستاذ محمد علي مغربي
زيد الخير		الأستاذ عبدالعزيز الرفاعي
الشوق إليك	(مسرحية شعرية)	الأستاذ حسين عبدالله سراج
كلمة ونصف		الأستاذ محمد حسين زيدان
شيء من الحصاد		الأستاذ حامد حسن مطاوع
أصداء قلم		الأستاذ محمود عارف
قضايا سياسية معاصرة		الدكتور فؤاد عبدالسلام الفارسي
نشأة وتطور الإذاعة في المجتمع السعودي		الأستاذ بدر أحمد كريم
الإعلام موقف		الدكتور محمود محمد سفر
الجنس الناعم في ظل الإسلام		الشيخ سعيد عبدالعزيز الجندول
ألحان مغترب	(ديوان شعر) (الطبعة الثانية)	الأستاذ طاهر زمخشري
غرام ولاّدة	(مسرحية شعرية) (الطبعة الثانية)	الأستاذ حسين عبدالله سراج
سير وتراجم	(الطبعة الثالثة)	الأستاذ عمر عبدالجبار
الموزون والمخزون		الشيخ أبوتراب الظاهري
لجام الأقلام		الشيخ أبوتراب الظاهري
نقاد من الغرب		الأستاذ عبدالله عبدالوهاب العباسي
حوار.. في الحزن الدافيء		الأستاذ عبدالله عبدالرحمن جفري
صحة الأسرة		الدكتور زهير أحمد السباعي
سباعيات	(الجزء الثاني)	الأستاذ أحمد السباعي
خلافة أبي بكر الصديق		الشيخ حسين عبدالله باسلامة
البترول والمستقبل العربي	(الطبعة الثانية)	الأستاذ عبدالعزيز مؤمنة
إليها ..	(ديوان شعر)	الأستاذ حسين عبدالله سراج
من حديث الكتب	(ثلاثة أجزاء) (الطبعة الثانية)	الأستاذ محمد سعيد العامودي

• أيامي	الأستاذ أحمد السباعي
• التعليم في المملكة العربية السعودية (الطبعة الثانية)	الأستاذ عبدالوهاب عبدالواسع
• أحاديث وقضايا إنسانية	الدكتور عبدالرحمن بن حسن النفيسة
• البعث (مجموعة قصصية)	الأستاذ محمد علي مغربي
• شمعة ظمأى (ديوان شعر)	الدكتور أسامة عبدالرحمن
• الإسلام في نظر أعلام الغرب (الطبعة الثانية)	الشيخ حسين عبدالله باسلامة
• حتى لا نفقد الذاكرة	الأستاذ سعد البواردي
• مدارسنا والتربية (الطبعة الثالثة)	الأستاذ عبدالواهاب عبدالواسع
• وحي الصحراء (الطبعة الثانية)	الأستاذ عبدالله بلخير الأستاذ محمد سعيد عبدالمقصود خوجه
• طيور الأبابيل (ديوان شعر) (الطبعة الثانية)	الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
• قصص من تاغور (ترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
• التنظيم القضائي في المملكة العربية السعودية (الطبعة الثانية)	الأستاذ حسن بن عبدالله آل الشيخ
• زوجتي وأنا (قصة طويلة)	الدكتور عصام خوقير
• معجم اللهجة المحلية في منطقة جازان	الأستاذ محمد بن أحمد العقيلي
• لن تلحد	الشيخ أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري
• عمر بن أبي ربيعة (الطبعة الثانية)	الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
• رجالات الحجاز (تراجم)	الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
• حكاية جيلين	الدكتور عبدالله حسين باسلامة
• من أوراقي	الأستاذ محمد سعيد العامودي
• الإسلام في معترك الفكر	الشيخ سعيد عبدالعزيز الجندول
• إليكم شباب الأمة	الشيخ سعيد عبدالعزيز الجندول
• هكذا علمني وردزورث	الشيخ أبوعبدالرحمن بن عقيل الظاهري
• في رأيي المتواضع (الطبعة الثانية)	الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
• العالم إلى أين والعرب إلى أين ؟	الدكتور بهاء بن حسين عزّي
• البرق والبريد والهاتف وصلتها بالحب والأشواق والعواطف	الأستاذ عبدالرحمن المعمر
• محمد سعيد عبدالمقصود خوجة (حياته وآثاره)	الدكتور محمد بن سعد بن حسين
• جزء من حلم	الأستاذ عبدالله عبدالرحمن الجفري
• ماما زبيدة (مجموعة قصصية)	الأستاذ عزيز ضياء
• إنتاجية مجتمع	الدكتور محمود محمد سفر
• خواطر مجنّحة	الأستاذ محمد حسين زيدان
• دروب الضياع (ديوان شعر)	الأستاذ محمد الفهد العيسى
• مغازلات ومعاكسات	الأستاذ حمد الزيد
• وجيز النقد عند العرب	الأستاذ عبدالله عبدالوهاب العباسي

تحت الطبع :

• من ذكريات مسافر (الجزء الثاني)	الأستاذ محمد عمر توفيق
• البعد الآخر	الدكتور هاشم عبده هاشم
• الزغنميشي والأدب	الأستاذ عبدالله عبدالجبار
• الطاقة نظرة شاملة	الدكتور عبدالهادي طاهر
• لا رقّ في القرآن	الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي

- ديوان حسين عرب — الأستاذ حسين عرب
- جد وهزل — الأستاذ سعد البواردي
- زغرودة بعد منتصف الليل — الدكتور عصام خوقير
- أيام في الشرق الأقصى — الأستاذ علي حسن فدعق
- العقاد — الأستاذ أحمد عبدالغفور عطار
- الغربال .. نتاجه الفكري والأدبي (جمعه ونسّقه) — الدكتور عباس صالح طاشكندي
- سفينة الصحراء — الأستاذ عبدالعزيز المسند
- ذات ليلة — الأستاذ حسين عبدالله سراج
- فيلسوف — الأستاذ محمد حسن فقي
- التنمية قضية (الطبعة الثانية) — الدكتور محمود محمد سفر
- قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا التوسعية (الطبعة الثانية) — الدكتور سليمان بن محمد الغنام
- غداً أنسى (قصة طويلة) (الطبعة الثانية) — الدكتور أمل محمد شطا
- تاريخ عمارة المسجد الحرام (الطبعة الثانية) — الشيخ حسين عبدالله باسلامة
- الحضارة تحد (الطبعة الثانية) — الدكتور محمود محمد سفر
- الجبل الذي صار سهلا (الطبعة الثانية) — الأستاذ أحمد قنديل
- خالتي كدرجان (مجموعة قصصية) (الطبعة الثانية) — الأستاذ أحمد السباعي

سلسلة :

الكتاب العربي اليمني

- أطياف (ديوان شعر) — الأستاذ أحمد محمد الشامي

تحت الطبع :

- تاريخ الأدب اليمني في العصر العباسي — الأستاذ أحمد محمد الشامي
- بغية المريد وأنس الفريد — الأستاذ عامر بن محمد بن عبدالله (تحقيق) الأستاذ محمد محمد الشعيبي (مراجعة وتعليق) الأستاذ أحمد محمد الشامي

كتاب للمرأة

صدر منها :

- سيدتي الحامل (الطبعة الثالثة) — الدكتور عبدالله حسين باسلامة
- المطبخ السعودي — اعداد الأستاذة ثريا عبدالرحمن خياط
- أطفال لا يعرفون البكاء — الدكتور فايز عبداللطيف أورفلي

سلسلة : **الكتاب الجامعي**

صَدرمنها :

• الإدارة : دراسة تحليلية للوظائف والقرارات الإدارية	(الطبعة الثانية)	الدكتور مدني عبدالقادر علاقي
• الجراحة المتقدمة في سرطان الرأس والعنق	(باللغة الإنجليزية)	الدكتور فؤاد زهران الدكتور عدنان جمجوم الدكتور محمد غيد
• النمو من الطفولة إلى المراهقة	(الطبعة الثالثة)	الدكتور محمد جميل منصور الدكتور فاروق سيد عبدالسلام
• الحضارة الإسلامية في صقلية وجنوب إيطاليا		الدكتور عبدالمنعم رسلان
• النفط العربي وصناعة تكريره		الدكتور أحمد رمضان شقلية
• الملامح الجغرافية لدروب الحجيج		الأستاذ سيد عبدالمجيد بكر
• علاقة الآباء بالأبناء (دراسة فقهية)	(الطبعة الثانية)	الدكتورة سعاد ابراهيم صالح
• مبادىء القانون لرجال الأعمال	(الطبعة الثانية)	الدكتور محمد ابراهيم أبوالعينين
• الاتجاهات العددية والنوعية للدوريات السعودية		الأستاذ هاشم عبده هاشم
• قراءات في مشكلات الطفولة	(الطبعة الثانية)	الدكتور محمد جميل منصور
• شعراء التروبادور (ترجمة)		الدكتورة مريم البغدادي
• الفكر التربوي في رعاية الموهوبين		الدكتور لطفي بركات أحمد
• النظرية النسبية		الدكتور عبدالرحمن فكري الدكتور محمد عبدالهادي كامل
• أمراض الأذن والأنف والحنجرة	(باللغة الإنجليزية)	الدكتور أمين عبدالله سراج الدكتور سراج مصطفى زقزوق
• المدخل في دراسة الأدب		الدكتورة مريم البغدادي
• الرعاية التربوية للمكفوفين		الدكتور لطفي بركات أحمد
• أضواء على نظام الأسرة في الإسلام	(الطبعة الثانية)	الدكتورة سعاد ابراهيم صالح
• الوحدات النقدية المملوكية		الدكتور سامح عبدالرحمن فهمي
• الأدب المقارن	(دراسة في العلاقة بين الأدب العربي والآداب الأوروبية)	الدكتور عبدالوهاب علي الحكمي
• هندسة النظام الكوني في القرآن الكريم	(الطبعة الثانية)	الدكتور عبدالعليم عبدالرحمن خضر
• التجربة الأكاديمية لجامعة البترول والمعادن		الدكتور خضير سعود الخضير
• مبادىء الطرق الإحصائية		الدكتور جلال الصياد الدكتور عبدالحميد محمد ربيع
• مبادىء الإحصاء		الدكتور جلال الصياد الأستاذ عادل سمرة
• المنظمات الاقتصادية الدولية		الدكتور حسين عمر
• التعلّم الصفّي		الدكتور محمد زياد حمدان
• أحكام تصرفات السفيه في الشريعة الإسلامية		الدكتورة سعاد ابراهيم صالح
• دراسات في الإعراب		الدكتور عبدالهادي الفضلي

- الاقتصاد الصناعي — الدكتور سليم كامل درويش
- أحكام تصرفات الصغير في الشريعة الإسلامية — الدكتورة سعاد ابراهيم صالح
- الحجاز واليمن في العصر الأيوبي — الدكتور جميل حرب محمود حسين

سلسلة :

رسائل جامعية

صدر منها :

- صناعة النقل البحري والتنمية في المملكة العربية السعودية (باللغة الإنجليزية) — الدكتور بهاء حسين عزّي
- الخراسانيون ودورهم السياسي في العصر العباسي الأول — الأستاذة ثريا حافظ عرفة
- الملك عبدالعزيز ومؤتمر الكويت — الأستاذة موضي بنت منصور بن عبدالعزيز آل سعود
- العثمانيون والإمام القاسم بن علي في اليمن (الطبعة الثانية) — الأستاذة أميرة علي المداح
- القصة في أدب الجاحظ — الأستاذ عبدالله باقازي
- تاريخ عمارة الحرم المكي الشريف — الأستاذة فوزية حسين مطر
- النظرية التربوية الإسلامية — الأستاذة آمال حمزة المرزوقي
- نظام الحسبة في العراق.. حتى عصر المأمون — الأستاذ رشاد عباس معتوق
- المقصد العلي في زوائد أبي يعلي الموصلي (تحقيق ودراسة) — الدكتور نايف بن هاشم الدعيس
- الجانب التطبيقي في التربية الإسلامية — الأستاذة ليلى عبدالرشيد عطار
- الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية — الأستاذ نبيل عبدالحي رضوان
- دراسة ناقدة لأساليب التربية المعاصرة في ضوء الإسلام — الأستاذة فتحية عمر حلواني
- الحياة الاجتماعية والاقتصادية في المدينة المنورة في صدر الإسلام — الأستاذة نورة بنت عبدالملك آل الشيخ
- دراسة اثنوغرافية لمنطقة الاحساء (باللغة الانجليزية) — الدكتور فايز عبدالحميد طيب
- عادات وتقاليد الزواج بالمنطقة الغربية من المملكة العربية السعودية (دراسة ميدانية انثروبولوجية حديثة) — الأستاذ أحمد عبدالاله عبدالجبار
- افتراءات فيليب حتي وكارل بروكلمان على التاريخ الإسلامي — الأستاذ عبدالكريم علي باز
- دور المياه الجوفية في مشروعات الري والصرف بمنطقة الإحساء بالمملكة العربية السعودية (باللغة الإنجليزية) — الدكتور فايز عبدالحميد طيب
- تقويم النمو الجسماني والنشوء — الدكتورة ظلال محمود رضا
- العقوبات التفويضية وأهدافها في ضوء الكتاب والسنة — الدكتور مطيع الله دخيل الله اللهيبي
- العقوبات المقدرة وحكمة تشريعها في ضوء الكتاب والسنة — الدكتور مطيع الله دخيل الله اللهيبي
- الطلب على الإسكان من حيث الاستهلاك والاستثمار (باللغة الانجليزية) — الدكتور فاروق صالح الخطيب
- تطور الكتابات والنقوش في الحجاز منذ فجر الإسلام وحتى منتصف القرن الثالث عشر — الأستاذ محمد فهد عبدالله الفعر

تحت الطبع :

- تعليم اللغة الإنجليزية (باللغة الإنجليزية) — الأستاذ مأمون يوسف بنجر
- التحريف والتناقض في الأناجيل الأربعة — الأستاذة سارة حامد محمد العبادي



صدر منها :

- حارس الفندق القديم (مجموعة قصصية) — الأستاذ صالح ابراهيم
- دراسة نقدية لفكر زكي مبارك (باللغة الانجليزية) — الدكتور محمود الشهابي
- التخلف الإملائي — الأستاذة نوال عبدالمنعم قاضي
- ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودية — إعداد إدارة النشر بتهامة
- ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودي (باللغة الانجليزية) — إعداد إدارة النشر بتهامة
- تسالي (من الشعر الشعبي) (الطبعة الثانية) — الدكتور حسن يوسف نصيف
- كتاب مجلة الأحكام الشرعية على مذهب الإمام أحمد بن حنبل الشيباني — الشيخ أحمد بن عبدالله القاري (دراسة وتحقيق) — الدكتور عبدالوهاب إبراهيم أبوسليمان، الدكتور محمد إبراهيم أحمد علي
- النفس الإنسانية في القرآن الكريم — الأستاذ إبراهيم سرسيق
- واقع التعليم في المملكة العربية السعودية (باللغة الإنجليزية) (الطبعة الثانية) — الدكتور عبدالله محمد الزيد
- صحة العائلة في بلد عربي متطور (باللغة الإنجليزية) — الدكتور زهير أحمد السباعي
- مساء يوم في آذار (مجموعة قصصية) — الأستاذ محمد منصور الشقحاء
- النبش في جرح قديم (مجموعة قصصية) — الأستاذ السيد عبدالرؤوف
- الرياضة عند العرب في الجاهلية وصدر الإسلام — الدكتور محمد أمين ساعاتي
- الاستراتيجية النفطية ودول الأوبك — الأستاذ أحمد محمد طاشكندي
- الدليل الأبجدي في شرح نظام العمل السعودي — الدكتور عاطف فخري
- رعب على ضفاف بحيرة جنيف — الأستاذ شكيب الأموي
- العقل لا يكفي (مجموعة قصصية) — الأستاذ محمد علي الشيخ
- أيام مبعثرة (مجموعة قصصية) — الأستاذ فؤاد عنقاوي
- مواسم الشمس المقبلة (مجموعة قصصية) — الأستاذ محمد علي قدس
- ماذا تعرف عن الأمراض ؟ — الدكتور اسماعيل الهلباوي
- جهاز الكلية الصناعية — الدكتور عبدالوهاب عبدالرحمن مظهر
- القرآن وبناء الإنسان — الأستاذ صلاح البكري
- اعترافات أدبائنا في سيرهم الذاتية — الأستاذ علي عبده بركات

الطب النفسي معناه وأبعاده	الدكتور محمد محمد خليل
الزمن الذي مضى (مجموعة قصصية)	الأستاذ صالح ابراهيم
مجموعة الخضراء (دواوين شعر)	الأستاذ طاهر زمخشري
خطوط وكلمات (رسوم كاريكاتورية) (الطبعة الثانية)	الأستاذ علي الخزرجي
ديوان السلطانين	الأستاذ محمد بن أحمد العقيلي
الامكانات النووية للعرب وإسرائيل	الدكتور صدقة يحيى مستعجل
رحلة الربيع	الأستاذ فؤاد شاكر
وللخوف عيون (مجموعة قصصية)	أحمد شريف الرفاعي
البحث عن بداية (مجموعة قصصية)	الأستاذ جواد صيداوي
الوحدة الموضوعية في سورة يوسف	الدكتور حسن محمد باجودة
المجنونة اسمها زهرة عباد الشمس (ديوان شعر) (الطبعة الثانية)	الأستاذة منى غزال
من فكرة لفكرة (الجزء الأول)	الأستاذ مصطفى أمين
رحلات وذكريات	الأستاذ عبدالله حمد الحقيل
ذكريات لا تنسى	الأستاذ محمد المجذوب
تاريخ طب الأطفال عند العرب	الدكتور محمود الحاج قاسم
مشكلات بنات	الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
دراسة في نظام التخطيط في المملكة العربية السعودية	الأستاذ يوسف ابراهيم سلوم
نفحات من طيبة (ديوان شعر)	الأستاذ علي حافظ
الأسر القرشية.. أعيان مكة المحمية	الأستاذ أبو هشام عبدالله عباس بن صديق
الماء ومسيرة التنمية (في المملكة العربية السعودية	الأستاذ مصطفى نوري عثمان
الدليل لكتابة البحوث الجامعية (الطبعة الثالثة)	الدكتور عبدالوهاب ابراهيم أبوسليمان
القطار والحبل (مجموعة قصصية) (الطبعة الثانية)	الأستاذ السيد عبدالرؤوف
المذاهب الأدبية في الشعر الحديث لجنوب المملكة العربية السعودية	الدكتور علي علي مصطفى صبح
مسائل شخصية	الأستاذ مصطفى أمين
مجموعة النيل (دواوين شعر)	الأستاذ طاهر زمخشري
عام ١٩٨٤ لجورج أورويل (قصة مترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
الزكاة في الميزان (الطبعة الثانية)	الدكتور محمد السعيد وهبة الأستاذ عبدالعزيز محمد رشيد جمجوم
من فكرة لفكرة (الجزء الثاني)	الأستاذ مصطفى أمين
البسمات	الدكتور حسن نصيف
مشكلات لغوية	الدكتور شوقي النجار
مجموعة فاروق جويدة (دواوين شعر)	الأستاذ فاروق جويدة
صور وأفكار	الأستاذ عثمان حافظ
ديوان حمام (ديوان شعر)	الأستاذ محمد مصطفى حمام
اتجاهات نفسية وتربوية	الأستاذ فخري حسين عزّي الدكتور لطفي بركات أحمد
التليفزيون التجاري في الولايات المتحدة	الأستاذ غازي زين عوض الله
العلاقات الدولية (الطبعة الثانية) (ترجمة)	الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي

- الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث — الأستاذ مصطفى عبد اللطيف السحرتي
- في بيتك طبيب — الدكتور محمد عبد الله القصيمي
- السبئيون وسد مأرب — الأستاذ محمود جلال
- مرشد الأسماء العربية — إعداد وزارة الصحة
- سعودية الغد الممكن — الأستاذ شاكر النابلسي
- سرايا الإسلام — الشيخ أبوتراب الظاهري
- الطريق إلى القمر — المهندس سعد أحمد شعبان

تحت الطبع :

- صورة العربي في الصحف الأمريكية — الأستاذ غازي زين عوض الله
- دراسات في المدن السعودية — الدكتور السيد خالد المطري
- اليهودية الدولية — هنري فورد
- في النقد الأدبي — الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي
- الماركسية والإسلام — الدكتور مصطفى محمود
- مائة ورقة ورد (ديوان شعر) — الدكتور غازي عبد الرحمن القصيبي

كتاب للأطفال

صدر منها :

مجموعة : حكايات للأطفال

ينقلها إلى العربية الأستاذ عزيز ضياء

- سعاد لا تعرف الساعة
- الحصان الذي فقد ذيله
- تورتة الفراولة
- ضيوف نار الزينة
- الضفدع العجوز والعنكبوت
- الكؤوس الفضية الاثنتا عشر
- سرحانة وعلبة الكبريت
- الجنيات تخرج من علب الهدايا
- السيارة السحرية
- كيف يستخدم الملح في صيد الطيور

تحت الطبع

- الأرنب الطائر
- معظم النار من مستصغر الشرر
- لبنى والفراشة
- ساطور حمدان
- وأدوا الأمانات إلى أهلها
- سوسن وظلها
- الهدية التي قدمها سمير
- أبو الحسن الصغير الذي كان جائعا
- الأم ياسمينة واللص

مجموعة : لكل حيوان قصة

للأستاذ يعقوب محمد اسحاق

- القرد
- الكلب
- السلحفاة
- الأسد
- الحمار الأهلي
- الفرس
- الغزال
- الوعل
- الضب
- الغراب
- الجمل
- البغل
- الفراشة
- الدجاج
- الحمار الوحشي
- الجاموس
- الثعلب
- الأرنب
- الذئب
- الفأر
- الخروف
- البط
- الببغاء
- الحمامة
- البوم
- البجع
- الهدهد
- الكنغر
- الخفاش
- النعام
- فرس النهر
- التمساح
- الضفدع
- الدب
- الخرتيت

مجموعة : حكايات كليلة ودمنة

إعداد : الأستاذ يعقوب محمد اسحاق

- عندما أصبح القرد نجارا
- الغراب يهزم الثعبان
- أسد غررت به أرنب
- المكاء التي خدعت السمكات

تحت الطبع

- لقد صدق الجمل
- الكلمة التي قتلت صاحبتها
- سمكة ضيعها الكسل
- قاض يحرق شجرة كاذبة

مجموعة : التربية الإسلامية — للأستاذ يعقوب محمد اسحاق

- الله أكبر
- قد قامت الصلاة
- الصــوم
- الصــلاة
- الاستخارة
- صلاة الجنازة
- صلاة المسبوق
- صلاة الجمعة
- صلاة الكسوف والخسوف
- الشهادتان
- أركان الإسلام
- التيمم
- الوضــوء
- الصدقات
- المسح على الخفين
- المسح على الجبيرة والعُصابة
- سجود التلاوة
- الزكاة
- زكاة الفطر
- زكاة النقدين
- زكاة بهيمة الأنعام
- زكاة العروض

قصص متنوعة :

- الصرصور والنملة — الأستاذ عمار بلغيث
- السمكات الثلاث — الأستاذ عمار بلغيث
- النخلة الطيبة — الأستاذ اسماعيل دياب
- الكتكوت المتشرد — الأستاذ عمار بلغيث
- المظهر الخادع — الأستاذ عمار بلغيث
- بطوط وكتكت — الأستاذ اسماعيل دياب
- نتيجة الطمع — الأستاذة رباب الدباغ
- الدعوة الخفية — الأستاذة رباب الدباغ
- الحارس الذكي — الأستاذة رباب الدباغ

كتاب الناشئين

صدرمنها :

مجموعة:وطني الحبيب

- جدة القديمة — الأستاذ يعقوب محمد اسحق
- جدة الحديثة — الأستاذ يعقوب محمد اسحق

مجموعة:حكايات ألف ليلة وليلة

- السندباد والبحر — الأستاذ يعقوب محمد اسحق

- الديك المغرور والفلاح وحماره — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- الطاقية العجيبة — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- الزهرة والفراشة — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- سلمان وسليمان — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- زهور البابونج — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- سنبلة القمح وشجرة الزيتون — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- نظيمة وغنيمة — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- جزيرة السعادة — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- الحديقة المهجورة — الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
- اليد السفلى — الدكتور محمد عبده يماني

إعداد — الأستاذ يعقوب محمد اسحق

- عقبة بن نافع — الدكتور عبدالفتاح اسماعيل شلبي، الدكتور سعد اسماعيل شلبي